رجـائى عطيـة

من فيوض الإسلام

دار المعارف

obeikandi.com

تصميم الغلاف
سارة شريف

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

obeikandl.com

تقديـــم

هـذه مقالات متفرقـة، كتبت فـى أزمنة مختلفة، يجمع بينها أنها كانت من فيوض الإسـلام، فمنه وحوله، ومـن العكوف على دراسـته والتأمـل فيـه، التقيـت فيـه وعلى هامشـه بأفـكار مسـتلهمة منـه، أخذنـى بعضها إلى بحـور لم تصرفنى السـباحة فيها عن نشدان الشاطئ الذى عليه أرسو ؛ وأخلد بمرفئه إلى ما جمعته فى إبحارى.

مـن حصـاد هـذه الفيـوض، كانـت هذه المقـالات التى فكرت أن أضمهـا لأقدمها لك معا فى هذا الكتاب.

ع.ر

القرآن الحكيم
حجـة الإسـلام

يروى التاريخ، ويروى القرآن المجيد أن الناس قد سارعوا رعونة وطيشا وصدا، إلى إنكار الخوارق والمعجزات، وتلمس التعلاّت لإنكارها، وكيف أن «حجج الصدق» التى تأيد بها الأنبياء - بهذه الخوارق المادية - قد قابلها الكثيرون بالإنكار والمماراة وقت حدوثها، وازداد النكران لها والاستهزاء بها بانصرام الزمن وتباعد وخفوت الصور التى يختلف من تلقاها بالسماع - اختلافا مؤكدا - عمن استقبلها وعاينها بالمشاهدة.. بل إن المعاينة والمشاهدة لم تمنع الكفار المكذبين عن الصد والإمعان فى الإنكار والهزء والكفر، وفى افتعال الأراجيف والتعلات للإفلات من حجتها. وما إن تمضى دورة، وتبدأ أخرى.. حتى يتلاشى أثر الخارقة، ويرتد الناس إلى ما كانوا فيه، ويظهر ويعم الفساد فى البر والبحر بما ألفه واعتاده الناس من صد وعقوق وإلحاد.. فيخاطب القرآن نبيه المصطفى داعيا له أن يلفت نظر الكفار والمشركين إلى تأمل ما كان من عاقبة مشركى الأمم السابقة الذين كذبوا بالله، وعصوا رسله وأنبياءه، واستهزأوا بهم، وقاوموا وأوصدوا قلوبهم ظلما فى وجه كل دعوة ترشدهم إلى الحق والنور والهداية والسواء.. يقول القرآن لمحمد: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾(الروم ٤٢).

المعجزات أو الخوارق المادية أو الحسية، محدودة بطبيعتها بحدود المكان والزمان.. يبتعد تأثيرها بابتعاد المكان مثلما يبتعد بابتعاد الزمان.. ولا تعدم أن يأتيها الإنكار ممن عاين وشاهد.. فالمشاهدة والملاحظة محصلة تفاعل مركب بين الحدث وذاتية وإمكانيات المراقب التى تختلف من شخص لآخر، سواء فى قدرات رصده أم فى صدقه أم فى إخلاصه وتوجهه ونواياه.. وقياس الوقائع الحادثة على النواميس هو بدوره مسألة نسبية، وقد لايعتبر خارقا للعادة والناموس فى زمان - ما كان فى نظر الناس خارقا للعادة فى زمان سابق.. ومن يسبق إلى خارقه بمقياس زمانه بحكم العلم المتاح فيه، قد يكشف ما يتاح فى العلم من بعدها أنها لم تكن خارقة فى الحقيقة، يضاف الى ذلك أن الخارقة المادية

أو الحســية ليســت حجة إلا على من رآها فى مكان وزمان حدوثها، وتفقد بالضرورة قوة تأثيرها بطـول الشــقة و مــرور الزمن، وتآكل وخفوت صورتهــا وأثرها ومقدرة الناس على قبولها والاقتناع بها ناهيك بالتسليم والإذعان والإيمان!.

ديناميكية الاستمرار

أيــا كـان حجـم وثقــل وعراضة وبهر ووقع المعجــزة أو القارعـة، فإنهـا حدث محدد بالمكان والزمان، لا يحمل «ديناميكية» استمرار الأثر، لأن الاستمرار رهين بقوة دافقة دافعة تحمل فى بنيتها آلية وقوة دفع ذاتية تكفل المضى والاستمرار.

والــدوام، فــإذا فقدت القوة الدافعة، أو لم تكن من طبيعــة وآلية الحـدث، كـان مـآله الحتمـى إلى التناقص ثم الخفوت ثم التلاشــى شــيئا فشــيئا.. إن الحجر الذى يلقى فى المــاء، يحـدث دوائـر متتالية تأخذ فى الاتســاع، ولكنها مــا إن تصل إلى غايتها، وتفقد «الرمية» أثرها وقوتها الدافعـة، حتى يؤدى افتقادها إلى آلية وقوة دفع ذاتية إلـى تلاشــى هذه الدوائر مهما انتشرت ومهما بلغ حجمها من الاتسـاع حتى تستوى فى النهاية صفحة المـاء وتعـود إلى ما كانت عليه!!.

المعجزات الحسية أقرب إلى هذا التصوير، لأنها بطبيعتها خارقة مادية، محدودة بحدود المكان وبحدود الزمان، ولا تحمل فى بنيتها آلية الدفع ولا القوة الذاتية الدافقة التى يعيش بها أثرها خارج حدود المكان والزمان.. ومن ثم وكما تدل شواهد التاريخ يتناقص ويخفت ثم يتلاشى أثرها وتنطمر بمضى الزمن وزوال طبقة المشاهدين الذين عاصروا وشاهدوا، وحلول مستجدات وطوارئ جديدة تأخذ ألباب والتفات الناس إلى بعيد عما شاهده وعاينه الغابرون فى المعجزة أو القارعة التى لم يعد لها – الآن ! – ذلك البهر الذى كان!.

ثـم إن «شــرنقـة» الاعتياد التى تقرعهـا المعجزة أو الخارقة لا تقتصر على مجال دون مجال، ولا على زمن تنقطع بعده فيما يتلوه من أزمنه.. عادات الناس متغيرة لأن أسبابها متجــددة متغيرة، ومصــالح الناس تبعا لذلك متغيرة تلبس الأثواب التى توافق «الشــرنقة» التى تتحوصل فيها فى زمانها تبعا لنوعها وصورتها وشكلها ودوافعها، من أجل ذلك فإن

«القوارع» – التى تحمل «حجة الصدق» لنبى ما – محدودة الأثر بنطاق غايتها وموضوعها وهو دفع وحث الناس وتشجيعهم على التصديق فى نبوة النبى الذى يبعث إليهم.. وهذه القارعة – بحدودها – لا تحمل بذاتها بذرة مواجهة «الشرنقات» المتجددة المستحدثة الطارئة التى لا ينقطع تكونها وتشكلها فى دنيا الناس على اختلاف الأماكن وتعاقب الأزمان والعصور!!.

الغاية المثلى!

الأديان لا تنتهى غايتها بمحاربة شرنقة اعتياد الكفر، وإنما غايتها المثلى احتواء وهدم كل «عادة» ذميمة تتشرنق فيها المذمات والمصالح والمآرب العارضة وتأخذ البشرية بعيدا عن طريق الحق والجمال.. هذه الغاية المثلى لا تنهض بها قارعة حسية تبهر العقول والألباب دون أن تحمل بذاتها مدد النور والهداية فيما يصادف الإنسان كل يوم من سلبيات تتمحور وتصد كل دعوة أو محاولة للتغيير والإصلاح.

إن لكل زمن عادات وشرنقات تتحوصل فيها هذه العادات والمصالح، والتعامل مع هذه «الشرانق» المتغيرة يستلزم قدرة آلية ذاتية تحمل مقومات التعامل مع كل منها حسبما تقتضيه عناصرها.. ومن هنا كانت القيمة العظيمة لهداية العقل والضمير التى أتى بها وأنجزها الإسلام، لأنها تعطى للآدمى أكسير التعامل الدائم المتجدد مع آفة كل عادة ومآرب المصالح التى تتشكل وتتمحور وتتشرنق فى دنيا الناس!!

لم تكن السماء بعيدة عن هذا كله، ولا كانت غير ملتفتة إليه، وإنما هى مراحل كان لابد من تتابعها تتابعا تدريجيا لتأهيل البشرية لاستقبال الهداية الفارقة التى تأخذ بيدها أبدا إلى النور الدائم الذى لا يخبو ولا ينقطع .. هذا النور الذى يحمل شعلته الذاتية، وقوامه هداية العقل والضمير، وقوته الدافقة الدافعة التى تكفل للإنسانية ديمومة الإمساك بالخيط الذى يشدها دوما إلى الحق والنور.. كيف حقق الإسلام – الدين الفارق الخاتم– هذا الإنجاز؟.

المســئولية التى نيطت بالإسلام، لم تكن كشأن الديانات السابقة، لأمر بالغ الأهمية عريــض الخطــر.. كانت الأديان من قبــل ديانات لأقوام، محــدودة الدائرة التى فيهـا يجــرى الخطاب فى زمان بعينه، إلى قوم بعينهم، فى بقعة يعيشــون فيهـا، محـدودة بهـم ومحدودين فيهـا بلا وســائل اتصال أو انتشــار مما أتيح للبشــرية من بعد، فكان مفهوما ومقبولا مـع هـذه المحدوديـة أن تحتل المعجزة المادية أو الحسية مكان الصدارة لأنها بالغة الغاية فى دائرتها طالما لا يطلب إليها أن تتخطاها إلى خارج الزمان والمكان اللذيــن فيهما يعيش المخاطبون، بينما جـاء الإســلام ليخاطب الدنيا بأســرهـا، الـرب فيــه رب العالمين لا رب قوم بذاتهم، والخطاب فيه يتجاوز حدود المكان وحدود الزمان ليقدم للإنســانية الديــن التام الكامل الخاتم الذى تغيت الســماء أن يكون دينا للعالمين إلى أن يرث ســبحانه وتعالى الأرض ومـن عليهــا، هذا الدين لا يؤدى غايته المرجوّة إن لم يحمــل بــذرة وصلاحية وقدرة الامتداد فى المكان والزمــان، وغير متصور لهذه الغاية العريضــة أن يكــون خطابهـا محدودا، ولا أن تكون أدواتهــا محدودة، لأن هذه وتلك تقعدان بالديانة عن بلوغ هذه الغاية المأمولة، لذلك كان لابد للإسلام أن يكون دينا فارقا يحمل شــعلته الذاتية، وقوامهـا هداية العقــل والضمير، ليكـون له بهذه الهداية القوة الدافقة الدافعة التى تكفل للإنسانية ديمومة الإمساك بالخيط الذى يشدها دوما إلى الحق والنور والجمال.

ليس يعنى هـذا أن الإســلام أو رســول الإســلام قد افتقدا «حجة الصدق»، أو أن سيرة النبوة المحمدية قد خلت من الآيات والمعجزات، وإنما الآية البينة على كمال الإسلام غاية ومنهاجا، أنه قدم للإنســانية مفتاحا تواجه به المعضــلات وآفـات الجمود والاعتياد على مدار الزمن، فلا ينحصر فى إزالة شــرانق اعتياد الكفر، وإنما يتجاوزها إلى هداية موصولة تحاصر كل ضلالة ناشــبة أو محتملة النشــوب، وهو لذلك قــدم منهاجا متكاملا وعقيدة شاملة تصح بهمـا الحياة والأحياء فى عالم مشدود إلى نور دائم لا يخبو ولا ينقط، شعلته الذاتية هداية العقل والضمير والوجدان.

النبوة المحمدية

النبوة المحمدية، أرادها الله نبوة هداية، لا ترمى إلى إفحام العقل بالحجة المسكتة، وإنما تتغيا تفتيحه وتبصيره ودعوته واستثارته إلى التفكير والتأمل والتدبر والفهم.. لذلك كان القرآن المجيد هو آية الإسلام الكبرى، وحجته الموصولة الممدودة، وزاده المعطاء الذى لا ينفد لإنارة سبيل البشرية إلى الحق والنور والجمال.. لم يكن القرآن محض معجزة بديلة عن المعجزات والخوارق الحسية التى كانت حجج الديانات السابقة، وإنما هو نور وهداية وزاد موصول ومدد لاينتهى لجعل نبوة الإسلام نبوة هداية وإنارة تخاطب الوجدان والعقل والضمير، وتستنفر وتستحث مكنات هذه الملكات لالتقاط المدد الدائم واستيعابه واستحضاره والإمساك به كيما لا يفلت من الإنسان تعلقه المنشود بالمعنى الكلى والغاية المثلى للدين فى إصلاح وصلاح الحياة والأحياء إلى يوم الدين.

القرآن المجيد

القرآن المجيد كتاب «عقل»، يجعل من التفكير فريضة بدعوة صريحة فى الآيات وخواتمها التى تستدعى ملكة الفهم والنظر والتأمل والتفكير، على نحو : «أفلا تعقلون».. «لعلكم تتفكرون».. «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض».. «لعلهم يفقهون» .. «أفلم ينظروا».. «أو لم يتفكروا».. «لآية لقوم يتفكرون».. «أفلا ينظرون».. «أفلا تبصرون»..
«ليدبروا آياته».. «أفلا يتدبرون».. هذه وغيرها من القوارع المنبهة المتكررة لا تأتى فى القرآن المجيد عرضا، وإنما فى إطار منهاج عميق يتبناه القرآن ويدعو إليه حتى فى مسائل الإيمان والعقيدة.. ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران١٩٠، ١٩١).. هذا التأمل المتعبد الفاهم الواعى هو قوة دفع ذاتية بآلية دافقة لا تنقطع تستخلص المتأمل من وهدة شرانق الكفر أو الضلالة أو الجمود، وتكفل له ديمومة المدد والأثر الفاعل واستمرار الإمساك بأحبال الهداية والنور.. لا ينقطع هذا المدد بتجاوز كفر أو شرك ناشب فى النفوس، ولا باقتلاع عادة

ذميمة، ولا بالقضاء على آفة مستحكمة، وإنما هو طاقة ديناميكية واعية، تعطى القدرة على مواجهة واحتواء أو تجاوز أو إزاحة كل «سالبة» أو «مذمّة» أو «عادة» أو «نقيصة» تفرخها مسالك ودروب ومآرب الناس فى الحاضر أو فى الزمن القابل.. لا تنقطع مآرب وأغراض الناس عن إفراز «المذمّات» و«النقائص» والتحوصل فى شرانق الاعتياد أو الجمود، أو بمنطق «ليس فى الإمكان أبدع مما كان».. ولذلك لا تنقطع حاجة دعوات الهداية أو الإصلاح أو التغيير أو التطوير أو الترقى إلى مدد موصول يعطى «المفتاح» لتجاوز ما يطرأ أو عساه يطرأ، وهذا المفتاح لا يكون إلاّ بقدرة فاعلة ومهيأة - بالنظر والفهم - إلى سبر أغوار المستجدات، واستكشاف جذور الآفات والنقائص والسلبيات، واستشراف سبل محاصرة شرانق الاعتياد والجمود، وإزاحة أو إزالة أسبابها، وإفراز معطيات جديدة صالحة تدفع تيار الحياة والأحياء إلى الحق والجمال والكمال.. هذه الغاية المثلى، لا تتحقق بقارعة أو خارقة غابرة شدت وبهرت فى أوانها ثم انطمرت وانطمر وزال أثرها.. يلمس القرآن المجيد هذه الحقيقة لمسا عميقا حين يورد ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥٩﴾ (الإسراء ٥٩).. هذا التكذيب الضرير واجه كل الدعوات إستمساكا من المنكرين والمكذبين بضلال الآباء والأجداد الغابرين.. ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣﴾ (الصافات ٦٩ - ٧٣)..

مفتاح الإسلام إلى القدرة الموصولة على ديمومة مواجهة شرانق «العادات» و «المذمّات»، وطلب الكمال والسعى إليه، مجدول فى المنهاج العقلى الذى اعتمده القرآن المجيد وتبنته النبوة المحمدية الهادية التى لا تسعى إلى إسكات ولا إلى سيطرة ولا تجبر ولا إلى قمع للفكر والفهم، وإنما إلى التبصرة والتنوير والهداية.. الدعوة قوامها الحكمة والموعظة الحسنة والمحاورة القائمة على العقل والمنطق واستشفاف الصواب: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ ۝١٢٥﴾ (النحل ١٢٥).

هذا المنهاج العقلى كان هو أداة الإسلام النافذة فى مواجهة وإزالة «الموانع» و«المذمّات» و«النقائص» و«شرانق» العادة والجمود التى اعترضت سبيل دعوته.. واجه الإسلام العرف

المغلوط، وعبادة الأسلاف، والاقتداء الأعمى بالكهان وأصحاب السلطة الدينية، والخوف المذل من أصحاب السلطة الدنيوية.. هذه المواجهة التى تصدى لها الإسلام، لا تتحقق غايتها بخارقة مفحمة، ولا بمعجزة مسكتة، وإنما اعتمدت فى الماضى، وكفيلة بالمضى على ذلك فى المستقبل، على الفلسفة القرآنية فى إعلاء العقل والتفكير، وعلى نبوة الهداية والتبصير.. فلا حاجة إلى كهانة ولا إلى هيكل، لأن الله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وقبلته إليه سبحانه ممدودة بغير عوائق ولا حدود.. ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ (البقرة ١١٥).. حاجة المتدين إلى الفهم مكفولة بعطاء وتبصير وتنوير أهل العلم لا بنفوذ سلطان الكهانة.. ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (النحل ٤٣) .. ولم يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله جريا وراء سنن الآباء والأجداد، أو خنوعا لمن يسخره باسم الدين فى غير ما يرضى العقل والدين، أو رهبة وجبنا من بطش الطغاة والمتجبرين!.

خطاب القرآن المجيد للمعاندين المتحوصلين فى «شرانق» الاعتياد والتحجر والتسمّر والجمود، خطاب لحمته العقل وسداه الفكر.. بالعقل والتفكير – لابمحض خارقة مفحمة– تدرك النفس الإنسانية ضلالة التحجر والجمود على عمى الغابرين.. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (المائدة ١٠٤).. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (البقرة ١٧٠) .. إزالة الانقياد الأعمى إلى سلطان الكهانة، لم يرد فى القرآن الحكيم عاريا من سببه وسنده أو منزوعا عن علّته وغايته.. يقول الخبير الحكيم : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (التوبة ٣١ – ٣٢).. تقفى الآيات القرآنية بعد ذلك مباشرة بلفت صريح إلى أن النبوّة المحمدية نبوّة «هداية»،

فتقول: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (التوبة ٣٣).. هذه «الهداية» لا تجرى منزوعة أو منفصلة عن واجب المتلقين والمخاطبين فى إعمال العقل والفهم وإدراك الغاية.. تجمد المتلقين على عادات الآباء وانصرافهم عن الإمساك بخيوط الهداية عمى ضرير مغبته عليهم لا على سواهم، فيوصى القرآن رسوله المصطفى بقوله له : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (الأنعام ٩١).

أثر الثقة فى الحاضر

أدرك الإسلام أن مقاومة «شرانق» الاعتياد، لا تتأتى فقط ببيان ما فيها من عمى وعوار، ولا بدحضها بالحجة، والتفت بوعى رشيد إلى أن الناس لا يقبضون على ماضيهم بعناد وتعصب وإصرار إلاّ حين لا ينجح الحاضر فى اكتساب ثقتهم، وحين ينفرهم هذا الحاضر ويزعجهم، وحين تضيق زوايا ومساحات رؤيتهم فلا يدركون جوهر ومعالم وإيجابيات «البديل» الوافد أو المطروح.. أمسك الإسلام بالخيط الصحيح بالتفاته ولفته إلى أن الدين وسيلة للإصلاح، وأن هذا الإصلاح هو الغاية المثلى التى من أجلها قدم الإسلام منهاجا شاملا وشريعة متكاملة وصورة للحياة تشد الإنسان حيث كان من وهدة الجمود والتحوصل أو التحجر – إلى واحة لحاضر حىّ ومستقبل أكثر حياة وإشراقا.

الإسلام دعوة إصلاحية تستنهض الناس من آفات الاعتياد، لأنه عقيدة شاملة أحاطت الحياة بكل ما يحتاجه التعامل مع معطياتها السالبة والموجبة، وليس يحتاج الباحث إلى كثير عناء ليدرك شمولية عقيدة الإسلام، فهى مرئية بوضوح وجلاء فى آيات القرآن المجيد التى يسمع تلاوتها وترتيلها من يفوته قراءتها، ثم هى ملحوظة – هذه الشمولية – فى أحوال المسلم فى معيشته وعبادته..يكفى للمتأمل أن يرى المسلم متجها بعبادته مباشرة إلى ربه مستقلا بها عن الهيكل والصنم والأيقونه والوثن، ليعلم من ذلك وغيره أن الدين الإسلامى وحدة متكاملة فى متناول المسلم أينما يولى فثمّ وجه الله.

هــذا الجانب الإصلاحى، فـى المنهج الإســلامى، هو ديناميكيتــه الفاعلة فى ملاحقة الحياة والتعامل المســتمر مـع مستجداتهـا واحتواء ما عساه تفرزه مآرب الناس من «مذمّات» أو «نقائص»، وإزاحة الجمود الضرير المتحوصـل فـى شرانق من فعل المصالـح والمآرب التى لا تنقطع عنها أغراض الناس، ودعوة الإسلام الإصلاحية دعوة قد توفرت لها – فى منهاجه – كافة الأدوات والآليات اللازمة للنهوض بهـا فى الحاضـر وفى المستقبل، مثلما تم النهوض بها فى الماضى وأنجزت بها ما حققته من أمجاد فى إطار الغاية المثلى والمعنى الكلى.

لم يكتف الإسلام بتقديم "مفتاحه" ممثلا فى الهداية والعقل والتفكير، وإنما قدم نظاما شاملا متكاملا، التأم فيه العلم والحض عليه ووجوب الأخذ بأسبابه، مع العقل أداة الفهم والتفكير، مع احترام العمل والعاملين، فى إطار منظومة أخلاقية وارفة لم تســتبعد الأغيار من دوحتها، وإنما شملتهم بعطائها، فى باحة نظام متكامل يحدد ضوابط المسئولية، وغاية العدالــة، مجدولة بالمســاواة والإسماح، ليتضافر ذلك كله فـى توفير الآليات التى تتصدى لشرانق الجمود والاعتياد، «نقائص» المآرب وجنوح الأغراض، ويوفر الصورة الواعدة البديلة التى تشد أزر الناس وتشجعهم وتحفزهم علـى الخـروج مــن شرنقــة ما اعتادوه وتجمدوا فيه بلا فهم ولا وعى، إلى أمل صادق فى مستقبل أكثر إشراقا وحياة .

ooo

اقتضت عالمية وشمولية عقيدة الإسلام، أن يقدم للإنسانية مفتاحا تواجه به المعضلات وآفات الجمود والاعتياد الغابرة، والحاضرة، والمســتقبلة.. أن يقدم إلى الإنســانية هداية موصولة تحاصر كل ضلالة ناشــبة أو واردة أو محتملة النشــوب.. لم يحصر الإسلام غايته أو منهاجه فى مقاومة وعلاج شــرنقـة اعتياد كفـر وضلال الآبـاء الغابرين، وإنمـا عمـد إلـى غيرهـا من شرنقات ماضية أو حاضرة أو واردة، سواء ارتدت إلى اتباع عبادة الآباء والأجداد بغير فهم ولا وعى، أم ارتدت إلى السلطة الدينية أو المتشحة بالدين، أم ارتدت إلى السلطة الدنيوية.. هذه المنابع لآفات أو شرنقات الاعتياد لا تتحوصل بمصالحـها فـى زمـن ما ثم تكف عن التحوصل وإنشــاب مخالبها فى حياة الناس، وإنما هى تحمـل دائما أسبابها أو مآربها التى لا تنقضى، وتتلبس مع تطورات الحياة فى صور وأشكال كثيرا ما تخدع أو تخادع الناس عن حقيقتها وأغراضها الكامنة فى حويصلاتها!!.

اعتناق الإسلام للعقل، والتنويه به، والدعوة إلى الاحتكام إليه هو قوة الدفع الذاتية - وبآلية دافقة لا تنقطع - لاستخلاص الإنسانية من وهدة الشرانق المختلفة المتغايرة التى تريد أن تطفئ نور الحياة والتجدد.. هو طاقتها الديناميكية الواعية لاحتواء وإزاحة وعلاج «المذمات» و «النقائص» التى تفرخها رغائب ومسالك ودروب مآرب وتدابير الناس أمس واليوم وغدا!!.

عبادة الأسلاف، أو سلطان الآباء فى تسريب الباطل والضلال إلى الأبناء، ليس مجرد آفة غابرة واجهها الإسلام وسعى إلى انتزاع أثرها المزيغ من وجدان الماضين، وإنما هى آفة محتملة النشوب فى كل زمن، تستولدها ظروف ما فى مكان ما فى زمن ما، لذلك كان التفات الإسلام ولفته وتنبيهه إلى وجوب التيقظ وعدم الانقياد إلى أى ضلالة تتحوصل اليوم أو غدا فى «تابوهات» تستدعى لنفسها قداسة من الاحترام الواجب للآباء!!.. القداسة فى شرعة الإسلام، ومفتاح «العقل» الذى تبناه، لا تكون إلاّ للموضوع أو للفكرة أو للحق.. عن طريق معرفة الحق يُعرف أهله، لا العكس.. لم يكتف القرآن المجيد بما بثه من آيات تورى بفساد تعطيل العقول والانقياد الضرير لضلالات الآباء والغابرين، مع أن عمومية الخطاب فيها تغطى الزمن الحاضر والزمن القابل مثلما غطت الزمن الماضى.. هذه الآيات يقرأها المسلم اليوم فيفهم منها ما فهمه من استقبلوا القرآن فى زمن التنزيل، من بيان شاف رشيد لضلال الاتباع الأعمى بلا فهم ولا وعى، من مثل: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (البقرة ١٧٠) أيضا (المائدة ١٠٤، الأعراف ٢٨، الشعراء ٧٤، الصافات ٦٩، الزخرف ٢٣، ٢٢).. بيد أن القرآن المجيد لم يفته أن يضيف إليها خطابا عاما آمرا بالالتفات والتيقظ والانتباه والإعراض عن أى دعوة - ماضية أو حاضرة أو آتية- لاتباع الباطل!!.

هداية الإسلام الموصولة، ودعوته الإصلاحية تتجلى فى تصديه لهذه الآفة مثلما تتجلى فى غيرها.. فأوامره ونواهيه ليست جُزُرا متفرقة، وإنما تضمها فلسفة شاملة عميقة وواعية ومتسامقة تقيم توازنا دقيقا مرعيا ومقصودا، بين كافة الاعتبارات مهما اختلفت أو حتى تضادت، فنرى القرآن المجيد يحرص حرصا ناضحا ناديا على وجوب محبة

وتوقير واحترام وتبجيل الآباء والإحسان معهم وإليهم، دون أن يغفل أو يسقط أن ذلك كله لا يجيز اتباعهم في الشرك أو الباطل أو الضلالة أو الفواحش أو المذمّات!!.

القرآن المجيد، وهو يعرى ضلالات الآباء الغابرين، لم يغفل أن تتوالى وصاياه للإحسان للوالدين، في إيقاع متلاحق لافت، فتتردد فى آياته وصايا: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (البقرة ٨٣، النساء ٣٦، الأنعام ١٥١، الإسراء ٢٣).. تقرن الآيات شكر الوالدين بالشكر لله عز وجل: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (لقمان ١٤).. وتتكرر الوصايا الإلهية بالبرّ بهم والإحسان إليهم: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴿٨﴾ ﴾ (العنكبوت ٨)..

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الأحقاف ١٥).. ثم فى بلاغة وجمال، تقول الآيات في وصاياها الربانية: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الإسراء ٢٣، ٢٤).

هذه المكانة السامقة العليّة التى للآباء، محبة ورحمة وعطفا وتوقيرا وتبجيلا، لا تبرر فى نظر الإسلام الانصياع الأعمى ولا المتابعة الضريرة فى الضلال والشرك.. من ذلك يحذر القرآن المجيد، دون حض على نكران المعروف والإحسان، فيقول عز وجل: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (لقمان ١٥ – أيضا العنكبوت٨).

شرنقة الكهانة من قديم

واقع الحال، إن الكهانة ظاهرة سابقة على نزول الأديان الكتابية، وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كما وجدت فى سائر الأمم السابقة، وهى فى مجملها حرفة تستتر بالأديان بعامة، وتدعى مطالعة الغيب وكشف حجبه، والإخبار بالأسرار والحوادث المستقبلة والماضية، وتحتكر لنفسها من هذا المدخل سلطة الوساطة بين المخلوق والخالق، وتختص بفك رموز الدين، وتحديده، وتستأثر بالشفاعات،

وتضطلع بالمراسم الدينية، وتقديم القرابين والذبائح، ومنح الأسرار، والتبشير بكلمة الله.. تتلبس بلباس تتخيره لكل دين ولكل زمن، عرفها بنو إسرائيل من قديم، وكان «الكهنة» الإسرائيليون هم الذين تصدوا لدعوة السيد المسيح، وقادوا الأحداث لمأساة الصلب، بغض النظر عن الخلاف فى "شخص" المصلوب، هل هو ذات المسيح كما يقول المسيحيون، أم شبيه له كما يقول القرآن المجيد.. إلى هؤلاء الكهنة كانت رعاية «الهيكل»، برئاسة «الكاهن الأعظم».. وهذا هو المقابل العربى للكلمة العبرية : «كوهن هاجدول» .. ومع أن وظيفة الكاهن الأعظم كانت دينية، وكذلك الكهنة، فقد كانت لها أبعادها الدنيوية حتى كان كبير الكهنة يعد من رجالات المملكة العبرانية وجزءا من الأرستقراطية الحاكمة!! بل كان الملك ذاته يضطلع أحيانا بوظيفة كبير الكهنة بنفسه، كما فعل داود (١٠٠٤–٩٦٥ق.م).. وفى سفر صموئيل الثانى ٦/١٢–١٩ : «فأخبر الملك داود وقيل له قد بارك الرب بيت عوبيد أدوم وكل ماله بسبب تابوت الله. فذهب داود وأصعد تابوت الله من بيت عوبيد أدوم إلى مدينة داود بفرح. وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات يذبح ثورا وعجلا معلوفا. وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب».. وقد تكررت كلمة «كهن» ومشتقاتها نحو٧٧٥ مرة فى العهد القديم، كما تكررت كلمة «لاوى» – وهو السبط الذى كان منه الكهنة –٢٨٠ مرة!، كما تكررت ١٨٥ مرة فى سفر اللاويين وحده، ولم يقتصر استخدام الكلمة على الكهنة العبرانيين، بل أطلقت أيضا على الكهنة المصريين فى زمن القدماء والكهنة الفلسطينيين وكهنة البعل وكهنة «كموش».

وعرف العرب الكهانة قبل الإسلام، واشتهر من الكهنة والعرافين فى الجاهلية والإسلام، «شق أنمار» و «سُطيح»، ومن النساء «زرقاء اليمامة» و «سجاح بنت الحارث» التى لحقت بالإسلام ثم ادعت النبوة ونزلت اليمامة تريد حرب أبى بكر واتقاها مسيلمة الكذاب بالزواج منها، حتى إذا ما قتل أسلمت وهاجرت إلى البصرة وفيها توفيت. وكانت الكهانة لدى العرب على ثلاثة أضرب، أولها أن يكون للإنسان ولى من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء، وثانيها يدعى الإخبار بغيبيات الزمان القادم أو المكان البعيد، أما ثالثها فيقوم على العرافة والتنجيم.

منزلق ومخاطر السلطة الدينية!

هذه السلطة الدينية، منزلق هائل للسيطرة على وعى وأفهام ووجدان الناس، وسلب لإرادتهم وتغييب لعقولهم، لتسييرهم كالعميان إلى حيث يراد لهم وبهم.. سيطرة الكهان وأضرابهم، هى تسلط على عقول ورقاب الناس باسم الدين، وتعطيل لملكة العقل التى ميز الله تعالى بها الإنسان على سائر المخلوقات والكائنات!!

الإسلام يعلى العقل ويرفض الكهانة

لم يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله أو يسلسه بلا فهم إلى غيره، وإنما حرص بآيات القرآن المجيد على مخاطبة العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور، ويفرز ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر ويحسن التفكر، هذا العقل يستلزمه لباب وجوهر الإسلام الذى رفض الكهانة بكل صورها، ولم يجعل لكهنة أو سدنة أو أحبار وظيفة الوساطة بين المخلوق والخالق، ولا شفاعة للإنسان إلاّ شفاعة عمله وعطائه وتوجهه إلى الله تعالى بضمير مخلص وقلب منيب.

عقل المسلم حرّ طليق من سلطان الكهان الذين يتخذون من الأديان حرفة وصناعة، ومن سلطان الهياكل والمحاريب سبيلا للتحكم فى ضمائر وألباب اللاغين والسفهاء الذين يتخذونهم أربابا من دون الله، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وضلالهم!! وكثير منهم يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون فى الحقيقة عن سبيل الله!.

القرآن المجيد، قول رسول كريم، لا قول حبر ولا كاهن: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)﴾ (الحاقة ٤١–٤٣).. الكهانة تقترن فى البيان القرآنى بالجنون .. يقول رب العزة لنبيه المصطفى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)﴾ (الطور ٢٩–٣٠)..

لم يتخذ الإسلام هذا الموقف الرافض للكهانة والكهان، بمعزل عن رؤية شاملة تقدم للآدمي هدايته بلاحاجة إلى وساطة أو شفاعة أو تحكم حبر ولا كاهن.. صلة الإنسان بربه سبحانه وتعالى صلة ممدودة موصولة لا يخفيها ولا يحجبها شيء.. فحيثما وجد المسلم يستطيع أن يتجه إلى الله، وأن يبث دعاءه ويؤدى صلاته وقيامه وتهجده، وصومه وحجه.. يطمئنه القرآن المجيد إلى أن حبله إلى الله لا ينقطع.. ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقرة ١١٥).. لاحاجة بالإنسان إلى كهانة ولا إلى هيكل، ولا حاجة به إلى وساطة وسيط ولا إلى شفاعة متشفع، لأن وزنه أمام الله بعمله وتقواه، ومصيره معلق بيده وما يقدمه لا بما يتوسط أو يتشفع له به سواه.. ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ (الإسراء ١٣).. ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾(الطور ٢١).. الإنسان يثاب وينجو بعمله لا بوساطة الكهان والأحبار.. يحمل وزره لا وزر غيره»﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الأنعام ١٦٤ – وأيضا فاطر ١٨، الإسراء ١٥، النجم ٣٨، ٣٩).. فى القرآن المجيد أن الإنسان بسعيه، وأنه ليس له إلاّ ما سعى، وأن سعيه مرصود معروف فى الملأ الأعلى.. ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ (النجم ٣٩–٤١).

الله فى عقيدة الإسلام، هو العليم الواسع المحيط، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، يعلم ما يظهره الإنسان وما يخفيه، وما يدور بدخائل الصدور هو سبحانه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء شهيد، وعنده توزن الأعمال بموازينه وعدله، وما كان سبحانه بظلاّم للعبيد. أبواب السماء مفتوحة بلا وساطات، والله تعالى أقربُ لعباده من حبل الوريد.. يخبرهم فى محكم تنزيله أنه ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (ابراهيم ٣٩)، ويوجه سبحانه دعوة مفتوحة إلى عباده باللجوء إلى رحابه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(غافر٦٠).. ويطمئنهم عز وجل لتلبيته فيقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة ١٨٦) وهذه العقيدة تغنى الآدمى فى باب الاعتقاد، وتغنيه أيضا عن وساطات مدعى الوساطة، أو مدعى الشفاعة، وتغلق أبواب الدجل على الدخلاء، رافعة لافتة بعنوان: «الوسطاء يمتنعون»!.

هذه الباحة الربانية، والضوابط المحكمة للمسئولية، تغلق أبواب الدجل على الدخلاء والوسطاء وكل أشكال الكهانة التى تتخذ لكل مجال لباسه، ولكل زمان وميدان سبله ومسالكه، وتتسرب من الأديان إلى غيرها، فتتحوصل حول السياسة أو الاقتصاد أو غيرهما، كهانة تدعى امتلاك الحكمة والمعرفة دون سواها، وتوغل فى الركوب على وعى وعقول وضمائر الناس، تفرض الهيمنة عليهم بحكم «اعتياد». الاتباع لهم والإخلاد إلى سلطانهم وما يُظَن أنهم يمتلكون به الحكمة والصواب فضلا عن مفاتيح السماء وصكوك الغفران!.

رفَض الإسلام كل صور الكهانة، ولم يجعل للمسلم أوعلى المسلم من سلطان غير سلطان العقل والنظر الصحيح والموعظة الحسنة.. فلا اختصاص فى الإسلام لأحد بحق الفهم والتفسير، ولا باحتكار الصواب، أو بامتلاك مفاتيح السماء.. بذلك أسقط الإسلام سلطان الكهانة ونفوذ الأحبار، ولم يقبل من المسلم أن يلغى عقله صدوعا أو خضوعا أو خوفا من أى سلطان غير سلطان العقل والحكمة والصواب.. بل بلغ من احترام الإسلام للعقل أن قدمه على ظاهر الشرع عند التعارض، وجعل الأرجحية لما دل عليه العقل إذا تعارض مع النقل.

ليس فى الإسلام سلطة – فيما يقول الإمام محمد عبده ـ سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر.. ولم يجعل الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه.. نبوة الرسول ذاته نبوة هداية قوامها الإبلاغ والتذكير بلا سيطرة ولا تجبر.. ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الغاشية ٢١، ٢٢).. ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (ق ٤٥).. سبيله فى دعوته إلى ربه الحكمة والموعظة الحسنة.. ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل ١٢٥).

رفض الإسلام للكهانة بكافة أشكالها وصورها، ليس إهدارا أو إشاحة عن علوم الدين والاهتمام به ورعايته، وإنما هى توسعة محمودة لذلك كله بترك الباب مفتوحا لمن يستقيم قصده ويملك ملكاته لينهل ويغترف من العلم اللدنى وأحكام الدين حتى يمتلك أدواته وتتسع قاعدة علمه ومعارفه ويستطيع بهذا كله أن يدلى بدلوه فى تيار الدين وبحوره الواسعة، دون

أن يكون مشروطا لذلك الانتماء إلى سلطة دينية أو التحصن بها أو اتخاذها بابا ووسيلة للهيمنة ورعاية المصالح. ليس كالإسلام دين يحض على احترام العلم والعلماء والرجوع إلى أهل الذكر، ولا يرتفع المسلم بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم، ولا يستوى فى شرعة القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الزمر ٩، فاطر ٢٨)، ولم يستغن الإسلام فى إعلائه للعقل عن العلم والعلماء، فإذا أعوز الإنسان العلم بما يريد، فأمامه أهل الذكر من العلماء والدارسين العارفين.. فى القرآن المجيد: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (النحل ٤٣).

فارق بين امتلاك العلم والحكمة، وبين امتلاك السلطة.. بين من يتعلم العلم ويبذله للناس، وبين من يدعى احتكار السماء والأسرار.. الفوارق بين العلماء وأهل الذكر فى الإسلام، وبين الكهانة، فوارق هائلة فارقة، فمادة العلماء العلم والمعرفة وليس التنبؤ أو السحر أو التنجيم. وفارق بين المعرفة والعرافة، وبين الهداية والسحر والتنجيم.. العلماء وأهل الذكر لا قداسة لهم ولا يدعون قداسة كما يدعى الكهان والرائون والعرافون، ويؤدون الفرائض والمناسك والشعائر التى يؤديها المسلمون، ولا يباشرون طقوسا أو مراسم خاصة أو يختصون بقرابين ولا بشفاعات كما يفعل ويتاجر رجال الكهنوت. وعلماء الإسلام وأهل الذكر لا يُرسمون بطقوس ولا بمباخر ولا بذبائح. ولا يدعون الإصغاء لصوت الله ولا يتكلمون باسمه، ويتمايزون بعلمهم لا بطبقاتهم، ولا يتخذون الدين حرفة للتجارة.. إن العلماء وأهل الذكر فى الإسلام شموع تضىء دون أن تصادر على عقول الناس. تنشد بذل العلم والهداية بلا ادعاء ولا استعلاء ولا ركوب على رقاب الناس، فلا سحر ولا عرافة ولا كهانة ولا حواصل تتشرنق فيها المصالح والمآرب والأهواء، وإنما هو مفتاح العقل والضمير الذى ينشد به الإنسان ما يشاء حيث يشاء، ويتجه به إلى الخالق بقلب منيب!

معجزة القرآن

يقرأ المطالع للقرآن الحكيم من قول الحق جل شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود١٣)،

ويقرأ من سورة يونس: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يونس: ٣٨)، ويقرأ في سورة البقرة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (البقرة: ٢٣)، ومن سورة الإسراء: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٨).

وقد مضى على نزول القرآن الحكيم نيف وأربعة عشر قرنا، فما استطاع أحد أن يجاوب هذا التحدى أو يأتى بشيء مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.. وقل أن يوجد فى الكتاب العزيز آية ليس فيها ذكر الله عز وجل أو تمهيد أو تعقب لذكره. وقد نزل الكتاب المبين على مدى ثلاث وعشرين سنة وهو ملازم لهذه الحال وهذا التركيز التلقائى إلى أن انقطع نزوله بوفاة الرسول عليه السلام.

وما جاء فى الكتاب الحكيم من الأحكام أو القصص إنما جاء تفريعا على التذكير بالله سبحانه وتعالى.. يبدأ منه ليعود إليه. لم ينقطع هذا التذكير قط فى أية سورة مهما صغر حجمها وقل عدد آياتها.

وبهذا تفرد الكتاب المجيد عن كل كتاب آخر.. مقدس أو غير مقدس. واستحال أن يكون موضع تقليد سواء بالنسبة لسورة منه أو لعشر، وذلك لاستحالة توجيه أى إرادة واعية لذاتها إلى ذلك التركيز التلقائى المطرد على ذكر الله وبداية كل شيء منه وإليه ثلاثة وعشرين عاما. لأن الإرادة الواعية لذاتها أيا كان حظها من الاقتدار والاستغراق سرعان ما تمل وتجهد من وحدة الموضوع الذى لا يزيد ولا ينقص، وتعجز عن المحاكاة دون أن يظهر فيها الاصطناع والتكلف لستر الملل والإجهاد.

قالوا إن نزول الوحى على الرسول المصطفى كان دائما شديد الوطأة بدنيا، وكان يتخلف عن مجيئه رضا وثقة هائلان لديه عليه الصلاة والسلام، فلم يكن ما يوحى به إليه ثمرة تدبر وتفكير ونظر لوعى يراقب ذاته فيما يعيه ويتتبع مشاهداته ومعلوماته وأفكاره وخواطره ومصدقاته إلى أقصى ما يستطيع وينتقى عباراته فى روية وصبر وبعد موازنة ومفاضلة.

لم يكن عليه السلام يرتقب وعيه لتقييد ما قد يوحى به إليه فيكون ردًا حصل عليه واقتنصه وصار منتسبا إلى ذاته كناتج من نواتج مقدرته.

لم يكن ما يوحى به إليه من عمله هو، أو مصدره ذاته هو، وعقله أو إرادته هو، أو أن من حقه أن يحجبه أو يمسه بأى تعديل أو حذف، لا هو ولا غيره. فكل آية نزلت عليه من آيات الكتاب المجيد وكل سورة من سوره ليس لها مصدر بشرى على الإطلاق، ويستحيل من ثم عليه هو أو على غيره من البشـــر أن يأتى بمثلها تقليدا أو محاكاة لها. لأن مصدرها هو الله تعالى، وهى من عند الله عز شـــأنه الـــذى انصرفت آيات الكتاب المبين إلى التذكير أو التمهيد للتذكير به أو التعقيب على هذا التذكير.

وبرغـــم ابتعاد اللغة العربية الآن – مقولـــة أو مكتوبة – عما كانت عليه إبان التنزيل، برغم ذلك ومعه زيادة الاختلاف فى اللهجات والأذواق والثقافات خلال أربعة عشـــر قرنا فى البقاع التى تتكلم العربية فإنه قد صار الإيمان بإعجاز القرآن جزءا لا يتجزأ من عقيدة المســـلم.. عربيا كان أو أعجميا. ولم يعد ذلك موضع جدل أو نقاش أو مفتقرا لبينة أو إبانة لأنـــه جزء من إيمان المســـلم. وبات حمـــل المصحف أو حيازته أو قراءتـــه أو سماع تلاوته قربـــة إلى الله تعـــالى وفيه كل الغنـــاء، ولم يعد ثم مجال بأى وجـــه لتحدى الكتاب المبين أو لأى محاولة لتقليد آياته وســـوره رغم تعدد نســـخه بملايين الملايين وتعدد المسلمين وقراء العربية بـألوف الملايين!.

لم يوجد من يفترى آية أو سورة أو سورا على القرآن الكريم، ولم يوجد من يدعى قدرته على شىء من ذلك، ولم يعد يشغل أحدا من المهتمين بالكتاب المجيد سوى حماية طبعاته المتزايدة من حذف كلمة، أو تحريف لفظ أو الإخلال بترتيبه، حماية لهذه المعجزة الربانية الباهرة التى طفقت تهدى البشرية من أربعة عشر قرنا وإلى ما شاء الله.

قراءة القرآن

قـــراءة القـــرآن الكريم قراءة متأنية مثابرة آية آية أو جملة جملة مع الاجتهاد فى تصور الجو والظروف والحالة بالنسبة للأشخاص عندما كانت الملة فى بدايتها دعوة وليدة تلتمس

من يصدقها وينضم إليها ويؤيدها، ويقاوم الواقع الغامر السائد الذى يعاديها لأنها تحاول تغييره وتشتد عداوته لها ومحاربته إياها كلما زاد عدد المصدقين والمنضمين والمؤيدين!.

هذه القراءة للقرآن الحكيم شىء يختلف اختلافا كليا عن القراءة المقصود بها التعبد أو المقصود بها التفقه أو المقصود بها التفطن لما فيه من البلاغة والفصاحة المعجزة غير العادية مع الحكمة والعمق. فهذه كلها تجريدات جزئية واشتقاقات فرعية لا ترى الواقع الأول للقرآن إلاّ من بعيد.. رؤية جزئية جدا تخفى حجم وحقيقة واقعه الأول، أى حقيقة وماهية حياة الدعوة على مدى ثلاثة وعشرين عاما.

هذه القراءة المصحوبة بتصور الجوّ والظروف والحالة بالنسبة للأشخاص ـ عند كل آية أى عند كل جملة – تحمل «شحنة» مصدرها الجوّ والظروف والحالة – هذه القراءة هى وحدها التى تعطى القارئ حجم وحقيقة واقع القرآن ـ إلى تاريخ وفاة النبى ﷺ وهى قراءة ممكنة لكل من لديه قدر كافٍ من المعرفة بتاريخ الدعوة والبيئة العربية التى ولدت وانتشرت فيها، والنبى نفسه – عليه السلام – لم يأمر بتدوين إلاّ القرآن، ولم يدون أحد أحداث الدعوة تباعا فى أوقات حدوثها، ولم يُبْدأ فى تدوين السيرة إلاّ بعد عشرات السنين من وفاة الرسول ﷺ وآكد وأوثق مصدر للعلم بأحداث السيرة هو نفس أو نص سور القرآن وآياته. فما عدا ذلك من أخبار قد كتب بعد أمد طويل من مصادر شتى، بينما متن القرآن المجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

شىء من هذه الغاية قصدته فى مطول : «السيرة النبوية فى رحاب التنزيل».. صدرت من هذا المطول خمسة مجلدات، ولا يزال السادس والأخير فى ذمتى داعيا الله تعالى أن يمكننى من إتمامه. فى رحاب التنزيل جدلت أحداث السيرة النبوية موصولة بنزول آيات القرآن المجيد وما صاحب هذا التنزيل من جو وظروف لم أشأ أن أسميها «أسباب النزول»، وإنما تتبعت فقط مناسباتها، باذلا قصارى مستطاعى لاستحضار صور الأحداث كما جرت فى زمانها، بلسان وعبارات أصحابها، مقرونة بما كان يتنزل تباعا من آيات الذكر الحكيم على صفى السماء المبعوث رحمة للعالمين. عنيت فيها قصدا أن تتوارى ذاتى، وأن أترك المشاهد تتحدث بنفسها وتقدم للمتلقى مكنونها ومعالمها ونبضها.. راميا أن أتيح له أن

يتنسم عبق السيرة وجوّ ونفحات التنزيل، وأن يعايش زمانها ويستروح أنفاسه، ليرى كيف انساب المدد الإلهى برسالة المصطفى ﷺ ليهدى البشرية من ظلام الكفر والشرك إلى نور اليقين.

تمهيد فى منشأ فكرة التوحيد والوحدانية

ترى من أين جاء أصل الفكرة التى نعبر عنها بكلمة « الوحدانية أو «كلمة التوحيد»؟.. لعله بدأ فى فكرة الواحد العددى، أو من فكرة الواحد.. بمعنى الأنا أو الذات حين ترى نفسها وحدها وترى كل من عداها وما عداها خارجى وغيرها دائما، وحين تتصل به أو تصل إليه بالعواطف والأفكار والأفعال والموافقة والمخالفة دون امتزاج حقيقى بالأنا التى تبقى فى وحدتها وتفردها سليمة كانت أو مريضة من مولدها إلى مماتها، أو من فكرة الكلى العام فى لغات الآدميين حيث يشير اللفظ الواحد الدال على فرد غير معين أو إلى جمع من الأفراد لجنس أو نوع أو طائفة أو أسرة أو مصطلح يندرج تحته جميع أفراد كل قسم بحكم اشتراكهم فى معنى عام جامع ملحوظ فى التقسيم برغم اختلاف كلٍ فى خصائصه الفردية عن بقية الأفراد، أو عن فكرة الشىء الجامع لأجزاء متعددة باعتبار كل شيء حىّ أو غير حى مكونا من أجزاء تتألف منها فى عقل الآدمى وحدته أو ذاتيته التى تبقى مع وجود أجزائه المختلفة تكوينا أو وظيفة.. وهو ما يشاهده الآدمى العادى فى الكون والعالم والطبيعة كما يشاهده فى مقلة الذباب وحبة الرمل.

أو لعلها بدأت وانتهت فى عقل الآدمى وطرائق عمله فإنه دائب على المداولة بين التحليل والترتيب طول الوقت.. وفى كل وحدانية أو توحيد اجتماع تحليل وتركيب.. لأنها من عمليات عقل الآدمى المطردة خلال حياته والتى يترك آثارها بوسيلة أو أخرى لعقبه من بعده.

فأصل فكرة الوحدانية والتوحيد – فيما يبدو – لا يتجاوز طبيعة عقل الآدمى ولا يمكن أن يتخطى مساعى عقول الناس وتصورهم لذواتهم وعالمهم الداخلى والخارجى بقدر إمكانات هذا التصور وقدرات هذه المساعى.. وهو دائما تصور جزئى محدود يتسع ويضيق

بقدر ما يتسع له ويضيق عقل الآدمى فى زمان ما ومكان ما مع الظروف المواتية أو المعادية.. وهو لا يمكن أن يصدق على الكون بأسـره أو الطبيعة بأسـرها إلا صدقا جزئيا نسبيا قابلا للاتساع مع زيادة الفهم وقابلا للضيق والتقلص مع ضيق الفهم ونقصه.

ثـم لم تلتفت عامـة الناس إلى فكرة الوحدانيـة والتوحيد إلا بعد عصـور متطاولة من التعدديـة والكثـرة.. ويبدو أن ذلك كانـت بدايته من قبائل الرعاة التى وافقت بساطتها ما فى فكرة التوحيد من بسـاطة وخلو من التعقيد وقابلية شـديدة للامتزاج بوحدة الأصل للبيئة وضرورة الالتصاق به لكل فرد من أفرادها أينما يكون.. فأصل القبيلة أب واحد كان على الأرض يرعاه ويرعاها أب واحد مكانه فى السـماء، ورعايتها تكون فى تكاثر أفرادها وتكاثر ماشيتها وامتداد أعمارها وتجنيبها شرور الجفاف والقحط والمرض ونصرتها على من يعاديها فى العراك والقتال.. وقد امتزج الأبوان مع مرور الوقت فى الأب السـماوى الذى لا يمـوت، وصار التعلق به والتعصب له عادة يلقنها كل فرد منذ مولده لأنه يلخص تعلقه الشـديد بقبيلته.. وحين انتقل الرعاة إلى المدينة انتقل معهم هذا الأب السـماوى واتسـع اختصاصه، فامتد إلى ما يبحث فيه أهلها من نشأة الكون وأصل الإنسان وإيجاد السماوات والأرض وامتياز اتباع الأب السـماوى على سـائر الخليقة ومحاسـبة كل منهم عن سلوكه ومثوبته وعقابه عنه فى حياة أخرى يعود إليها بعد الموت.

ولم يكـن ذلـك اختلاقا أو خديعة أو كذبا أو خرافـة متعمدة.. لأن ذلك بعض تلخيص لبعـض مسـيرة عقل الآدمى وروحـه مع الظروف التـى وجد فيها خلال قـرون طويلة.. إذ لم تكف عقول الناس منذ خلقت عن السؤال عن الأسباب والكيفيات والأغراض والمصائر ونوعيـة الوصول إلى إجابات والارتياح إلى بعضهـا، كما لم تكف العقول عن تغيير موقفها حسبما أتيح لها من فرص الاستنارة.. وهى دائما قابلة للزيادة والنقصان مع زيادة الالتفات ونقصه وتوافر الوسـائل وندرتها.. وهذا باب مبناه لدى عموم الناس حسـن الفطن وسلامة النية وإخلاص الاعتقاد فيما اسـتراح له عقل الآدمى وروحه من إجابات على مقدار وعيه وظروفه.. ولن تتوقف مسـيرة عقل الآدمى وروحه عن سيرها إلى الأمام أو إلى الخلف مادام موجودا.. مع ملاحظة أن أمامية الأمام أو خلفية الخلف نفسها جزء من هذه المسيرة.

ومــن المحال تصــور أن مكونات عقل وروح الآدمى فى عصرنــا متطابقة فى كـل بلـد أو كل مكان أو حتى فى الأســرة الواحدة.. ولكن يوجد بالتأكيد قدر من التشــابه المشــترك بين عامة الخلق.. ومنه ومن تراكمه وثباته النســبى يتكون ما يعـبر عنـه بكلمة «التراث» أو تراث البشــرية.. وتذكرنا لهذا التراث بانتظام يمنعنا من الاندفاع وراء مجازفات التمرد أو الثورة التى لا تنفك تراود فى كل وقت فكر بعض الناس هنا وهناك.

ثم ليس فى محاولة رؤية ما – ولو قاصرة – للمسيرة المذكورة.. ليس فيها هدم أو إلغاء لهــا.. لأن إعادة قراءة التاريخ على أى وجه لا يمكن أن تلغى وقائعه ومعارفه وأفكار أهله ومصدقاتهم ولا تجاهل أنها فى الواقع هى أســاس الشـطر الأعظم والأهم من حياتنا الآن كأفراد ومجاميع فى مادياتها ومعنوياتها.

والوحدانية هى الأساس الأكبر والأهم للأديان السماوية الثلاثة وجوهر البناء الدينى لكل منها.. تسود كتبها المقدسة وتعاليم رؤسائها ويدين بها مع أتباعها من الأفراد القائمون على خدمــة الدين وخدمة معابده ومعاهده ومأثوراته وآثاره ومطبوعاته وفرقه وطوائفه وطقوســه وأزيائه.. وهى وحدانية رياسة عليا متفردة بالعالم كله.. خلفت كل شيء فيه، قادرة على كل شــيء، بيدها ملكوت كل شــيء فى الأرض وفى الســماء، وفى طاعتها ما لا حصر له من الملائكة والأرواح والقديســين والأولياء والصديقين لا يعصون ويفعلون ما يؤمرون.. وهذه الوحدانيــة القاهــرة الغامرة لا يكاد يوجــد بينها وبين أب قبيلة الرعاة وربها أى ســبب جامــع.. لكن وجــد ويوجد بينها وبين قلــب وعقل كل آدمى علاقة حميمــة جدا مليئة بالصعوبات والمشاكل والإشــكاليات، وينبغى ديانة أن تُقابل بالتسليم والرضوخ والتفويض على أن يفوز الصابر بالمثوبة وعظيم الأجر فى الآخرة.

ويبــدو – والله تعالى أعلم – أن انتشــار الأديان الســماوية ووحدانية معبودها يعود إلى فشل التعددية فى كبح تتابع واتساع المظالم والفساد والإفساد، وتشوق العامة – فى شقائها الذى فاق الحد – تشــوقها إلى من يبســط الرحمة والمساواة العادلة المستقيمة على الجميع، ويحاسب الكل حسابا صارما لا يتحامل ولا يجامل ولا يفلت منه كبير أو صغير ولو مات. وساعد على ذلك اعتقاد الناس فى أهمية الآدمى وتميزه وتميز أرضه، وأنه هو وأرضه سرة

العالم بأسره يدور حوله كل ما يدور فى العالم لمنفعة الآدمى وخدمة نوعه ولتمكينه من أن يكون خليفة فيه وعليه.

ومنذ القرن السابع عشر سار العلم الطبيعى بإصرار فى طريق خاص يبتعد ويزداد باستمرار ابتعادا عن الاتصال بالدين الذى يبتعد هو الآخر عنه، ولم تصحب كتلة الناس العلم الطبيعى فى طريقه، ومازالت كتلة الناس أقرب إلى الدين منها إلى طريق العلم الطبيعى برغم امتزاجها فى معظم مساعيها بنواتج العلم الطبيعى فى الصناعة والزراعة والطب والفلك والنقل والاتصال والفنون.. وهذا هو مصدر الوهن الملحوظ فى تدين كتلة الناس فى أيامنا.. لأنها لا تستطيع أن تقاوم - عن طريق اللاوعى وحده - ضغط العلم الطبيعى والحضارة المبنية عليه على حياتها.. وبصفة خاصة ضغط مركبات الفضاء الكشفية ودقة المراصد وضبط المساحات التى لا يتصورها عقل الآدمى لاتساع العالم وكثرة وضخامة ما فيه مما هو قريب قربا نسبيا إلى أرضنا التى تبلغ بالنسبة إليه حجم حبة الرمل أو أصغر! إن تقدم العلم الطبيعى الحديث وسعة نظرته وسعة الكون الهائلة التى كشفها بعنف لعيون الآدميين .. كل ذلك قد هوّن قيمة الآدمى وقيمة ما بناه الآدمى وما عرفه وما سيعرفه فى عين نفسه، ولم ينج من ذلك أديان الآدمى بطبيعة الحال.. وهذه هى النتيجة الحتمية لابتعاد الدين عن العلم الطبيعى وابتعاد العلم الطبيعى عن الدين وانقسام عقول الناس ثم انقسام ضمائرهم تبعا لذلك.

ooo

أصاب الأستاذ عباس العقاد فيما أورده بكتابه: «الله».. من أن الإنسان ترقى فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته (البدائية) الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، وقد أدار الشق الأول من بحوث كتابه الضافى حول أطوار نشأة العقيدة الإلهية منذ اتخذ الإنسان أربابا إلى أن عرف الله الواحد الأحد، واهتدى إلى نزاهة التوحيد، فكانت هذه الهداية ختام رحلة طويلة للبشرية عبر قرون نحيل فى تفاصيلها إلى ما ورد بكتاب العقاد حول نشأة العقيدة الإلهية وما مرّ بها من أطوار. ونحن نرى اليوم أنه قد آمنت بالتوحيد والوحدانية غالبية المنتمين للأديان السماوية ومازالوا بها

يؤمنون، مع بقاء الواحد الأحد سـرا لا سـبيل إلى معرفة ماهيتـه ولا إلى الإحاطة به بأية وسيلة أو توجيهه وفق المشيئة الآدمية على الإطلاق.. إذ هو ليس فقط خارج الزمان والمكان والملاحظة والرصد والتنويع، بل هو مبدع عقل الآدمى وعقله وخالق الكون بكل ما فيه من مادة أو طاقة أو حياة. وهم يتوجهون إليه ويدعونه سبحانه بأسماء وأوصاف من لغاتهم هم ولهجاتهم.. بها يبتهلون ويتعبدون ويسـتعينون ويشكون ويستغيثون ويلتمسون ويستقبلون مواليدهم ويودعون موتاهم.. ولا يشكون لحظة فى وجود المخاطب جلّ وعلا ولا فى سماعه ولا فى اقتداره ولا فى رحمته ولا فى مغفرته ولا فى عونه ولا فى بركاته ونعمه.

ومـع ذلـك فلم تكن الوحدانية واضحـة المعالم على معنى واحد فـى أذهان الناس بل ورجـال الأديان فى كل العصور.. مضت عصور حتى فهم الناس أن النبوة هداية وليسـت من باب الكهانة والتنبؤ بالغيب أو العرافة والعيافة أو السحر أو التنجيم والأحلام والرؤى، ومضت عصور حتى تجلّت فكرة التوحيد وتخلصت من شوائب الأوهام أو العصبيات للدولة أو الأمـة أو الجماعـة أو القبيلة.. ففى عهود جاءت الدعـوة إلى التوحيد عن طريق توحيد الدولة وفرض سـلطانها الواحد وعبادتها الواحدة على من ينبسـط عليهم سلطانها، وعلى هذه السـنة جرى الرومان علـى إخضاع اليهود حين فرضوا عليهم عبـادة «الإمبراطور».. لاهداية ولا اعترافا بالمسـاواة، بل للإخضاع وتحريـم كل معبود غير معبود الدولة.. وكان الإله عند العبريين هـو فقط «إله إسـرائيل»، وهذا المصطلح مكرر مئات المرات فى عبارات العهد القديم المفهرسـة فى المعجم المفهرس لأسـفاره.. ودامت هذه العقيدة إلى عصر ميلاد السيد المسيح عليه السلام – الذى تحولت دعوته عن بنى إسرائيل إلى الأمم بعامة دون أن تكون مقصورة على بنى إسرائيل، الذين لم تخرج الأديان من قبلهم عن نطاق القوميّة وإنما ظلت محصورة فيها تخاطب قوما دون أقوام، فلما جاء الإسلام جاء داعيا إلى ديانة واحدة للعالمين، فى هداية تتسـع للبشـر جميعا وللناس كافة، فبرأ عقيدة النبوة مما كان قد علق بها فى أساطير الأولين. كما جلّى عقيدة التوحيد والإيمان برب واحد لا إله غيره.

وعلم التوحيد فيما أبدى الإمام محمد عبده فى رسالة التوحيد، هو علم يبحث فى وجود الله، ومـا يجـب أن يثبت له من صفات، وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن ينفى عنه

وعن الرسل لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه وما لا يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم. وأن أصل معنى التوحيد: هو الاعتقاد بأن الله تعالى واحد لا شريك له. وسُمّى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، وهو إثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد، وهذه هى الغاية العظمى.

والمعلوم أقسامه ثلاثة: مستحيل لذاته، وممكن لذاته، وواجب لذاته. وحكم المستحيل لذاته أنه لا يطرأ عليه وجود، لأن العدم من لوازمه، أما الممكن فلا وجود له ولا عدم من ذاته، وإنما يوجد لموجد ويعدم لعدم وجود سبب وجوده، بمعنى أنه لا يوجد إلاّ بسبب ولا ينعدم إلاّ بسبب. فهو إذن معلق بسببية. أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى، بحيث لا يحتاج إلى سبب لوجوده، بل إنه هو سبب إيجاد الممكن أو نفيه، فوجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب، لأن كل ممكن يحتاج إلى سبب يعطيه الوجود، فوجب أن يكون السبب أو الواجب هو وراء كل الممكنات، فهو واجب الوجود لذاته، وهو السبب الأول الذى لا يحتاج إلى سبب آخر لإيجاده، وما عدا السبب الأول فلا يستقل بالتأثير بل لا يؤثر البتة إلاّ بانضمام سبب آخر إليه وانتفاء مانع يمنع تأثيره، فكل سبب من أمثال هذه الأسباب موقوف على سبب أو أسباب أخرى، إلاّ الله تعالى الواحد القهار، فهو السبب الأول، مستقل بذاته، وهو - سبحانه - الواجب الوجود لذاته.. من صفاته القدم والبقاء ونفى التركيب، والحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة والاختيار، والوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا، إلى آخر الصفات المستمدة من أسماء الله الحسنى.

وقيل إن هذه الصفات من أحكام الواجب الوجود لذاته، فلو لم يكن قديما أزليا لكان حادثا، والحادث ما سبق وجوده عدم، وكل ما سبق بالعدم يحتاج إلى علّة تعطيه الوجود. فلو لم يكن الواجب قديما ما كان وجوده لذاته. ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم، وإلاّ لزم سلب ما هو للذات عنها وهو محال. ومن أحكامه أن لا يكون مركبا، إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التى هى ذاته. والواجب ما كان وجوبه لذاته من حيث هى ذاته. وكما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة، لأنه بها يعود إلى غير وجوده الأول الواجب لذاته، والقول بغير ذلك معناه تعدد

الوجودات بتعدد الأجزاء الحاصلة من القسمة، بينما هو الواجب وجوده لذاته من حيث هي ذاته. ومن كمال هذا الوجود قوته بكمال هذا المعنى، حيث إن وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن، فيكون هذا الوجود الواجب مستتبعا الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة، فواجب الوجود حيّ، وهو واهب الوجود وما يتبعه، فالحياة له كما أنه مصدرها، وصفة الحياة هى التى تستتبع العلم والإرادة، فواجب الوجود عالم، ومن أدلة ثبوت العلم الواجب، ما نشاهده فى نظام الممكنات من الإحكام والإتقان، ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته، فلا ريب أن يكون قادرا بالبداهة، وثبوت هذه القدرة مع العلم والإرادة يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار.. فهو سبحانه الفاعل المختار. ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا. وليس فى كافة الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى وحدة وفى مرتبة الوجود، ولا فى التفرد بوجوب الوجود. وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة. فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ (المؤمنون: ١١٥) وهذا هو معنى قولهم: أفعاله سبحانه لا تعلل بالأغراض، ولكنها تتنزه عن العبث، ويستحيل أن تخلو من الحكم، وإن خفى شيء من حكمتها عن الأنظار. والله تعالى أعلم.

وعقلانيا تتصل فكرة الوحدانية والتوحيد بفكرة القضاء والقدر والسببية والحتمية من عدة جهات.. منها أن الإرادة البشرية بطبعها محكومة فى الأغلب الأعم.. سواء بالنسبة لما يجرى داخل الآدمى أو فى الكون.. وتبدو للآدمى دائما محملة بمشيئة عليا خارجة لا يمكن أن تُغَالب أو تُنَافس.. وهو خاضع – أى الآدمى – فى كل لحظة لنواميس فعالة جارية داخله وخارجه تساير ولا تغاير.. ويرتبط حظه بنجاحه فى هذه المسايرة ومبلغ ما لديه من الالتفات والفهم لتحققها.. ولديه منذ مولده أجهزة ملائمة لذلك.. وأى تمرد من جانبه شذوذ ينتهى حتما بنهاية وجوده الموقوت الفردى العرضى الزائل الفانى.. وقد لخص الآدمى لنفسه ذلك ونحوه فى فكرة القضاء والقدر.. كما أن وسيلته الأولى والأخيرة

إلى العيش هى حظه من الوعى لوجوده وللوجود الذى هو فيه. وهو ما تقوم به المشاهدة والمخيلة وتحفظه الذاكرة.. ووعيه «خلقةً» وأصلا موضوعه ما يدخل فى مرمى حواسه ومألوفها مع ما قد يتصور وجوده فى الخيال أو الاعتقاد. وهو بطبيعة العقل يمارس ذلك من خلال عملية ترتيب وتنظيم بسيطة أو معقدة.. فيها يجعل سابق الأحداث سببا لتاليها إذا تكررت فى ظروف يراها متماثلة ويستنبط من ذلك فروضا وقواعد ونواميس يستعملها فى التوقع والتنبؤ.. وهو فى هذا المجرى العادى للوعى البشرى يرى الكون كله كيانا واحدا مبنيا بناء حتميا على نواميس محددة مقدما أبدية لا تتخلف.

وتأتى فى هذا السياق فكرة البشر عن الأزلية والأبدية والكون والفساد أو الإنشاء والإفناء.. وأهل الأديان السماوية يدينون بعقيدة خلق الكون وفنائه فى موعده وأبدية وأزلية خالقه سبحانه.. وهو جانب فكرى من جوانب الوحدانية والتوحيد.. فالخالق عز وجل هو الأصل والمصدر الدائم لكل ما هو موجود، وهو سبحانه وتعالى الأول والآخر والظاهر والباطن والمحيى والمميت.. وهذه صيغ إن تكن مألوفة الألفاظ إلا أن تركيبها ومعناها لا يتصور إلا من جهة آثاره فينا وفى أجزاء العالم التى نراها أو نحس بها، ولا يمكن أن يتصور معناها لدينا من جهته سبحانه وتعالى مباشرة.. لأن تصورنا كله يرتبط بالزمان والمكان لا يفارقهما.. ولا يتأتى إقرار وعينا به تعالى من طريق التصور ولكن من طريق الإيمان فقط .. وهذا هو واقعنا وواقع أهل الأديان السماوية من قديم الزمان.. ونحن مسئولون عن إخلاصنا فى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبوحدانيته، وتسليم عقولنا وقلوبنا له ورعاية هذا الإيمان بكل عناية فى سلوكنا كله إلى أن نفارق الحياة الدنيا ونحن على هذا الإيمان الراسخ بالواحد الأحد رب العالمين.

ооо

العقيدة الإلهية فى الإسلام

لعل من أفضل، إن لم يكن أفضل، ما كتب فى العقيدة الإلهية فى الإسلام، هو الكتاب الضافى «الله» .. بحث فى العقيدة الإلهية، كتبه الأستاذ المفكر الجليل عباس محمود العقاد.

فى تقديمه للكتاب يقول العقاد: «موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية، منذ اتخذ الإنسان ربا إلى أن عرف الله الأحد، واهتدى إلى نزاهة التوحيد. وقد بدأناه بأصل الاعتقاد فى الأقوام البدائية، ثم لخصنا عقائد الأقوام التى تقدمت فى عصور الحضارة، ثم عقائد المؤمنين بالكتب السماوية، وشفعنا ذلك بمذاهب الفلاسفة الأسبقين، ومذاهب الفلاسفة التابعين، وختمناه بمذاهب الفلسفة العصرية، وكلمة العلم الحديث فى مسألة الإيمان. وكانت عنايتنا فيه بالعقيدة الإلهية دون غيرها. فلم نقصد فيه إلى تفصيل شعائر الأديان ولا إلى تقسيم أصول العبادات، لأن الموضوع على حصره فى نطاقه هذا أوسع من أن يستقصى كل الاستقصاء فى كتاب. وأن موضوعا كهذا الموضوع المحيط لعرضة للتشعب والتطويل كيفما تناوله الكاتب ومن أى جانب تحراه، فلا بد فيه من إيجاز، ولابد فيه من اكتفاء . غير أننا تحرينا الإيجاز وتحرينا معه أن يغنينا فيما قصدناه، وذاك هو الإلمام بأطوار العقيدة الإلهية على وجهتها إلى التوحيد، وإن تكن هذه الأطوار مفهومة العلل والمقدمات وأن الله الذى هدى الأمم كافة على هذا النهج البعيد، لكفيل أن يهدينا عليه، وأن يوفقنا لسداد النظر فيه. فلا هداية إلاّ به، ولا معوّل إلا عليه. إنه سميع بصير مجيب».

إيمان العقاد، ودعاؤه إلى ربه أن يهديه فيما يكتبه، لم يتعارض بداهة مع خطته فى بحث أطوار العقيدة الإلهية .. فالإنسان ترقى فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات.. فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته. فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى. وينبغى أن تكون محاولات الإنسان فى سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات، لأن حقيقة الكون الكبرى أشق

مطلبا وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشـياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى. وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة وهى أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغـاز والأحلام. ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشـمس لأن العقول كانت فى ظلام من أمرهـا فوق ظـلام، ولعلها لا تزال. فالرجوع إلى أصول الأديـان فى عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين، ولا على أنها تبحث عن محال. وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة فى عصر واحد.

فى هذا الكتاب الضافى الذى صدرت منه عدة طبعات منذ نُشـر لأول مرة فى سـبتمبر ١٩٥٤ فـى كتاب الهـلال، تناول العقاد بعـد مقدمة ضافية فى العقيـدة الإلهية، تناول هـذه العقيـدة فى دول الحضارة القديمة، كما تناولها فى الأديان السـماوية، وفى مذاهب الفلاسـفة السابقين، وفى آراء الفلاسفة المعاصرين، ثم فى رأى العلم الحديث. ولا تعارض فـى هذا التناول، ولا مسـاس بداهة، بالعقيدة الإلهية كمـا خلصت إليها الأديان واضحة جليّة مصفاة. فتاريخ أطوار العقيدة شـىء، وجوهر العقيدة شىء آخر لم يرتق إليه الإنسان إلاّ عبر رحلة طويلة.

يعرف علماء المقابلة بين الأديان، فيما أورد العقاد، أن العقيدة الإلهية مرت لدى الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب بثلاثة أطوار : دور التعدد، ودور التمييز والترجيح، ودور الوحدانيـة. وفـى مرحلة التعدد كانت الأرباب أنواعا شـتى: (١) أرباب الطبيعة، كالشـمس والقمر وقوى الطبيعة (٢) أرباب الإنسـانية، وهى الأرباب التى تقترن بأعمال الأبطال والقادة المحبوبين أو المرهوبين (٣) أرباب الأسرة من الأسلاف الغابرين (٤) أرباب المعانى، كرب الحرب أو العشق وما شابه (٥) أرباب البيت، كرب الموقد أو البئر (٦) أرباب النسـل والخصـب، وغالبيتها العامة صورة الإناث أو الأمهـات واهبات الخلود (٧) آلهة الخلق التى ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والكائنات (٨) الآلهة العليا، وهى آلهة الخلق التى تدين عبادها بشرائع الخير وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن والأخلاق، وتضمن السعادة الأبدية للأرواح فى عالم البقاء.

واختلفت الأمم والشعوب فيما أخذت أو لم تأخذ به ـ فيعبادتها ـ من هذه الأرباب، فكفار العرب كانوا قبل البعثة المحمدية يذكرون الله على ألسنتهم، ويسمون أبناءهم عبد الله وتيم الله، وبعضهم يعبد الأسلاف في صورة الأصنام، وأناس آخرون دان بعضهم بالمسيحية، وبعضهم باليهودية. وفى مصر وصل المصريون إلى التوحيد، وبقيت أسماء الإله الواحد متعددة حسب التعدد فى مظاهر التجلى، فأوزوريس هو إله الشمس، و «رع» الإله الخالق، و«خنوم» الإله المعلم الحكيم، وهكذا..

ونعرف أن اليهود عبدوا العجل بعد عبادة الله الواحد، وسموا الإله الواحد باسم الجمع وهو فى العبرية «الوهيم» أو الآلهة.. ثم أصبح الجمع علامة التعظيم.

أما التوحيد فكان نهاية تلك الأطوار كافة فى جميع الحضارات الكبرى، ثم كانت الأديان الكتابية بعد كل هذا هى التى بلغت بالتوحيد غاية مرتقاه.

ooo

ويبدو أن ديانة الشمس، كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح، لأنها كانت – فيما أورد العقاد أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليقة والحياة. وأغلب الظنون المدعمة بقرائن معقولة – أن مصر القديمة بدأت بتوحيد الدين كما بدأت بتوحيد الدولة.

وبعد فصل ممتع عن الملكات النفسية تمهيدا لاستكشاف صلتها بالاعتقاد، انتقل العقاد للحديث تفصيلا عن العقيدة الإلهية فى دول الحضارة القديمة، فى مصر، ولدى العبرانيين، وفى الهند التى تعززت فيها عبادة «الطواطم» بعقيدتهم فى وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول.. فعبدوا الحيوان على اعتباره جدا حقيقيا أو رمزيا للأسرة ثم القبيلة، ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى فى كل موجود أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه وآمنوا بتناسخ الأرواح حتى جاز عندهم أن يكون الحيوان جدا قديما أو صديقا عائدا للحياة. لكنهم خلصوا كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد، وإن اختلفوا فى المنهج الذى سلكوه.

تحدث العقاد فى هذا السياق عن الكارما Karma أى القانون الأبدى، وعما قامت عليه البوذية التى بَشَّر بها البوذا جوتاما قبل الميلاد المسيحى بحوالى خمسة قرون. ومن

قبله آمن البرهميون بالدورة فى وجود الكون والدورة فى وجود الإنســان، وخلاصة البوذية –التى لا تعتبر إضافة فى صميم العقائد بل إضافة فى آداب الســلوك وفلسفة الحياة – أن هناك عذابا وشقاءً، وأن لذلك سببا، وأنه قابل للزوال، وأن الوصول إلى هذه الغاية موجود لمن يختار.

أما سبب الشقاء فهل الجهل الذى صرفنا بالأوهام عن لباب الأمور، وجعلنا نعرض عن الجوهر الأصيل. وعلى هذا النحو، ولأن العرض هو كل ما يزول ويتغير، ينكر البوذا وحدة «الشــخصية الإنســانية» لأنها لا تتجاوز أن تكون تلاحقا مستمرا للأحاسيس يبدو لنا كأنه حزمة مضمومة فى كيان واحد.

انتقــل العقــاد من الهند إلى الصين واليابان، ملاحظا ترامــى وتنوع أنواع العبادات فى الصــين – من أدناهــا إلى أرقاها – تبعا لضخامة الصين وكثرة شــعوبها، وأنها على كثرة العبادات التى دانت بها لا تحســب من أمم الرسالات الدينية كمصر وبابل والهند وفارس وبلاد العرب وفلسطين، لأنها لم تخرج للعالم قيما دينية يتلقاها منها. وليس لأهل الصين رسل وأنبياء بل لهم معلمون ومربون، مثل «كونفوشيوس»، وأصل اسمه «كنج فو» وأضيفت إليه «بلاوتسى» أى المعلم لاو. وهو يوصى بمقابلة السيئة بالعدل والإحسان بالإحسان.

فشعائر الدين بين أهل الصين هى شعائر الطريق أو شعائر «السلوك» وفرائض التهذيب والتثقيف ومحورها الحلم والسلم والتحذير من العنف والغضب والإفراط والإسراف.

وموقف اليابان من الرســالة الدينية كموقف الصــين على الإجمال، ولا مخالفة بينهما إلاّ إفراط أهل اليابان فى تأليه صاحب العرش واعتدال أهل الصين فى تقديســه كاعتدالهم فى جميع الشئون. وإذا كان لأهل اليابان سمة خصوصية فى العبادات، فهى أنهم اختاروا ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى حين وحدوا الأسلاف فى أكبرها وأعلاها، وتلك الربة هى «أمتيراســوا – أموكامى»، ويؤخذ من الأســاطير اليابانية أنها ربّة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ على جزيرة كيوشــو وأخضعوا أهلها وطردوهم منهزمين إلى الجبال. ولا يعتقد اليابانيــون أن هذه الرّبة خلقت الكون أو خلقت الإنســان، لأنهــم يعتقدون أن عهدها قد ســبقته عهود عديدة تنازع فيها الأمر عشــرات الألوف من الأرباب.. وهذه الأرباب عندهم

هى بمثابة الملائكة والجنة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية، ويسمّون الواحد منها «كامى».

أما الخلق فهو منسوب عند اليابانيين إلى إله السماء «أزاناجى - نوميكوتو» وزوجته وأخته إلهة الأرض «أزانامى - نوميكوتو». فولدا جزر اليابان وألحقاها ببذور الآلهة وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة الآلهة!.

أما تاريخ الديانة فى فارس، فتوجد وشائج بينه وبين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية، ومرتبط هذا التاريخ بالسابق له واللاحق به، واقتبست الديانة الفارسية من غيرها واقتبس غيرها منها، وتقدمت الفكرة الإلهية عندهم على يد «زرادشت» صاحب الشريعة القومية فى بلاد فارس. وبسبب السلالات التقى الأقدمون من فارس مع الهند فى عبارة «مترا» إله النور وفى تسميات الإله وإن اختلفوا فى إطلاقه على عناصر الخير والشر. واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم، ولم تخل الديانة المجوسية لدى فارس من عقائد الطورانيين، لأن «زرادشت» عاش بينهم زمنا وبشرهم بديانته. وقد آمن المجوس بالعالم الآخر كما آمن به المصريون القدماء، وبالثواب والعقاب فى الدار الآخرة على تفصيلات يتتبع العقاد جذورها ومظاهرها وصورها ورواياتها.

وعلى قدم الحضارة البابلية، فإنه لم يكتب لها أن تؤدى رسالة ممتازة فى تاريخ الوحدانية، لأسباب فصل العقاد الحديث فيها، ملاحظا أن قصص الخلق عندهم مناسبة لموقع بلادهم واشتغال أهلها من قديم برصد الكواكب ومراقبة الأنواء. وتدل قصة الطوفان على أنها من مأثورات قوم عريقين فى سكنى تلك البلاد، لأن الباحثين يعتبرون أن الطوفان قد غمر ما بين النهرين إلى الشمال، وأن الجبل الذى استقرت عنده سفينة نوح هو الجبل المعروف اليوم بجبل أرارات .

أما تاريخ العقيدة فى بلاد اليونان، فقد حفل بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب «الأوليمب» الذين خلدوا فى أشعار هومير وهزيود ، فعبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل، ومزجوا هذه العبادات جميعا بطلاسم السحر والشعوذة. فلمّا شاعت بين الإغريق عبادة «أرباب الأوليمب» كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم السابقة.

فالإلـه «زيوس» أكبـر أرباب الأوليمب هو الإله «دموس» المعروف فى الديانة الهندية الآرية القديمـة ، والرّبـة «أرتميس» – ومثلها الرّبة أفروديت أو فينوس – هى الرّبة عشـتار اليمانية البابليـة.. ومنها كلمة «سـتار» التى تدل على النجم فى بعض اللغـات الأوروبية الحديثة، والرّبة «ديمتر» هى «إزيس» المصرية كما قال هيرودوت، وهى واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتهـا فى بلاد الإغريق وعبادتها بـين قدماء المصريين. وبعد بيان ما تطرقت إليه كل هذه الديانات الغابرة، يتوقف العقاد على أعتاب: العقيدة الإلهية فى الأديان السماوية.

ooo

فى تجواله بعقيدة التوحيد بالأديان السماوية، يبدأ العقاد ببنى إسرائيل أو العبرانيين، فيلاحظ أنهم مثل جميع الأمم الغابرة فى تطور العقيدة قد دانوا زمنا بعبادة الأسـلاف كما دانوا بعبادة الأوثان والكواكب وظواهر الطبيعة وطواطم الحجارة والأشجار والحيوان.

وقـد دعاهم موسـى عليه السـلام إلى التوحيد ونبذ الأصنام والأوثـان. وقيل إنه عليه السـلام أول من سمّى الإله «يهوا»، وهو اسـم لا يعرف اشـتقاقه على التحقيق، فيصح أن يكـون مـن مادة الحياة، ويصح أنه نداء لضمـير الغائب، أو غير ذلك من الفروض. وأنهم ظلوا إلى ما بعد أيام موسـى عليه السـلام ينسـبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته، وقد خلت الكتب الإسـرائيلية مـن ذكر البعث، وأول إشـارة إليه وردت فى الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب أشعيا الذى عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد، وجاءت إشارة أخرى – أصرح– إلى يوم البعث والدينونة فى الإصحاح الثانى عشر من كتاب دانيال. وكان معنى الكفر فى الإسرائيلية الأولى كمعنى الخيانة الوطنية هذه الأيام، فكانت للشعوب آلهة يؤمن الإسـرائيليون بوجودهـا، ولكنهـم يحرمـون عبادتهـا كتحريم الانتمـاء إلى دولة أجنبية، وظلـوا على ذلك إلى أن فـهموا «الوحدانية» التى تتعالى على الشـبيه والنظير.. وذلك فى أيام أشعيا الثانى القائل بلسان الرب : «بمن تشبهوننى وتسووننى وتمثلوننى لنتشابه؟».. وأشعيا هو الذى شدد النكير عليهم قائلا إن الله هو الأول منذ القدم، وهو المخبر منذ البدء بالأخير، ونعى عليهم أن يعبدوا صنما «يرفعونه على الكتف ويحملونه ويضعونه فى مكانه ليقف فى موضع لا يبرحه، ويناديه الداعى فلا يجيب»!.

والغالب في وصفهم للإله – سبحانه عز وجل عن هذه الأوصاف! – بأنه غيور شديد البطش متعطش إلى الدماء، سريع الغضب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه، ولكن موسى عليه السلام وصفه بالرحمة وفريقا من أنبيائهم وصفوه بالحب واللطف وعلموهم أنه يحب عباده ويطلب منهم أن يحبوه. ويلاحظ العقاد أن العقائد الإسرائيلية شغلت حيزا من مقارنات الأديان، لأنها نقطة التحول بين العبادات القديمة والعبادات في الأديان الكتابية، ولأنها ثانيا قد صحبت التطور في فكرة المسيح المنتظر من مبدئها، ولأنها ثالثا موضوع مقابلة مستفيضة بينها وبين عقائد البابليين والمصريين والفرس والهنود الأقدمين، ولها صلة قريبة بعقائد اليونان قبل عصر الفلسفة وبعدها إلى عصر السيد المسيح عليه السلام. فكانت العقائد الإسرائيلية نقطة تحول لأسباب يفصلها العقاد، ثم يورد أنه هنا لا تعنينا مقارنات إلاّ من جانب واحد، هو جانب التطور البشري في إدراك صفات الله، وأنه متى قصرنا النظر على هذا الجانب فإن الثابت من تاريخ الديانة الإسرائيلية أنها انقلبت بعد عصر إبراهيم عليه السلام إلى وثنية كالوثنية البابلية، وأن التوحيد الذي بَشَّر به إخناتون في مصر القديمة سابق لشيوع التوحيد في شعوب إسرائيل، ولكن العقيدة الإسرائيلية عاشت بعد اختفاء عقيدة إخناتون وبعد عصر موسى عليه السلام.. فكانت هي كما تقدم في تطور الاعتقاد بالله بين الأمم التي تؤمن اليوم بالأديان الكتابية.

هنا يتوقف الأستاذ عباس العقاد ليعقد فصلا وافيا عن الفلسفة، ملاحظا أنه كلما ترقى النوع الإنساني بتفكيره وبأخلاقه وأحواله تهيأ لقبول عقيدة التوحيد، وترقى في هذا الاتجاه من تنزيه إلى تنزيه، ومن كمال إلى كمال، وأن ذلك تجلى في الأديان القديمة التي أتمت نضجها وبلغت مستقرها في زمانها واستكملت من قبل جميع شعائرها. وأنه من الدين تلقى الفلاسفة فكرتهم عند الروح، وفكرتهم عن بطلان الظواهر المادية، ومنه تعلموا التفرقة بين العقل والمادة فتعلموا كيف ينفذون إلى ما وراء الحس ويوغلون في تصفية كنه الموجودات إلى أعمال لا تغوص فيها الأجسام وآفاق لا تدركها الأبصار. وهنا يقف العقاد عند بعض الفلاسفة في اليونان وفي الشرق فيتحدث عن «انكسماندر» القائل بالتطهير والتفكير في دورات الخلق المتعاقبة، وعند تلميذه «أناكسمين» الذي لم يزد شيئا يذكر عن

أقوال أستاذه، وما أنجبته آسيا الصغرى وما حولها من فلاسفة فى الجيل التالى لجيل «طاليس» وزملائه، وعن رسالة «أكسينوفان» الكبرى التى أنحت بشدة على كل تشبيه أو تمثيل توصف به الأرباب، لأن حقيقة الإله من وراء خيال الإنسان، كما يتوقف العقاد عند «هيرقليطس» الذى يراه أعظم فلاسفة آسيا الصغرى وما حولها. ولا ينهى العقاد هذا الفصل قبل أن يتحدث عن فيثاغوراس ومن بعده «انكسغوراس» الذى عَمَّمَ كلام «هيرقليطس» عن الكلمة Logos وسماها Nous أى العقل ووصفه بأنه جوهر مجرد خالد واحد لا يتعدد، وأنه هو مصدر حركة دوارة تدفع ما خف إلى أعلى الكون وتهبط بما أسفل إلى مركزه، وأنه ما من شيء إلاّ فيه امتداد، إلاّ العقل فإنه منزه عن التعدد والتناقض.. وهو الله أو هو الصلة بين الله والعالم. ولا ينسى العقاد المدرسة الإيطالية التى يرجع نشاطها إلى مدارس آسيا الصغرى، فيتحدث عن لباب مذهب بارمنيد، وعن زينون الإيلى، أبرع المدافعين عن مذهب أستاذه «بارمنيد»، مجتزئا أمثلة على طريقة هذه المدرسة فى إثبات الوحدة الكونية ونفى التعديد والتغيير. ثم يتحدث عن «كليانتس» Cleanthes الذى ولد على الأرجح سنة ٣٣١ ق.م بعد زينون بسنوات، ورأيه فى أن الله روح يسرى فى جميع أجزاء الكون، وأنه لا بدّ أن يكون الموجود الحىّ الكامل شيئا غير الإنسان، وأن يكون مستكملا للفضائل منزها عن كل سوء.ومثل هذا الموجود يطابق صفات الإله.فالإله إذن موجود. ثم يتحدث العقاد من «شريسبس» Chrisippus، ثم مدرسة أبيقور التى كانت وسطا بين مدرسة الرواقيين ومدرسة أثينا الكبرى، ثم المدرسة الأثينية: مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو، ورأسها سقراط الذى كان من أصحاب الهواتف الخفية، وأُثر عنه إيمانه بخلود الروح وسلامتها من الفساد مع الجسد بعد الموت، وأنها ترجع إلى معدنها الأول من الصفاء المنزه عن التجسيد والتركيب. ومن بعده جاء أفلاطون الذى يرى أن العقل المطلق كمال لا يحده الزمان والمكان ولا يصدر عنه إلاّ الخير والفضيلة. ومن بعده تلميذه العظيم «أرسطو» الذى توسع فيما بعد الطبيعة توسعا غير مسبوق بين الفلاسفة الأوائل، ووضع علم المنطق، وقال إن الله هو العلة الأولى والمحرك الأول. محرك بذاته، أو محرك لا يتحرك. وأن هذا المحرك الذى لا يتحرك لا بدّ أن يكون سرمدا لا أول له ولا آخر، وأن يكون كاملا منزها

عن النقص والتركيب والتعدد، وأن يكون مستغنيا بوجوده عن كل موجود. هذا المحرك الأول سابق للعالم فى وجوده سبق العلة لا سبق الزمان. وعلى هذا قال أرسطو بقدم العالم على سبيل الترجيح الذى يقارب اليقين، إلاّ أن إحداث العالم يستلزم تغييرا فى إرادة الله والله – جل جلاله – منزّه عن ذلك. ويقول أرسطو بوجود الروح ولكنه لا يقول ببقاء الروح الفردية بعد الموت. فالروح من عالم العقل والفعل واحد فى جميع الأفراد، وهم إذا اختلفوا بالأذواق الجسدية لم يختلفوا بالمدركات العقلية. فلا اختلاف بين إنسانين فى إدراك الحقائق المجردة، ومؤدى هذا عنده أن العقل المجرد لا فردية فيه، وأن الروح تعود إلى العقل العامل بعد فراقها للجسد. فلا فردية لها بعد الموت، ولكنها لا تفنى ولا تقبل الفناء.وهنا نقف مع الأستاذ عباس العقاد على عتبة حديثه التالى عن المسيحية.

ooo

للعقاد كتاب ضاف عن المسيح عليه السلام، ولكنه فى كتاب «الله» – كبحث فى نشأة وتطور وتاريخ العقيدة الإلهية– يوجز الحديث فى المقدمات، لينتقل إلى جوهر بحثه عن العقيدة الإلهية فى المسيحية.. عند ميلاد المسيح عليه السلام، والأرجح أنه ولد قبل التاريخ المشهور بأربع سنوات، كان اليهود يترقبون المسيح المنتظر على رأس الألف الخامسة للخليقة، وكان الأردن وما حوله مفعما بدعوة يحيى بن زكريا أو يوحنا المغتسل المشهور بالمعمدان، وراح النبى يحيى يدعوهم إلى التوبة والاغتسال من الذنوب، ويرمز إلى التطهر من الدنس بالتطهر فى نهر الأردن على يديه، ويبشرهم أو ينذرهم بقرب «ملكوت الله» أو «ملكوت السماء»، وكان اليهود قد فهموا «ملكوت الله» على معنى غير الذى فهموه وتوارثوه من أيام السبى، فقد كانوا ينتظرون ملكا «مسيحا» من قبيل ملوكهم الذين كانوا يمسحونهم بالزيت المقدس ويسمونهم من أجل ذلك بمسحاء الرب أو المسحاء. وتجدد رجاء اليهود فى مسيح من هذا القبيل بعد سقوط أعدائهم الأقوياء، فلما تطاول الزمن ووقعوا فى قبضة الدولة الرومانية وعجزوا عن مقاومتها، وتحولوا إلى الرجاء فى قيام مسيح غير مسحاء العروش والتيجان، فترقبوه فى عالم الروح، وعلم الصالحون منهم أن الخلاص المنتظر إنما هو خلاص النفوس والضمائر بالتوبة والتطهير. ولكن بعد أن كان أنبياؤهم قد بشروا بذلك

المسـيح قبل عصر الميلاد بعدة قرون، أوفت فلسفة الفلاسفة الذين تناولهم العقاد فى الفصل السـابق على غايتها، ومن هؤلاء الفلاسـفة من بشـر بالكلمة الإلهية وقال إن هذه الكلمة - ويعنى بها العقل الإلهى - هى مبعث كل حركة ومصدر كل وجود، فتهيأ للرسالة الجديدة تمهيد فى نطاق الفلسفة وفى نطاق الديانة فى وقت واحد، فتقابلت دعوة «فيلون» الفيلسوف الإلهى المولود بالإسـكندرية مع دعوة «يحيى» أو «يوحنا المعمدان»، وفى هذا الجو المتطلع إلى الرسالة الروحية ولد السيد المسيح عليه السلام، وكان يستمع العظات من يوحنا المعمدان ويتقبـل «العمادة» من يديه، فلما قتل يوحنا لم يُرهبه مصرعه الأليم، ونهض بأمانة الدعوة بعده فى بلاد الجليل ثم فى بيت المقدس.

فلم ينتظر المسـيح ملكـوت الله فى حادث من الحوادث الدنيويـة، بل علم الناس أن ملكـوت الله قائم فـى ضمائرهم وموجود فى كل حقبة وكل مـكان: «ولا يأتى على موعد مرتقب. ولا يقولون هى ذا هنا أو هو ذا هناك. لأن ملكوت الله فيكم».

ولم يشـهد التاريخ - فيما يقول العقاد - قبل السـيد المسـيح عليه السـلام رسولا رفع الضمير الإنسـانى كما رفعه، ورد عليه العقيدة كلها كما ردها إليه.. فقد جعله كفؤا للعالم بأسره بـل يزيد عليه فلا نفع فيمن يربح العالم ويخسر ضميره.. فهذه صفقة خاسرة: «وماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، وماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه»؟!.

والطهر كل الطهر فى نقاء الضمير. فمناط الخير كله فيه ومرجع اليقين كله إليه: «فليس من شىء من خارج الإنسان يدنسه، بل ما يخرج من الإنسان هو الذى يدنس الإنسان».

كان المسيح عليه السلام يقول لهم: «نقّوا الكأس من داخلها» فظاهرها لا يضير ما فيها وكان ينكر كل ما يُراد به الظاهر ولا ينبعث من أعماق الوجدان، فلا إحسان عنده لمن يرائى بالإحسـان.. فذلك تاجر قد أخذ ربحه فلا حقّ له عند الله.. «احذروا من صدقة تصنعونها أمـام النـاس، وإلاّ فلا أجر لكم عند أبيكم (ربكم) الذى فى السـموات، وإذا بذلت الصدقة فـلا تنفـخ أمامك بالأبواق كما يفعل المراءون تفاخرا بين النـاس، فالحق أقول لكم إنهم قد اسـتوفوا أجرهـم.. فـلا تعـرف شمالك ما تفعل يمينك.. فأبـوك (ربـك) الذى يـراك فـى الخفاء يجزيك فى العلانية»، كل شىء فى عالم الحس ينقاد لقوة الضمير.. فجانب الضمير

هى الذى توجهت إليه رسالة السيد المسيح، ورعاية الله لروح الإنسان هى الملاذ الذى رأى الناس منصرفين عنه فعاد بهم إليه.

نسى من آمنوا بالله وعبدوه وتوقفوا عند حسابهم على الطاعة والعصيان رعاية الله ولم يريدوا أن يحبوه كما أرادوا أن يطيعوه، فعلمهم المسيح عليه السلام أن الله محبة وأن أقرب الناس إلى الله من أحب الله وأحب خلق الله، ومنهم المطرودون والعصاة، ولا يستحق غفرانه – سبحانه وتعالى – من لم يتعلم كيف يغفر للمسيئين إليه: «..إن أخطأ إليك أخوك فوبخه، وإن تاب فاغفر له، وإن أخطأ إليك سبعا فى اليوم، فاقبل توبته واغفر له».

ينبغى أن تُفْهم عبارة المسيح: «ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله» على أنه عليه السلام لم يأت بإلغاء الشريعة أو إسقاط الجزاء، ولكنه نقل الإيمان بالله من الحرف إلى المعنى، ومن القشور إلى اللباب، ومن ظواهر الرياء إلى حقائق الخير الذى لا رقابة عليه لغير الضمير.

وقد أشار السيد المسيح إلى نفسه بتعريفات كثيرة رواها عنه كتاب الأناجيل، فكان إذا تكلم عن نفسه قال: «أنا ابن الإنسان» أو «أنا نور العالم» أو «أنا خبز الحياة» أو «أنا الطريق والحق والحياة» أو «أنا القيامة والحياة» أو «أنا الراعى الصالح، وأنا المعلم والسيد» أو «أنا الكرمة الحقيقية».. ولم يذكر نفسه باسم المسيح ولكنه بارك الحوارى بطرس حين سماه به، وقال له إنه اهتدى إلى حقيقته بنفحة من نفحات الروح.

ومن وراء العقاد، قرأت الأناجيل بإمعان، وعقدت فصلا فى كتاب الأديان والزمن والناس (كتاب الهلال – العدد ٦٦٩ – سبتمبر ٢٠٠٦) – فوجدت عبارات صريحة للسيد المسيح عن وحدانية الله، فأورد الإنجيل بقراءة مرقس إجابة يسوع: «الرب إلهنا رب واحد، فأحب الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك وبكل فكرك وبكل قوتك» (مرقس ١٢: ٢٩، ٣٠). وفى الآية التالية قال له الكاتب: «صحيح يا معلم! حسب الحق تكلمت. فإن الله واحد وليس آخر سواه» (مرقس ١٢ :٣٢)، وفى نصوص الإنجيل كثير من الآيات التى أفصحت فى عشرات المواضع أن لفظ «الأب» مستخدم بمعنى الرب.. وفى إنجيل متى على لسان السيد المسيح: « ولا تدعوا أحدا على الأرض أبا لكم: لأن أباكم واحد، وهو الأب الذى فى السموات». (متى ٢٣: ٩ – ١٠)

وأورد الأستاذ العقاد أن العلاقة بين الإنسان وخالقه فى بشارة السيد المسيح هى العلاقة بين الروح ومصدرها وبين الحياة وينبوعها وبين المكفول وكافله، وبين الرعية وراعيها، ولم تتفق هذه الصفة فى ديانة واحدة من ديانات ذلك العصر كما اتفقت فى الديانة المسيحية. وهنا نتوقف مع العقاد على أعتاب حديثه عن العقيدة الإلهية فى الإسلام ختام الأديان الكتابية والرسالات السماوية.

ooo

يستهل العقاد حديثه عن الإسلام بأنه جاء بعد مرور نحو ستة قرون على مولد السيد المسيح، تشعبت خلالها المذاهب المسيحية بين قائل بطبيعة واحدة للسيد المسيح وقائل بطبيعتين اثنتين : هما الإنسانية والإلهية، أو الناسوت واللاهوت، وبين مؤله للسيدة مريم ومنكر لهذا التأليه، وبين مفسر لنبوة السيد المسيح بأنه ابن الله، ولكنها بنوة على المجاز بمعنى القرب والإيثار على سائر المخلوقات، وقائل بأنه ابن الله على الحقيقة التى يفهمها المؤمن على نحو يليق بالذات الإلهية.

وتسربت هذه المذاهب جميعا للجزيرة العربية مقرونة بالبراهين الجدلية التى يستند إليها أو يستدل بها كل فريق، وكثير من هذه البراهين مستمد من المنطق ومذاهب حكماء اليونان، فقد كان أوريجين ونسطور وآريوس أصحاب الآراء الفلسفية واللاهوتية – التى جاءت بها الفرق المختلفة ـ كانوا من المطلعين على الفلسفة الإغريقية وعلى التخصيص بآراء هيرقليطس وأفلاطون وأرسطو وزينون.

وعن هذه الخلافات والهرطقات التى قيلت فى طبيعة السيد المسيح، أورد قداسة البابا شنودة الثالث فى مقدمة كتابه «طبيعة المسيح» (ط ٩ مارس ٢٠٠٤) : «موضوع طبيعة المسيح موضوع هام جدا، كان سبب انقسام خطير فى الكنيسة فى منتصف القرن الخامس (سنة ٤٥١ م)»، وأنه بعد الشقاق الذى حدث سنة ٤٥١ م، رفضت الكنيسة الأرثوذكسية مجمع خلقدونية وتحديداته اللاهوتية، وعرفت فيمن عرفوا بأصحاب «الطبيعة الواحدة» MONOPHYSITES .

وتحدث قداسته عن هرطقة آريوس التى شجبها مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥م، وعن نسطور الذى حرمه مجمع أفسس المسكونى (سنة ٤١٨م) ومع ذلك امتدت جذور النسطورية إلى مجمع خلقدونية الذى ظهر فيه انفصال الطبيعتين، وتلاه انشقاق ضخم تبعا لاختلاف الرؤى والتفاسير تحدث عنه قداسته وعن الاتفاق الذى حررت بشأنه عام ١٩٨٨ وثيقة مشتركة بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الكاثوليكية. (طبيعة المسيح للبابا شنودة الثالث ص ٨ – ١٢)، ومن الانتقال والترحال والهجرات، عرف العرب أطرافا من هذه المذاهب، كما تسربت إلى الجزيرة العربية مذاهب اليهودية، وظلت تتسرب بعد ظهور المسيحية واحتكاك اليهود بالنصارى، وكانت لليهود مذاهب فى الدين تمتزج بالفلسفة حينا وبالتأويلات اللاهوتية حينا آخر، كما أن العرب لم يتلقوا المسيحية من مصدر واحد، أو من الشمال فقط، فقد كانت للحبشة نصرانية ممزوجة بالوثنية التى تخلفت عن عقائدها الأولى، ودان قليل من العرب بهذه الديانات الوافدة على أوضاعها الكثيرة التى يندر فيها الإيمان بالوحدانية وعقيدة التنزيه والتجريد، بينما كان الأكثرون يعبدون الأسلاف فى صور الأصنام، وبعضهم يعرفون الله ويقولون إنهم يعبدون الأصنام ليتقربوا بها إلى الله.

فلما ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية، كان عليه أن يصحح أفكارا كثيرة لا فكرة واحدة عن الذات الإلهية، وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط شتى من بقايا العبادات الأولى وزيادات المتنازعين على تأويل الديانات الكتابية.

ويورد العقاد كيف أن الإسلام كان أول دين تمم الفكرة الإلهية وصححها مما عرض لها فى أطوار الديانات الغابرة. فالفكرة الإلهية فى الإسلام «فكرة تامة» لا يتغلب فيها جانب على جانب، ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة، ولا تجعل لله مثيلا فى الحس ولا فى الضمير، بل له «المثل الأعلى» وليس كمثله شىء. فالله وحده «لا شريك له».. «ولم يكن له شركاء فى الملك».. «فتعالى الله عما يشركون».

والإسلام رفض الأصنام على أى وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب، ولله المثل الأعلى من كافة صفات الكمال وله الأسماء الحسنى، ولا تغلب لديه سبحانه صفة على صفة أو قوة على قوة، فهو سبحانه عزيز ذو انتقام، وهو أيضا رحمن رحيم وغفور كريم.

ومن صفاته عز وجل العلم، فهو سبحانه «عالم الغيب والشهادة».. و «لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض».. و« عليم بما فى الصدور»..وسع كل شىء علما، وهو كذلك مريد فعال لما يريد، فكانت العقيدة الإلهية فى الإسلام هى التامة المتممة لأفكار كثيرة موزعة فى العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية، وجملة ما يقال فى عقيدة الذات الإلهية التى جاء بها الإسلام إن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات. فالله تعالى هو «المثل الأعلى».. وهو الواحد الأحد الصمد الذى لا يحيط به الزمان والمكان، وهو سبحانه المحيط بالزمان والمكان، و ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۝٣﴾ (الحديد: ٣) .. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۝٢٥٥﴾ (البقرة: ٢٥٥).. وهو عزّ وجل ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝٥٤﴾ (فصلت: ٥٤) .. والله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ۝٥٨﴾ (الفرقان: ٥٨) .. ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۝١٥٦﴾ (آل عمران: ١٥٦) .. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۝٨٨﴾ (القصص ٨٨).

قد اقتضت خاتمية وعموم وشمول رسالة الإسلام، أن تكون من رب العالمين إلى العالمين.. الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد، الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا احد.. هو سبحانه الحى الذى لا يموت، الموجود من الأزل، والباقى إلى الأبد.. كل من عليها فان إلاّ وجهه سبحانه ذو الجلال والإكرام.. الله تعالى رب العالمين، فليس الرب كما يقول العهد القديم «رب إسرائيل»، أو رب قوم آخرين من مخلوقات الله، وإنما هو – عز شأنه – «رب العالمين».. وهذا التعبير متعدد التكرار فى القرآن المبين، وتردد فى آياته أكثر من سبعين مرة.. واقتضت النبوة الخاتمية، العامة الشاملة، أن تكون الرسالة للعالمين وللناس كافة، لا يختص به قوم ولا عرق ولا زمان ولا مكان.. هذه الرسالة العامة الشاملة التى بعث بها الله تعالى محمدا عليه السلام «فى أم القرى» لم تكن رسالة لأهل مكة فقط، ولا للقرشيين بخاصة، ولا لأهل الجزيرة العربية دون سواهم، وإنما هى نبوة هداية عامة شاملة تتجه بخطابها إلى الناس كافة، وإلى العالمين إلى يوم الدين!.

كان العــالم فــى حاجة إلى هذه العقيــدة كما كان فى حاجة إلى العقيدة المســيحية من قبلها، وتلقى العالم كلا منهما فى أوانـه المقدور، فكانت المسيحية هى رسالة الحب وأول ديانة تقيم العبادة على «الضمير الإنســانى»، وكان الإســلام رسالة الحق التى أتمت فكرة الألوهية، وربما تلخصت المســيحية فى كلمة واحدة هى «الحب»، وربما تلخص الإســلام فى كلمة واحدة هى «الحق».

«ذلك بأن الله هـو الحق».. «إنا أرســلناك بالحق بشــيرا».. «فتعالى الملك الحق»، فإذا بقى الإيمان بالحق فقد بقى أســاس الشــريعة لكل جيل، وفى كل حال، فماذا تداخلت به مذاهب الفلاســفة فى الأديان الكتابية: اليهودية والمسيحية والإسلام، وماذا صار حال الفلسفة بعد الأديان الكتابية؟ وما هى البراهين القرآنية على إثبات وجود الله ووحدانيته، وما هى آراء الفلاســفة المعاصرين؟ هذه الفصول أفاض فيها العقاد على تفصيل لا يتســع له هذا الحيز، قبل أن يتوقف عند الفصل الأخير: «خاتمة المطاف».

ooo

فى ختام كتاب: «الله»، عقد الأســتاذ المفكر الجليل عباس محمود العقاد فصلا بعنوان «نهاية المطاف».. يورد فى مســتهله أنه مهما يكن من تشــعب الرحلة التى قضيناها على صفحــات هــذا الكتاب، فهى نقلة يســيرة بالقياس إلى الرحلة الإنســانية الكبرى فى هذا الســبيل، وأنــه قد أوجز ما لا بد مــن إيجاز توخى فيه ألا يتخطى حــد الضرورة، وحد الضــرورة أن يكــون البيان كافيا للإشــارة إلى الوجهــة العامة وكافيا لتقريــر النتائج التى يرتضيها العقل ويتطلبها الضمير.

وخاتمة المطاف، انتهت بالعقاد إلى النتائج الآتية:

• إن التوحيد هو أشرف العقائد الإلهية وأجدرها بالإنسان فى أرفع حالاته العقلية والخلقية. ولكن الإنسان لم يصل إلى التوحيد دفعة واحدة. ولم يفهمه على وجهه الأقوم عندما وصل إليه.

بل تعثر فى سعيه، وأخطأ فى وعيه، ولم يزل مقيدا بأطوار الاجتماع وحدود المعرفة عصرا بعد عصر وحالا بعد حال. فلم يلهم من هذه العقيدة إلاً بمقدار ما يفهم، ولم يهتد إلى خطوة جديدة فيها إلاً بعد تمهيد أسبابها وتثبيت مقدماتها، فكان الإيمان مساويا للخلق والعرفان.

• إن الإله الأحد «ذات» ولا يسوغ فى العقل أن يراه غير ذلك. وقد مرت بنا أقوال تضاربت فيها الآراء، وأحكام تنوعت فيها المقاييس، ولكننا وجدنا بينها إجماعا على شىء واحد مع صعوبة الإجماع فى هذه الأمور، وهو أن «الذاتية» أعلى ما نتصوره من مراتب الكائنات على الإطلاق، والكائن الأكمل لن يكون مجردا من الذات، ولن يتخيله العقل عقلا مجردا من الذاتية كما توهم بعض أصحاب الديانات، وناقضوا أنفسهم فيما توهموه، فالعقل يعقل وجوده لا محالة، ومتى عقل وجوده فهو ذات.

• إن كل شرط يذهب إليه الذاهبون لتقييد «الذات» الإلهية بصفة من الصفات المعهودة لدينا، فهو شرط يقوم على غير أساس، فلا أساس للقول بأن «الله» لا تكون له صفات متعددة لأنه جوهر بسيط، ولا أساس للقول بأن الله لا يريد لأن الإرادة اختيار بين أحوال والله منزه عن الأحوال، ولا أساس للقول بأن «الله» لا يعلم الجزئيات لأنه يعلم أشرف المعقولات وهو ذات الله.

فمن أين لنا أن إرادة الله من قبيل إرادتنا؟ وأن علم الله من قبيل علمنا؟ وكيف يكون الوجود إن لم يكن وجودا يفعل ويخالف العدم؟ وكيف يخالف العدم إذا كان سلبا لا أثر له على سبيل الثبوت؟.

هنا نعلم - فيما يقول العقاد - أن الله جلَّ وعلا «ليس كمثله شىء»، فكل ما نعلمه أنه جل وعلا «كمال مطلق» وأن العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذى ليست له حدود، وليس لهذا العقل (المحدود) أن يقول للكمال المطلق كيف يكون وكيف يفعل وكيف يريد.

• إن هذا كله يفضى إلى نتيجة رابعة، وهى الصلة بين العقل والإيمان، ذلك أنه غير معقول أن يستحيل الإيمان مع وجود الإله الذى يتصف بأكمل الصفات، والصلة بين

الخالق وخلقه لا تتوقف على العقل وحده. فهل يعنى هذا أن العقل الإنسانى لا عمل له فى مسألة الإيمان؟ كلا.. بل له عمل كبير، ولكنه ليس بالعمل الوحيد، وفرق بين أن يعرف العقل حدوده وبين أن يبطل عمله.. فإن العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد، ويستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وأدلة التعطيل، ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير عطل من الإيمان، ويستطيع - أىْ عقل الإنسان - أن يبلغ غاية حدوده ثم لا ينكر ما وراءها لأنه وراء تلك الحدود، وهنا لابد من الاعتراف «بالوعى الدينى»، لأنه ضرورة لا محيص عنها، ولأنه واقع ملازم للإنسان فى محاولاته الأولى، ولن يزال ملازما له فى مقبل عصوره إلى أبد الآبدين.

هناك من تساءلوا فى سياق الكلام عن كمال الذات الإلهية: كيف يتفق هذا الكمال وما نحسه فى هذا العالم من النقص والشر والعذاب؟ وهو سؤال عجيب، لأن الكمال المطلق صفة الخالق جل شأنه وليس صفة المخلوقات، وكل مخلوق محدود فلا بد فيه من نقص على صورة من الصور: صورة قبح أو صورة شر أو صورة عذاب.

ومن أين لنا أن نعرف أن النقص الذى يرضينا هو أقرب إلى الكمال من النقص الذى نرضاه؟.

إن الواقع يشهد أننا نرى هذه الآلام وسيلة الارتقاء بتنازع أو تدافع الأحياء ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥١)، ويشهد أيضا بأن هذا التدافع هو وسيلة التهذيب والازدياد فى نمو فضائل الإنسان.

ويرى العقاد أننا نظلم نصيب الحس إذا قلنا إن مسألة الإيمان مسألة عقل ومسألة «وعى» ليس للحس فيها من نصيب. فنحن نستطيع أن نرى بأعيننا أن الإيمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة، وأن غير المؤمن هو «غير طبيعى».. نعاين ذلك من حيرته واضطرابه وانعزاله عن المحيط الذى يعيش فيه، فهذا هو الشذوذ، وليس هو القاعدة فى الحياة الإنسانية وفى الظواهر الطبيعية.

ومن أعجب العجب أن يقال إن الإنسان خلق فى هذا الكون ليستقر على الإيمان من الوهم المحض، أو يسلب هذا القرار أو الاستقرار.

حـول منطق المنكرين، يتابع العقاد فيما يتابعه فـى خاتمة المطاف لكتابه: «الله» حول نشأة وتطور وتاريخ العقيدة الإلهية، يورد العقاد أنه ليست حجة للمنكر أن يقول إن الإنكار ممكن في العقول، بل حجة للمؤمن أن يقول إن حال المنكر ليست بأحسن الأحوال، وإنه إذا أنكر عن اضطرار تبين لنا على الفور أنه فى حال «غير الحال الطبيعى» الذى يستقيم عليه وجود الأحياء.

وخاتمة المطاف، فيما يقول العقاد، أن الحس والعقل والوعى والبديهة جميعا تستقيم على سواء الخلق حين تستقيم على الإيمان بالذات الإلهية، وأن هذا الإيمان الرشيد بالواحد الأحد ـ هو خير تفسير لسر الخليقة يعقله المؤمن ويدين به الفكر والضمير ويتطلبه الطبع السليم.

لقد جاء القرآن المجيد بكل برهان من البراهين التى تقنع العقل والوعى والحس والضمير، وجعل الهدى من الله عن طريق العقل والإلهام والصواب.

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (البقرة: ١٤٢)

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٢٠)

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (يونس: ١٠٠)

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢٥)

وآيات الله مكشوفة لمن يريدها ويستقيم إلى مغزاها، ولكنها هى وحدها لا تقنع من لا يريد ولا يستقيم، وفى ذلك يقول رب العزة فـى القرآن المجيد: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجر: ١٤-١٥)

فحتـى رؤية العين والمعاينة بالبصر والسماع، لا تكفى لإقناع من صرف عقله فى سبيل الإقناع، لأنه يتهم بصره وسمعه فيما رأى بعينه وسمع بأذنيه، وكل شيء فى الأرض والسماء كان لمن جرد عقله من أسباب الإنكار والإصرار.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الروم: ٢٢)

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ (النبأ: ٦ – ١٦)

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الرعد: ٤)

﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾ (ق: ٧)

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ (النجم: ٤٥)

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى: ١١)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الروم: ٢٠)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم: ٢١)

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (يونس: ٣١)

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النحل: ٧٨)

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴿١٤﴾ ﴾ (الأنعام: ١٤)

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى: ١١)

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (يوسف: ٧٦)

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ (النحل: ٦٠)

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

ليست هذه جميع الآيات التي وردت في القرآن الحكيم بإقامة البرهان على وجود الله ووحدانيته، ولكنها أمثلة تجمع أنواعها ونرى منها - فيما يقول العقاد - إنها قد أحاطت بأهم البراهين التي يستدل بها على وجوده سبحانه ووحدانيته: براهين الخلق والإبداع، وبراهين القصد والنظام، وبراهين الكمال والاستعلاء والمثل الأعلى، سبحانه وتعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى: ١١)، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (النحل: ٦٠)، ﴿ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ﴾ (يوسف: ٧٦).

بقي أن أقول إن هذا الكتاب الذي عرضته لك في هذه السطور، من أعمق وأروع ما قرأته في بابه. فيه حلّق العقاد تحليقا لا يستطيعه سواه، فإذا كان هذا ليس غريبا على العقاد، إلاّ أنه صعد في هذا الكتاب إلى قمة لا مرتقى بعدها لأحد، لقد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة، ومع ذلك ما عدت مرة إلى قراءته إلاّ وأعطاني المزيد وكشف لي كل ممتع ومشبع في موضوعه الجليل، اجتمع له جلال اسمه وجلال موضوعه وصدق عزيمة وعمق فكر الأستاذ عباس العقاد، ما جعله على قمة ما يرتجيه قارئ ينشد معرفة أطوار الاعتقاد حتى اهتدت إلى الواحد الأحد رب العالمين.

النبوّة الإسلامية

ينتمي جميع الرسل والأنبياء إلى شجرة واحدة، هم جميعا مبعوثون من رب العالمين، حمل كلٌ منهم رسالته ونهض بها وأداها إلى قومه فى زمنه، وحمل كل منهم إلى المبعوث إليهم حجة صدق تحملهم على التصديق برسالته، والاستجابة إلى هدايته، فبعث نوحا – عليه السلام – إلى قومه، فكان الطوفان آية للمكذبين، وأنجاه الله تعالى والذين معه فى الفلك وأغرق الذين كذبوا بآياته بمن فيهم ابنه الذى أبى واستكبر وظن أنه بمستطيع أن يلوذ بجبل يعصمه من الماء فكان من المغرقين.. كانت حجة نوح – عليه السلام – تبكيره قبل الطوفان بصناعة السفينة بأمر ربه، فنجته ومن معه، ولاقى هود من قومه عاد ما لاقاه نوح عليهما السلام، وسخرت عاد من هود وكذبته، فكانت آية الله لهم الريح الصرصر العاتية التى دمرت كل شىء بأمر ربها (الأحقاف ٢٤، ٢٥)، سخرها الله تعالى عليهم ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾(الحاقة ٦–٨)، وأنجى الله تعالى هودا وقطع دابر الذين كذبوه.. أما صالح عليه السلام، فقد كان مرجوا فى قومه ثمود حتى دعاهم إلى عبادة الله فصار مشكوكا فى أمره فهو يدعوهم – فيما ظنوا – إلى شىء مريب، وما هو إلاّ بشر من المسحرين، وسألوه وهم يمارونه أن يخرج لهم من الصخر ناقة، فأيده الله سبحانه وتعالى بناقةٍ انشق عنها الصخر لتكون لهم آية أمرهم الله ألاّ يمسوها، إلاّ أنهم كابروا وخالفوا وعقروها فأخذتهم «الصيحة» فأصبحوا فى ديارهم جاثمين»!! (هود ٦١– ٦٨)، ولاقى لوط عليه السلام الأمرين من قومه الذين كانوا يفعلون السيئات ولا يرضون عنها بديلا، وأرادوا أن يغلبوه على ضيوفه رسل السماء، فدمر الحق تبارك وتعالى قريتهم وجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود!! (هود ٧٧ – ٨٣).. ومدين قوم شعيب، الذين حذرهم من نقصهم الكيل والميزان أن يصيبهم مثل ما أصاب أقوام نوح وهود وصالح ولوط فلما أبوا واعتدوا وسفهوا نبيهم وكذبوه وهددوه

أخذتهم «الصيحة» مثلما أخذت ثمود! (هود ٦٤) واتفقت كلمات هؤلاء الأقوام على أنهم يعبدون ما وجدوا عليه آباءهم الأولين، وكما فعل هؤلاء فعل أيضا قوم إبراهيم الخليل عليه السلام، فهم يعبدون التماثيل التى وجدوا آباءهم لها عابدين، ولا يتفطنون لقول إبراهيم الخليل لأبيه فيما رواه القرآن المجيد : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ (مريم ٤٢)، ولم يثنهم عن لجاجتهم النار التى جعلها الله تعالى بردا وسلاما على خليله إبراهيم!.

كان الأمر الذى تترس به هؤلاء الكفار والمشركون هو آفة الاعتياد وما ورثوه من أضاليل عن أسلافهم وآبائهم الأولين، ولم تنفع معهم حجج الصدق التى أتاهم بها أنبياؤهم بأمر ربهم، فأمعنوا فى نكرانهم ومقاومتهم وتعلقهم بعبادة الأضاليل التى عبدها أسلافهم!! وهكذا كان حال الكفار والمشركين فى شبه الجزيرة العربية قبل مبعث النبى المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام.

لقد قص القرآن الحكيم ما كان من ضيق منطق هؤلاء الأقوام مع نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى وغيرهم فى سورة البقرة والمائدة والأعراف والأنبياء ونوح وإبراهيم والفرقان والشعراء والمؤمنون والقصص والصافات وص ولقمان والقمر وغيرها، وحاجاهم القرآن المجيد فى سورة البقرة بقولهم عنهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (البقرة ١٧٠) وفى سورة المائدة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (المائدة ١٠٤) فبين القرآن كيف أن استسلام هؤلاء وأولاء وتعلقهم بما درج عليهم الآباء هو الذى حال بينهم وبين الهداية، ومنعهم من أن يتفطنوا إلى حجج الصدق التى أتاهم بها الأنبياء تباعا بأمر ربهم!•

كانت لجاجة الكفار دائما بلا منطق ولا حجة، ولاقى الأنبياء منهم كل إنكار وصد وتكذيب وإيذاء، ولم تجد معهم المعجزات وحجج الصدق، فسارعوا كالعادة – رعونة وطيشا

وصدا – إلى إنكار كل هذه الخوارق وتلمسوا الأسباب والتعلاّت لتجاهلها والاستهزاء بها، وانتقل هذا التكذيب الضال، وبصورة أكبر، إلى اللاحقين عليهم، فهم لم يشاهدوا الخوارق التى شهدها الأسلاف ومع ذلك أنكروها، فكيف بهم يصدقونها وهم لم يروها ولم يعاينوها؟! وانطمر فضلا عن ذلك أثرها بفعل الزمن! وصور القرآن المجيد حال هؤلاء المكابرين المنكرين أصدق تصوير، فقال عز من قائل: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجر١٤، ١٥)..

أراد الحق عز وجل لنبوة الإسلام أن تكون نبوّة فهم وهداية، لا ترمى إلى إفحام العقل بالحجة المسكتة، وإنما تتغيا تفتيحه وتبصيره ودعوته واستثارته إلى التفكير والتأمل والتدبر والفهم.. لذلك كان القرآن المجيد هو آية الإسلام الكبرى، وحجته الممدودة فى عصر التنزيل وفى كل ما يأتى بعده من عصور، لأن حجة القرآن لا تنطمر بمضى الزمن، وإنما يزداد فهم الناس إلى ما فيه من الحق والنور والجمال.. فلم يكن القرآن الحكيم محض معجزة تجرى مجرى الخوارق الحسية التى كانت عليها حجج صدق الديانات السابقة، وإنما هو نور وهداية وزاد موصول ومدد لا ينتهى يجعل من نبوة الإسلام نبوة هداية وإنارة تخاطب الوجدان والعقل والضمير، وتستنفر وتستحث هذه الملكات لاستقبال فيوض هذا المدد الدائم واستيعابه واستحضاره والإمساك به كيما لا يفلت من الإنسان تعلقه المنشود بالمعنى الكلى والغاية المثلى للإسلام فى إصلاح وصلاح الحياة والأحياء إلى يوم الدين.

ooo

النبوة الإسلامية ليست نبوة استطلاع للغيب ولا إفحام للعقول بالخوارق المفحمة المسكتة، وإنما هى نبوة هداية أراد الله تعالى لها أن تخاطب وتفتح «العقول» و«البصائر»، لا أن تفحمها وتقعدها عن النظر والتأمل والتدبر والتفكير والفهم.. هذا المعنى الفارق لم يكن محض تصور متروك لاستخلاص الناس أصابوا فى ذلك أم أخطأوا، وإنما هو توجيه قرآنى صادر بأمر ربانى صريح إلى النبى أن يبدى للناس أنه ليس إلاّ بشرا رسولا اصطفاه ربه لحمل وأداء الرسالة – ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (الإسراء ٩٣)..

هذا الأمر الربانى ببيان جوهر الرسالة المحمدية، ورد فى معرض نقد تعلق الناس بالخوارق الحسية التى ثبت بتجارب البشرية أن مآل أثرها إلى الانقضاء والانطمار.. فى ذات سورة الإسراء تقدمه لهذا الأمر والبيان الإلهى، تنبيه واضح إلى الفارق الجوهرى بين نبوة هداية قوامها القرآن، وبين التعلق الضرير بالخوارق الحسية!.. تقول الآيات الحكيمات: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (الإسراء ٨٨- ٩٣).. فى تماحى أثر الخوارق، وتلمس المكابرين التعلات والأسباب للتملص منها، يقول القرآن المجيد: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجر ١٤، ١٥).. فليست الخوارق مما يغنى فى دعوة المكابر المعاند المفتون، ولا هى أداة الدعوات لمواجهة ما يأتى به قابل الأيام!!.

لذلك أراد الإسلام لنبوة القرآن أن تكون نبوة فهم وهداية تدعو بكتابها المبين إلى النظر والتأمل والتفكير، وليست نبوة استطلاع وتنجيم وخوارق وأهوال.. النبى ليس منجما ولا عالما بالغيب، وليست النبوّة نبوّة سحر أو رؤى أو أحلام أو قراءة طوالع وأفلاك.. ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (الأعراف ١٨٨).. لذلك حرص رسول القرآن أن ينحى عن أذهان الناس سمعة المعجزة المسكتة عندما جاءته ميسرة يوم كسفت الشمس وظن الناس أنها كسفت لموت ابنه إبراهيم، فأبى عليهم ذلك، ونبههم إلى أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته.. ومع تعدد ما ورد فى المأثورات عن المعجزات والآيات التى صاحبت مولد محمد عليه السلام

وطفولته، إلاّ أن عنايته الكبرى كانت بلفت انتباه الناس إلى معجزة القرآن وما ينطوى عليه من آيات ومدد لا ينقطع.

والقرآن المجيد، حجة الإسلام الباقية إلى يوم الدين، خاطب العقل كما خاطب الوجدان والضمير، فى منهاج عميق دعا إليه حتى فى مسائل الإيمان والعقيدة.. ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران ١٩٠، ١٩١) هذا التأمل المتعبد الفاهم الواعى، هو قوة دفع ذاتية بآلية دافقة لا تنقطع.. تكفل للمتأمل فيها ديمومة المدد والأثر الفاعل فى الهداية والاستمساك بالعروة الوثقى إلى ما شاء الله رب العالمين.

ooo

ولا يختلف أحد على أن الرسالة المحمدية، هى آخر الرسالات الكبرى فى تاريخ الإنسانية، وأنها عمت الدنيا وصار أتباعها المؤمنون بها بمئات الملايين، وأنه لم تتلوها رسالة أو ديانة يمكن لزاعم مهما اشتط أن يحسبها من رسالات السماء..

وخاتمية الرسالة المحمدية، قد اقتضت أشياء هى من مقومات هذه الخاتمية من ناحية، ودالة عليها وعلى مصدر هذه الرسالة من ناحية أخرى.. فالخطاب الذى كان فى الأديان السالفة محدودا بحدود الأقوام والزمان والمكان، واقترنت فيه النبوة اقترانا محدودا بقوم النبى الذين أرسل إليهم، خرجت النبوة المحمدية من هذا الحد المحدود إلى الميدان الواسع الفسيح لتشمل العالمين، وبغير حد فى الزمان أو المكان، وبغير اقتصار فى الخطاب على قوم دون أقوام أو على عرق دون أعراق! واقتضت هذه الخاتمية – فيما اقتضت – كمال وتمام الشريعة، وتطهير وإصلاح كل ما لابس تدين الغابرين من بعد عن الدين، أو التلبيس فى أمر الأنبياء والخلط بشأنهم بين النبوة الحقيقية وبين العرافة والرؤيا والأحلام والاستطلاع والتنجيم والكهانة والجذب وقراءة الغيب والسحر بل وأضراب من الجنون فيما أسموه بالجنون المقدس!. واقتضت هذه الخاتمية فيما اقتضت

التعريــف بالأنبياء الحقيقيين وتجلية صورهم وتطهيرها مما علق بها من إســاءات التطاول أو التحريف، والارتفاع بهذه النبوّات الحقيقية إلى مقامها الرفيع السامق كاصطفاء إلهى من السماء للهداية والإصلاح!

وأول ما اقتضته خاتمية وعموم وشمول رسالة الإسلام، أن تكون من رب العالمين إلى العالمين.. الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد، الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا احد.. هو سبحانه الحى الذى لا يموت، الموجود من الأزل، والباقى إلى الأبد.. كل من عليها فان إلاّ وجهه سبحانه ذو الجلال والإكرام.. الله تعالى رب العالمين، فليس الرب كما يقول العهد القديم «رب اسرائيل»، أو رب قوم آخرين من مخلوقات الله، وإنما هو – عز شأنه – «رب العالمين».. وهذا التعبير متعدد التكرار فى القرآن المبين، وتردد فى آياته أكثر من سبعين مرة.. واقتضت النبوة الخاتمية، العامة الشاملة، أن تكون رسالة النبى الخاتم للعالمين وللناس كافة، لا يختص به قوم ولا عرق ولا زمان ولا مكان.. هذه الرسالة العامة الشاملة التى بعث بها الله تعالى محمدا عليه السلام «فى أم القرى» مكة المكرمة – لم تكن رسالة للمكيين ولا لأهل مكة فقط، ولا للقرشيين أهل محمد عليه السلام بخاصة، ولا لأهل الجزيرة العربية خاصة دون سواهم، وإنما هى نبوة هداية عامة شاملة تتجه بخطابها إلى الناس كافة، وإلى العالمين إلى يوم الدين!.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ (الفرقان ١)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ ﴾ (سبأ ٢٨)

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨ ﴾ (الأعراف ١٥٨)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣ ﴾ (التوبة ٣٣)

هـذا الخطاب العام الشـامل، اقتضت عموميته وخاتميتـه أن يصحح عقيدة النبوة من الأوضار التى شابتها فى أفهام الغابرين، وأن يضع الرسل والأنبياء السابقين موضعهم اللائق بما حملوه من رسـالات إلهية اقتضتها الحكمة الإلهية فى أوانها لإمداد أقوام هنا وهناك - فى زمن معين - بهداية تسـتنقذهم من وهدة الكفر والضلال الذى ران عليهم، وتشـد أبصارهـم إلى الواجـد الماجد عز وجل.. لم يكن الجنوح فى فهم عقيدة النبوات السـابقة، أو خلطها بصناعة التنجيم والعرافة والاستطلاع والرؤيا والجذب والكهانـة والجنون المقدس، ومـا إلى ذلـك -.. لم يكن هذا الجنوح أو الخلط نابعا مـن ذات عقيدة النبوة فى الأديان السابقة، وإنما شجـر الجنوح والخلط من التباس وجنوح أفهام الناس، ومن سيادة الجهالة والأساطير، ومن لجاجات لم تتوقف فـى أغلاطها ولا فى شططها عند حد!.

آية إلهية الرسالة المحمدية أنها لم تركب على أغلاط الناس فى عقائد النبوات السالفة مثلما تفعل الدعوات السياسية والإنسانية بعامة للركوب على ماسبقها بإبراز عيوب السالف والتنويه بمحاسن ما أتت هى به حاملة إياه إلى الناس.. لم تفعل الرسالة المحمدية ذلك، بل أبرأت النبوات السالفة من أغلاط والتباسات وأوضار الناس، وفرزت النبوات الصحيحة من أساطير التنجيم وجذب الجنون والكهانة، وكرمت الأنبياء ودرأت عنهم ما ألصقته بهم بغير حق كتابات أدرجت فى أسفار قديمة داخلها التحريف فى التدوين الذى استمر مئات السنين، ثم التحريف فى الجمع الذى جاوز بدوره نحو ألف سنة!.

لم تقفز الرسـالة المحمدية فوق الرسـالات السابقة، ولم تدر لها ظهرها، ولم تعادها، بل وحضت على الإيمان بكافة الرسـل والأنبياء المبعوثين من الله جل شـأنه، ونبهت إلى وحدة هذه الرسالات جميعا وإلى اكتمالها بالدعـوة الإسلامية الخاتمـة.. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (النحـل ٤٣، ٤٤) .. ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾﴾ (النساء ١٦٣)..

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (الشورى ١٣)..

بذلك نبه القرآن المجيد إلى أن أصول الرسالات والنبوات واحد من خلال منظومة واحدة متتابعة متكاملة ختمت بالإسلام.. ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾ ﴾ (المائدة ٣)..

لذلك لم يكن غريبا، بل هو لب الرسالة الخاتمة، أن تتخذ من الإيمان بالرسالات والنبوات السابقة، قاعدة ينطلق منها الإيمان والتسليم بالإسلام.. ﴿ قُولُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة ١٣٦، آل عمران ٨٤).

والأنبياء فى كتاب العقيدة الإسلامية، أعز وأجل من الأوضار التى ألصقتها بهم الكتابات السابقة.. فهم جميعا اصطفاء الله تعالى، ومحل تكريمه سبحانه وعنايته.. عنهم تحدث القرآن المجيد بكل الاحترام والتوقير والإجلال.. ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (آل عمران ٣٣).. ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى الْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الصافات ٧٩)..

وعن أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَٰهُ فِى الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى الْءَاخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (البقرة ١٣٠).. ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النساء ١٢٥).. ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ (هود ٧٥) ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ (مريم ٤١).. ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الصافات ١٠٩)..

الصحف الأولى فى القرآن المجيد، هى صحف إبراهيم وموسى.. ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (الأعلى ١٨، ١٩).. ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ (مريم ٥١).. ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ (النساء ١٦٤).. ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (الصافات ١٢٠).. ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ

وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (الأنعام ٨٤، ٨٥).. ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (ص ٤٥).. ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (الصافات ١٢٣).. ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (الصافات ١٣٠).. ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (ص ١٧)..

وأبلغ ما قيل من حديث عن زكريا ويحيى، ومريم، والسيد المسيح عليه السلام.. أورده القرآن المجيد: فروى فى آيات بليغة عامرة، كيف رزق زكريا وامرأته على الكبر بيحيى عليه السلام، وروى كيف نذرت امرأة عمران ما فى بطنها لخدمة الله رب العالمين، فلما وضعت حملها أنثى جعلت تقول لربها كأنها تعتذر إليه فيما رواه القرآن الكريم:

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾(آل عمران ٣٦ - ٤٠)..

ويخبر القرآن الحكيم كيف طهر الله مريم واصطفاها على نساء العالمين: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (آل عمران٤٢).. وكيف بشرها سبحانه وتعالى بالمسيح عليه السلام كلمة منه ووجيها فى الدنيا والآخرة..

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (آل عمران ٤٥، ٤٦).. وكيف آتاه الله البينات وأيده بروح القدس.. ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴿٨٧﴾ ﴾ (البقرة ٨٧، ٢٥٣).

كمـا روى القـرآن الكريم كيف امتدت رعايته للمسـيح عليه السـلام ورفعه وطهره من كفر بني إسـرائيل الذين مكروا ومكـر الله والله خير الماكرين.. هنالك ناداه ربه سـبحانه..
﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٥٦) ﴾
(آل عمران ٥٥، ٥٦).. هـؤلاء الذين كفروا فقالوا على مريم البتول بهتانا عظيما..
﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾ (النساء ١٥٦ – ١٥٨).

وكما اقتضت عمومية الرسالة المحمدية الخاتمة، احترام وتوقير كافة النبوات والرسالات السابقة، وتوقير وتبجيل هـؤلاء الأنبياء الذين نقلـوا رسالات ربهم، فإنها قد اقتضت أيضا فـى عمـوم خطابها ألاّ تفرق بين النـاس لعرق أو جنس أو عصبية أو لـون أو مال أو جاه أو سـلطان، وجعلت التقوى والعمـل الصالـح مناط خيرية الإنسـان، لا حسـبه أو نسبه أو أصله أو جاهه أو ماله، فيقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ (الحجرات ١٣)..

هـذا فرع على أصل الإنسـانية الواحد الـذى كرر القرآن المجيد لفـت الأنظار إليه..
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ (النساء ١).. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ (١٨٩) ﴾ (الأعراف ١٨٩).

هذه القاعدة هى التى استوى عليها خطاب النبوة المحمدية الخاتمة، تتجه من رب العالمين، إلى العالمين جميعا والناس كافة.. لا تتحدد بمكان ولا بزمان، ولا تقتصر على أقوام أو أعراق، وإنما هو خطاب السـماء إلى الدنيا بأسرها.. قيمة الإنسـان بعمله وتقواه، وأبواب السماء مفتوحة على مصاريعها للعالمين تستقبل دعاء وابتهالات المؤمنين، وتتسع لضراعات التائهين والتائبين!.

قد اقتضى قيام النبوة المحمدية بهذه المهام الكبرى، أن تكون نبوة هداية للقلب والوجدان والعقل والضمير.. أن يكون عمادها الأول على خطاب العقل وهدايته، لا على إفحامه وتكبيله وقمعه.. فقد رأينا فى تاريخ الإنسانية كيف ولّت وانطمرت مع الزمن حجج الصدق المادية الحسية التى بررها فى زمانها خصوصية كل دعوة إلى قوم وإلى مكان محدد فى زمن محدد! وكيف أن الناس وقد جبلوا على الصد والمعاندة والإنكار، لم يعدموا من يجادل فيما رآه وشاهده بعينه وسمع بأذنه، وأنه مع تباعد الزمن وتراكمات السنين وتوالى الأجيال وانقراض شهود الرؤية أخذ أثر هذه الخوارق الحسية يبهت فى ذاكرة وعقائد الناس.. وهذا الانطمار أوالخفوت أو التناقص فى أثر المعجزة أو الخارقة لا تحتمله دعوة جعلت مرادها العالمين جميعا إلى يوم الدين.. وليس يفى بأغراضها الموصولة الممتدة فى المكان والزمان بغير حدود، أن تقتصر حجتها على جماعة محدودة شاهدت أو سمعت فى مكان وزمان، وإنما هى تتغيا ويجب أن تتغيا حجة موصولة ممتدة يراها الحاضرون واللاحقون كما رآها الغابرون، فلا ينقضى أو ينطمر أثرها، ولا تتباعد صورتها فى أذهان وعقول وصفحات وجدان الناس بتباعد المكان أو بمضى الزمان.. لذلك كان «القرآن المجيد» هو حجة الإسلام الباقية التى لا تنطمر ولا يتباعد أثرها ببعد شقة أو بانصرام زمن، بل إن القرآن يزداد للناس جلاء مع مضى الزمن بما يستطيعه اللاحقون من تعمق أكثر فى معانيه وفى فهم مراميه، ومن استشهاد بمفرزات العلم ومكتشفاته، وقدرة أعرض وأوسع على إدراك مالم يكن عند التنزيل متاحا الإلمام به لقصور الأفهام من ناحية، أولأن بعضا أو كثيرا من الحقائق العلمية أو التاريخية لم يكن قد تجلى للناس بعد!.

قمة وغاية الصدق والسداد فى بيان امتداد حجة القرآن المجيد ما ورد عنه بحديث رسول القرآن عليه السلام من أنه «لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد».. فآياته وبيناته، وانتظام ودقة وعمق أحكامه، باقية بين دفتيه، لا يدركها زمن، ولا يأكلها مرور وقت!!.. وجرسه ومعماره الموسيقى لصيق بحروفه وكلماته يتغشى من يتلوه اليوم مثلما - أو ربما بأكثر - مما تغشى من تلوه أواستمعوا إليه بأمس.. إن علم القراءات وفنونها التى جاد بها الزمن، قد جعلت الإحساس بأعماق الجرس الموسيقى لآيات القرآن أكثر نفاذا

وتأثيرا وعراضة مما كان متاحا للناس من مئات السنين.. وما يكشفه العلم كل يوم يزيد رؤية وإدراك الناس لحكمة وصدق وإعجاز ما ورد بالقرآن الذى تنزل على رسول الإسلام عليه السلام من أربعة عشر قرنا.. ثم إن عطاء القرآن قد مكن الفاهمين المجددين أن يجدوا فى أحكامه وفى الاستنباطات الصحيحة منها ما يصلح لمواكبة وملاحقة وعلاج كل ما تلقى به العصور اللاحقة من مستجدات أو مستحدثات أو مشاكل وأقضيات!.

النبوة المحمدية هى إذن نبوة هداية للعقل والضمير، وليست نبوة استطلاع وتنجيم، ولا هى نبوة عرافة أوعيافة أو كهانة، ولا هى نبوة شعر ولا جنون مقدس، لا هى نبوة قراءة للغيب وإنباء بآتيات الزمن القابل، ولا هى شطحات كذب وتضليل.. قد بلغ سوء الظن فى النبوات غابرا ـ فيما يقول العقاد ـ حد إطلاق وصف «أنبياء كذبة» على بعض الأنبياء فى العهدين القديم والجديد.. فنجد فى سفر أشعياء حديثا عن «النبى الكذاب» فيقول: «الشيخ المعتبر هو الرأس والنبى بالكذب هو الذَّنَب»! (أشعياء ٩ – ١٥).. وفى إنجيل متى: «ويقوم أنبياء كذبة كثيرون، ويضلون كثيرين»! (متى ٢٤ – ١١)، وفى إنجيل لوقا: «لأنه هكذا كان يفعل آباؤهم بالأنبياء الكذبة» (لوقا ٦: ٢٦)، ويصف يوحنا فى رؤيته خروج الأرواح النجسة من فم «النبى الكذاب». .

لقد أتت شبهة المعجزة سهلة ميسورة إلى رسول القرآن، مهيأة للاقتناص والاستغلال لمن يريد الكذب بها على الناس، يوم أن كسفت الشمس أثناء دفن إبراهيم ابن النبى عليه السلام، فتصايح الناس أنها آية من آيات الله للنبى المصطفى عليه السلام ونجله، بيد أن رسول القرآن رفض هذه الفرصة التى يتحينها الكذابون أو طلاب الدنيا والخداع والمنافع، ولم يشأ عليه السلام أن يترك الناس فى ظنهم الذى يضيف إليه فى نظرهم فضلا وآية، فطفق ينبههم ويحذرهم من هذا الفهم الخاطئ الذى سارعوا إليه، ويقول لهم: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد أو لحياته!.

قد روت الأخبار المأثورة كثيرا من المعجزات والخوارق التى صاحبت مولد محمد ﷺ وطفولته، ولكن محمدا عليه السلام لم يذكر هذه المعجزات، ولا أثر عنه أنه كان معنيا بأى إشارة إلى أى معجزة من المعجزات المتصلة بشخصه أو برسالته، بل كان حفيا بالقرآن

يوصى الناس جميعا به، بل ويخشى عليهم من كتابة السنة مخافة أن تختلط بكتاب الله المبين، فيقول لهم: «لا تكتبوا عنى غير القرآن، وحدثوا عنى ولا حرج، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»!.

نبوة القرآن نبوة فهم وهداية للعقل والضمير، بالنظر والتأمل والتفكير.. لم تتوسل النبوة القرآنية فى هدايتها للعقل والضمير بالاعتماد على خوارق المعجزات الحسية، بل عنيت بصرف الناس عن التعلق بها والتنبيه إلى احتمالات تعطيلها لملكة العقل فى استقبال هداية الله.. عن نفسه يسارع نبى القرآن فيقول للمؤمنين إنه ليس إلاّ بشرا رسولا: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾(الإسراء ٩٣).. ويقول لهم من قول ربه تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (الإسراء ٥٩).. يعلمهم عليه السلام أن المعجزة لاتنفع من لاينفعه عقله، ولا تقنع المكابر المبطل إذا أصر على العناد واللجاجة فى باطله.. فيتلو عليهم مما تنزل عليه: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ (الحجر ١٤).. ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (يونس ٢٠).

فى النبوة المحمدية، فضلا عن عنايتها الجمة بجانب الروح والنفس، اعتراف جاد بالعالم المادى الظاهر، وأنه واقع ضرورى لا يجوز تجاهله وليس منه مفر لأى حى أو غير حى، لأن الحى وغير الحى جزء موجود من العالم المادى لا محالة.

وفى النبوة إيمان فطرى بأن ذلك العالم بما فيه من أحياء، محكوم بحكمة خالصة.

وفى هذه النبوة إيمان فطرى بأن الفارق الجوهرى بين الآدمى وبين غيره، أن الآدمى مسئول أمام خالقه عن الإفساد والفساد الذى يقع بقصد أو بغير قصد أو باختيار الآدمى، فهو الوحيد – أى الإنسان – الكائن المكلف المسئول عما يفعل وعما يدع وعما يحسن وعما يسىء.

وحياة نبى القرآن – عليه الصلاة والسلام – يميزها عن حياة غيره، كونها مركزة على هذه المسئولية بدعوة داخلية قاهرة ملازمة، لا يستطيع أن يهرب النبى من «صوتها» فى نهار أو ليل فى أى مكان أو زمان.

وهذه الدعوة القاهرة ملحة، جعلت ممارسات النبى عليه السلام لحياته، فى السر والعلن، خالية من طابع الاستغراق والاستئثار والرغبة الشخصية فى الاستزادة، هذا الاستئثار الذى يطبع النفس عند الآدمى عادة، ولكنك لا تجده إطلاقا فى ممارسة النبى، فممارساته عليه السلام وإن كانت بلا أدنى شك طبيعية واختيارية وليس فيها ما هو غير آدمى، لكنها كانت خالية دائما من أى طابع للاستغراق أو الاستئثار أو الرغبة الشخصية فى الاستزادة، بدا ذا نتائج عملية ظلت مصاحبة وجلية فى النبوة المحمدية..منها انقطاع صلته عليه السلام بالتملك الشخصى انقطاعا يكاد يكون كليا، فلم يملك ﷺ مالا يحسده عليه أحد، أو يطمع فيه أحد من الآدميين.

ومن هذه النتائج أو الآيات، انقطاع صلته بالترف والأبهة والفخامة التى تقوم مقام التملك أو التمول.

ومن هذه الآيات خلوصه من كل دواعى الشره ودواعى البطر والتنعم والترف، ومنها أنه عليه السلام، وهو أهمها، قد عاش حياته بالغ التواضع، راعيا للمظلوم واليتيم، ذاما مجافيا للكبر والخيلاء، راعيا للمحتاج، بارا بالضعفاء والمساكين، محسنا للفقراء مضيفا لهم حانيا عليهم، لقد ملك عليه السلام قلوب الضعفاء والفقراء والمحرومين والمستعبدين.. ملك قلوبهم إلى أبد الآبدين.

ooo

لقد حدد القرآن المجيد معنى كلمة «النبوة»، فأوضح أن النبى هو مبعوث الله ومصطفاه لينقل للناس – بلا زيادة ولا نقصان – ما أوحى إليه ربه وأمره بتبليغه.. النبى ليس بساحر، وما كان للسحر أن يفلح أو تنهض عليه دعوة تنقل عن السماء.. ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ (طه ٦٩).

وليس قول النبى أو ما ينقله عن ربه بقول شاعر.. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الحاقة ٤١).. ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ (يس ٦٩).

وليســت النبوة ضربا من ضروب الكهانة، ولا النبى كاهن يتعاطى الكهانة ويلقيها إلى النــاس: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحاقــة ٤٢).. ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ (الطور ٢٩).

وليســت النبوة ضربـا من الجذب أو الجنون المقدس.. ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم ١-٤)

عــن هذه النبوة يورد القرآن المجيد فى ســورة الحاقة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ (الحاقة ٤٠ - ٥٢).

عقيدة النبوة فى القرآن المجيد هى بهذا الصفاء والوضوح، لا تختلط بشعـر ولا بسحـر ولا باســتطلاع ولا بتنجيم ولا بكهانة ولا بعرافة.. هى تبليغ عن الله تعالى الخالق الواجد الماجد، لا يدعى رســول القرآن العلم بالغيب أو الإخبار بآتيات الأيـام.. يقـول للناس من قــول ربــه: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام ٥٩).. ويتلو عليهم قولــه عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (يونس ٢٠).. ويقول لهـم: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (الأنعام ٥٠).

حامل الرســالة بشر رسول، أدبه ربه فأحســن تأديبه، وأهله بأدبه هذا العظيم لحمل رسالة الإسلام إلى الناس كافة.. هاديا، وبشيرا، ونذيرا..

- ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ (النحل ٤٤)
- «﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب ٤٥، ٤٦)

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ (٢٨) ﴾ (الفتح ٢٨)
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ (الشورى ٥٢)
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ (٦٧) ﴾ (المائدة ٦٧)

هــذه هى النبوة المحمدية، نبوة تبليغ وهداية، التأمت مع العقيدة الإلهية فى منظومة كاملة متكاملة تهدى الإنسان حيث كان إلى ما شاء الله.

ooo

obeikandl.com

بين الإلهام والوحى

كلمــة «الإلهام»، كلمة تتردد كثيرا على ألســنتنا، ترددا قــد لا يتوقف متأملا واعيا لمعناهــا، وقــد نطيل الحديث عن «الإلهام» دون أن نحاول معرفة شــئ من واقعه معرفة جادة وربما اتفق معظمنا بصورة غير واضحة على أن الإلهام فكرة طارئة تطرأ فُجأة على البــال عندى أو عندك ولم يكن إنتظارها متوقعا بل ربما لم يكن طروؤها متصور الإمكان، فــإذا بهذه الفكــرة الطارئة بالإلهام فكرة منتجة إنتاجا حقيقيا اســتطعنا بها أن نتفادى حدثا ضارا أو مؤذيا، أو نقبل على عمل أو خطوة ناجحة، أو نمتلك مفاتيح مشكلة باتت عويصة أو أخرى يئسنا من استيجاد حل لها.

ونحــن نكاد نتفــق على أن إلهاما كهــذا قليل الحدوث، لايتكــرر ولا يتتابع بكثرة أو بانتظــام لافــى مواقيت وأزمنة إســتقباله، ولا فى موضوعاته، ويعتــبره كل منا مزية شخصية، وهبة ذاتية خصصنا بها بتوفيق من الله تعالى.

ولندرة «الإلهامات»، وتفــاوت مجيئها زمانا ومكانا وموضوعا، وتغاير نصيب الأفراد منها، وقلة مشــاهدتنا لها، لا ندخلها فى عداد المواهب الممنوحة لبعضنا دون أغلبيتنا مثلما نفعل بالنسبة للمواهب التى تلفت نظر المتابع بظهورها الواضح المبكر غالبا وبنموها المتدرج، ســواء كانت الموهبة قدرة غير مألوفة على الإســتيعاب مثلا أو الحفظ والتذكر، أوذكاء متقــدا غير عادى، أو قوة بدنيــة خارقــة، أو فصاحة نادرة فى الأداء، أو اقتدارا عجيبا على إقناع المتلقى أيا كان، أو كانت الموهبة تفوقا غير معتاد فى البحث والتدقيق فــى الاختيار والتجربــة، أو عبقرية فى التصميم والتصور والتخيــل، أو إدراكا فذا لكل ماهو جوهرى وحشــده وإبرازه بقوة مع تحاشــى التشــويش عليــه بالرخيص المظهرى، أوكانت الموهبة براعة فطرية فائقة فى الغناء أو الرقص أو التلحين أو التمثيل أو الإخراج أو التصوير أو الرسم أو النحت أو أى فن من الفنون.

ثم ان يقظة الآدمى لموهبة ظهرت أو ظنها ظهرت لديه دائما يصحبها – كالسيل العرم – شــعور متدفق بالإنتشــاء والرضاء الذى لايوصف عن الذات وتميزها الواضح على الغير،

مع العُجْب الداخلى الغير محدود. ذلك لأن ارتباط شعور الآدمى بموهبته بشعوره بذاته وإعزازه وإعتزازه به وبها هو إرتباط لاينفصم ومحال أن ينفصم إلى آخر لحظة من وعيه على هذه الأرض. فالمواهب دائما ذاتية بالنسبة لأصحابها، أكياسا كانوا أولم يكونوا، ولكنها غيرية بالنسبة للآخرين.

وهذا الفارق النفعى والنفسى الهائل بين الموهبة كقيمة مملوكة لصاحبها وذات صاحبها فى المجتمع. وبين الإلهام، ذلك الإلهام العرضى الوقتى المجرد من تلك القيمة والذى سنده الغيب دائما وأبدا والذى لايملكه ولا يسيطر على استحضاره من يصادفه ولايملك الانتفاع به مثلما وكما ينتفع كل آدمى بمواهبه .. هذا الفارق هو الذى أبقى - فيما يبدو - «الإلهام» فى أسراره وعليائه بعيدا عن التلوث الذى يمكن أن يصيب «المواهب» البشرية بالأنانية والأثرة والحسد والحقد.

الموهبة عنصر من عناصر قيمة الموهوب، وهى بذلك رصيد لذاته يترجم إلى رصيد منظور وإلى مكاسب وأرباح أدبية ومادية أيضا. إلاّ أنكَ لن تجد آدميا يتجر بإلهامه المزعوم إلاّ الساحر والمنجم.. فأى منهما لايبالى فى سعيه لتلك التجارة بإستغلال بساطة وسذاجة وإضطرار وتهافت المستعين بالسحر والتنجيم إلى أقصى مايمكنه.. أما غير هؤلاء الساقطين من البشر، فلا يجسرون على المجازفة بتحدى الغيب للكسب الشخصى المادى.

وقد ترى الساحر والمنجم يتدثر بدثار «الأولياء» للخداع واجتذاب الجمهور إلى الاعتقاد فى صدق حيله ودعاواه سترا لاستغلاله إياه، وإبعادا لنفسه عن طائلة القانون وسلطات الأمن، فاحتراف الإلهام الغيبى العلوى مستحيل غاية الاستحالة لدى المستقيمين الأشراف، وقد يبدد الواحد منهم ثروته أو ثروة أهله وذويه فى إقناع من حوله بصدق ما صدقه هو من الإلهام مع إعترافه بأنه لا سلطان له عليه ولا يعرف متى يجئ ومتى ينقطع وبموته حين يموت بلا مال فى أسماله.. مخلفا أهلا ضعافا بلا تركة يقتاتون بها أو منها، مستسلما للمصير الذى ارتضاه له مصدر إلهامه تبارك وتعالى!.

هذا النوع، لايفارقه إصراره حتى نهاية عمره على تلك الخدمة المطردة المستمرة منظور إليها كوحدة مترابطة موجهة لخدمة الناس سرا وعلانية دون أى مغنم ولا غرض ولا مطمع فى أى مقابل دنيوى مادى أو معنوى، بل ومع الالتزام الشخصى بمعونة المستجيبين المقتنعين غير القادرين على قوت يومهم، وهو موقف نادر بالغ الندرة فيما نعرف من تاريخ البشرية.

ما من أحد يجرؤ فى زماننا، ولا فى آتى الزمان، على أن يقول باسم العلم إن الإلهام بالغيب مستحيل، لأنه إذا جزم باستحالته، وجب عليه قبل ذلك - فيما يقول العقاد - أن يجزم بأمور كثيرة لايستطيع عالم أن يقررها معتمدا على حجة أو سند قويم.. يجب على العالم الذى يدعى أو يجزم باستحالة الإلهام بالغيب، أن يقرر لنا أنه عرف حقيقة الزمن ومن ثم حقيقة المستقبل، فماهى حقيقة الزمن؟.. هل هو موجود فى الماضى والحاضر والمستقبل أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول؟.. وماهى هذه اللحظة الواحدة؟ وما مدى إحاطتها بالبعيد والقريب فى الأمكنة الشاسعة فى هذه الأكوان اللامتناهية؟ وهل المستقبل موجود الآن أو هو «عدم» يوجد لحظة بعد لحظة؟ وكيف يوجد العدم بعد أن لم يكن له وجود؟.

هذه التساؤلات العميقة التى يطرحها العقاد، يطرحها لينتهى منها إلى أن العالم الذى يجزم فى قول من هذه الأقوال باسم العلم إنما يدعى على العلم كذبا وينم على عقل ضيق لايصلح للنظر فى هذه الآفاق.. فإذا كان ذلك، وكنا لا ننفى ومحال أن ننفى وجود المستقبل فهو يصير فى الغد وبعد الغد واقعا حقيقيا مجسدا ماثلا أمامنا، صار واضحا أن «الغيب» لا إستحالة فيه ولا يدخل العلم به عن طريق الإلهام فى باب الممنوعات أوغيرالمعقولات الأنبياء والرسل، قمة القمم فى تلقى الوحى والإلهام، ينفردون بذلك الوحى الإلهى عن باقى البشر، وينفردون أيضا بقيامهم بأعباء النبوة والرسالة الإلهية، يعانون فى حملها وأدائها مشقة هائلة، لايبتغون فى بذلها فضلا ولا عوضا، لايملكون ولا يعنيهم أن يملكوا شيئا.. كلهم بما لديهم لله تبارك وتعالى.. الأنبياء والرسل ينفردون دون باقى خلق

الله للقيام بهذه الرسالة العظمى عن الناس جميعا.. يصدرون عن إحساس عميق، وعقيدة، بأنهم مدينون للناس جميعا وليسوا دائنين لهم أو لأى منهم.. هذا الموقف الكلى يجب الوقوف فى جلال وتأمل إليه وفهمه فى كليته.. إذ يستحيل تجزئته لأن حقيقته الأساسية تختفى وتضيع فى محاولة تجزئته إلى عناصر منفصلة، فَهْم هذا الموقف الكلى المتوحد والموحَّد يقتضى المحافظة على وحدته والإحساس بوجوده تاما، إذ بغير ذلك تفلت أو يمكن أن تفلت منا حقيقة الرسالة أو النبوة.

الناس قد يصرفها عن جوهر وروح الرسالة والنبوة، انحصارها فى الجدل حول المقولات والآراء والأصول والعبارات الفقهية، وما إلى ذلك من المصطلحات التى يجرى بها التناول أو المعالجة فى المسائل الدينية أعنى بذلك المعالجة السطحية التى لا تتجاوز السطح أو القشرة، ولا تنساب إلى الأعماق أبدا.

الوقوف عند السطح، وعدم تجاوزه إلى ما تحته وتحت القشرة، لم يكن ذنب العقيدة، أو لأن العقيدة ليس لها أصل عميق بل لأن عمقها كائن كامن فى وحدتها ووحدة موقفها وموقف النبى أو الرسول من الحياة والأحياء والكون وخالق الكون والماضى والحاضر والمستقبل.. بدون هذا الإحساس العميق بهذه الوحدة الشاملة يصبح النظر لأى عنصر من عناصر الملة أو الدين نظرا ناقصا يتوقف عند السطح والقشور ولايغوص إلى الجوهر والأعماق.

والنبوة المحمدية هى المثل الأعلى للنبوات والرسالات فى ذوبان وتوارى الذات التصاقا بالمعنى الكلى والولاء لله وحده لاسواه.. نبى الإسلام جاء مجددا ومكملا للرسالات السابقة لأن رسالته هى رسالة الله.. ماكان للنبى محمد أن يكرم هذا التكريم ماسبقه من نبوات ورسالات، ولا أن يعظم ويجل ويعلى قدر هؤلاء الأنبياء والرسل، مالم تكن الذات المحمدية قد ذابت وتوارت فى المعنى الكلى للرسالة الإلهية التى حملها إلى الناس كافة، منكرا ذاته، غير ملتفت إليها ولا حفى بها ولا منحاز لها.. لايهمه أن ينسب فضلا ولا مجدا لنفسه، وإنما هو برسالته عليه الصلاة والسلام لله، ناقلا فيها عن

الله وعما أوحى به إليه ربه، ساعيا إلى إيمان الناس بالله، والإلتزام بدينه وشريعته.. لايطلب من الدنيا صيتا ولا مكانة ولا مجدا ولا مغنما، ولا يسعى لثراء ولاغنى، بل ولا يهمه أن يمتلك من الدنيا غاليا أو رخيصا، ثمينا أو بخسا.. «ياء» الملكية ملغاة لديه، يقول ولا يفتأ يقول «نحن الأنبياء لا نورث، وما تركناه صدقه».. يقول لأبى ذر الغفارى وهو يشير إلى جبل أحد «ما أحب أن أُحُدا ذاك عندى ذهب، أمسى ثالثة عندى منه دينار إلاّ دينارا أرصده لدينى، إلاّ أن أقول به فى عباد الله هكذا.. هكذا».. وأخذ عليه السلام يحثو بين يديه ثم عن يمينه ثم عن شماله، ثم يقول لصاحبه: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلاّ من أعطاه الله خيرا ففتح فيه يمينه وشماله بين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً».. ذوبان والتصاق وتوارى الذات المحمدية فى الله، ولله.. واضح جلى فى أحاديثه، وفيما نقله إلى الناس من القرآن الذى أوحى به إليه ربه.. هو لايعلم ولا يدعى أنه يعلم الغيب: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴿٢٠﴾﴾ (يونس٢٠).. ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴿٥٠﴾﴾ (الأنعام٥٠) – هو محض رسول من الله إلى الناس، يحمل إليهم رسالته سبحانه.. تتوارى ذاته تواريا تاما أمام هذا الجوهر للرسالة.. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴿١٢٣﴾﴾ (هود ١٢٣).. ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام ٥٩).. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ (الأعراف ١٨٧).. ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (الأعراف ١٨٨).

هذا نبى رسول، ذابت وتوارت ذاته، أوقل عاش خارج ذاته.. ما من آدمى عادى إلاّ ويشعر بذاته شعورا لايفارقه.. هذا الشعور هو من لوازم الإحساس بالحياة ذاتها.. وقليل من الناس من استطاعوا النفاذ من أسوار عالم الذات إلى خارجه.. الأنبياء والقديسون

هم فقط القادرون على الحياة خارج عالم الذات الذى يقع الآدميون العاديون صرعى فيه..
والنبــوة، هذه المتجلية بقوة فى الرســالة المحمدية، هى أوضــح صور ونماذج القدرة على الخــروج من عالـم الـذات إلـى عـالم «اللاذات».. لذلك فالنبوة ليســت عملا إراديا يقدم عليه آدمى فيختار أو يقرر لنفسه أن يكون نبيا.. أو يبغى من هذه النبوة مكانــة أو مجدا.. النبــوة «اصطفــاء» إلهى.. هذا الإصطفاء فرض يأتى المصطفــى للنبوة قوامه المدد والوحى والإلهام الإلهى.. لذلك فإنه سفسطة ولغو اتهام النبوات بالسحر أو بالعرافة أو الكهانة، فذلك إتهام تكرر فى تاريخ البشــرية، وتكرر فشــله وإخفاقه، لأنه يتجاهل الشعور الملازم للنبوة بالإضطرار والخضوع والتسليم للإصطفاء والإستسلام الداخلى التام له، فالنبوة ليست رغبــة إراديــة فى نول المكانة أو المجد أو الصيت أو المال حتى يحتال صاحبها بالســحر أو العرافة أو الكهانة، وإنما هى اصطفاء إلهى وفرض وخضوع وتســليم.. هذا «التســليم» ينطوى من النبى والرسول، مثلما تجلى فى النبوة المحمدية، على خضوع الإرادة الذاتية خضوعا تلقائيا لذلك الغيب وحده وبلا شــريك، هذا الشــعور اللازم والملازم للنبوة فصل كذلك بينها وبين التصوف والتنســك، وبين كل محاولة لطلب أو بناء القداســة بالتدريب أو عــن طريق التدريب، فشــتان بين حيل الســحرة والعرافين والمنجمــين والكهان أو من يصطنعون الكرامة، وبين النبوة التى يصطفى الله لها من يشاء حيث شاء!.

تأمــل معى دعاء رســول القــرآن لترى كيف تمثلــت كل هذه المعانى فيــه وفى نبوته ورســالته.. كان من أفضل أدعياته: «اللهم اجعلنى فى عين نفســى صغيرا».. هذا دعاء إلى الله يتجه اتجاها مباشرا إلى طلب توارى الذات تواريا تاما أمام الله.

إنعــدام الإلتفات للــذات، والالتصاق بالمعنــى الكلى، والولاء التــام لله، واضح ظاهر جلى فى مســارعة رســول القرآن إلى نفى أن حقائق وآيات الكون ســخرت له أو لخاطره أو لمواســاته.. العــراف والمنجــم والكاهن يســارع إلى التقاط أى مصادفة مــن فعل المقادير ليعطيها مدلولات يردها بها إلى ذاته المعنى بها المنصرف إليها.. أتت هذه المصادفة ساعية واضحة جلية ويســيرة الاقتناص والاغتنام لردها إلى المجد الشــخصى أو الذاتى، عندما

تصادف أن كسـفت الشـمس يوم مات إبراهيم بن المصطفى ﷺ وقال الناس إنها كسفت لموتـه، بيـد أن محمدا يأبى على الناس ذلك، ولا يمهلهم - رغم حزنه - أن يسترسـلوا فـى ظنهم هذا الذى يحقق له المزيد من المجد والمكانة، وإنما يردهم لفوره عن ظنهم قائلا لهم: «إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله ولا تكسفان لموت أحد».

ليس فى النبوة المحمدية سحر ولا كهانة، ولاهى شعر يزخرفه قائلة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحاقة ٤٢)..

الـولاء المحمدى للوحى، ولاء مطلق، وخضوع تام وتسـليم.. وذوبان فى المعنى الكلى ذوبانا تنمحى أمامه تماما أى عناية أو احتفال بالذات.. الولاء المحمدى لايعنيه شـخصه ولا أن يتجمـل أمام النـاس، فلايحجب عنهم حتى عتاب القرآن لـه.. لايلتفت فى هذا الخضـوع التام للوحى الذى يأتيه إلى ذاته أو ماعسـاها تحبه أو ترضاه أو تكرهه أو ترجو خفاءه عن الناس.. لا وليس يعنيها - فى هذا الخضوع الكامل والولاء التام للوحى الإلهى- بماذا تظهر أولا تظهر أمام أو فى عيون الناس.. نَظَرَ الناس، مسـلمهم وكافرهم، فوجدوا وشـاهدوا وسمعـوا محمدا يخرج إليهم بمـا أوحاه إليه ربه من عتـاب فى قصة الأعمى.. يتلو عليهم فى خضوع وتسليم كلمات ربه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ (عبـس ١-١٠).. يخـرج يومها يتلمس إبن أم مكتوم ليحنو عليه ويترفق به ويسترضيه، ولايلقاه بعد ذلك إلاّ مرحّبا به يقول له: «مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى».

هـذا الذوبان فـى المعنى الكلى والالتصـاق به والخضوع التام والـولاء المطلق للوحى الإلهـى، تراه حين يخرج رسـول القرآن إلى الناس بكلمات ربـه التى ظاهرت رأى عمر وعاتبت فى أسرى بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنفال ٦٧).. بل ما بال هذه الذات تختفـى تماما وتتوارى فلا تضيـق ولا تتململ ولا تتردد فى أن تبـادر إلى الناس بكلمات

الوحـــى الإلهى الذى أتي معلمــا ومعاتبا يقول: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ (الإسـراء ٧٣ – ٧٥) .. لم ينحصر توارى الذات فى الذات المحمدية، بل امتد إلى بيته وأسـرته وقبيلته.. «لافضل لعربى ولا لقرشى على عجمى».. «يا فاطمة، اعملـى، فإننى لن أغنى عنك عند الله شـيئا.. يا آل محمـد، إعملوا فإنى لن أغنى عنكم عند الله شيئا».

هـذه نبوة لله، أداء لرسـالة الله.. لايعنيها سـوى هذا الولاء المطلـق للوحى الإلهى، والذوبـان التـام الخاضع للمعنى الكلى، وصدق الوفاء به وتبليغه للناس، ليسـت رسـالة زعامـة، ولا مكانة، ولاهى مقصورة على إقليم من أقاليم الأرض، ولا على أمة من أممها.. ولاهـى قد تغيت مجـد أو منفعة قبيلة، ولا منفعة أمة بعينها.. هى رسـالة إلهية حملها محمـد المصطفـى ﷺ، قوامها ان الله حق وهدى، وأن الإيمان به سـبحانه مطلوب لأنه حق وهدى، أداها عليه الصلاة والسلام صدوعا وتنفيذا للوحى الإلهى الذى اتصل به مدده حتى وافى ربه جل وعلا.

ooo

معاضدة السنة للقرآن

القــرآن الكريم هو معجزة الإســلام الكبرى.. وحجة رســوله عليه الصلاة والســلام إلى البشرية، ودستور المسلمين كافة فى كل شئون دينهم ودنياهم.. معجز فى فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وقوة تأثيره.. ومعجز فى نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وغيره.. ومعجز فى إخباره بأحوال القرون السابقة.. وفى إخباره عن وقوع حوادث فى المســتقبل لا يتأتى العلم بها إلاّ لعلام الغيوب.. ومعجز فيما اشــتمل عليه من حقائق الكون وأسراره.. وفى اتساق عباراته ومعانيه، وأحكامه ونظرياته ثم هو معجز فى شريعته المحكمة الجامعة التى اشتمل عليها.

وشريعة القرآن الكريم معجزة لكل الناس.. فى كل مكان.. وفى كل جيل.. وهى أقوى وجوه القرآن إعجازا.. لأن إعجازها يفهمه العربى وغير العربى.. ويدركه من يعرف لسان القرآن، ومن لا يعرفه..

وهذه الشــريعة القرآنية هى دســتور المســلمين الجامع فى كل شئون دينهم ودنياهم .. فى العقائد، والعبادات، والأحوال الشخصية، والمعاملات، والعقوبات، والشئون الدولية.. ليس من شىء إلاّ وفى القرآن الكريم بيانه..

يقول جل شأنه: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٣٨)

ويخاطب سبحانه وتعالى رسوله الآمين فيقول له: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾(النحل: ٨٩)

ooo

والشــريعة القرآنية بأحكامها.. وشمولها.. وإعجازها.. فى حاجة إلى رسول يبلغها إلى الناس كافة.. وقد كان المصطفى عليه الصلاة والســلام هو رسول الله الذى اصطفاه من دون الخلق أجمعين للقيام على هذه المهمة الجليلة.. هو الذى حمل إليهم الهدى والنور والحق..

ودعاهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد.. الصمد الذى لا شريك له.. وقام بإرشادهم، وبيان الشريعة القرآنية لهم..

وليس من شك أن دور المصطفى عليه الصلاة والسلام كان دورا لازما لا غناء عنه فى إبلاغ الدعوة وبيانها والهداية إليها.. فالدعوة.. فى حاجة إلى إبلاغ، وبيان.. والرسل هم الموكل إليهم ذلك من الله عز وجل.. فهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشـخاص. وقد كانت البشـرية فى حاجة إلى رسـول يبلغها الدعوة الإسلامية، ويبين لها الآيات القرآنيـة الكريمة.. وهو بيان تبدو أهميته فى جانب من جوانبه فى أن معظم الأحكام التى شملها القرآن قد جاء كليا مجملا ليناسـب شـتى العصور، ويصلح لكل مكان.. وذلك من أسرار إعجازه.. ومن ثمّ كان لابد لهذه الأحكام العامة من تفصيل وتوضيح.. اصطفى الله تعالى نبيه محمدا للقيام به.. وجعل مهمته – بعد التبليغ – أن يبين للناس مـا ورد فى القرآن الكريم، ويعلم المؤمنين أحكام دينهـم الحنيف وأن يأمرهم باتباعه وطاعته..

يقول عز وجل :

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النحل: ٤٤)

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾ ﴾ (الحشر: ٧)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴿٥٩﴾ ﴾ (النساء: ٥٩)

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (النساء: ٨٠)

بـل وجعل سـبحانه من طاعة الرسـول، والتسـليم بقضائه وحكمه، شـرطا للإيمان الصحيح، فيقول جل شأنه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء: ٦٥)

قد قام محمد عليه الصلاة والسلام بمهمته الجليلة خير قيام.. أبلغ الدعوة بهمة وصدق وأمانة.. وذاق فى سـبيل ذلك المشـقة والعناء.. فلم تهن عزيمته أو يتزعزع إيمانه.. وهدى الناس إلى دين الحق.. دين الإسـلام.. وبين لهم القرآن الكريم على خير ما يكون البيان..

شرح لهم معانيه، وفصل مجمله، وخصص مطلقه، فكان لهم فى ذلك نعم القدوة ونعم المعلم بأقواله، وأفعاله، وتقريراته.. قوام السنة المحمدية الشريفة..

والسنة فى الاصطلاح الشرعى هى ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قول، أو فعل، أو تقرير.. وهى - بأنواعها - والقرآن الكريم متعاضدان أبدا على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة.. وعلى بيان الشريعة الإسلامية الغراء..

السنة القولية.. ومنها تتكون معظم السنة المحمدية.. تضم أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام التى قالها فى مختلف المناسبات والأغراض .. منها قوله عليه السلام: «لا ضرر ولا ضرار»، وقوله: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته».

والسنة الفعلية هى أفعاله عليه الصلاة والسلام.. مثل أدائه الصلاة بهيئاتها وأركانها، وأدائه مناسك الحج، وما شابه ذلك.. وقد كان عليه الصلوات يوصى المسلمين باتباع هذه السنة الفعلية، ومن أحاديثه التى اشتملت على مثل هذه التوجيهات النبوية: «صلوا كما رأيتمونى أصلى».. «خذوا عنى مناسككم»..

أما السنة التقريرية، فهى ما أقره الرسول عليه الصلاة والسلام مما صدر عن بعض أصحابه عليهم الرضوان من أقوال أو أفعال.. سواء بسكوته وعدم إنكاره لها، أو بموافقته عليها وإظهاره استحسانه.. فتستمد من ذلك قوة، وتعتبر بهذا الإقرار، الضمنى أو الصريح، وكأنها صادرة عن النبى نفسه.. وأمثلتها هى الأخرى عديدة.. منها ما روى من إقراره عليه الصلاة والسلام لمن تيمم من الصحابة للصلاة إذا لم يجدوا الماء ثم وجدوه بعد ذلك.. ومنها أيضا إقراره للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الكثير من أقضيته..

ooo

والسنة المحمدية بأقسامها الثلاثة.. القولية، والفعلية، والتقريرية.. حجة على المسلمين.. تعد مكملة للقرآن الكريم، ومعضدة له.. ومصدرا من مصادر التشريع الإسلامى بعد الكتاب العزيز مباشرة.. وهى تكتسب هذه الحجية ما دام مقصودا بها التشريع والاقتداء، ونقلت إلينا بسند صحيح يفيد القطع، أو الظن الراجح بصدقه.. فلا يعد من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يأتيه من تصرفات وأعمال عادية فى مجال حياته اليومية وأمور

معاشه، ما دام لم يقصد بها أن تكون تشريعا للمسلمين أو قدوة يحتذونها.. وحكمة ذلك أن المصطفى ﷺ بشر، ورسول.. وأن سنته الملزمة للمؤمنين بالدعوى الإسلامية إنما تقتصر على ما يصدر عنه بصفته الأخيرة.. أما تلك التى يكون مصدرها إنسانيته، ولم يصدر فيها عن نبوته التى عهد الله عز وجل إليه بها، فإنها لا تكون حجة ملزمة واجبة الاتباع..

وينبغى أيضا فى مجال تحديد ما هو من أفعال المصطفى عليه الصلاة والسلام واجب الاتباع، وما ليس بذلك، ينبغى التفرقة بين الأعمال التى صدرت عنه ولها اتصال ببيان الشريعة الإسلامية، كصلاته وحجه، وصومه.. فإنها تكون شرعا ملزما، وبين أفعاله التى قام الدليل على أنها خاصة به وحده.. لا تتعداه إلى غيره..

وليس من شك أنه قد زاد من أهمية السنة المحمدية أن المصطفى عليه الصلاة والسلام أجاب على مدى ثلاث وعشرين سنة على عدد لا يحصى من أسئلة صحابته وغيرهم ممن أخذوا الدين عنه، وآمنوا برسالته.. تارة بما يلهمه الله تعالى به، وتارة بما يؤديه إليه اجتهاده الفطرى.. وإن هذه الإجابات المتنوعة فى موضوعاتها المحكمة الجامعة فى مبادئها النبوية الرشيدة، قد صارت مصدرا خصبا ومفيدا لفهم الإسلام.. ليس فقط فى مبادئه وأصوله، وإنما أيضا فى شتى فروعه التى تتصل بحياة الناس، وعلاقاتهم، وأمور دينهم.. ودنياهم..

وإذا كانت السنة المحمدية لها هذه المكانة والأهمية التى اكتسبتها بقيمتها الذاتية.. فإن البراهين الأخرى على حجيتها ولزوم اتباعها، ما دام مقصودا بها التشريع والاقتداء، عديدة وقاطعة.. أولها هذه الآيات البينات التى عرضناها، والتى يحثنا سبحانه وتعالى فيها ويأمرنا بطاعة الرسول والإيمان بنبوته.. وثانيها أن هذه السنة المحمدية ما هى فى حقيقتها إلا تبليغ لرسالة أمره الله عز وجل بتبليغها.. وأنها من هذا المكمن تستمد منزلة تالية للقرآن الكريم مباشرة.. ولذلك أجمع الصحابة عليهم الرضوان على وجوب اتباعها.. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

ثم إن هذه الحجية، وهذا الإلزام فى مجال الاتباع، قاعدة بديهية تفرضها طبائع الأشياء.. ويقود إليها الفكر الصحيح.. الفرائض الأربع.. الصلاة والصوم والزكاة والحج..

قـد جـاءت فى القرآن الكريم مجملة، لا تفصيل لأحكامها، ولا بيان لكيفية أدائها بكافة أركانهـا.. ولا مرجـع يمكـن أن يقود المسـلم إلى كل ذلـك إلاّ فى سـنة المصطفى عليه الصلاة والسـلام.. فهى التى تبين بأقسامها كيف تقام الصلاة وتؤتى الزكاة ويؤدى الصوم والحج.

OOO

والسـنة المحمديـة إذن وثيقة الصلة بالقرآن.. تكمله وتعاضـده.. وهى فى علاقتها به أقسام وأنواع..

فهـى من ناحيـة الاحتجاج بها فى المرتبـة التالية له.. لأنه أصل التشـريع ومصدره الأول..

وهى من ناحية ما ورد فيها من أحكام إما مقررة ومؤكدة حكما جاء فى القرآن.. كالأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة .. وإما مفصلة ومفسرة ما جاء فيه مجملا .. أو مقيدة ما جاء فيه مطلقا.. أو مخصصة ما جاء فيه عاما.. وإما أن تكون السنة مثبتة ومنشئة لحكم سكت عنه القرآن.. كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها قياسا على تحريم القرآن الجمع بين الأختين.

OOO

وعندما تكون السـنة مقررة ومؤكدة.. فإنـه يكون للحكم الذى تضمنته مصدران، وعليه دليـلان.. دليـل مثبت فى آيات الكتـاب المبين، ودليل مؤيد ومعضد من سـنة المصطفى عليـه الصلاة والسـلام.. وأمثلة هذا النوع من أنواع السـنة المعضدة عديـدة: الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والنهى عن شهادة الزور.. وعن عقوق الوالدين.. وغير ذلك من الأوامر والنواهى التى دلت عليها الآيات القرآنية، وأيدتها سـنن المصطفى عليه الصلاة والسلام..

فالصـلاة.. أم العبادات.. فرضها الله سـبحانه وتعالى بآيـات كريمة فى كتاب مبين..

يقول جل شأنه: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (البقرة: ٤٣)

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النساء: ١٠٣)

وتأكيدا لهذا الغرض، وتبيينا لأهميته، يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين.. من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين»

أما السنة المفصلة للمجمل، والمقيدة للمطلق، والمخصصة للعام.. فإنها في حقيقتها تبيين وتوضيح للمراد من الآيات الكريمة.. هذا التبيين الذي أوكله الله جل شأنه إلى صفيه محمد عليه الصلاة والسلام، بصريح نص الكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ (النحل:٤٤)

فالسنة مثلا هي التي تفصل الأوامر القرآنية المجملة بشأن الصلاة والصوم والحج والزكاة.. وتبين كيفية أداء كل فرض من هذه الفروض..

ففي الصلاة.. يبدأ الرسول عليه الصلاة والسلام.. بعد أن رأيناه يؤكد على فرضيتها.. فيوصي المسلمين باتباع سنته الفعلية في أدائها.. ويقول في ذلك «صلوا كما رأيتموني أصلي».

من خلال سنته الفعلية عليه أفضل الصلوات عرف المسلمون عدد ركعات كل صلاة وكيفية أدائها، وإقامة شعائرها.. كما عرفوا أحكام صلاة المريض، والمسافر، وصلاة العيدين، والجنازة، وغير ذلك من أنواع الصلاة..ومثل ذلك بالنسبة للحج.. والصوم.. والزكاة..

والأحكام التي شرعت بالسنة المثبتة والمنشئة مصدرها: إما إلهام الله سبحانه وتعالى لرسوله، وإما اجتهاده عليه الصلاة والسلام بعقله وفطرته.. ومن صورها تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها.. وتحريم الحمر الأهلية.. وكل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير.

وواقع الأمر أن كل هذه الأمثلة للأحكام التي وردت في السنة، لها أصل في القرآن الكريم.. ذلك أن اجتهاده عليه الصلاة والسلام أساسه القرآن، وما بثه في نفسه الحساسة الملهمة من روح التشريع ومبادئه.. وتشريعه عليه الصلاة والسلام للأحكام يستند إلى القياس على ما جاء في القرآن، أو إلى تطبيق أصوله ومبادئه العامة.. فتحريم الحمر الأهلية، وسباع البهائم، له أصل في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الأعراف:١٥٧).

Obeikandl.com

وما حرم المصطفى عليه الصلاة والسلام هذه الأشياء إلا لما فيها من خبائث.

وقد كان لجلال السنة المحمدية ومنزلتها وأهميتها فى معاضدة القرآن الكريم ومعاونته أن ظهرت الحاجة الماسة لدى المهتمين بالفقه الإسلامى وجمع الحديث وتدوينه، إلى وضع ضوابط.. دقيقة وصارمة.. للتأكد من صدق الحديث وصحة صدوره عن النبى.. خاصة وقد تأخر تدوين السنة تدوينا شاملا حتى القرن الثالث الهجرى.. وعنوا لذلك عناية جمة بفحص الرواة، وتمحيص ما ينقلونه عن المصطفى عليه السلام من أحاديث.. وبعد مجهود شاق قام عليه نفر من أفاضل العلماء، ثم فى القرن الثالث الهجرى جمع الأحاديث النبوية وتبويبها فى مجموعات ظفرت بالثقة.. منها ستة عرفت بكتب صحاح السنة هى صحيح البخارى، وصحيح مسلم، وسنن أبى داود، والنسائى، والترمذى، وابن ماجة..

ويستمد الحديث قوته فى الإسناد للنبى عليه الصلاة والسلام بالبحث فى قوة وتواتر السند المروى عنه، وفى هذا المجال يقسم الفقهاء الأحاديث النبوية إلى متصلة السند، وغير متصلة السند.. يضم النوع الأول المتواتر، والمشهور، وخبر الآحاد.. أما الثانى فيسميه بعض العلماء المرسل.. المتواتر هو الذى يرويه قوم لا يحصى عددهم ويؤمن تواطؤهم على الكذب.. حتى يصل السند إلى النبى ﷺ..

والأحاديث المشهورة هى التى يرويها عن النبى واحد أو اثنان أو نحو ذلك من الصحابة.. أو يرويها عن الصحابى واحد أو اثنان.. ثم تنتشر بعد ذلك فيرويها قوم يؤمن تواطؤهم على الكذب..

أما خبر الآحاد، فهو كل خبر يرويه الواحد أو الاثنان أو الأكثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يتوافر فيه شرط المشهور.. وهو يفيد العلم الظنى الراجح، ولكنه لا يفيد العلم القطعى.. لأن الاتصال بالنبى فيه شبهة.

والحديث غير متصل السند، أو المرسل حسبما يسميه بعض الفقهاء، هو الذى لا يتصل سنده بالرسول عليه الصلاة والسلام.. أو لا يذكر فيه التابعى اسم الصحابى الذى روى عنه.. وتختلف آراء الفقهاء فى درجة الاحتجاج به.. على تفصيل فى ذلك ليس موضعه هذا المقال..

وإذا أردنا أن نتابع صور معاضدة السـنة المحمدية الشـريفة للقرآن الكريم لوجدنا أنها عديـدة.. تناولت كل ما تناوله القرآن من أحكام وأغـراض.. بالتأكيد والبيان والتفصيل.. فلم تدع أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسـلام ناحية من عقيدة أو تشريع إلاّ وأتت على توضيحه وتفصيله.. تراها تعاضد الكتاب المبين.. معجزة الإسـلام ورسـوله.. فى العقائد، والعبـادات، والمعاملات، والأحوال الشـخصية، والأخلاق، والعقوبـات، ونظم الحكم، والشئون والعلاقات الدولية..

وليس من شـك أن هذه السـنة النبوية كانت، ولا تزال، مصدر خصب ونماء للشـريعة الإسـلامية.. وباب بيان وتوضيح وتأكيد لأحكامها.. بها عرف الإنسـان المسـلم.. فى كل زمـان، وفى كل مكان.. مركزه من خالقه.. ومركـزه أمام الكون.. ومركزه بين خلائق هذا الكون جميعا.. وعرف أيضا القواعد التى تصح عليها حياته، وحياة البشرية جمعاء، وعلى سنة العدل والحق والمساواة..

وقد كانت هذه السـنة المحمدية موضع تكريم من الله عز وجل.. أمر سـبحانه وتعالى بالتزامها واتباع ما جاء بها.. ثم كانت من آخر ما أوصانا به المصطفى عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع.. وفيها يقول :

«وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، كتاب الله، وسنة نبيه»

ooo

obeikandi.com

السنة النبوية والشريعة الإسلامية

الإســلام ممتحن هذه الأيــام بأبنائه، مثلما هو مبتلــى بأعدائه.. وتصطرع حوله، تيارات شتى، بين داع ومتحفظ، ومقبل ومدبر، ومرحب ورافض، ومدافع ومهاجم.. وتلك فى ذاتها مظاهر.

صحــة، وضريبة على كل «الدعوات» الكبرى فى كل زمان ومكان، بل هى كانت الضريبة التى احتملها الإسلام منذ كان .. فما إن انقضى زمن النبوة، وخلافة الشيخين، وشطر من خلافة عثمان، إلا وماجت الساحة بتيارات عديدة اصطرع وتقارع فيها عديد من المذاهب والفرق والأحزاب.. بين شيعة، وخوارج، ومشبهة، ومرجئة، وروافض، وجبرية، وجهمية، ومعتزلة.. وغيرها.. وتفرع عن كل منها عشرات، بل ومئات من الفرق.. وتغلف كثير من الآراء والنظريات المتصارعة التى ألقيت فى الساحة بأهداف السياســة - بتعبير العصر - ومراميها. وانطوى الدين القيم فى نبعه الصافى، وســط عــوادم المعركة، إلا لــدى نفر قليل من العلماء الذين أخلصوا لله والدين، وعكفوا على شريعته يحفظونها من شرر المعارك التى كان «الإسلام الحقيقى» آخر اهتماماتها لدى معظم أطرافها.. واســتطاعوا وسط أشــلاء القتال أن يصونوا للمسلمين شريعتهم، وأن يحفظوا لها مصادرها «النقلية» أو «النصية» من «قرآن» و«ســنة» و«إجماع» و «فتاوى الصحابة»،.. وأن ينموا لها أيضا مصادرها «العقلية»، من «قياس»، و«مصالح مرسلة» و «استحسان» و «استصحاب».. بل واستطاعوا أن يجنبوا الحضارة الإسلامية «الثنائية الحــادة» التــى تتمزق فيها معانى «الوســطية» بين التطرف لأقصــى النقيضين العقل أو النقل، الروح أو المادة، الدين أو الدنيا.. وتمكنوا - رغم أنصار تلك الثنائية الحادة - أن يحفظوا للإســلام «وسطيته» بمعنى: الموقف الحق بين باطلين، أو الصحيح بين خطأيــن. وأن يقيموا توازنا بقى فيه للنــص احترامه، وللعقل أيضا دوره.. آخذين فى الاعتبار أن النص هو فى النهاية تطبيق، وأن التطبيق لا يجرى إلا متوســدا لفهم واع صحيح، ولاســبيل إلى ذلك إلا بالعقل والتفكير.. يســاعدهم - هؤلاء النفر من العلماء

الذيـن حفظوا للشـرع جوهـره ونقاءه - فى عبـور تلك الأزمة، أن القوة الإسـلامية كانت فى تلك الأيام فى بالغ أوجها، وإن الحضارة الإسـلامية كانت فى قمة رونقها وازدهارها.

إذن!

لم يكـن ذلك، فى أوانه، شـرا محضا، بل ولم يخل من جانـب المنفعة، فقد كانت المقارعـات والمناظرات، مقدمة لنشـأة «علم الكلام» عند المعتزلة، وهـو الإرهاصات الأولى للفلسـفة الإسلامية.. فى الوقت الذى أمن «الإسـلام» نفسه على أيدى هؤلاء العلماء الذين توافدوا عليه وعلى حفظه،.. وانصرف نفر منهم إلى حفظ السـنة، المصدر الثانى للتشريع، إلى جـوار القـرآن الذى جمـع فى خلافة أبى بكـر ووحدت مصاحفه فـى خلافة عثمان عليهمـا الرضوان.. فجابوا الأقطار والأمصار يجمعون السـنة وفتـاوى الصحابة، ويبحثون فيها ويدققون، ويفرغون هذه المهمة العظمى فى كتب الصحاح السـتة المعروفة: البخارى، ومسلم، وسنن أبى داود، والنسائى، والترمذى، وابن ماجه.

إلا أن مـا تموج به السـاحة الإسـلامية فى أواننا، يختلف عمـا كان من عدة وجوه، اختلافـا يدعـو إلى قلق حقيقى.. ليس مرجعـه فقط إلى اختلاف ظـروف القوة والحضارة الإسـلامية، بين زمان مضى كانتا فيه فى أوجهما، ولا خوف من ثم عليهما، وبين زمان -زمننا - تترنحان فيه ترنحا مخيفا بعوامل النحر الداخلية، وبهجمات الخارج الشرسة، وإنمـا مرجـع الخوف أيضًا أن كثـيرا من المتقارعين علـى الصعيدين، هنـا وهناك بغير استثناء. يفتقدون أدوات النظر والبحث والتأمل، ناهيك بالقدرة على التفسير والاستخلاص واستنباط الأحكام.. صحيح أن الإسلام - وهو دين العقل - لا يصادر حق المسلم فى النظر والتفكـير والتامل والرأى، بل ويرفض هذه المصادرة التى تجافى روحه، وتخالف الأصول الإسـلامية للدين الحنيف الذى رفض كل صور الكهانة، ولم يجعل للمسـلم أو على المسلم من سـلطان غير سلطان العقل والنظر الصحيح والموعظة الحسنة، ودون اشتراط جواز مرور من سـلطة دينية أو هيئة علمية.. بل وبلغ من احترامه لسـلطان العقل أن قدمه على ظاهر الشرع عند التعارض وجعل الأرجحية لما دل عليه العقل إذا تعارض مع النقل.. إلا أن هذا

obeikandl.com

لا يعنى أن يجترئ على هذه المهمة من لا يملك أدواته، ولا يسيغ لمن يجهل أبسط مبادئ اللغة، من بيان ونحو وصرف، فضلا عن الفقه والأصول، أن يتصدى للتفسير واعتساف الأحكام.. فليس كالإسلام دين يحث على توقير العلماء والرجوع إلى أهل الذكر «إن كنتم لا تعلمون»! ثم إن مرجع الخوف أيضا، اختلاط مفهوم «الدعوة» مع مفهوم «الحكومة»، بينما لم يعرف الإسلام قط، ما يسمى «بالحكومة الثيوقراطية» التى يزعم فيها الحاكم أنه ظل الله فى الأرض، وأنه يستمد سلطانه من «الحق الإلهى» ويتوسل - بهذه التعلة - إلى استعباد الأمة التى حرص الإسلام على تبيين أن الحاكم هو وكيلها ليس إلا، ولا يستمد شرعيته وسلطته إلاّ منها.. ثم مرجع الخوف، بل والكارثة أيضا، أن نفرا من الواقفين على الصعيد الآخر، تحت شعار التنوير والترشيد، يتحدثون من قاعدة غير إسلامية، وينكرون كثيرا من الأصول الإسلامية ويصورون الإسلام «حلة» أو «لباسا» يمكن تفصيله، وإعادة تفصيله وترقيعه، وفى كل شيء، بما يناسب فى نظرهم كل زمان ومكان، بل وبما يتناسب-ربما!!- كل هوى ومأرب وغرض!! ويمعن آخرون فى تصوير الإسلام «سيفا» يبطش، أو «قطعا» و «بترا» يتساءلون هل يقوم بهما الطبيب أم الجزار؟!! ويتناسون، عامدين أو غافلين، أن للإسلام فى كل ذلك نظرية كاملة متكاملة، تضع إلى جوار العقوبة، أسبابا عديدة وأصيلة للإباحة، وتجعل من «الضرورة» مبدأ عاما تباح به المحظورات. ومن «الشبهة» وبشتى أنواعها موجبا لدرء الحد.. ومن «العفو» فضيلة يندب المسلمون إليها.. ويخفى هؤلاء، وأولاء، عامدين أو غافلين، وجه الإسلام الحقيقى. وحكمة وسماحة شريعته، ورحمة رسالته التى كان حاملها ﷺ رحمة مهداة!!.

وأخطر المخاطر فى كل ذلك الذى اختلط فيه الحابل بالنابل واقتحم الساحة متناظرا، أو متصارعا، العالم ونصف العالم والجاهل، والمؤمن والملحد، والمخلص وغير المخلص الذى يحركه هواه، وتدفعه مآربه.. أخطر المخاطر أن الحوار، أو بالأحرى التراشق، قد بدأ ينزلق إلى الرجم بالتكفير على غير بينة ولا دليل، وإلى العنف وسيلة للرد وهو أسلوب العجز والإفلاس.. وأن تتداعى تلك الترديات فى أشد الأوقات خطرا على الأمة الإسلامية وعلى الإسلام من الخارج، وأن نسهم بشتاتنا وتمزقنا اللذين صنعناهما بأيدينا، فى اختراق أرتال

الأعـداء لصفوفنا وإعمـال مبضعها فينا لمزيد من تمزيقنا وتفتيتنـا وتفريقنا.. حتى لا يبقى على الساحة إلا البوم تنعق، فتكتمل للمخطط - مخطط الخارج للضرب من الداخل - كل أهدافه وغاياته، وليسـدل السـتار من بعد، ويرين الظلام على أمة كانت، وحضارة مضت وبادت اندثرت!!.

لقـد كان المتناظـرون قديما. ورغم كل التحفظات والمحاذيـر. يملكون الأدوات فأفرزوا للحضارة الإسـلامية التى كانت فى أوجها إضافات، ثم كانت بدورها، وبقوتها فى أمان من التحلل أو التعرض للانهزام!!..

ولكـن المتناظرين أو المتراشـقين اليوم، وعلـى المزيد والمزيد مـن المحاذير والأخطار، لا يملكـون الأدوات ولا يضيفـون للفكر ولو ذرات، فى وقت تتعـرض فيه الأمة، ويتعرض الإسلام والمسلمون، لأفدح الأخطار!.

وأغرب الغرابة، أن يصرفنا هذا التراشق «النظرى» بل ويصرف «التيار الدينى» - وأكاد أقـول كله - عن التصدى لأخطـر مهامه فى زماننا!! ويكفينـى تمثيلا لا حصرا، محنة السـموم البيضاء التى انتشرت فى مصر، بل والمنطقة كالوباء، تأكل - كالجراد - الأخضر واليابس وتطحن شـبابنا، عدة المسـتقبل، طحنا، وتورى بمستقبل قريب أسود، تفقد فيه الأمة الإسلامية كل عدة غدها وتصير إلى حتفها وإلى موت حقيقى لا حياة بعده!.

كيف يمكن للإسـلام وهو فى الأصل «دعوة» إصـلاح للحياة والأحياء.. كيف يمكن أن يغضى حملة مشاعله عن «التوعية» و «الموعظة الحسنة» لمقاومة هذا الخطر الداهم الزاحف والأمثلة عديدة ـ لو اتسع المجال ـ وينصرفون إلى جدل عقيم، بينما مطارق الأعداء تقتحم الأبـواب والجدران ولم يبـق إلا أن تداهم الدور والحجرات، لتعمل فى ضحاياها - فينا - مباضع التقتيل والتدمير بالأسلحة البيضاء والسوداء؟!.

ooo

ما أردت أن أقوله إن الإسـلام ممتحن هذه الأيام، وبامتحان عسـير، وإن شر ما فيه، إزاء الاشـتباك المحتدم، أن غبار المعارك والنوايا أيضا، يكاد يطمس الحقيقة، حتى بات إدراكها عسـيرا حتى على كثير من المخلصين.. وحتى صار الطريق إليها - إلى الحقيقة-

مليئـا بالحفر والنجـاد والوهاد، محفوفا بالأهواء والمآرب، مغلفا بأقنعة وأغراض شـتى.. وكاد يتوارى وسـط هـذا الخضم النظر الحيادى والاسـتقصاء المخلص الحـر الذى يطلب الحقيقة ويلتمسها لذاتها، فضلا عما يكتنف مهمة هؤلاء أصلا من مصاعب النظر والبحث والفرز فى تراث غلف بعضه – من قديم – عوادم ما أشـرنا إليه من معارك، مما جعل من تنقيته مطلبا حيويا.. ومع ذلك لم نكتف بما يصادف الباحث المخلص فيها وما يلاقيه من عناء ومشـقة، فأسهمنا بتراشقنا فى تداخل الخطوط «والتشويش» حتى باتت المهمة بالغة بأصحابها العسر جميعه!!

إن تجلية وجه الإسلام الحقيقى مهمة كبرى تفرض نفسها هذه الأيام!

فكيف السبيل، وما الطريق؟!

إن الجـارى على السـاحة الآن، لا يطمس الحقيقة وكفى، بـل يحول بين الباحث وبـين الوصـول فى أمان إليها.. وهو هو ما يصدق بقـدر أو بآخر على ما تلا فترة البعثة المحمدية وخلافة الراشـدين.. فقد كان للحوادث وللأغراض أثر كبير على ما حمله إلينا كثـير من كتب التراث، ولم يعد اسـتقصاء حقيقة النوايا هـو كل ما يواجه الباحث من مشاق فى استخراج واستنباط الأحكام الأصولية من خضم التراث ثمينه وغثة، وإنما هناك أيضا – بفرض استقامة المقاصد وبراءتها من التأثر بظروف العصر – هناك صعوبة التعرف على ما فرضه المبدأ المستمد من أصوله الأولية الإسلامية المجردة، أو بالأحرى المتجردة، ومادعـت إليه ضرورات الحوادث من مسـالك أو فتاوى أو آراء.. تعبيرا أو اسـتجابة– آنـذاك– لواقـع قائم، تختلف الرؤية له باختلافه أو تغـيره.. أو ما يعرف بالتعامل بين الثوابت والمتغيرات!.

والذى لاشـك فيـه، أننا فى زمان غير ما مضى من أزمنـة، وأن ظروف اليوم ومطالبه ومحاذيـره أيضا غـير ظروف الأمس.. وأنه إذا كانت المتغيرات السـابقة تركن إلى ظروف دعتهـا، أو محاذير فرضتها، إلا أن الثوابت والأصول تبقى على الدوام الوسـادة والركيزة الصالحـة لتجلية الحقيقة فـى كل عصر، ورغم كل ظرف، فتنبنى عليها – فى أمان عدم التنكب– ما تقتضيه ظروف الزمان، وما استجد من تفصيلات.

«الثوابت» إذن وسط هذا الخضم الهائل. المغلف –قديمه وحديثه – بأغراض ومآرب شتى، ينبغي أن تكون مطلب الباحث الآن، وفى كل آن، حتى لا يضل طريقه وسط الغيوم والضباب وغبار الصراع!.

أرجو أن يكون، قد وضح من هذه المقدمة التى لم يكن منها مناص، ولو بعض هدفى للوصول إلى ما أريد تجليته، وبدأت به حديثى عن مناسبة انعقاد مؤتمر السنة والسيرة النبويتين لأوانه!!.

إن المصدرين الأساسيين للشريعة الإسلامية، هما :

(١) كتاب الله الحكيم..

(٢) وسنة رسوله الأمين..

ولست أريد أن أتوقف هنا، توقف علماء الأصول فى بيان ترتيب الأدلة الشرعية التى يرجع إليها أو وسائل وأدوات استنباط الأحكام.. ولا أن أتوقف عند إعجاز القرآن رغم الإغراء.. ولا أن آخذ القارئ فى رحلة مع حجية السنة – المصدر الثانى للتشريع – وأدلة حجيتها، ولا حتى عند قول الزاعمين بعدم حجيتها، فبطلان الزعم أوضح من أن يحتاج إلى رد.. ولا أن أشغله بأنواعها من سنة قولية، وفعلية، وتقريرية.. ولا أن أتوقف وإياه عند جهود المحدثين العظيمة فى تقصيها وتدوينها وإسنادها، ولا أن أشغله «بالسند» وأقسامه.. من «متواتر» و «مشهور» وأخبار آحاد ومرسل، وحكم كل منها.. بل ولا أريد أن أتوقف عند «السنة» بتعبيرها الاصطلاحى المتعارف عليه من قديم، والذى يفرق بين ما قاله أو فعله أو أقره الرسول عليه الصلاة والسلام قاصدا به التشريع والاقتداء، وهو ما ينصرف إليه التعبير الاصطلاحى «المسنة» كمصدر ثان للتشريع الإسلامى يلى القرآن، ويعاضده، وبين تصرفات الرسول عليه الصلاة والسلام وأعماله العادية فى مجال حياته اليومية وأمور معاشه، والتى قر علماء الأصول والحديث على عدم انصراف التعبير الاصطلاحى إليها مادام لم يقصد بها أن تكون تشريعا للمسلمين أو قدوة يحتذونها!!.

ما أريده، هو أن أتوقف مع السيرة النبوية برمتها، أو بشقيها.. بالمعنى الاصطلاحى للسنة وغير الاصطلاحى أيضا.. أن أتكلم عن الرسالة المحمدية، بمعناها الشامل، وعن التطبيق النبوى للمفهوم الصحيح للإسلام من خلال السيرة النبوية برمتها..

إن أحدا لم يختلف حول منزلة السنة. بمعناها الاصطلاحى من القرآن وتكملتها ومعاضدتها له، سواء كمصدر ثان وتال له مباشرة للتشريع، أو من ناحية ما اشتملته من أحكام مقررة ومؤكدة ومبينة لأحكام جاءت فى القرآن، وأخرى مفصلة ومفسرة لما جاء فيه مجملا، أو مقيدة لما جاء فيه مطلقا أو منشئة لحكم سكت عنه القرآن كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها..

إن موضع «السنة» من التشريع. ومعاضدتها للقرآن كمصدر تال له، لا خلاف عليهما وما إلى التركيز على ذلك قصدت.

إن همى الآن، إنما ينصرف إلى ما يقع حول تفسير النصوص، قرآنية كانت أو نبوية، من اختلاف قد يقود إلى شيوع مفهوم للنص ليس هو بالضرورة ذات المفهوم فى مقصد الشارع الإلهى.. وهنا مكمن الخطر.. وباب الخلاف الذى يشعل أواره المغرضون قبل المخلصين!!

ولكن الذى لا يقع الخلاف عليه، ولا يمكن أن يقع، هو أن المصطفى عليه الصلاة والسلام. هو «التجسيد الحى» و «التطبيق الواعى المخلص» و «الإنسانى» أيضا لأحكام الشريعة الغراء، قرآنا وسنة.. وأن الإلمام بهذا التجسيد، وذلكم التطبيق، من خلال الإلمام بمفهوم الرسالة المحمدية ككل. وبالسيرة النبوية برمتها، إنما هو المشعل الوضاء، والمنار الهادى لكل الباحثين أو المتخبطين على الطريق.. ولا أحسب زاعما يمكن أن يزعم أن فوق تدين النبى عليه الصلاة والسلام تدينا، أو أعلى من فهمه للرسالة التى حملها فهما، أو أحرص على الالتزام بأصولها وأحكامها وقواعدها منه؟!!.

إن «السنة» ثابتة الورود قطعية الدلالة، ليس حسبها أنها الأصل الثانى من أصول الإسلام الحنيف، وإنما هى، السيرة النبوية، التجسيد الحى، والتطبيق الواعى الأمين للأصل الأول، وهو القرآن، وللشريعة بعمومها، قرآنا، وسنة.. ومنهج حياة!!.

إن «الرسالة» أى رسالة، لا غناء لها عن «رسول»، مؤهل بكل ما يستلزمه حمل الرسالة إلى المكلفين. ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الحج: ٧٥) وتلك سنة من سنن الله فى كونه، منذ أولى الرسالات والنبوات، حتى اختتامها بالإسلام.. يقول سبحانه.. ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء ١٥)، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر ٢٤)، «﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (يونس ٤٧).. وعلى ذلك جرت رسالة الإسلام متميزة عما سبقها من رسالات بأنها للناس كافة: «﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سبأ ٢٨)، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) .. فلا هى لقوم بعينهم، كبنى إسرائيل فى اليهودية والمسيحية، أو عاد وثمود قومى هود وصالح، أو قوم نوح أو لوط، ولا إلى قرية بعينها، وإنما هى الدعوة الشاملة إلى الناس والأقوام والأمصار كافة: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴿٥٩﴾ ﴾ (القصص ٥٩).. ولم يكن هذا العموم هو نصيب الرسالة المحمدية من التميز وكفى، وإنما هى رسالة النور التى اختلفت وتمايزت وتفاضلت على كل ما سبقها من رسالات ونبوات.. فلا هى التى تنطوى فى تكاليف الزعامة، ولا التى تقوم على منفعة أمة من الأمم بعينها، ولا التى ينتظرها قوم بذاتهم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه، ولكنها الرسالة الإلهية الشاملة التى لم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد، وإنما قوامها أن الله حق وهدى، وأن الإيمان به، جل وعلا، مطلوب لأنه حق وهدى.. ثم هى وإن اتفقت فى «التوحيد» مع ديانات دعت أمما إليه قبل الإسلام، فإنها تمايزت بكونها دين الإنسانية.. الدين الذى يتجه إلى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب والأجناس، والتماس الهداية لهم جميعا.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات ١٣)..

هذه «الرسالة»، خاتمة الرسالات، لابد وأن يحملها رسول أمين، جد أمين.. تتلاقى فيه أكرم وأفضل وأميز صفات الأنبياء والرسل أجمعين.. وكيف لا، وهو الذى أدبه ربه، فأحسن تأديبه، وأهله بأدبه هذا العظيم لأن يحمل إلى الناس كافة رسالة الإسلام، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويكون لهم، بتعاليمه، ومنهجه، وعمله وحياته، وسيرته، نعم الأسوة التى بها يتأسون.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النحل ٤٤)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الصف ٩)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأحزاب ٤٥، ٤٦)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الشورى ٥٢، ٥٣)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ ﴿٦٧﴾ ﴾ (المائدة ٦٧)

هذا الأمر الإلهى، الذى هو قوام الرسالة، ومناط النبوة، أداه المصطفى عليه الصلاة السلام فأحسن أداءه.. أنفق ثلاثة وعشرين عاما منذ بعثه الله إلى أن اختاره إلى جواره.. أنفقها معلما، ومبشرا، ونذيرا.. فكان عليه الصلاة والسلام معلما لا كالمعلمين.. يصل فى تعليمه المسلمين نهاره بليله. يعلمهم حين يلقاهم، وحين يرونه.. حين يبشرهم، وحين ينذرهم.. حين يفقههم وحين يرشدهم.. حين يأمر، وحين يدع، وحين يفعل، وحين يمسك.. ويعلمهم بسيرته فيهم.. فمن لهم وللمسلمين كافة فى كل زمان ومكان، بسيرة أكرم أو أفضل أو أوعى أو أفهم بالإسلام -نصه وروحه- من هذه السيرة، ينهلون منها، ويتأسون بها.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب ٢١).

ما أريد أن أقوله، إن التأسى برسول الله ﷺ فى سنته، وفى سيرته، هو أكمل الطرق وأوعاها وصولا إلى حقيقة الإسلام ولبه وجوهره.

إن المتأمل فى سـنة المصطفى عليه السلام وسيرته، سيفهم الإسلام حق فهمه.. سيرى محمدا، أكثر الناس برا بأهله، وحدبا عليهم.. يقول لحبه أسامه بن زيد حين جاءه يتشفع لفاطمه المخزومية لعدم إقامة حد السـرقة عليهـا: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سـرق فيهم الشـريف تركوه، وإذا سـرق فيهم الضعيف حدوه.. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سـرقت لقطعت يدها».. وسـيرى مع هذا الحرص على إقامة حدود الله، حين تكتمل أركان الجرم بغير شـبهة، ولا عذر من إباحة أو ضرورة، أنه عليه الصلاة والسـلام هو هو الذى يرد من جاءه مختارا يعترف بالزنى فيشيح عنه بوجهه ثلاث مرات ويراجعه فـى مقالتـه ثلاثا أخرى، ثم يبحث له عن مخرج مـن اعترافه فى مس أو جنون أو هذيان سكر.. وسوف يراه يرد أبا هريرة ردا عنيفا حين أخبره بأنه رد امرأة زنت فحملت فولدت فوأدت، ردا عنيفا حين سألته أيقبل الله توبتها.. ويقول له: «هلكت وأهلكت».. فيمضى أبو هريرة هائما يبحث فى طرقات المدينة عن المرأة قبل أن تقتل نفسها يأسا مما نهرها به من عدم قبول الله تعالى لتوبتها.. سـيرى محمدا، هذا الذى يبر أهله، ويؤثر عمه العباس بحبه، يرده عن ولاية طلبها ويقول: «من أمر أحدا محاباة فقد خان الله ورسـوله وجماعة المؤمنين».. وسيراه على حبه وإيثاره لأبى ذر الغفارى، حتى قال فيه: «ما أقلت الغبراء، ولا أظلـت الخضـراء، أصدق لهجة من أبى ذر»، يرده رغم ذلك عن الولاية، لأن به عليه الرضـوان ضعفا، ولأنها أمانة ويوم القيامة خزى وندامة إلا لمن أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها.. وسـيراه على شـدته فى الحـق، لا يغلق أمام مخطئ بـاب التوبة والمغفرة، ولا يحرم أحدا رحمته وعطفه، أو يصادر على سـعة رحمة الله تعالى له.. وكيف لا، وهو الذى فيه قال تعالت حكمتـه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة ١٢٨).. سـيرى الخبرة بالنفس البشـرية، بقوتها وضعفها، مهما بلغ أوجها، وسـيلمس تسامحه وحلمه،

وتواضعه وبره.. سيرى كيف كان عليه السلام بذاته رحمة مهداة، وكيف كان يعلم أصحابه فيقول لهم: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».. سيرى كيف لم يخرج عليه السلام أيا من كائنات الكون طيرا وحيوانا من رحمته.. سيراه يروى لأصحابه كيف شكر الله تعالى وغفر لعبد ملأ خفه بماء وأمسكه لكلب ظامئ حتى ارتوى.. سيرى كيف أن اعتزازه بعروبته، وقريشيته، واعتزازه بصحابته، لم يمنعاه من أن يقول للمسلمين: «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى».. سيرى كيف كان صلوات الله وسلامه عليه ينأى بأصحابه عن الجدل العقيم، ويحذرهم من عواقبه ويستن معهم سنة التعليم والتفقيه والإرشاد والتوعية بالحكمة والموعظة الحسنة.. بسيرته فيهم، وتواضعه لهم وللناس كافة.. حتى كان يردف الفقراء معه على دابته.. يرقع ثوبه وخفه بيده.. ويحمل بنفسه حاجته.. كيف كان على نبوته، ووحى ربه له، لا يترك فرصة لاستشارة أصحابه إلا انتهزها، موصيا إياهم بقوله: «استعينوا على أموركم بالمشاورة».. كيف كان يشاركهم فى حفر الخندق فى غزوة الأحزاب ولا يستنكف أن يغبر التراب وجهه الكريم.. سيرى كيف كان مع حمله للرسالة، وحرصه الحريص على أحكامها، هو الذى يقول للمسلمين: «إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما تؤتى عزائمه».. سيراه يخرج إلى صحابته فرحا مستبشرا حين نزل من سورة الشرح ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾ (الشرح ٥، ٦).. يقول لهم «أبشروا فلن يغلب عسرٌ يسرين».. سيرى الفهم الواعى لهدف الدين والعقيدة، والتيسير على الناس فى غير مشقة ولا إعنات.. ويوصيهم بأن الدين متين، وأن أحدا لن يشاده إلا غلبه، وأن يوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.. سيرى كيف يسر عليه الصلاة والسلام التكليفات على أصحابه والمسلمين حتى فى العقيدة فاكتفى منهم للدلالة على الاعتقاد بالوحدانية ولو بإشارة السبابة إلى السماء.. وكيف يسر لهم فى العبادة بالاكتفاء فى طهارة الصلاة بالتيمم إذا خافوا استعمال الماء.. سيرى ويرى ما لا يدركه حصر، ولا يتسع له هذا المقام، وسيعرف فى النهاية أن الدين الحنيف، فى سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، إنما قصد إلى تزكية النفس، وتطهير القلب، والامتثال

والطاعة، واستشعار عظمة الله وإقرار الخير والصلاح فى الأرض على أساس قوى متين من ربط الإنسان بخالقه سبحانه الذى يعلم سره ونجواه.

أيمكن لنا، فهما لديننا، واتقاء لشرور ما نحن فيه من شحناء، صرفتنا - بجدل عقيم - عن أمس وأخطر ما أمرنا به ربنا تبارك وتعالى؟ أيمكن لنا، أن نجد فهما خيرا من فهم المصطفى عليه الصلاة والسلام، أو تجسيدا حيا لهذا الفهم الواعى خيرا من تجسيده عليه السلام له، فى سنته وفى سيرته؟!.

تلك الرسالة التى حملها هذا اليتيم فى غير ذلة، العزيز فى غير قسوة.

كيف به، والدنيا بأسرها تزين له وللناس طريقا غير الطريق، فيغلب الدنيا على ما تريد، ويهديها هو بعزيمته إلى غير تلك الطرق التى تزينها.. وينهض وهو الرجل الواحد بما يأباه قومه، ويأباه معهم أقوام زمانه؟.. كيف به بمفرده يقوم بذلك كله، اللهم إلا أن تكون قدرة الخالق فيما خلق، يوليها من يشاء حيث شاء.

إن محمدا، عليه الصلاة والسلام، الذى أولاه الحق تبارك وتعالى ما أولاه، هو هو الذى أمرنا الله سبحانه فى محكم تنزيله بأن نسمع له وبأن نطيع، وبأن نحكمه فيما قد يشجر بيننا من خلاف.

يقول، عز من قائل :-

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾ ﴾ (الحشر ٧)

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (النساء ٨٠)

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء ٦٥)

فهل آن الأوان، لأن نتأمل بوعى فى سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وفى سيرته وأن نسمع له ونطيع، وأن نحكمه - بسنته وسيرته - فيما شجر بيننا من خلاف؟!!

سؤال، لا أملك بعده إلا الرجاء!

وصدق عليه الصلاة والسلام، إذ يقول : «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله، وسنتى».

الإجماع المهجور!

يدرك الفاهمون لإلهية الإسلام، وعالميته، الملتفتون إلى دلائل هذه العالمية، وعناصرها، المعبرة عن قدرة الحق سبحانه، وتدبيره المحكم لغايته لديانة أرادها – عز شأنه – ديانة للعالمين إلى يوم الدين، تمتد فى الزمان مثلما تمتد فى المكان بلا حدود، أن من آيات هذه العالمية، أن معجزة الدين ذاته كانت ذلك القرآن المجيد الذى حوى أوامر الحق تجلت حكمته ونواهيه، فى العبادات، والعقائد، والأخلاق والمعاملات، فكان حجة أبدية لا تنطمر – كما تنطمر الحجج الحسية أو المادية – بمضى الزمن، وإنما تزداد وتزدان على الأيام بما يضيفه العلم ومستحدثاته، وحقائق الكون وما يتكشف منها، إلى فهم الناس لآيات هذا الكتاب المجيد وإلى إيمانهم العميق به، وكان إلى ذلك معجزا فى بلاغته ومعماره، مثلما هو معجز فى إثباته الغيب، سابقه وقابله، وفى إحكام قواعده، فضلا عن معجزته الكبرى التى تضمن حياة الدين وصلاحيته للامتداد الذى تغيته الحكمة الإلهية، والتى تتجلى فى التفاته وحرصه على التمييز بين الأصول والثوابت، وبين المتغيرات التى تفرضها تطورات الحياة وصنوف الحوادث.. فاكتفى فى حكمة تصادقها الأيام بإيراد الأصول والمبادئ والقواعد فيما تتغير تفاصيله بمرور الزمن دون المساس بالأصول والمبادئ، فلم يورد فى الشورى – مثلا – تفصيلا كالذى أورده فى المواريث، ولم يقيد الناس فى تفاصيل المتغيرات الاقتصادية، مكتفيا بإيراد المبادئ الجامعة التى تضمن أن يكون المال فى خدمة الناس، وألا يكون دُولة بين الأغنياء، وألا يحتكر أو يكتنز إضرارا بالمصالح العامة والخاصة على السواء ... هذا النظر فى هذه المواضع وغيرها، هو الذى أعطى الإسلام هذه القدرة على ملاحقة تصاريف الحوادث وتطوزات حيوات الناس بما يلبيها فى إطار الحكمة والمبادئ القرآنية المجيدة.

يدرك الفاهمون، مما اختطه الدين الحنيف، أن الأديان لاتُفرض بالقسر والإرغام، وإنما تنتشر وتعيش وتحيا وتبقى بالاقتناع.. وأنه من أجل ذلك كانت حياة الدين – أى دين –

فى حياة مبادئه وقواعده وأحكامه وقدرتها على ملاحقة وتغطية ما يعرض للناس غدا وبعد غد، مثل قدرتها على تغطية ما عرض لهم بأمس وأول أمس!.

مـــن نفحات هذا الدين، أنه طوى على ما يكفل قـــدرة أهل الذكر من العالمين العارفين لا المتنطعين ولا الغالين، أن يســـتخلصوا ويســـتنبطوا أحكامه، وأن يســـتخرجوا من كنوز قواعـــده ما يلاحق حاجات الناس على امتداد الزمـــن.. علم أصول الفقه، وهو علم المناهج التى انتهجها وينتهجها الأئمة المجتهدون فى اســـتنباطهم وتعرف الأحكام الشـــرعية من النصـــوص القرآنية أو النبوية والبناء عليها باســـتخراج العلل التـــى تبنى عليها الأحكام، وتلمس المصالح التى قصد إليها الشـــرع الحكيم، وأشـــار إليها القرآن المجيد وصرحت بها أو أومأت إليها الســـنة النبوية والهدى المحمدى.. هذا العلم – الذى بدأ الإمام الشـــافعى من قرون فى وضع أحكامه فى «الرســـالة» وفـــى مقدمة كتابه «الأم»، ونما على الأيام –هو علم مستقى من أصول القرآن المجيد والسنة، وكفل على الأيام حسن وسداد الاغتراف من الكنوز القرآنية، ســـواء ما اتبعه الأوائل فى عصر التدوين والأئمة المجتهدين، أم فيما يلى من عصور يجب أن يؤدى علماؤها العارفون القادرون دورهم فى سبيل الاجتهاد الذى دلهم عليه قواعد وأصول علم أصول الفقه.

من كنوز علم أصول الفقه، الذى أحصى فيما أحصاه مصادر الشرع «الإجماع» كمصدر من مصادر الشرع يلى الكتاب والسنة مباشرة، ويتلوه فتوى الصحابى، والقياس، والاستحسان، ثم العرف والمصالح المرســـلة والذرائع والاســـتصحاب، وأخيرا شرع من قبلنا فيما لم يطأه التحريف والتبديل والتغيير ولا يختلف مع الأصول الإســـلامية باعتبار الشـــرائع السماوية جميعها من نبع واحد، احترمها الإســـلام واحتواها واحترم رسالاتها وأنبياءها وكان الدين الوحيد الذى كرم جميع الأنبياء والرســـل وبأكثر مما ورد فى كتب أديانهم، وأطلق أسماء العديديـــن منهم على كثير من ســـورة (يونس، هود، يوســـف، ابراهيـــم، مريم، نوح) غير ســـورة «الأنبياء» وســـورة طه ومحمد، واعتبر الإيمان بالرســـالات السابقة جزءا من الإيمان به، مما استقر على الزمن فى نسيج أبنائه الذين انفردوا دون أبناء الأديان الأخرى باتخاذ جميع الأنبياء أسماء لأولادهم وذراريهم على مدار الأزمنة والعصور..

«الإجمـاع» كنـز من كنوز قدرة الإسـلام على التجديد وملاحقة التطـورات فى إطار القواعد الكلية والمبادئ الأصولية التى سـنها القرآن المجيد والسـنة المطهرة.. فهو مصدر من مصادر الشرع الإسلامى يلى مباشرة النصوص: الكتاب والسنة، ويعتمد عليها، ويفتح الباب للنظر والتأمل والاجتهاد المأمون الذى يجد أمانه فى اتفاق «الإجماع» على القاعدة أو الحكم المستنبط من أصول ونصوص الشـرع الحـيم.. والإجمـاع – شرعا – هو اتفـاق المجتهدين من الأمة بالقول أو الفعل أو التقرير، فى عصر من العصور بعد النبى ﷺ على حكم شرعى فى أمر من الأمور العملية دينى ودنيوى وعقلى ولغوى.. وغنى عن البيان أن اشـتراط أن يكون تاليا لحياة رسـول القرآن يفرضه أن الإجماع تال للنصوص لا يسبقها، بل ويعتمد عليها، ومحال والأمر كذلك أن يزاحم المصدر النصى طالما كان منبعه موجودا بوجود مصدره المتمثل فى الرسول – عليه السلام – الذى إليه السنة المطهرة وإليه السن والتشـريع والتقرير فيها ما بقى – عليه السـلام – حيا.. فلا محل ولا موضع للإجماع إلا بعد انقطاع المصدر الثانى للشـريعة.. هذا الإجماع هو باتفاق علماء المسـلمين حجة، يلقى سـنده فى القرآن المجيد، وفى السـنة النبوية.. فى الحديث الشـريف، أن الأمة لاتجتمع على ضلالة، وأن ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، يقول رسول القرآن «لاتجتمـع أمتى على ضلالة».. هذه الأمة التى قال فيها القرآن «كنتم خير أمة أخرجت للناس».. وقال: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس».. ويقول المصطفى عليه الصلاة والسـلام: « مارآه المسـلمون حسنا فهو عند الله حسن».. واشتهر على لسان الثقات من أقواله ﷺ «لم يكن الله ليجمـع أمتى على ضلالة».. «سـألت الله ألا يجمع أمتـى على ضلالـة فأعطانيه».. ومن قوله فيما رواه الشـافعى عن عمر رضى الله عنه: «ألا فمن سـره بحبحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشـيطان مـع الفذ، وهو من الاثنين أبعـد..» وفى القرآن الحكيـم: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (النساء ١١٥).. فتحريم اتباع غير سـبيل المؤمنين، ووصمه بأنه شـقاق لله تعالى ورسوله، جزاؤه جهنم .. يعنى

بمفهوم المخالفة أن اتباع سبيل المؤمنين واجب، فمن يخالفهم يشاقق الله والرسول، وجزاؤه فى الآية ﴿جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.. وفى سورة الأنفال يقول عز من قائل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ (الأنفال ١٣)..

الإجماع مصدر غنى مانح من مصادر الشرع الإسلامى، إليه – فى زمن الصحابة – قاعدة أن الجدة تأخذ السدس تنفرد به الواحدة وتشترك فيه الأكثر من واحدة، وإليه –فى زمن الصحابة أيضا – عدم جواز الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وعلى أن الإخوة والأخوات لأب يقومون مقام الأشقاء إن لم يكن أشقاء، وبطلان زواج المسلمة بغير المسلم، وعلى أن الأراضى المفتوحة لا توزع كسائر الغنائم والأنفال.. وإلى الإجماع الاتفاق على إطلاق اسماء «الصانع» و «الموجود» و «الواجب» و «القديم» على الله سبحانه وتعالى، والإجماع على أن الماء إذا تغير لونه أو طعمه أو ريحه بنجاسة فهو نجس لا يجوز التطهر به من الحدث، وليس لهذا الحكم دليل آخر غير الإجماع، وإلى الإجماع أيضا قاعدة أن سداد دين المتوفى منْ ماله مقدم ليس فقط على ميراث التركة، وإنما أيضا على تنفيذ وصيته، وإلى الإجماع حكم أنه لا زكاة فى أعيان الشجر، وميراث بنت الابن مع البنت.. إلى غير ذلك من الأمثلة والأحكام التى كان مردها إلى «الإجماع».

هذا «الإجماع» – الذى هو لدى جمهور فقهاء المسلمين – المصدر الثالث من مصادر الشرع، وحكمه فى مسألة هو «حكم قطعى» حتى وإن كان السند الذى قام عليه الإجماع ظنيا، مثل ما أجمع عليه الفقهاء من أن الجمع بين المحارم حرام، وذلك حكم قطعى لا مجال للاحتمال فيه، بينما سند الإجماع ظنى فى مرتبة سند الحديث المركون إليه: «لاتنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها».. كذلك ثبوت ميراث الجدة، حكمه قطعى.. وإن كان سند الإجماع خبرا أحاديا، وهو ما قرره المغيرة بن شعبة من أنه رأى النبى عليه السلام أعطاها السدس، كذلك إقامة الإخوة والأخوات لأب مقام الأشقاء ثبت بالإجماع، وهو قطعى، والسند كان ظنيا.

هذا الباب المفتوح لإثراء أحكام الدين، وملاحقة تطورات الحياة، بإجماع المجتهدين إجماعا يستند إلى القواعد الكلية والأصول القرآنية والنبوية.. صار من أسف مصدرا مهجورا،

تتجمع غيوم كثيرة حول أسباب أو مآرب هجرانه، لعل في مقدمتها أغراض ومآرب الحكام والملوك والأمراء في عصور الهبوط والاضمحلال التي قذفت إلى الساحة بنظريات الحكم المطلق الذي يستند - كذبا - إلى الحق والسلطان الإلهي، فرأى من الخطر عليه، وعلى ما يرمي في كثير من الحوادث والمناسبات إليه، أن تتصادم رغاب ومطامع الملك المطلق الذي ابتليت به الأمة الإسلامية بعد عصر الراشدين، مع هذا الأصل الثالث الثري المانح من أصول الشرع الإسلامي، وأعظم السنن التي تفتح أبوابا لغناء وثراء وتجدد الشرع لا يريد المستبدون لها أن تنفتح!.

من العجيب اللافت أن ذات الفقهاء، في عصر الهبوط والجمود والاضمحلال، هم الذين أعطوا التكئة والذريعة، لم يكفهم التشدد في شروط الإجماع التي غالى فيها بعضهم، فالتقطوا ثم روجوا الطعم أو الفخ القائم على أن الإجماع بعد عصر النبوة قد بات مستحيلا لتفرق الفقهاء والمجتهدين في الأقاليم والأمصار، واستحالة أن يتلاقوا مع بعد الشقة بينهم والمسافات ناهيك بالتلاقي على حكم واحد!.

الذين تأولوا هذا التأويل، وتقولوا هذه المغالطة، والمستسلمون لها وحتى الآن من أسف، إنما استسلموا لعلة مغلوطة مردودة، ويصادرون في الوقت نفسه على المطلوب، ويغلقون في النهاية، مهما كانت النوايا، بابا فذا من أبواب نماء الرؤية والفقه والتجديد الإسلامي!.

غريب جدا، أن قبل الفقهاء قديما ورددوا هذه المقولة، ودرجوا عليها واستسلموا لها، ولكن غرابة الاستسلام في زماننا - بآفة الاعتياد - أكبر وأدهش، التقط فقهاء الزمن الغابر هذه المغالطة بعد عصر الاجتهاد والتدوين، لأن عصرهم كان عصر هبوط وانحطاط وجمود واضمحلال، وهيمنت فيه التيجان ونظريات الملك المطلق هيمنة غلقت الأبواب وعصفت بفقهاء ونكلت بهم وقتلت بعضهم صبرا، فخاف الكل انصياعا لحكمة رأس الذئب الطائر، بيد أن زماننا الآن غير ذلك الزمان، ولم يعد بمستطاع حاكم مهما كان استبداده أن يخيف جمهور الفقهاء المجتهدين على امتداد العالم الإسلامي الذي ملأ الدنيا، وشغل أقطارا متعددة من المحال على حاكم أن يبسط عليها كلها سطوته وقبضته واستبداده، أيا كان نفوذه، وأيا كانت أدواته، في الوقت الذي تماحت فيه تماما ذريعة أو تعلة تفرق الفقهاء

المجتهديـــن فى الأقاليم والأمصار، فعالم اليوم الذى اقتحـــم الفضاء واقتحم عوالم النجوم واللاســـلكيات والإلكترونيات، وصار بالفضائيات وشبكات الإنترنت ونظائرها قرية صغيرة يســـتطيع كافة علماء الدنيا أن يلتقوا يوميا على شاشـــاتها، وأن يتبادلـــوا الآراء والفتاوى والأحـــكام، وأن يتناوبوا معالجة المشـــاكل وطوارئ الأحداث والقضايـــا وأن يتبادلوا الرأى والحلـــول فيها، وان يحصوا قدر ما يتحقـــق أو لا يتحقق من إجماع أو أغلبية أو أقلية فى مسائل غاية فى الأهمية يحار فيها الناس ولا تتحمل الإبطاء أو التراخى أو الانتظار!.

فى مصر – أحد أقطار الإسلام – على سبيل المثال، كان المؤتمر الإسلامى، والآن يوجد المجلس الأعلى للشـــئون الإســـلامية، ومجمع البحوث الإســـلامية، ودار الإفتاء، والأزهر الشـــريف بهيئاته، وجامعة الأزهر بمعاهدها وكلياتها وأســـاتذتها، وفى الســـعودية رابطة العالم الإســـلامى، ونظائر لكل هذه التجمعات والهيئات والجامعات الإســـلامية فى شتى بقاع وأقطار العالم الإسلامى.. وهؤلاء جميعا وفيهم العلماء المجتهدون، قادرون على طرح القضايا والمشـــاكل، وتجميع البحوث، وتبادل الرأى على مســـتوى علماء العالم الإسلامى المجتهدين لوضع الحلول والأحكام من واقع القواعد الـكلية والأصول والمبادئ التى أوردها القرآن المجيد، وبينتها وعاضدتها السنة النبوية المطهرة..

ومن الغريب اللافت أن هؤلاء جميعا يجتمعون بالفعل فى أكثر من مؤتمر إســـلامى كل عـام، يختارون له أحد أقطار وبلاد العالم الإســـلامى، ويعقدون فيها حلقات نقاش واسعة وضيقـــة، ويتباحثون ويتناولون ويتبادلون البحـــوث والآراء فى أهم وأعوص القضايا، ولكن دون أن ينتقلوا بذلك إلى رصد وتجميع يصح أن يقال إنه قد تحقق به – أو لم يتحقق– إجماع يضيف إلى الفقه الإســـلامى ويجدد فى الشـــريعة ما تلاقى به قضايا اليوم ومســـتحدثاته..

مـــاذا يقول علماء الإســـلام المجتهـــدون فى أقطاره جميعا – بالنســـبة للفارق بين الانتحار والاستشـــهاد، وما تكييف ما يبذله أبناء الأوطان فى الدفاع عن أرواحهم وممتلكاتهم وثرى أوطانهم، وهل يبيح الدين أو لا يبيح أن تمتد عمليات المقاومة والكفاح المشروعة إلى الأبرياء من الأغيار أو النساء والشيوخ والأطفال، وما الرأى بالنسبة للموقف الذى على المسلمين أن يتخذوه حيال الغزاة الذين ينتهكون قطرا من أقطار الإســـلام، هل التعاون مع هؤلاء الغزاة

مباح أو غير مباح يرفضه الدين ويأباه، وما الحل حين تشجر المعضلات. والحروب أحيانا، بين قطرين أو أكثر من أقطار العالم الإسلامى.. ماذا على مجموع المسلمين أن يتخذوه، وما هو موقف الدين فى الفوائد المصرفية وصناديق التوفير وشركات أو عقود التأمين.. وكلها قضايا عصرية طال فيها الجدال وتحتاج إلى حكم إجماع يرتضيه ويطمئن إليه جمهور المسلمين، ماهو حكم الدين فى الشورى الآن فى زماننا، وما الذى تبيحه أو لا تبيحه المبادئ العامة التى وردت بالقرآن المجيد والسنة النبوية عن الشورى تاركة للمسلمين تحديد أطرها وتفاصيلها ومعالمها ومعطياتها تبعا لتغير ظروف الزمان والمكان!.

ليس مقصودى هنا – ولا يتسع المجال – إحصاء القضايا والمشاكل الحيوية التى ينبغى ويجب أن يعرض لها العلماء المجتهدون فى العالم الإسلامى برمته، ليستنبطوا الحلول والأحكام والقواعد، ومن واقع الأصول الكلية فى القرآن المجيد والسنة المحمدية المفسرة المبينة المعاضدة، وليتواصلوا تواصلا يتغيا الاستهداء إلى «إجماع» تستنير به الأمة الإسلامية، وتتعرف خطاها، وتستنقذ نفسها من الغلاة أو المتنطعين من ناحية، ومن الأعداء المتربصين المهاجمين المفترين على الإسلام من ناحية أخرى، ولعل جمهور هؤلاء العلماء الذين لهم قوة أدبية هائلة تتجاوز حدود الأقطار، أن يحددوا للمسلمين ما القول فى حكاية تجديد الخطاب الدينى، التى يتحدث فيها العارفون، ويتجرأ عليها الجهلاء، ويديرها الأعداء إدارة تبغى ضرب الإسلام نفسه فى الصميم والقضاء على أمة المسلمين!

أيها الناس، أعيدوا لنا الإجماع المهجور!!

ooo

دليل العقل إلى قيم التراث

يشترك المتدينون عامتهم وخاصتهم - فى أشواق تشدهم إلى الإلمام بمشاهد التراث التى حفظتها مدونات السير وتواريخ الأديان .. يقبلون عليها فى نهم وشغف وينهلون منها ما يشبع أشواقهم إلى الصفحات التى سطرها الأقدمون حين تلاقت دعوة السماء بأهل الأرض، وينشدون فيها ما يعطيهم عبق معايشة أنفاس الأحداث والصور التى خطها الأسلاف .

يتمثل المطالع للتراث الإسلامى، فى شوق وإعجاب، مشهد الصحابى الجليل سلمان الفارسى، وهو والٍ من قبل الفاروق عمر بن الخطاب على المدائن.. لا يفارق - على رغم الولاية! - ملابسه الخشنة، ولا يركن لعطائه الذى يغنيه، وإنما يأبى إلاّ أن يكسب قوته من عمل يده.. يجدل الخوص ليصنع منه أوعية ومكاتل يبيعها ويتعيش منها.. يقول للناس: «إنى أشترى خوصا بدرهم، فأعمله- ثم أبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهما فيه، وأنفق درهما على عيالى، وأتصدق بالثالث.. ولو أن عمر بن الخطاب نهانى عن ذلك ما انتهيت»!

ثم هذه الصورة الرائعة للصحابى الجليل سعيد بن عامر الوالى على حمص، حين تفقده الفاروق عمر فى ولايته، فما وجده إلاّ فى إهاب بسيط خشن، لا تصرفه الإمارة عن تواضعه وبساطته وزهده، ولكن مابال أهل حمص يشكون منه أنه لا يخرج إليهم حتى يتعالى النهار، ولا يجيب أحدا بليل، وله فى الشهر يومان لا يخرج فيهما إليهم ولا يرونه إلاّ آخر النهار! !.. يسأله الفاروق مشفقا أن تكون قد خابت فراسته فيه، إلاّ أن الجواب يسفر عن عظمة لم يتوقعها أحد من المتسائلين!.. إنه لا يخرج حتى يتعالى النهار، لأنه ليس لأهله خادم، فيعجن لأهله العجين ويدعه حتى يختمر، ثم يخبز خبزه، ثم يتوضأ للضحى ويخرج إليهم.. ولا يجيب أحدا بليل لأنه جعل النهار لهم، والليل لربه يعبده ويتهجد إليه.. ولا يخرج يومين فى الشهر، لأنه لا ثياب له إلاّ ثوبه الذى يستره، فهو يغسله وينتظر حتى يجف، ثم يخرج إليهم فى آخر النهار!

يجد المطالع فى صفحات التراث الإسلامى، المشهد الرائع للفاروق عمر، وهو أمير المؤمنين - يجرى مرهقا وراء بعير شارد من إبل الصدقة!!.. ومشهد واليه على المدائن، حذيفة بن اليمان.. يخرج أهل المدائن أفواجا تسبقهم أشواقهم إلى مشارفها انتظارا لمقدم الوالى الجديد، فلا يرون إلاّ راكبا آتيا على حمار على ظهره إكاف قديم، وقد أسدل ساقيه، بيده كسرة خبز هى كل طعامه.. يستطلعون منه خبر الوالى الذى ينتظرونه، فيفجأهم أنه هو.. هذا البسيط العظيم فى بساطته.. يبادرهم فيقول لهم: «إياكم ومواقف الفتن!.. فلما سألوه ما هى؟ - قال: أبواب الأمراء.. يدخل أحدكم على الأمير أو الوالى، فيصدقه بالكذب ويمتدحه بما ليس فيه»!!

طبيعى، وحاصل، أن ينبهر القارئ لهذه المواقف، بما فيها من صور أخاذة، ومشاهد جاذبة خلابة، على أن الخطر أن يصرفنا الإعجاب الشديد والانبهار بها - عن استخلاص مغزاها والقيم الصادرة عنها.. القيم هى الخالدة الباقية، أما الصور فمتغيرة.. هذا التغير تابع للزمان والمكان، ولذلك فإن الانحصار فى «الصورة» قد يفلت القيمة والمغزى والمعنى، بل وقد يرتد بصاحبه إلى الوراء ويحبسه فى أشكال مهجورة يتخلف بها عن ركب الحياة!.

صناعة الوالى للمكاتل ليتكسب منها، وركوبه الأتان بدلا من الخيول المطهمة، وغسله ثوبه الوحيد وانتظاره حتى يجف، ومشاركة أهل الدار فى الخبيز، والجرى وراء بعير شارد من إبل الصدقة، هى صور رائعة، ستبقى جليلة مبهرة، لأنها قد وافقت زمانها من ناحية، ثم هى مردودة إلى «قيم» رفيعة سامية.. هذه القيم هى الخالدة الباقية وهى التعفف عن المال العام والحرص عليه، والإحجام عن الإفراط فيه، والتزام حفظه ورعايته وصيانته والترفق فى التعامل معه.. هذه القيم تلزم زماننا وما يأتى بعد زماننا، مثلما لزمت زمن أسلافنا.. تلزم الكبير والصغير، وتلزم الوزير إلى الخفير، والمكلف بخدمة عامة تكليفا مستمرا، أوالمنتدب لها انتدابا مؤقتا، والنائب فى البرلمان، وعضو المجالس الشعبية والمحلية، وأعضاء النقابات والجمعيات والنوادى التى جعل القانون -والواقع- أموالها فى حكم الأموال العامة.

الالتفات للقيم المستمدة من التأمل فى هذه الأمثلة من التراث يوجب الاكتفاء بما يلزم للعمل العام دون إسراف ولا إفراط، إذا كانت العربة الصغيرة مؤدية للمطلوب، فلا محل للعربات الفارهة، وإذا كانت الحجرة المتوسطة وأثاثها المعقول كافية لمكتب المسئول ومستلزمات الحركة والأداء فيه، فإسراف وتفريط فى المال العام – شغل المكاتب لمساحات هائلة، وفرشها بالأثاثات الفاخرة.. الالتفات إلى التعفف عن المال العام، يلزم المسئول ومن يراقبه، بألا يحصل إلا على المعقول الذى يكفيه ويقابل ما يؤديه دون توليد «مسميات» و«لجان» و «انتدابات» و «عضويات» و«إضافات» و «بدلات» وغيرها – يؤدى فى النهاية إلى الارتفاع بالأجر إلى أرقام فلكية لا تتفق مع وجوب الترفق بالمال العام والقصد والاعتدال فى التعامل معه، والقناعة والترفع عن التغول عليه والاغتراف منه!.

الانحصار فى «الصورة» دون «القيمة» على رغم امتداد الزمن، وتغاير الظروف – تخلف يؤدى إلى نتائج معكوسة!. ويقلب «القيمة» إلى «إخلال» و «خيبة» و «تفريط». الحاكم أو الوالى أو المسئول فى الزمن الغابر، كان يستطيع مع سلاسة الحياة، وقلة المشاكل والمعضلات، واتساع الوقت وسهولة تسيير حاجات الناس – أن يبلغ بتعففه حد أن يجدل المكاتل ليتعيش منها مستغنيا عن الراتب أو الأجر، وأن يزهد فيكتفى بثوب واحد لا يرى بأسا من أن يغسله بنفسه ويجلس فى انتظار أن يجف ما دامت ظروف العمل وضغوط واجباته لا تتأثر بهذا الانقطاع، إلاّ أن تعقيدات الحياة فى زماننا، وتزايد الأعباء العامة، وتنامى المهام والمشاكل والمعضلات، يحتاج من الرجل العام إلى صرف وقته واهتمامه إليها بحيث يغدو تفريطا معيبا وضارا بالعمل الذى يتولاه، وبمصالح الناس، أن ينقطع عنه ليكسب قوته من عمل يده، أو يقوم بالخبيز فى بيته، أو ينحبس فيه إلى أن يجف ثوبه الذى زهد فلم يعد له سواه.. أيسر وأجدى وأنفع للعمل فى عصرنا أن يكفل للعامل راتبه والمعقول من احتياجاته، ليصرف كل وقته وجهده لأداء ما عليه رعاية لمصالح الناس، وإلاّ توقف دولاب الحياة!

فى مشاهد التراث، واقعات ووصايا لغسل النجاسة بالتراب، وهى فى أوانها كانت لازمة ومطلوبة لتحقيق الغاية، فهل «القيمة» فى النظافة والطهارة، أم فى «صورة»

الغسيل بالتراب بالذات؟!.. وهل إذا أتاحت المدنية الصابون والمطهرات، تظل «صورة» الغسيل بالتراب هى الجديرة بالإحياء؟!.

إن إحياء التراث يكون بإحياء «قيمه»، وليس بالضرورة إحياء «صوره»، فالصور والهيئات والأشكال متغيرة، و «القيم» هى الخالدة الباقية.. لا جدوى للتراث إذا لم تنسكب قيمه فى صفحة وعى الناس وسلوكهم، وإحياء هذه «القيم» ليس بهيئات ولا صور ولا أشكال.. ليس بارتداء جلباب، أو عباءة، أو ركوب أتان.. غاية النفوس العاقلة أن تتسامى فى دنيا الحوادث المتغيرة، قديمها وحديثها، لتمسك بالقيم العليا التى تحكم سلوكها وتدفعها إلى مزيد المزيد فيما ترجوه فى تطلعها إلى الأفضل.. الاقتداء بالأقدمين ليس اقتداء بصور وأشكال، وملابس وهيئات!. الاقتداء هو «الإمساك» بالقيم النبيلة السامقة التى مثلوها وصدروا عنها!.

الغث فى التراث !

على أن المطالع للتراث فى مدونات وتواريخ الأديان بعامة، لا تصادفه الجواهر فقط التى عليه بعقله أن ينفذ إلى قيمها وما وراءها، وإنما يصادفه أيضا ما تسرب إليها – فى عصور الهبوط والاضمحلال – من الخرافات والبدع والأساطير التى ألحقت به وهى ليست منه.. ولم يكن تسرب الخرافات والبدع، مقصورا على كتب بعينها من كتب التراث، وإنما تسرب أحيانا إلى أمهات الكتب والمصادر لأئمة عظام.. لم تنج من ذلك كتب ومدونات كثيرة للأديان بعامة.. فى تفسير الإمام القرطبى إسرائيليات يشير إليها المتخصصون.. ولم يعدم تاريخ الطبرى على عظمته وعظمة واضعه، أن يحمل بعض الخرافات أو البدع أو الإسرائيليات، أوردها كما هى دون نقد أو تعليق، وبقيت فى الطبعات الحديثة على رغم ما ورد عليها من تحقيق لعلماء محققين مدققين، فى تاريخ الطبرى – نقلا عن الرواة، أن زوجة النبى إسحق.. حملت بغلامين فى بطن، فلما أرادت أن تضع – اقتتل الغلامان فى بطنها، فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص، فقال عيص: والله لئن خرجت قبلى لأعترض فى بطن أمى ولأقتلنها، فتأخر يعقوب، فخرج عيص قبله، وأخذ يعقوب بعقب عيص،

فخرج، فسمى (عيص)، لأنه عصى فخرج قبل يعقوب، وسمى يعقوب، لأنه خرج آخذا بعقب عيص..» (ط دار المعارف ج ١ ص ٣١٩) – وهذا قريب مما ورد فى الإصحاح ٢٥ من سفر التكوين بالتوراة، ويورد ذات التاريخ (جـ١– ص١٤٥) أن قابيل لما قتل أخاه هابيل، أنشد شعرا «بالعربية» يسوقه الكتاب، مع أن اللغة العربية لم تكن قد ولدت بعد زمن آدم وولديه القاتل والمقتول.. وأورد الطبرى أيضا فى قصة آدم أخبارا مستقاة من التوراة ومن شروح اليهود للتوراة، كقوله: «لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة، وأراد إبليس أن يستنزلهما، دخل فى جوف الحيّة، وكان لها أربعة قوائم، كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى، فلما دخلت الجنة خرج من جوفها فجاء بها إلى حواء فقال: انظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها فأخذت حواء فأكلت منها، ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها. فأكل منها آدم. فبدت لهما سوآتهما، فدخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه: يا آدم أين أنت؟ قال: أنا هذا يا ربى. قال ألا تخرج؟ قال: أستحى منك يارب، قال: ملعونة الأرض التى خلقت منها، ثم قال: يا حواء: أنت التى غررت عبدى فإنك لا تحملين حملا إلاّ حملته كرها، فإذا أردت أن تضعى ما فى بطنك أشرفت على الموت مرارا ..»، وهذا شديد الشبه بما ورد فى التوراة فى الإصحاح الثالث من سفر التكوين.. ربما عذر الطبرى أنه أراد الالتزام بدقة النقل ولكن ذلك لا يعفى القارئ من وجوب الاسترشاد بدليل العقل فى قراءته لهذا التراث.

هذا وغيره مما يجده المطالع للمدونات القديمة للأديان، يجب أن يستدعى عقله لينظر ويتأمل ويفرز الغث من السمين، ويستعيد ما كان دخيلا على الدين من الخرافات أو البدع أو الموروثات أو الخزعبلات التى يأباها العقل والدين!

القارئ طرف أساسى فى المعادلة

قارئ التراث، كأى قارئ لأى نص ـ طرف أساسى فى حصيلة القراءة .. النص قيمة مجردة – نعم، ولكنه قيمة نسبية فى مفهوم من يتلقاه، يكون جلاؤه على قدر فهم واستيعاب

مستقبله.. توجد علاقة جدلية أشار إليها أفلاطون بين النص والقارئ، بل إن القارئ هو جسر النص إلى الحياة.. هذا القارئ قد يفلح في الإحاطة بالنص، وقد يخفق - بقصوره - في النفاذ إلى أعماق وأبعاد النص، وقد يشرد في استيعاب دلالته، مثلما قد يصيب في فهم وتحصيل مدلوله.. مستويات علم وفهم وإدراك القارئ كانت ولا تزال عنصرا أساسيا في مفهوم النص.. في تقدمة «كليلة ودمنة» الذى نقله ابن المقفع للعربية، أن «كلام الكتاب» - «ظاهره لهو للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة».. وكأن العقاد قد خشي أن يضيع نفيس ما يكتب لدى الجهلاء أو ناشدى التسلية وإزجاء الفراغ، فينبه إلى أن الأدب فى لبابه قيمة إنسانية وليس قيمة لفظية، وأن الكاتب صاحب رسالة فى عالم العقل والروح، وأن العلاقة بين الكتاب (النص) وقارئه «علاقة تعاون واشتراك لا يغنى فيها الجهد المفرد عن الجهدين المتساندين»! بل يشتد فيقول: «إن القارئ الذى يفرد الكتاب (النص) بواجب التفهيم لا يستحق الالتفات إليه».

ليس يهم النظريات التى تدور حول التراث والتعامل معه.. لا بأس على الآدمى أن يعتنق من النظريات ما يشاء، الضيقة أو الموسعة أو الجامدة أو المرنة أو المدققة أو المتحفظة، طالما أن العقل رايته ودليله..للآدمى «بوصلة» ذاتية، هادية ومرشدة.. لا تخطئ مادامت أجهزتها استقامت وسلمت، وكان عمادها الإخلاص وسلامة القصد وصدق النية.. في الحديث النبوى منارة هادية لهذه البوصلة، أشار إليها رسول القرآن حين قال لسائله إن: «الخير ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس وإن أفتاك الناس وأفتوك».. يتوقف كثير من المتلقين لهذا الحديث عند معنى الحلال والحرام، ولا يغوصون إلى دلالته الهادية إلى بوصلة الآدمى الذاتية، فيقيدون دلالة هذا الحديث الرائع بلا مقيد، ويحجبون المعنى العميق الذى يتضمنه، وإشارته الواضحة المستفادة إلى «بوصلة» الآدمى التى هى كفيلة بإرشاده وهدايته إلى الصواب مهما قال الناس أو تزيدوا أو انتقصوا أو تحفظوا أو غالوا أو بالغوا أواقتصدوا أو تنطعوا أو أنصفوا أو فارقهم الإنصاف!.. هذه «البوصلة الذاتية تتشكل من «حزمة» العقل والقلب والضمير والوجدان، قيادها إلى «العقل» الذى إليه مرد كل شيء، إعماله فريضة

مــن فرائض دين القرآن، والاحتكام إليه صمام أمان ودليــل يفتح للمتأمل المفكر مغاليق ما يشــاهد أو يرى أو ينظر أو يقرأ.. هـو الذى يحلق به فى الســموات ليرد ما يصادفه إلى الله تعالى وإلى الرســول عليه الســلام.. يأبى العقل أن يصادق على ما خالف الأحكام والمبادئ المستمدة من القرآن والسنة، ويأبى تصديق الخرافات والبدع والإضافات المتراكمة فى عصور الانحطــاط والانطفاء.. فإن أعيــاه النظر، أو أعجزته أدواته وقاعدة علمه ومعارفه، لجأ إلى أهــل الذكــر الذين حض القرآن علــى الرجــوع إليــهم بــلا كهانة، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (النحــل: ٤٣) .. إعمال العقل هو انتصار للدين، واهتداء إليــه – وليــس للخروج عنــه.. العقـل لا يصطدم بالدين، ولا يفارقه.. إنما هو يعمق فهمه، ويلتئم مع هداية القلب والضمير لإرشاد الآدمى إلى السواء والصواب.. إعمال العقل هو الذى يحمى صفحة وعى الآدمى من غث التراث المطوى على الخرافات والأساطير والخزعبلات والبدع، ويعينه على تعمق التراث الصحيح واســتخلاص مغزاه والقيم الخالدة المستمدة منه والجديرة بالإعلاء والإعمال مهما تغايرت الصور والأشــكال والهيئات.. القيم هى الخالدة والصور بطبيعتها متعددة ومتغيرة.

ooo

دوحة الإسلام

الإسلام فى نصوصه وفى مهجته وفى روحه، دين هداية، يأتى فيه أى شىء تابعا لهذه «الهداية» التى هى رسالة الإسلام إلى الدنيا.. القرآن المجيد نور وهداية.. ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ (البقرة: ٢) .. والنبوة المحمدية نبوة هداية، وليست نبوة استعلاء ولا استطلاع ولا كهانة ولا تنجيم ولا خوارق ولا أهوال!! .. إن «الهادى» اسم من أسماء الله الحسنى، بعث نبيه المصطفى بالهداية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۝٣٣ ﴾ (التوبة ٣٣).. يوصيه ليقول للناس كافة: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١ ﴾ (الأنعام٧١- البقرة١٢٠).. نبى الهدى لا يتغيا ملكا ولا مجدا، ولا يبحث عن موجبات أو أدوات أو لوازم مجد.. ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨ ﴾ (الأعراف ١٨٨).. ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠ ﴾ (الأنعام ٥٠).

فهم المسلمون الأوائل من القرآن المجيد، وسنة رسوله - أن المجد الحقيقى الذى تغياه الإسلام - هو هداية الإنسانية كلها على أساس تصح وتستقيم وتطمئن وتنطلق وتتطور وتتقدم به حياة وقيم وأعمال وسلوكيات الأحياء.. الكرامة فى القرآن، هى كرامة الإنسان.. ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾ (الإسراء ٧٠).. لم ينزل الإسلام إلى أمة بخاصة، ولا لقوم بخاصة، ولا لمكان بخاصة.. وإنما اتجه بدعوته إلى العالمين.. إلى الإنسان حيث كان، وبعث رسوله بالهدى إلى الناس كافة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ ﴾ (سبأ ٢٨).

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ (الأعراف ١٥٨)..لا أحد مختص بالدعوة والهداية دون أحد، ولا مجد لأحد على أحد.. الإنسانية أسرة واحدة، مردها إلى أصل واحد.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴿١﴾ ﴾ (النساء ١).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ (الأنعام ٩٨ – الأعراف ١٨٩).. يخاطب الإسلام الناس كافة على سنن الهداية والاقناع.. الاتساع الكونى لرسالة الإسلام جعل باب دوحتها مفتوحا للعالمين بلا سطوة ولا تسلط ولا استعلاء، وبلا بحث عن علوٍ أو أمجاد!. قدم الإسلام للإنسانية دوحة وارفة دستورها القرآن : معجزته الكبرى الممدودة إلى الدنيا إلى يوم الدين، يجعل من الإيمان بكافة الرسالات والنبوات، جزءا لا يتجزأ من الإسلام وهداية الإسلام.. القرآن يخاطب المسلمين فيقول لهم : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة ١٣٦– أيضا آل عمران ٨٤) .. فى هداية الإسلام للدنيا، جعل العقل – مع الضمير والوجدان – منارا لهداية الإنسان حيث كان، وجعل العلم روح الإسلام ليقدم للإنسانية كلها حياة يلتئم فيه نبضها بلا استعلاء.. فى هذه الحضارة التأم اليهودى والمسيحى مع المسلم لعمارة الحياة، فلم تتباه هداية الإسلام على غير المسلم، وفتحت للجميع فرصا غير محدودة للعطاء للأسرة الإنسانية.. فبزغ فى دوحة الإسلام نجوم لا ينتمون إليه، أعطوا فى مناخ عماده الإخاء والتسامح والمحبة والسلام.. يظل الجميع – بلا تمييز ولا استعلاء – منظومة أخلاقية عنيت كل حبة من حباتها برعاية الآخر.. هذا الجانب (رعاية الغير) ملحوظ فى كل سجايا الإسلام، كالعدل، والصدق، والأمانة، والوفاء، والحلم، والكرم، والتواضع، والعفو، والإسماح، والصفح، والإحسان، وكفالة اليتيم والأسير والمسكين، والتكافل، والإخلاص.. وغيرها، مثلما هو ملحوظ فى النواهى التى حرمت وحظرت الظلم، وبخس الكيل والميزان، وكتمان الشهادة، وقول الزور وغير ذلك من المنكرات.. هذه الباقة من الأوامر والنواهى وجهت عنايتها للأغيار، لأنها فى غايتها السامية تحفل بالآخر وترعاه وتصونه

مـن أن يلحـق به أذى أو مكـروه، ولذلك نزعت هذه الباقة الأخلاقية مـن وجـدان المتلقى أى ميل للاسـتعلاء أو التكبر أو التجبر أو البحث عن «الأمجاد» الزائفة.. الإسـلام زرع فى وجدان المسلمين هذا العطاء الواجب - بلا منّ ولا أذى!!.. فمهجته الحق والهداية إليه، وللإنسان فى مظلته قيمة بذاته.. روحه مقدسة، وكرامته محفوظة، والعدل واجب إزاءه، والتجنى والافتئات عليه محظور.. واحة الإسلام عمادها الإخاء والمساواة والتسامح والأمان.. الأخوة الإنسانية أخوة شـاملة تطوى الجميع فى حناياها.. يقول القرآن المجيد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات ١٣).. ساوى الإسـلام فى واحته بين الجميع، لم يستبعد من المساواة كتابيا ولا ذمّيا ولا أحدا من أهل الذمّة الذين يقيمـون فى دار الإسـلام.. لا مجد ولا تعظيم لأحـد، يقول رسـول القرآن للناس : «لا تقوموا لى كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضـا».. «إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبـد، وأجلـس كما يجلس».. يقـول لمن أخذته رعدة من هيبته : «هـون عليك يا أخى، فإنى لسـت بملك ولاجبار، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة».. هذه المسـاواة هى رسالة الإسـلام إلى الدنيا وإلى النـاس كافة، أنهم فى ظل دوحته الوارفة، يلتئمون جميعا فى شـجرة واحدة عمودها المساواة، وأنهم فى رحابه ينتمون إلى شجرة الإنسانية التى يتساوى فيها الجميع فى دوحة المساواة والإخاء والحرية والإسماح!.

هـذا العالـم الجديد، هو مجد الإسلام الحقيقى.. هو «الهداية» التى أفاء بها على الإنسانية، وأتاح لها ما يتحقق به «مجد الإنســان» فى بناء رام وحرص الإسـلام أن يتسع للإنسانية كلها.. لأسرتها الكبرى، بلا تمحور أو انصراف إلى تجبر أو استعلاء أو «أوهام» «أمجاد» زائفة تصرف الإنســان عن المعنى الجامع والمثل الأعلى والغاية السـامية العليا للحياة التى يتجه فيها الإنسان اتجاها صادقا إلى خالقه.. مجد الإسـلام هو هذا العالم الجديد الذى وضع أساسه وقيمه ومبادئه وأحكامه، واتسعت رقعته لتضم فى حناياه الأسـرة الإنسانيـة بلا حواجـز لا سدود، ولا عصبيات ولا نعـرات، ودون مـا تجبر ولا اسـتعلاء.. هذا العـالم الجديد مهجته الرحمـة والتراحـم، لا الاستعـلاء والتجبر أو المجد الزائف.. رسالة الإسلام نور وهداية، ورسول القـرآن، رحمـة إلى

الناس مهداة من السماء.. ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (الأنبياء ١٠٧).. فالرحمن، والرحيم - من أسماء الله الحسنى، عن صفة رحمته ينبئ الذكر الحكيم فيقول: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ٧ ﴾ (غافر٧).. ويأمر حامل الرسالة - عليه السلام - بإبلاغها إلى الناس.. كل الناس: ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ ﴾ (الحجر ٤٩).. يقول رسول القرآن لاتباع الإسلام: «الراحمون يرحمهم الرحمن.. ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».. وفى الحديث القدسى «اطلبوا الخير عند الرحماء من أمتى تعيشوا فى أكنافهم، فإن فيهم رحمتى».. معيار التفاضل بين الناس هو «التقوى والعمل الصالح» .. «كلكم لآدم.. وآدم من تراب».. لا فضل لعربى على سواه إلاّ بالتقوى.. يقول لهم نبى الهدى: «يابنى هاشم، لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم».. أمة الإسلام مدعوة إلى الخير وبذل المعروف، لا إلى التميز والتجبر والعلو فى الأرض.. ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ ﴾ (آل عمران ١٠٤) .. العزة الحقيقية فى التقوى لا فى المجد الزائف - «من لم تعزه التقوى فلا عز له».. الإسلام يطلب الرفعة. نعم، ويطلب القوة. نعم، ولكن ذلك كله فى الحق ولأجل الحق .. التمايز لا يطلب فى الإسلام للعلو أو طلب المجد، وإنما لتكون القدرة المتحصلة مسخرة لرعاية الكافة.. - قوة القوى فى جبر ضعف الضعيف، وغنى الموسر لكفالة المحتاج والفقير، وعقل العاقل لرتق وهن عقل العليل.. لذلك لا يسمح الإسلام بأن تمس الاختلافات بين البشر، ما ينبغى أن يسود العالم من أخوة وانتماء إنسانى تذوب فى أخوته الإنسانية الشاملة - كل فوارق الجنس واللغة والأعراق والألوان والصفات والمكنات والقدرات.. هذا المعنى الجامع لا يدع محلا لأوهام المجد الزائف، ولا يترك ثغرة للانصراف عن القيمة والحق والهداية، إلى أوهام العلو والركوب على رقاب الناس أو استلاب حقوقهم وحرياتهم وكراماتهم ومصالحهم وأموالهم!!

هذا العالم الجديد كل الجدة، لم يبنه الإسلام ويضع أساسه وكفى، وإنما أعطى مفتاحه إلى الدنيا ليلج إليه من يريد هداية الله وصدق التوجه إليه، وسلامة الوجدان والضمير!.. كيف كان هذا المفتاح الذى أعطاه الإسلام للدنيا.

العالم الجديد الذى أقامه الإسلام، كان عماده الهداية وكرامة الإنسان حيث كان.. لم يطلب الإسلام مجدا للعلو فى الأرض، وإنما تغيا وبث هداية إلى الناس كافة.. مرجعية «المجد» الذى صاحب الإسلام – هى إلى دوحة النور والهداية التى أقامها وقدمها للإنسانية، ووضع مفتاحها أمام أيدى الناس للولوج إلى عالم جديد كل الجدة مختلف كل الاختلاف عن العالم المعتم الذى كان سائدا وقت نزول الإسلام.

العالم الجديد الذى وضع الإسلام مفتاحه أمام الناس، هو عالم عماده الهداية والتوحيد والإسماح ومفتاحه الإصرار على الوفاء والإصرار على الأمان من جانب المسلم.. الوفاء بالوعد الذى يعده المسلم لغير المسلم والإصرار على الأمان الذى يجير به المسلم غير المسلم ويبقى وفيا به ملتزما بمقتضياته إلى أن يبلغ غير المسلم مأمنه.. ظل المسلمون على ذلك وصاحبهم الوفاء والأمان فى مراحل تكوين إمبراطوريتهم وازدهار حضارتهم – هذه الحضارة التى أقامت بمنظومتها الرفيعة مجدا حقيقيا للإنسانية، وبقى المسلمون على ذلك إلى أن دخلوا مع الناس فيما اصطلح عليه الناس – وما زالوا فيه بآلامهم وآمالهم إلى اليوم!.

قد كان يمكن للحراك الذى نشهده الآن وقبل الآن، أن يمسك بالحبل الصحيح وهو تسلم ذلك «المفتاح» البسيط الملئ بالثقة والود والإسماح والأمان. بيد أن هذا الخيط يطمسه أو تحاصره الحملات الضارية على الإسلام والمسلمين، ولواعج الشعور بالهوان الدنيوى والتطلع إلى استعادة العزة والمنزلة والمكانة والسؤدد والثروة، وهذه اللواعج ومضاعفاتها وما يقترن بها ويصاحبها من تغول أقوياء اليوم وجموح شطحاتهم وتهجمهم الوحشى المغلوط يصرف بعض المسلمين عن الجوهر الحقيقى لهذا «المفتاح» الذى كان بشارة العالم الجديد الذى هز به الإسلام أركان العالم الذى كان سائدا وقت نزوله!

الهجوم المتوحش الذى يتعرض له الإسلام والمسلمون!

فالمسلمون يتعرضون هذه الأيام لهجوم متوحش جهول، ويلاقون معه عداوة وكراهية وعدوانا وافتئاتا.. يستقبلون كل صباح، وعلى شاشات الإنترنت، سيولا لاتنقطع من

السباب واللعنات والبذاءات والافتراءات والتطاول حتى على رسول الإسلام.. تتعانق حملات الكراهية مع هجمات الجيوش وقصف المدافع والصواريخ والطائرات وحملات الغزو التى بدأت بأفغانستان، وثنت بالعراق، ويترقب العالم والمسلمون إلى أين تتجه الغزوة الثالثة ! !.. طبيعى أن تستدعى هذه اللواعج ما كان للإسلام والمسلمين من «أمجاد»، وأن تستنفر - برد الفعل - تحفزا لدرء ما يراد للمسلمين وبهم فى هذا الزمن الأسود ! !.. وأن يولد هذا كله - مع الإحساس العميق بالظلم ـ التفاتا أكثر وأكثر إلى الأخطار المحدقة بهم وما تستدعيه من صفحات «المجد» الذى كان !

روح وعمود الإسلام

هداية الإسلام هى التى حققت ما كان من أمجاد.. عمود الإسلام، الذى غير واقع الدنيا، هو اتجاه العبد إلى خالقه بكلياته وجزئياته بإخلاص تام وأمانة كاملة مع الشعور بفيض الرحمة والود الذى يثيره حتما ذلك الاتجاه.. فكل اتجاه جاد يشعر الآدمى بجده نحو خالقه - هو اتجاه مقبول عند المسلم يصاحبه - لكى يصبح مسلما - الإيمان بالعقائد والاعتراف بالشعائر المقررة على كل مسلم، ومن هنا توطدت أسس العلاقات السلمية فى القرآن بين المسلمين وبين غير المسلمين وأهل الكتاب.. لم تغمض عيون الإسلام قط عن أن الناس خلقوا مختلفين، وأن هذا الاختلاف يجرى بين الأفراد فى عقولهم وقدراتهم وملكاتهم وفهمهم وعقائدهم ومذاهبهم.. فى القرآن المجيد بيان لهذه السنة الكونية : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ (هود ١١٨).. روح وعمود الإسلام التفاته المحمود إلى هذا «الاختلاف» وموافاته بما يقتضيه من محافظة على العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين .. أباح الإسلام للمسلم طعام أهل الكتاب وأن يتزوج منهم وأن تبقى الزوجة على دينها وهو على دينه، مثلها فى كل شىء مثل الزوجة المسلمة سواء بسواء.. فى القرآن الحكيم

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ

غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة ٥).

أمان الإسلام

الأمان المعطى فى الإسلام، مقرون بالوفاء. الوفاء بالوعد والعهد وبالمواثيق، مبدأ عام أوصى به القرآن المجيد فقال: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (الإسراء ٣٤).. وجعله من صفات المؤمنين، فقال عنهم: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (البقرة ١٧٧)..

حق العهد والوفاء به مقدم فى الإسلام على كل ما سواه.. حتى على حق الدين.. فى القرآن المجيد: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأنفال ٧٢).. بذلك قدم القرآن بصريح وآمر لفظه، احترام ورعاية العهد والوعد والميثاق – على نصرة من يستنصر المسلمين فى الدين.. وفى حديث رسول القرآن: «إن حسن العهد من الإيمان» دل الإسلام على أن الوفاء بالوعد هو خلق الأنبياء والرسل الصالحين : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ (مريم ٥٤).. ووعد الموفين بالعهد بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (المؤمنون ١١)..

لا يقبل الإسلام تحت أى ذريعة نقض العهود والمواثيق.. وفى حديث رسول القرآن: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلنّ عهدا، ولا يشدنه، حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم على سواء».

تقدم الإسلام وعاش، بوفائه ووفاء رسوله ووفاء المسلمين بالعهد.. وكان هذا الوفاء والإصرار عليه وعلى أمان الجوار للمسلم هو الأداة الرئيسية لنشر وانتشار دعوة الإسلام.

أمان الجوار للمسلم، لا يخرج منه أحد.. يعطى ويبذل للمسلم والكتابى ولغير الكتابى، وللعربى ولغير العربى، الطريق الفسيح لأولئك أو غيرهم لاعتناق الإسلام والحرص عليه

هو الثقة التامة فى كلمة المسلم ووعده وعهده، وفى جيرة وجوار مصحوبين بأمان يمنحه المسلم لإنسان يخاف حتى يبلغ مأمنه.. لا يستثنى المسلم أحدا ولا المشركين من هذا الأمان.. ففى القرآن المجيد: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (التوبة ٦).

أى آدمى يدخل إلى هذا العالم، مصحوبا بهذا الوفاء والأمان، يدخل إلى عالم جديد مختلف عما يتركه وراءه فى العالم الآخر المشوب من قديم بالخديعة والغدر والخسة والخيانة والمراوغات التى يتداولها الخلق فى دنيا الناس!.

لماذا تقدم الإسلام؟

لم يتقدم الإسلام لأنه قوض إمبراطوريات، أو هدم أنظمة، أو بعثر جيوشا.. انفتاح الإسلام على الدنيا إنما كان يرمى إلى إزالة الصد عن سبيل الله، وبث هداية الله إلى الإنسان حيث كان.. لم يكن هدفه إلى تقويض أو هدم لذاته، ولا إلى علو أو تجبر فى الأرض، وإنما كان منصرفا إلى إقامة (عالم جديد) كل الجدة، قوامه النور والتوحيد والهداية، وأساسه الصلاح والأمان والإخاء.

يدلنا التاريخ القديم والحديث، على فشل وإخفاق الثورات التى هدمت ودمرت القديم، دون أن تنشئ كيانا جديدا وشيئا باقيا.. الناس فى شعوب الأرض على عاداتها وأحوالها ومصدقاتها وأعرافها مالم تتقدم قوة باعثة تتبنى وتنهض على رؤية جديدة تصلح ما اعوج أو انحرف أو ضل من أحوال الناس، وهذا هو مافعله الإسلام فيما امتد إليه من أقطار.

تقدم الإسلام والمسلمون، وأقاموا الإمبراطورية العظمى، والحضارة الرفيعة، لأن عيون الدعوة كانت ملتفتة من واقع الدين نفسه ومبادئه ومثله وأحكامه إلى البناء وإقامة ما ينفع الناس من هداية ونظام وصلاح هو رسالة الإسلام ذاته إلى الدنيا. لم تكن الرسالة تقويض امبراطورية الفرس أو الرومان، أو اجتياح بلدان، وإنما هى رسالة نور وهداية..

obeikandl.com

تتغيا تغيير الواقع الكئيب إلى «خفقات» جديدة تشد الحياة والأحياء إلى الأمام بقيم باقية تختلف عما كان فيه الناس!

الهداية والإصلاح والتغيير، هى عمود وروح الإسلام، وهى مع وفائه وأمانه، التى أتاحت هذا النماء الذى إليه الحضارة الغابرة.. الانحصار فى التغنى بالفتح أو التقويض! هو التفات ضرير عن القيمة الحقيقية لعوامل الهداية والإصلاح والتواصل والبناء الذى عمرت به الحياة الجديدة فى أقطار الإسلام!.

روح وعمود الإسلام هو فى هذا الجوهر الذى عَمَّر به الإسلام حياة الدنيا ووصل به حيوات الناس.. قيمة الإسلام فى «هدايته» وما قدمه إلى الدنيا لتستقبل به عالما جديدا كل الجدة، قوامه الهدى والنور والإيمان والإحساس بالأمان.. لا يحصر الإسلام نفسه فى محض ما أنجزه المسلمون وحققوه من «أمجاد» .. مجد الإسلام الحقيقى هو تلك الروح التى استطاع بها أن ينقل الدنيا من عهد مظلم إلى نور جديد.. قيمة التراث هى فى قدرته على بعث عقول ونفوس جديدة مزودة بهذه الروح التى بها خطا المسلمون خطوات سبقوا بها زمانهم وعالمهم إلى مزيد حققوه من الوفاء والأمان. ومن السلام والعطاء، ومن الإستنارة والمعرفة والعلم.. لم يكن المسلمون الماضون قادرين على تحقيق ما حققوه، وإنجاز ما أنجزوه لولا هذه الروح أو هذا العمود أو ذلك المفتاح الذى أعطى به الإسلام الأمان والسلام وغير وجه الحياة.

تاريخ المسلمين أو دول المسلمين ليس هو الإسلام فى كل الأحوال.. لم يكن الإسلام هو بعض الحكام الذين حادوا أو تجبروا أو طغوا أو استعلوا أو طلبوا الصيت والهيلمان أو ركبوا على رقاب الناس، مثلما لم يكن فيمن شردوا وابتعدوا فى شرودهم عن الدين نفسه، وتكلموا بلسانهم لا بلسان الدين، وتصرفوا برؤيتهم لا برؤية ومبادئ وقيم وأحكام الدين.. ابتعاد الغلاة أو المتطرفين كثيرا أو قليلا عن الدين لا ينال من الدين، فهو باق على حاله.. ذلك الدين الذى قال عنه رسول القرآن: «إن هذا الدين متين، ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه، فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى».. هذا الدين المتين بقى على الدوام فى قلوب عامة المسلمين.. فى حنايا البسطاء الرحماء الذين لم تصرفهم غوايات

الدنيا عن جوهر رسالة السماء التى آمنوا بها واعتنقوها والتزموا حدودها فى صمت وتواضع وسكون ووقار دون أن يطلبوا السمعة أو يسعوا إلى مجد زائف.. الإسلام عائش ولا يزال فى قلوب هؤلاء الملايين الذى ملئوا المعمورة شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا.. يلتزمون حدود العالم الجديد المجيد، بقيمه ومبادئه وأخلاقه، الذى رسمه الإسلام وبثه وقدمه إلى الدنيا!.

مقومات المجد الحقيقى، كانت فى روح الإسلام ومفتاحه الجديد العامر بالقيم والأخلاق والتسامح والوفاء الذى قدمه الدين للناس وهداهم إليه.. فى ذلك الأمان الوارف الجاذب الذى قدمه الإسلام والمسلمون لأبناء الأديان والملل والنحل الأخرى وأحاطهم به، فى ذلك التعايش الذى تعايش به الإسلام بمنظومته الرفيعة الخلابة مع كل الأديان والحضارات!.

إن الأديان تقاس بما تبعثه من هداية، وبما تصحح وتوقظ به الضمير، وبما تسكبه فى نفوس الإنسان من قيم.. إن المسلم الحامل للشمائل الإسلامية، هو رسالة الإسلام إلى الدنيا فى كل مكان وعلى امتداد الزمان.. هو ذلك الذى يفهم ويدرك أن الإسلام تقدم، لأنه دين جاذب جامع.. يحبب ولا ينفر، وأنه يخرج عن رسالته الكبرى من يعبث أو يشوه هذا الوجه البهى الجميل البديع المعطر لهذا الدين.. يعرف المسلم السوى الفاهم العاقل المخلص أنه مؤتمن بأخلاقه ومناقبه وخصاله وشمائله وسجاياه التى زرعها وبثها الإسلام فيه، على هذه الصورة الندية الفواحة التى شدت الأرواح والأفئدة وعاش بها هذا الدين فى ضمير العالمين.

ooo

obeikandi.com

عمود الإسلام

ينشغل المسلمون، انشغالا محمودا، بمجد الإسلام كدين باق لما شاء الله، بيد أن هذا المجد ليس مرجعه كله أو بعضه – كما قد يتوهم البعض – للفتوحات الإسلامية العجيبة التى دانت للمسلمين فى فترة وجيزة، ولا لحضارة الإسلام الأشد عجبا التى نبتت ونمت وازدهرت فى بلاد الإمبراطورية الواسعة التى اعتنقت الإسلام.

ليس يمارى أحد فيما صاحب ذلك من شعور بالقوة النفسية والبدنية، ومن يقظة فكرية غير عادية وإحساس بالتفوق.. إلاَّ أن عصارة مرجعية مجد الإسلام إنما هى إلى وضعه «المفتاح» أمام أيدى الناس للولوج إلى عالم جديد كل الجدة على العالم السائد الذى كان سائدا وقت نزول الإسلام.

العالم الجديد الذى وضع الإسلام مفتاحه أمام الناس، عالم مفتاحه الإصرار على الوفاء والإصرار على الأمان من جانب المسلم.. الوفاء بالوعد الذى يعده المسلم لغير المسلم والإصرار على الأمان الذى يجير به المسلم غير المسلم ويبقى وفيا به ملتزما بمقتضياته إلى أن يبلغ غير المسلم مأمنه.. ظل المسلمون على ذلك وصاحبهم الوفاء والأمان فى مراحل تكوين إمبراطوريتهم وازدهار حضارتهم إلى أن دخلوا مع الناس فيما اصطلح عليه الناس وما زالوا فيه بآلامهم وآمالهم إلى اليوم.

قد كان يمكن للصخب الذى نسمعه الآن وقبل الآن، أن يمسك بالحبل الصحيح وهو تسلم ذلك «المفتاح» البسيط المليء بالثقة والروح والأمان والإيمان. بيد أن هذا الخيط يطمسه أو تحاصره لواعج الشعور بالهوان الدنيوى والتطلع إلى استعادة العزة والمنزلة والمكانة والسؤدد والثروة، وهذه اللواعج ومضاعفاتها وما يقترن بها ويصاحبها من تغول أقوياء اليوم وجموح شطحاتهم وهجومهم الوحشى على الإسلام والمسلمين يصرف المسلمين عن الجوهر الحقيقى لهذا «المفتاح» الذى كان بشارة العالم الجديد الذى هز به الإسلام أركان العالم الذى كان سائدا وقت نزوله !.

عمــود الإســلام، الذى غير واقع الدنيا، هو اتجاه العبــد إلى خالقه بكلياته وجزئياته بإخلاص تام وأمانة كاملة مع الشعور بفيض الرحمة والود الذى يثيره حتما ذلك الاتجاه.. هــذا الاتجــاه لا يتغير إذ الخالق جل وعلا لا يتغير، وإنما الذى يتغير هو اتجاه الآدميين إليه ســبحانه، وجودا وعدما، قربا وبعدا، جدا وهزلا، فهما وغباء، علما وجهلا.. وذلك على قدر بيت وبيئة الآدمي ووسطه وعصره وزمانه ومحيطه. فكل اتجاه جاد يشعر الآدمى بجده نحو خالقه هو اتجاه مقبول عند المسلم يصاحبه – لكي يصبح مسلما – الإيمان بالعقائد والاعتراف بالشــعائر المقررة على كل مســلم، ومن هنا توطدت أسس العلاقات السلمية فى القرآن بين المسلمين وبين غير المسلمين وأهل الكتاب.. لم تغمض عيون الإسلام قط عن أن النــاس خلقوا مختلفين، وأن هذا الإختلاف يجرى بين الأفراد عقولهم وقدراتهم وملكاتهم وفهمهــم وعقائدهم ومذاهبهم.. فــى القرآن المجيد بيان لهذه الســنة الكونية: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ (هــود ١١٨).. روح وعمود الإســلام التفاتــه المحمــود إلى هذا « الاختلاف » وموافاته بما يقتضيه من محافظة على العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.. فى القرآن الحكيم : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ (المائدة ٥).. أباح الإســلام للمسلم طعام أهــل الكتــاب وأن يتزوج منهم وأن تبقى الزوجة على دينها وهو على دينه، مثلها فى كل شيء مثل الزوجة المسلمة سواء بسواء..

الوفاء بالوعد والعهد وبالمواثيق، مبدأ عام أوصى به القرآن المجيد : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ (الإسراء ٣٤).. فى صفات المؤمنين، ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ ﴿١٧٧﴾﴾ (البقــرة ١٧٧).. العهــد المتغيا هو كل عهــد.. فى أى صورة من صوره، وبأى شــكل من أشكال إبدائه أو إثباته.. العهد الشفوى كالكتابى، والعهد بصيغته العامة

وبأى عبارة يقال، كالعقد الذى يبرم ويعقد بين أطراف..في القرآن الحكيم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ۝١﴾ (المائدة ١).. يمتد هذا الوفاء المأمور به إلى وجوب أن تصادق الأفعال الأقوال..

حق العهد والوفاء به مقدم فى الإسلام على حق الدين.. فى القرآن المجيد :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ ۝٧٢﴾ (الأنفال ٧٢).. قدم القرآن بصريح وآمر لفظه، احترام ورعاية العهد والوعد والميثاق على نصرة من يستنصر المسلمين فى الدين.. وفى الحديث النبوى: «إن حسن العهد من الإيمان».

دل الإسلام – كما قلنا سلفا – على أن الوفاء بالوعد هو خلق الأنبياء والرسل الصالحين: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤﴾ (مريم ٥٤).. الجنة هى ثواب الوفاء بالعهد: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ (المؤمنون ٨ – ١١)..

لا شىء يبرر – فى أحكام الإسلام – نقض العهود والمواثيق، حتى خيانة من اتفق وعاهد وخان .. لا يزين الإسلام للمسلمين – بل يأبى عليهم – أن يتخذوا من خيانة المعاهد ذريعة للتردى فى مثلها، وإنما لهم فقط أن يواجهوا خيانته بما يردها عليه ودون أن يتعدوا ذلك إلى الجور والتنكيل.. فى القرآن الحكيم: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ (النحل ١٢٦).. وفى حديث رسول القرآن: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلنّ عهدا، ولا يشدنه، حتى يمضى أمده أوينبذ إليهم على سواء».

تقدم الإسلام وعاش – كما قلنا مرار – بوفائه ووفاء رسوله ووفاء المسلمين بالعهد.. وكان هذا الوفاء والإصرار عليه وعلى أمان الجوار للمسلم هو الأداة الرئيسية لنشر وانتشار دعوة الإسلام..

أمان الجوار للمسلم، لا يخرج منه أحد.. يعطى ويبذل للمسلم والكتابى ولغير الكتابى،

وللعربى ولغير العربى، الطريق الفسيح لأولئك أو غيرهم لاعتناق الإسلام والحرص عليه هو الثقة التامة فى كلمة المسلم ووعده وعهده، وفى جيرة وجوار يمنحه المسلم لإنسان يخاف حتي يبلغ مأمنه.. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (التوبة ٦).

أى آدمى يدخل إلى هذا العالم، مصحوبا بهذا الوفاء والأمان، يدخل إلى عالم جديد مختلف عما يتركه وراءه فى العالم الآخر المشوب من قديم بالخديعة والغدر والخسة التى يتداولها الخلق فى دنيا الناس!.

لم يتقدم الإسلام لأنه قوض إمبراطوريات، أو هدم أنظمة، أو بعثر جيوشا، فالتقويض أو الهدم أو البعثرة أو التدمير – محض إزالة فحسب، لا تقيم بذاتها جديدا، ولا تتضمن بالحتم تصميما على إعادة ما تم تدميره.. وإنما يرتبط التقدم بالقدرة على «البناء الجديد».. فى إقامة المشروع المستوحى من الدين، أو المعتنق فى صدور وعقول ورءوس رجال يلتفتون إلى إقامة وإحلال جديد ثرى خصيب محل القديم المجدب!!

يدلنا التاريخ القديم والحديث، على فشل وإخفاق الثورات التى هدمت ودمرت القديم، دون أن تنشئ كيانا جديدا وشيئا باقيا.. الناس فى شعوب الأرض على عاداتها وأحوالها ومصدقاتها وأعرافها مالم تتقدم قوة باعثة تتبنى وتنهض على رؤية جديدة تصلح ما اعوج أو انحرف أو ضل من أحوال الناس، وهذا هو ما فعله الإسلام فيما امتد إليه من أقطار.

تقدم الإسلام والمسلمون، وأقاموا الإمبراطورية العظمى، والحضارة الرفيعة، لأن عيون الدعوة كانت ملتفتة من واقع الدين نفسه ومبادئه ومثله وأحكامه إلى البناء وإقامة ما ينفع الناس من هداية ونظام وصلاح هو رسالة الإسلام ذاته إلى الدنيا. لم تكن الرسالة تقويض امبراطورية الفرس أو الرومان، أو اجتياح بلدان، وإنما هى رسالة نور وهداية.. تتغيا تغيير الواقع الكئيب إلى «خفقات» جديدة تشد الحياة والأحياء إلى الأمام بقيم باقية تختلف عما كان فيه الناس!.

شحنة الهداية والإصلاح والتغيير، هى عمود وروح الإسلام، وهى مع وفائه وأمانه، التى أتاحت هذا النماء الذى إليه الحضارة الغابرة..الانحصار فى التغنى بالفتح أو التقويض! هو

التفـات ضرير عن القيمة الحقيقية لعوامل الهدايــة والإصلاح والتواصل والبناء الذى عمرت به الحياة الجديدة فى أقطـار الإسلام!.

روح وعمود الإسلام، هو فى هذا الجوهر الذى عَمَّر به الإسلام حياة الدنيا ووصل به حيوات الناس.. لذلك فإن قيمة الإسلام لا تنحصر فى محض ما أنجزه وحققه، وإنما فى تلك الروح التى اسـتطاع بها أن يكون قاطرة البشـرية من عهد مظلم إلى نور جديد.. قيمة التراث هى فى قدرته على بعث عقول ونفوس جديدة مزودة بهذه الروح التى بها خطا المسـلمون خطوات سـبقوا بها زمانهم وعالمهم إلى مزيد حققوه من الوفاء والأمان، ومن السـلام والعطاء، ومن الاسـتنارة والمعرفة والعلـم.. لم يكن المسـلمون الماضون قادرين على تحقيـق ما حققوه، وإنجاز ما أنجزوه لولا هذه الروح أو هذا العمود أو ذلك المفتاح الذى أعطى به الإسلام الأمان والسلام وغير وجه الحياة.

يجـدى المسـلمين أن يلتفتوا إلى هذا كله، ولا يجديهم - بل يعـود بهم إلى مزيد من الوراء والتقهقر - أن يتوهموا أن الجلبة والصياح والصخب وإثارة وإلهاب مشاعر العوام والعاطلين هى الطريق إلى المجد الذى كان!.

مقومات المجد، كانت فى روح الإسلام ومفتاح العالم الجديد العامر بالقيم والأخلاق والتسامح والوفاء الذى قدمه الدين للناس وهداهم إليه.. فى ذلك الأمان الوارف الجاذب الذى قدمه الإسلام والمسلمون لأبناء الأديان والملل والنحل الأخرى وأحاطهم به، فى ذلك التعايش الذى تعايش به الإسـلام بمنظومته الرفيعة الخلابة مع كل الأديان والحضارات، فجذب الناس وشـدهم إليه، واسـتظلوا به، وأعطوا فى دوحته، فكان هذا وذاك هو «مائدته» الرشـيدة الحكيمة التى هدت القلوب والأفئدة إليه، فأقدموا طائعين محبين راغبين على الاقتراب منه ثم الدخول إليه.

المسـلم الحامل للشمائل الإسـلامية، هو رسالة الإسلام إلى الدنيا فى كل مكان وعلى امتداد الزمـان.. هو ذلك الذى يفهم ويدرك أن الإسـلام تقدم، لأنه ديـن جاذب جامع.. يحبب ولا ينفر، وأنه يخرج عن رسالته الكبرى من يعبث أو يشوه هذا الوجه البهى الجميل البديع المعطر لهذا الدين.. يعرف المسـلم السـوى الفاهم العاقل المخلص أنه مؤتمن بأخلاقه ومناقبه وخصاله وسـجاياه التى زرعها وبثها الإسـلام فيه، على هذه الصورة الندية الفواحة التى شدت الأرواح والأفئدة وعاش بها هذا الدين فى ضمير العالمين.

شجرة المساواة وحقوق الإنسان فى الإسلام

تنتمى حقوق الإنسان فى الإسلام وفى مقدمتها مبدأ «المساواة» إلى شجرة باسقة، فى دوحة ظليلة تمثل ركنا ركينا من أركان هذه الدعوة العالمية التى أراد لها الله ألا تكون محدودة بحدود مكان، أو قاصرة على أقوام، أو مطوية فى زمن واحد من الأزمان.. عالمية الإسلام تعنى أنه دين العالمين من يوم نزلت الرسالة وإلى يوم الدين.. لا تحده أرض، ولا ينقضى بزمن، ولا يستأثر أو يختص به قوم دون أقوام، ولا جيل دون أجيال. هذا الاتساع الكونى للدعوة، جعلها تطوى فى حناياها كل الرسالات، وأوجب أن تتسع لكل الناس.. هذه الدعوة يتجه خطابها إلى الناس كافة.. أمس، واليوم، وغدا.. على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وظروفهم وأحوالهم ! !.

شجرة حقوق الإنسان فى الإسلام، تقوم كما رأينا على جناحين. الأول: مبدأ المساواة، والثانى: وحدة الأصل البشرى.. لم يعبر كتاب من كتب الأديان عن وحدة الأصل – مدخل المساواة – كما عبر عنه القرآن المجيد، ولا اعتبر الناس إخوة فى أسرة إنسانية كبيرة كما اعتبرهم القرآن الحكيم. لذلك لم تمس الاختلافات بين البشر، وهذه سنة كونية، ما بينهم من أخوة وانتماء إنسانى تذوب فى أخوته الإنسانية الشاملة كل فوارق.. الإنسان الفرد، أمام الإسلام، قيمة فى ذاته لا ينتهكها استعلاء ولا تجبر ولا مال ولا هيلمان.. الكل سواء أمام الله، وأمام القانون.. من حرص الإسلام على هذه المساواة، ورفضه الطبقية بشتى صورها وأشكالها، أنه لم يجعل للدين أو رجاله طبقة، ولم يقبل أن يكون لهم طبقة.. فلا كهانة فى الإسلام، ولا واسطة بين العبد وربه.. باب السماء مفتوح لكل إنسان بلا كاهن ولا حبر إلاّ اتجاهه إلى الله تعالى بإخلاص وقلب منيب.. إن أعياه التعرف إلى شىء، فأمامه أهل الذكر والعلم، يلجأ إليهم – بلا كهانة – ويتلمس لديهم ماقصر عنه علمه أو فهمه.. فالقرآن المجيد يقول: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (النحل: ٤٣) فلا مصادرة على المؤمن فى النظر والتأمل والتفكر، ولا سلطان عليه غير

سلطان العقل والنظر الصحيح والموعظة الحسنة.. فضيلة أهل العلم ليست فضيلة طبقة ولا سلطة وإنما فضيلة اتساع علم وقدرة على البيان والتوضيح والإرشاد والموعظة الحسنة.

المساواة أمام القانون، فرع على هذه الشجرة الوارفة التى يتساوى فيها أفراد الأسرة الإنسانية، يعبر عنها نبى القرآن عليه السلام فى حديث بالغ الدلالة، محدد العبارة، قاطع الحكم، يمتد بصريح عبارته إلى الناس كافة لا إلى المسلمين خاصة.. يقول عليه الصلاة والسلام: «الناس متساوون كأسنان المشط».. فى دوحة القرآن لا تحل الكلمات محل الأعمال، فلا قيمة لكلام مزخرف لا يقابله واقع حاصل مطبق.. فى القرآن الحكيم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ (الصف ٣).. من يراجع السيرة المحمدية، وسيرة الراشدين، يرى صورة مثلى لمصادقة الأفعال والأعمال للأقوال.. فى مرضه الأخير، خرج النبى ﷺ متحاملا على نفسه إلى المسجد ليقول للناس: «يا أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فيأخذ منه. ولا يخشى الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى، ألا إن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقا إن كان له أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس».. وهو هو - عليه السلام - الذى رفض غاضبا وساطة حبه أسامة بن زيد لإعفاء فاطمة المخزومية القرشية من حد السرقة، وقال للناس: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»!.

هذا وتنوع الخلق لا حدود له، وتفاوتهم - من ثم - تفاوت واقع حادث لا حد لأشكاله ولا موقف لسننه .. خطاب الدعوة العالمية يتجه إلى معمورات وحضارات، وإلى فيافى وصحارى وقفار .. إلى بقاع باردة، وأخرى حارة .. إلى أراض غنية، وأخرى بلقع .. يتجه إلى الذكور، وإلى الإناث .. إلى الشيوخ والكهول، وإلى الشباب والأطفال .. إلى المرضى، وإلى الأصحاء، إلى الفقراء، وإلى الأغنياء إلى الضعفاء وإلى الأقوياء، وتفاوت هؤلاء وأولاء حقيقة كونية، فكيف تكون بينهم «مساواة»، وكيف يلتئم هؤلاء جميعا على رغم هذه الاختلافات

الهائلة والتفاوت الحتمى: الخلقى، والمكتسب .. كيف يلتئمون جميعا فى شجرة واحدة عمودها «المساواة»؟.

عبقرية الإسلام، هذه الدعوة العالمية، أن تحل هذه المعضلة، فتتعامل مع واقع الاختلاف والتفاوت، ولا تنزع عن الآدمى - فى الوقت نفسه - إحساسه بالانتماء، وعلى قدم المساواة، إلى هذه الشجرة الإنسانية التى عمادها الإخاء والحرية والمساواة!.

الآدمى - أى آدمى - نسخة غير مكررة من باقى الآدميين، يختلف بالضرورة عنهم ويختلفون عنه، يتفاوت وإياهم، ويتفاوتون وإياه على قدر حظ كل فرد من «المواهب» الخِلقيّة (بكسر الخاء) أو من المزايا المكتسبة بالتعلم والدراسة والخبرة والاجتهاد، من المحال أن يكون الآدميون جميعا نسخا كربونية متماثلة، فالتنوع حتمى فضلا عن أنه ضرورى لتدافع الحياة وتقاسم الأدوار فيها.. فكيف يمكن أن تتحقق المساواة بين غير المتساويين؟!.

وكيف يمكن أن تجرى سنن الأحياء، وتستقيم حوافز الناس ودوافعهم وبواعثهم إذا تساوى العالم والجاهل، والنشط والقاعد، العامل والكسلان، المجاهد والمتخاذل، الجاد والهازل، الساعى والخامل؟!. ثم كيف تكون «المساواة» - الشجرة الباسقة التى أرادها الإسلام بعالمية دعوته، لهؤلاء الناس جميعا على اختلافاتهم التى لا تبديل لسننها!.

إنكار الواقع غفلة غبية من المحال أن تقع فيها الدعوة الإلهية العالمية، ثم أن هذا الإنكار للواقع لن يقود إلى شىء، ويحمل فى ذاته معاول هدمه.. الناس متفاوتون - ولابد أن يتفاوتوا - بالعلم والفضيلة، فلم ينكر القرآن ذلك، وقال ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ (الزمر ٩) ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴿١١﴾﴾ (المجادلة ١١).. والناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - فى العمل والبذل والعطاء والكد، فلم يشح القرآن المجيد عن ذلك، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (الأنفال ٤).. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴿٢٠﴾﴾ (الأحقاف ٢٠، الأنعام ١٣٢).. والناس متفاوتون - ولابد أن يتفاوتوا -

فى الجهـاد، فلم يتجاهل القرآن الكريم ذلك وقـال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴿٩٥﴾﴾ (النسـاء ٩٥).. والناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - فى أنصبتهم من الرزق وأسباب المعيشة.. وفى القرآن الحكيم: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الزخرف ٣٣).

بيـد أن هذا التفاوت الذى يشـير إليه القرآن، لا يحظـى من القرآن بصك أو موافقة أو دعـم أو تأييـد تقوم به العلاقات أو تجرى التمييـزات بين الناس، أو يصنفون به إلى «طبقـات»!.. فأنت تلحظ أن القرآن المجيد لم يسـتخدم بتاتـا لفظ «طبقة» أو «طبقات» وإنمـا حرص علـى أن يحدد العبارة فى لفـظ «درجة» أو «درجـات».. فلا طبقات فى الإسـلام، ولا تمايز فى الإسـلام بين طبقة وأخرى، أو بين عرق وأعراق أو بين جنس وأجنـاس، أو بين عصبيات، أو بين أغنيـاء وفقـراء، أو بين أقوياء وضعفاء.. وإنما هى شـجرة واحدة، لأسـرة واحدة، يجمعها رباط واحـد، لا فرق فيه بين إنسـان وإنسان، و.. «إنما المؤمنون إخوة».

وليـس أجزى للإنسـان، حيث كان، من دين يطوى الناس فـى أمة واحدة لا تفاضل بين أفرادها إلاّ «بالعمل»، لا بالحسب ولا بالنسب ولا بالأعراق ولا بالأموال.. الإسلام أقر بوجود التنوع والاختلاف والتفاوت، وأعطى فى الوقت نفسـه للمساواة حقها.. فى القرآن الحكيم فى خطـاب موجه إلى الناس كافة، لا إلى المسـلمين خاصة، يقول الحق سـبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات ١٣).

هذه الآية الجامعة، تلفت الأنظار إلى أصل الإنسانية الواحد، والخطاب فى هذا متكـرر فى القرآن المجيد، وهو لفت الإنسان إلى حجر الزاوية الأول فى مبدأ المساواة بيـن النـاس، وهـو أن الناس جميعا ينتمون إلى أصل واحـد.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴿١﴾﴾ (النسـاء ١) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن

نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ (الأنعام ٨٩).. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١٨٩﴾ ﴾ (الأعراف ١٨٩).. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد، تنهدم به دعاوى العنصرية والعصبيات، وينفسح الطريق ممهدا واسعا على مصراعيه للأخوّة التى لفت القرآن الأنظار إليها بين الناس جميعا.. هذه الأخوّة، عماد المساواة، تسلس إلى الركاز الثانى فى مبدأ المساواة.. هذا الركاز ينصب فى مناط المفاضلة التى لا تكون إلاّ «بالعمل» لا بالأعراق والأحساب والأنساب ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات ١٣) حين ترتد المفاضلة إلى هذا الميزان فإنها تجمع بين العدل وبين الحكمة جميعا، فلا تخذل النشط العالم الساعى المجاهد التقىّ الورع، ولا تغلق فى الوقت نفسه أبواب الرجاء أمام غيره وإنما تبقى الباب مفتوحا وفى إطار الأخوّة التى تحدث عنها القرآن – لارتياد سبل التنافس والتبارى على نول المكانة التى معيارها الوحيد «التقوى والعمل الصالح».. ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (المطففين ٢٦)..

عظمة وحكمة «المساواة» فى الإسلام أنها لا تبطل سنن الحياة، ولا تبطل سباق الأحياء فى صوالح الأعمال.. فلن ينقطع سباق الحياة بين الناس، مثلما لم ولن ينقطع التفاوت بينهم.. ولا معنى للتفاوت ولا للمساواة إذا تساوى القادر والعاجز، وتساوى العامل والخامل، وتساوى النشط والكسلان وأصبح الكسلان يكسل ويقعد ولا يخاف على وجوده، والعامل يعمل ويكد ويتعب ولا يأمل أو يطمح فى أفضلية أو رجحان.. لذلك فإن المتابع للفلسفة القرآنية يرى أن تقرير «الأخوة» و «المساواة» الإنسانية لم يمنع من التفاضل بين الناس، بيد أن هذا التفاضل لا يرتد إلى منصب أو جاه أو سلطان أو عصبية أو أعراق أو قوة أو بطش أو جبروت، وإنما مناطه الوحيد هو «العمل الصالح».

أدلة معيار المفاضلة، وإنحصارها فى «العمل» لا فى العرق أو النسب أو الجاه أو السلطان، أدلة متعددة أيضا فى السنة المحمدية.. معيار المفاضلة بين الناس إنما هو فى أعمالهم لا فى «أنسابهم».. وفى الحديث: «ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر – فضل إلاّ بالتقوى».. يتحدث النبى عليه

السلام إلى قومه بنى هاشم فيقول لهم : «يابنى هاشم لا يجئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم..

هذا المعيار معيار «العمل» لا الحسب ولا العرق ولا النسب ولا الجاه - الذى إليه مناط المفاضلة، يفسر ما يظن البعض أنه ينطوى على «شبهة» «عدم مساواة» فى الإسلام.. فهذه المفاضلة المردودة إلى «العمل»، هى جوهر «المساواة». فالمساواة بين غير المتساويين ظلم، وإبطال فى الوقت نفسه لسنن الحياة وتدافع الناس لترتقى بهم وبأعمالهم الحياة.. فحكمة التفاوت ظاهرة فى تكامل الحياة فى الكون، كما أن آفة التماثل أو التطابق بين الناس أظهر، لأن الحياة ستظل أبدا تحتاج وتفتقر إلى «المزايا» -إذا قصرت حركتها - فيما يقول العقاد - على تكرير صورة واحدة ونسخة واحدة تتطابق فى جميع الأفراد!!

معيار «العمل» كمناط للمفاضلة، وبث حوافز الحياة، ودفع حركتها - يتماس معه أيضا ما يكون مرده إلى إختلاف الأحوال أو الظروف فيحسبه البعض دالا على عدم مساواة فى الإسلام، بينما هو لب وجوهر «المساواة» التى يتوجب عليها أن تدخل فى موازينها هذه الفروق الناجمة عن إختلاف الظروف والأحوال لترد الجميع إلى «المساواة» التى منبعها «الأخوّة» الإنسانية وتساند وتكافل الناس. إن الفاهم المدرك لقضية المساواة، سوف يدرك أن الإسلام قفز بالبشرية كلها إلى الأمام إعلاءً لهذا المبدأ، وسوف يفهم أنه سبق الشرائع جميعا فى تقرير المساواة بين المرأة والرجل، وسيفهم أن «قوامة» الرجل المقررة فى القرآن ليس مردها إلى تفرقة وتمييز، وإنما إلى تقسيم واجبات وأعباء، وتقنين لما تستقيم به أحوال وشئون الأسرة.. من يتأمل معنى وغاية الحديث النبوى: «الضعيف أمير الركب»، سوف يدرك أنه ليس تمييزا لضعيف وإنما هو تقرير لواجب الأصحاء أو الأقوياء فى رعاية الضعفاء.. فليس يستوى الضعيف والقوى فى الركب، القوى قادر بينما الضعيف لا يقدر، لذلك كانت «المساواة» تعنى لدى الإسلام - فى معناها السامق - أن يكون الضعيف هو أمير الركب، ليجبر الصحيح القوى ـ ضعف المريض أو الضعيف، ولتكون «المساواة» المقصودة المرعية هى التى ترد الناس إلى «الأخوّة الإنسانية» فى صورتها الرفيعة السامقة!

لا يستبعد الإسلام من واحة المساواة أهل الذمّة الذين يقيمون فى دار الإسلام.. فهم أحرار فى عقائدهم وفى إقامة شعائرهم وفى ممارسة نشاطهم وفى ولاية الوظائف، ولهم أيضا نصيبهم فى بيت المال، ويتمتعون بمظلته التى تقيهم العوز والحاجة. روى عن الفاروق عمر عليه الرضوان أنه صادف شيخا يهوديا ضريرا يتكفف الناس، فأخذه بيده إلى بيت المال يقول لعامله عليه: «انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم»!.

إحساس الناس، فى واحة الإسلام، بأنهم متساوون أمام القانون، نابع من منظومة قرآنية تعاضدها السنة النبوية، ونابع أيضا من تطبيقات متتالية كرست لدى الناس أنهم أمام القانون سواء، وأن هذا هو حقهم جميعا فى الإسلام الذى لا يجامل فى هذه المساواة أحدا مهما بلغت مكانته أو اشتدت عزوته أو ثارت خشية أو مخاوف من معاداته للإسلام أو نكوصه عنه.

يساوى المجتمع الإسلامى بين الناس فى تولى الوظائف العامة، لا يميز أحدا لنسبه أو لعرقه أو لحسبه أو لماله، ويحذر النبى ﷺ من المحاباة فى اختيار الولاة وأرباب الخدمة العامة، فيقول: «من ولى أحدا محاباة فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين» لا إيثار لأحد لجنسه ولا لماله أو جاهه أو مكانته أو عزوته»!.

هذه المساواة فى تولى الوظائف العامة تنطلق من المبدأ العام لمعنى المساواة فى الإسلام.. ليس معناها أن يُقدم الجاهل على العالم فى ولاية الوظائف، ولا أن يُقدم الفاسد على الصالح، فولاية الوظائف أمانة، والاختيار لها يخضع ويجب أن يخضع لمعايير ضمانا لحقوق الناس الذين تبذل الوظائف العامة من أجل رعاية مصالحهم.. وفى القرآن الحكيم: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ (القصص: ٢٦) – ويقول أهل الفقه والنظر إن كل ولاية بحسبها، فإن كانت الوظيفة للمال قدمت الأمانة، وإن كانت لقيادة الجيوش قدمت القوة.. وفى جميع الأحوال فإن الاختيار أمانة للصالح العام .. من أجل ذلك لم يتحرج رسول القرآن عليه السلام من أن يقول لأبى ذر الغفارى على حبه وإيثاره له حين طلب ولاية: «يا أبا ذر إن بك ضعفا، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة – إلاّ لمن أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها».

هى إذن ليست مساواة حسابية وإنما مساواة قانونية لا تفرق بين الناس لجنس أو حسب أو لون أو جاه، وتختار الأصلح بغض النظر عن أى اعتبار من هذه الاعتبارات.

وصاحب الوظيفة ذاته، لايتميز على الناس، ولا يفضلهم بشىء، حتى وإن كان أميرا عاما للمؤمنين.. يسمع الناس فى الإسلام، أبا بكر الصديق يقول للناس يوم ولوه الخلافة: «لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى! وإن أسأت فقومونى».. ومن بعده سمع الناس للفاروق رضى الله عنه يقول لهم: «إنما أمير المؤمنين رجل منكم ولكنه أثقلكم حملا».. فهم هؤلاء من إمام مدرسة النبوة ﷺ أن ولاية الوظائف العامة واجب وحمل وتكليف وليست تسلطا، وأن قوامها العدل والحق والمساواة، وليس السيف أو السوط أو هوان عباد الله!.

هذه المساواة الإسلامية، امتدت إلى كل المظاهر فى الحقوق والواجبات.. فى العطاء، وفى واجب الجهاد أو ما يصطلح الآن على تسميته بالخدمة العسكرية، وفى الضرائب، وفى نصيب الناس من حمل أعباء الجماعة، وفى حق كل منهم فى بيت المال.. لا تميز السياسة العامة للمال فى الإسلام بين الأفراد فيما يستحقون وفيما يأخذون كل بحسب عطائه وبحسب نصيبه، لا يُمنح أحد ويُحرم آخر، ولايفرق بين ذكر وأنثى، أو بين مسلم وذمّى.

النبع المستقى منه هذا وغيره من أحكام المساواة، يرجع إلى واحة ظليلة وارفة، وضعها القرآن المجيد، ونهض عليها الرسول الأمين ﷺ.. يأبى عليه السلام على الناس أن يعظموه، ويقول لهم: «لا تقوموا لى كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا» .. «إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس».. يقول حانيا رفيقا لمن أخذته الرعدة من هيبته: «هون عليك يا أخى، فإنى لست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة».. يجالس عليه السلام أصحابه من العبيد والفقراء والمساكين، يحنو عليهم ويؤاكلهم ويعود مرضاهم ويرفض دعوة قريش للتعالى عليهم.. يخصف نعله بيده، ويكنس بيته، ويحلب شاته، ويعقل بعيره، ويؤاكل خادمه أنس بن مالك، ويرفض أن يتميز على أصحابه.. يسبقهم فى حفر الخندق ونقل الأحجار فى غزوة الأحزاب حتى

عفر التراب جبينه، ويسبقهم إلى تحضير الطعام ولا يأنف من جمع الحطب والوقود، ويأبى دعوة أصحابه إليه أن يحلوا محله، ويقول لهم: «أعلم أنكم تكفونى، ولكن الله يكره من العبد أن يكون متميزا على أصحابه».. يسبق صحابته إلى مواطن الخطر فى الجهاد، حتى قال على بن أبى طالب نجيب مدرسة النبوة: «إنا كنا إذا اشتد البأس، وحمى الوطيس، واحمرت الحدق، احتمينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه».. فى بناء المسجد بالمدينة يراه المسلمون يده مع أيديهم فى البناء، يجمع ويحمل معهم الأحجار من هنا وهناك، ويشاهده أحد المسلمين عارضا لبنة على بطنه، ويظن أنها شقت عليه، فيطير إليه يقول له: يا رسول الله ناولنيها.. بيد أنه ﷺ يأبى عليه ويجيبه: «خذ غيرها، لا عيش إلاّ عيش الآخرة»، فلما ألحّ عليه، قال له عليه السلام «اذهب فاحتمل غيرها فإنك لست بأفقر إلى الله منّى!».

«القدرة» فى شرعة الإسلام، تكاليفها ثقيلة، وأعباؤها جسيمة، لذلك فإن الإسلام حين يفرض واجبات أو قوامة أو أعباء أو مهام على القادر، إنما يفرضها رعاية لمبدأ المساواة وتحقيقا له فى صورته السامية لإعادة السواء - بروح الأخوة الإنسانية - لما ينبغى أن يكون بين الناس، وهذا المَعْلم الإسلامى، هو من أهم خصائص عالميته التى يفهم منها الناس جميعا على إختلاف خلقهم ومواهبهم وحظوظهم وملكاتهم وقدراتهم وعلمهم وفهمهم وطاقتهم - أنهم سواء فى واحة الإسلام، لافرق بين غنى ولا فقير، ولا قوى ولا ضعيف، ولا تفاضل بالأعراق، ولا بالأحساب والأنساب ومنازل الآباء، وإنما كل بقدر عمله وبذله، فإن قعد به عجز، أو مرض، أو ضعف، أو غير ذلك، تداركته المساواة الإسلامية بروح الأخوّة الإنسانية التى تبذل له ما يعينه على مرضه أوضعفه أو عجزه أو غير ذلك من العوارض!.

من اللافت، الجدير بالاستشهاد، أن هذه المعانى السامقة العميقة لم تغب عن بعض الدارسين للإسلام من غير المسلمين.. فى مؤلف للبروفيسور روشبروك وليامز (RUSHPROOK WILLIAMS) عن دولة باكستان، يقول عن تقاليد الإسلام: «إن هذه التقاليد تشمل مبادئ المساواة بين الأرواح الإنسانية أمام الله وتقرير أواصر الأخوة العالمية

بغير نظر إلى العنصر أو اللون، كما تقرر فريضة الدفاع عن الضعيف وحمايته ممن يجورون عليه، وإغاثة المعوزين والمحرومين وبذل الحياة نفسها فى سبيل الصراط المستقيم»..

أما الكاتب الشهير هـ. ج. ويلز WEILLS - فيقول فى كتابه الشهير «موجز تاريخ العالم (Short History of the world) ما نص ترجمته عن الإنجليزية: «وثمة عنصر ثالث للقوة يكمن فى إصرار المسلمين على أن المؤمنين جميعا أخوة متساوون تماما أمام الله مهما اختلفت ألوانهم وأصولهم أو مراكزهم» هذه «المساواة» التى رفعها الإسلام، كانت أول ما شق على الأرستقراطية القرشية والعصبية الجاهلية المخلوطة بالثراء والمكانة.. كان أعظم ما إستهولته قريش وكبارها، أن يجمع النبى عليه السلام – فى مجلس واحد – بينهم على ثرائهم وشرف أنسابهم وكريم محتدهم، وبين العبيد والفقراء والمستضعفين فيتقدم رءوس القرشيين إلى النبى عليه السلام معارضين طامعين فى حل.. كيف يجلس إليه، ويريدهم معهم، أمثال بلال الحبشى، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان، والعبيد وعامة الناس.. يريدون منه أن يطردهم وينحيهم عنه، أو يخصص لهم يوما وللقرشيين آخر رعاية لحسبهم ومنزلتهم وأعراقهم وجاههم.. فيأبى عليهم النبى ما يريدون. ويتنزل فى ذلك من الذكر الحكيم ما يقول للنبى تأكيدا لما قاله لهم: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الأنعام ٥٢).

هذه المساواة الإسلامية، فى شجرتها الباسقة، لم تقف فقط عند المعانى والمقاصد التى تتوقف عندها دساتير اليوم، وإنما جاوزتها إلى ما يلحق بها كل مساندة أو عون أو جبر أو كفكفة عن مريض أو ضعيف أو عاجز، ولتلحق الجميع بالمجتمع الإسلامى – فى دوحة يتساند الكل فى ظلها بأخوّة وتكافل ومساواة وتحاب وسلام– هذه الأخوّة الإنسانية التى عبر عنها نبى القرآن بقوله: «من آذى ذمّيا فأنا خصمه يوم القيامة».. هذه الأخوّة التى تنتمى إليها المساواة التى لا مفاضلة فى رحابها إلاّ بالتقوى وصالحات الأعمال.. الكل أمام القانون وأمام القضاء سواء، والكل فى الأعباء العامة وفى الضرائب سواء، والكل فى تولى الوظائف العامة وفى العطاء سواء، وفى الخدمة العسكرية سواء،

أمـا تفاصيـل ما تضمه هذه الدوحة الزاخرة الفياضة، فغاية عريضة تحتاج إلى مسـاحة أوسع من هذا المقام.

هذه الواحة الوارفة للمسـاواة فى الإسـلام، معلم أساسـى من معالم عالميته التى تتسع للناس جميعا على امتداد المكان والزمان! ، وركيزة أساسية لأمان المجتمع الإسلامى الذى يحـس فيه الفرد بانتمائه إلى المجموع بغير تمييـز ولا محاباة ولا تفاضل ولا تظالم، وإنما قـوام التقدير: «التقوى والعمل الصالح».

الأديان المتجهة إلى أقوام، أديان مغلقة، لاتعطى للآدمى ما يعطيه الإسلام من إحساس عميـق بآدميتـه وبانتمائه والناس طـرا إلى أصل واحد، وانضواؤه وإياهم فى أسـرة واحدة لا يتمايز فيها أحد بجنسه أو عرقه أو لونه أو حسبه أو نسبه أو عملـه أو منصبـه أو جاهـه أو ماله أو ثرائه.. هذه «المسـاواة» هى رسـالة الإسلام إلى الدنيا وإلى الناس كافة، أنهم فى ظل دوحته الوارفة، يلتئمـون جميعا فى شجرة واحدة عمودها وأمانها المساواة، وأنهم فى رحاب هذا الدين العالمى ينتمون إلى شجرة الإنسانية التى يتساوى فيها الجميع فى رحاب الله وفى إطار دعوته العالمية إلى الناس كافة وعمادها الإخاء والحرية والمساواة!.

○○○

openkandil.com

السماحة وعالمية الإسلام!

سماحة الإسلام فرع على معالم عالميته، وعلى خصال وشمائل فيه عديدة، أو هى خصلة جامعة لخصاله، صدى لها، ومعبرة عنها، ثم هى تلتئم مع كل هذه المعالم والسمات فى اتساع الإسلام للعالمين إلى يوم الدين، وامتداد واحته إلى من لم يؤمن به مثلما هى للمؤمنين به.. الدين العالمى دين يحمل بذوره وقدرة الامتداد الواسع العريض، فى الزمان والمكان.. لا تحده أرض، ولا ينقضي بزمان، ولا يستأثر أو يختص به قوم دون أقوام، ولا جنس دون أجناس، ولا بلد دون بلدان، ولا عرق دون أعراق، ولا جيل دون أجيال، وإنما هو دين يخاطب العالمين، وبخطاب صالح لكل الأزمنة والأماكن والعصور.. يخاطب الناس كافة على سنن الهداية والبيان والاقناع الذى يخاطب الألباب والضمائر والوجدان، ولا يغلق دون أحد بابه، ولا يوصد واحته أو يعطى ظهره فى وجه أحد.. الاتساع الكونى لرسالة الإسلام جعل بابها مفتوحا للعالمين، واستلزم منظومة معطرة من الأخلاق والسجايا والخصال جعلت من واحة هذا الدين عنوانا للتسامح، سواء بين بنية المؤمنين به، أم بينهم وبين باقى الناس، كل الناس، على اختلاف أديانهم ومللهم وعقائدهم ومذاهبهم وأعراقهم وأجناسهم وبلدانهم.. تسامح الإسلام هذا الشامل، تسامح ينبع من أنداء عطره وخصال رحمته وعدله وإحسانه وعفوه وغفرانه.. عدل الإسلام، عدل مع الناس كافة، يتجه إليهم بسواء موازينه دونما تفرقة لأديان أو ملل أو نحل أو أعراق أو أحساب أو أنساب.. منظومة الأخلاق الإسلامية، تلك البديعة الرائعة، الشاملة الجامعة المانعة أرادت للمسلم ورسمت له وحضته وأكدت عليه وأرشدته أن يكون فى الدنيا ينبوع خير ومحبة وألفة ورفق وعطاء وتواصل.. سماحة الإسلام مع منظومة سجاياه رسالة إلى الدنيا فرقت بين عهدين.. تسالم وتبث المحبة والإسماح ولا تبادئ بعداء، ولا تلفظ من رحابها أبناء الملل والديانات الأخرى، بل هى تؤمّن الكافر وتجيره حتى يسمع كلام الله ثم تبلغه مأمنه.. فى القرآن المجيد: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (التوبة ٦).. كفر الكافر وشركه دال على جهله وانعدام أو فقر

علمه، فإن علم كان العلم كفيلا بهدايته.. لذلك لا ييأس الإسلام قط من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن.. ولا تنسلخ بتاتا من سعيها الدائم الرفيق إلى البيان والإقناع والهداية.. الإسلام دين مفتوح، جامع جاذب كالعدسة اللامة.. يتعانق مع الدنيا، ويفتح أبواب رحمته وعطائه للناس جميعا فى حب وإسماح.. دين أراد لبنيه أن يكونوا نفحة عطاء وعطرا للآخرين..

بدأ الإسلام فرفض كل أنواع العصبية وهى عدوة السماحة والإسماح.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات ١٣) .. «كلكم لآدم.. وآدم من تراب.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم» يتسامح الناس، ويتسامح المتدينون، حين يدركون أن أصلهم واحد، وأن انتماءهم إلى شجرة واحدة.. إلى ذلك لفت القرآن الحكيم، حين نوه فى العديد من آياته إلى أن الناس جميعا ينتمون إلى أصل واحد ونفس واحدة.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴿١﴾ ﴾ (النساء ١).. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ (الأنعام ٩٨).. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١٨٩﴾ ﴾ (الأعراف ١٨٩).. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد، تنهدم به نعرات العنصرية والعصبية، وتتسع الباحة الإسلامية الوارفة إلى الناس جميعا على سنة الهداية والإسماح.. لا معيار للمفاضلة إلاّ بالعمل والتقوى.. ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النجم ٣٩، ٤٠).. غاية الإسلام أن يهدى من لم يهتد، وهذه الهداية قوامها الإقناع بالحجة والبيان، بالحكمة والموعظة الحسنة وائتلاف الناس بالحب والرفق والإسماح.. « المؤمن آلف ومألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.».. «ما دخل الرفق فى شئ إلا زانه، وما خرج من شىء إلا شانه».. الهداية الإسلامية لا تفرض بالقسر والإرغام، وإنما هى دعوة هادية بالمحبة والبيان. ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء ١٥).. ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (الأنعام ٩١)..

لا يسعى الإسلام لفرض دين، ولا يجبر على هداية.. سماحته فى الدعوة عنوان لمتانة بنائه واستقامة عناصره.. ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل ١٢٥).. رسول القرآن عليه البلاغ والإرشاد لا الفرض ولا الإجبار.. ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الشورى ٤٨).. ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر٢٤، ٢٣).. ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا ﴿٢٧٢﴾ ﴾ (البقرة ٢٧٢).. ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ ﴿٥٦﴾ ﴾ (القصص٥٦).. لا يتعقب الإسلام ولا يطارد أحدا أو يفرض نفسه عليه.. ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (البقرة ٢٥٦).. ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (يونس ٩٩).. ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (يونس ١٠٨).

المسلم غنى بهدايته، لا يفقره ولا يضره ضلال غيره.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (المائدة ١٠٥).. الإسلام يمد يده بالسلام والمحبة والإسماح.. السماحة خصلة أصيلة وشميلة رفيعة من خصاله وشمائله.. يصدر عنها المسلم فى علاقته بالمسلمين، وفى تعامله مع غير المسلمين.. فى بيعه وفى شرائه، وفى استئدائه وفى أدائه.. فى الحديث النبوى: «رحم الله رجلا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا قضى، سمحا إذا اقتضى».. المسلم مأمور بالأخذ بروح الإسلام ومهجته وتسامحه.. ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف ١٩٩)..

على كثرة وضخامة وجسامة ما تعرض له المسلمون من أذى شديد من الكفار، أمروا بالإعتصام بالصبر والإسماح.. وصبروا.. ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (آل عمران ١٨٦)..

الإسلام لا يبادر ولا يبادئ أحدا بعداء، ولا يأذن بقتال إلاّ لضرورة صد العدوان وإيقاف التجبر والعتو والإفتئات.. ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

﴿٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحج ٣٩، ٤٠) ..

فإذا جنح المعتدى للسلم لبى الإسلام وقابل السلام بسلام لأن الإسلام دين محبة وسلام..
﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ (الأنفال ٦١).

أيادى الإسلام ممدودة إلى الدنيا بالمحبة والإسماح والسلام.. لا يجزع الإسلام ولا يخشى السلام ثقة منه بقوة الحق الذى هو عليه.. لفظ «السلام» هو تحية الإسلام.. ولفظ «الإسلام» ذاته منحوت من مادة «السلام».. نبى القرآن «رحمة مهداة»، وهدية من السماء إلى العالمين.. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء ١٠٧) .. يقول رسول القرآن: إن الله جعل السلام تحية لأمتنا، وأمانا لأهل أمتنا».. «السلام قبل الكلام» .. «لا تؤمنوا حتى تحابوا: ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم».. السلام والإسماح، مهجة وروح الإسلام.. تحية الله تعالى للمؤمنين تحية سلام: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الأحزاب ٤٤) .. ومستقر الصالحين هى دار الأمن والسلام: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (يونس ٢٥).. ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (الأنعام ١٢٧).. وأهل الجنة الموعودة لا يسمعون لغوا من القول، ولا يتحدثون بغير لغة السلام: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الواقعة ٢٥، ٢٦).

من أعجب العجائب أن يُتهم الإسلام الذى أفرز حضارة عالمية تآخت فيها الأديان بأنه دين إرهاب وعنف.. كيف؟!.. إنه على ما لقى المسلمون من إعنات وأذى المشركين، أُمروا فى القرآن المجيد بحسن معاملة وبرّ من لم يقاتلوهم أو يخرجوهم.. ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة ٨).. فأين هذا الإسماح مما ورد فى التوراة بالإصحاح العشرين (١١– ١٧) من سفر التثنية: «حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير (!!) ويستعبد لك (!!!) وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف (!!) وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها

فتغنمها لنفسك (!!!) وتأكل غنيمة أعدائك (!!!) التى أعطاك الرب إلهك ٠ هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ٠ أما مدن الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبقى منها نسمة ما بل تحرمها تحريما!!!».. أو ما جاء فى الإصحاح ١٣ (١٦ –١٧) من سفر التثنية عن المدن التى لا تدين بديانة إسرائيل : «فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف(!!) وتحرمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف (!!) تجمع كل أمتعتها (!!) إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار (!!).. المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك ، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعده»!.

ليس مرامنا هنا أن نهاجم أحدا، أو نعرض بدين، ولكننا نورد فقط بعض ما ورد فى العهد القديم الذى يحلو للبعض أن يفتروا على الإسلام ورسول الإسلام، فى سفر الخروج، الإصحاح ٣٢ (٢٥-٢٩) أن بنى اللاوى قتلوا ثلاثة آلاف رجل من الشعب لعبادتهم العجل .. وفى سفر العدد، الإصحاح ٣١ (١) أن النبى موسى أرسل اثنى عشر ألف مقاتل لمحاربة أهل مدين، «فقتلوا كل ذكر، وقتلوا خمسة من ملوك مدين بالسيف»، «وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار. وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم»،.. وأنهم لما رجعوا قوبلوا بالغضب على استبقائهم النساء والأطفال، ثم أمروا بقتل كل طفل ذكر، وكل امرأة ثيب، وأبقوا الأبكار، وكان عددهن اثنين وثلاثين ألفا»!.. وفى سفر صمويل الأول، الإصحاح٢٧ (٩-١٢) أن النبى داود «ضرب الأرض ولم يستبق رجلا ولا امرأة وأخذ غنما وبقرا وحميرا وجمالا وثيابا وجاء إلى أخيش فقال أخيش إذن لم تغزو اليوم. فقال داود بلى». وعاد داود فلم يستبق رجلا حتى أتى إلى جات «.. وفى سفر صمويل الثانى، الإصحاح١٢ (٣١) أن النبى داود كان يمثل بمن يقتلهم أشنع تمثيل.. «فجمع داود ... وأخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرّهم فى أتون الآجر (موقد كبير من الآجر) وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون».

المسلمون لا يستغلون هذا الذى ورد نصا فى العهد القديم ليهاجموا الديانة اليهودية، أو النبيين موسى وداود.. بل احترم الإسلام كافة الديانات والرسالات، ووقر جميع الأنبياء

والرسل، وجعل الإيمان بهم وبرسالاتهم شرطا من شروط الإيمان.. في القرآن المجيد: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ (البقرة ٢٨٥).. ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة ١٣٦).. موسى في القرآن هو كليم الله، ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ (النساء ١٦٤).. ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (البقرة ٥٣).. ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ (مريم٥١).. داود عليه السلام وقره القرآن وبجله، وقال فيه: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (ص١٧).. ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ (الإسراء ٥٥).

يجتزئ الافتراء والمفترون على الإسلام نتفا وشذرات يخرجونها من سياقها ليتهموا الإسلام كذبا بالعنف والعدوان والإرهاب.. مع أن القرآن المجيد يقول في صراحة ووضوح وجلاء: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴿٢﴾ ﴾ (المائدة ٢)..

يعلم المسلم من قرآنه المجيد أن السيد المسيح جاء بالمحبة والسلام ولم يجئ بالعدوان.. لذلك لا يتوقف المسلم أمام نتف أو شذرات يجتزئها من الأناجيل لينسب العنف للمسيح أو المسيحية على خلاف الحقيقة الواضحة التي تنضح بها رسالة عيسى عليه السلام.. في الإصحاح العاشر (٣٤) من إنجيل متى: «لا تظنوا أني جئت لألقى سلاما على الأرض. ما جئت لألقى سلاما بل سيفاً».. وفي الإصحاح الثالث عشر (٤٩-٥٢) من إنجيل لوقا: «جئت لألقى نارا على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت ولي صبغة أصطبغها وكيف انحصر حتى تكمل، أتظنون أني جئت لأعطي سلاما على الأرض. كلا أقول لكم، بل انقساماً».

لم يحدث أن انتزع مسلم هذه العبارات أو تلك ليفصلها عن السياق العام وروح ومهجة المسيحية ليفترى عليها أو يتهمها إتهاما طائشا لا ظل له من الحقيقة أو الصواب.. لم يتحدث القرآن المجيد عن المسيح عيسى بن مريم إلا بكل حب وتوقير وإجلال..فيه يقول عز من قائل: ﴿ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴿٤٦﴾ ﴾ (المائدة ٤٦).. ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴿٨٧﴾ ﴾ (البقرة ٨٧).. ولم يتحدث كتاب من كتب الأديان عن المسيح بمثل الحديث البليغ الرائع الذى ورد فى القرآن المجيد: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (آل عمران ٤٥، ٤٦)

إن استقراء الأديان واستلهام رسالتها وعناصرها مهمة كبرى محكومة ويجب أن تكون محكومة بالاحترام والموضوعية والوقار، وبحسن المقاصد والغايات.. بيد أن هناك من أسف من يتجرأ ويفترى كذبا ويستيسر التجنى على الإسلام ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ولا يلتفت فيما يفتريه ويتجناه إلى جوهر وروح وعناصر ومعالم الإسلام - الدين العالمى، الذى عم المعمورة حاملا للناس كافة رسالة الهداية والإسماح والمحبة والسلام.

التهجم البذئ الضال على الإسلام ورسول الإسلام - والمسلمين، مرض قديم.. صُنفت فيه المؤلفات والكتب، وساهم فيه فلاسفة وأباطرة، وزاد شناعة مع إتساع الأطماع فى أرض وخيرات المسلمين.. تدبج فيه المقالات، وتبث له المواقع على شبكات الإنترنت.. تفترى كذبا على الإسلام ورسوله، تتهمهما بالعنف والتعطش للدماء، وتتجنى عليهما بأنكر الاتهامات، بينما سماحة الإسلام تكف المسلمين عن الرد بالمثل.. نعم، عادوا ويعادون الصهيونية، ولكن كمذهب سياسى عنصرى عدوانى، مثلما دفعوا الموجات الصليبية كعدوان يتشح بالصليب والصليب منها براء، ولكن المسلمين لم يتورطوا قط فى الرد بالمثل على هذه البذاءات المتجنية التى تمس دينهم ورسولهم وعقيدتهم.. احترموا ولا يزالون الشريعة الموسوية، مثلما احترموا ولا يزالون ديانة المسيح عليه السلام.. هذه «السماحة» الإسلامية ليست غفلة ولا ضعفا، وإنما هى خلق وسماحة الإسلام وعرفان المسلمين بدينهم الذى احترم الرسالات والنبوات السابقة، والأنبياء والرسل الذين وقرهم قرآنهم وحض على توقيرهم.. ويخطئ خطاب الآخرين حين يعزو تعفف الإسلام عن الرد بالمثل إلى الضعف أو الغفلة، أو يبنى حساباته على أن هذه «السماحة» عجز لا حيلة فيه، أو ضمان أبدى لا تحول عنه.. فى كل الديانات حركات غالية، لم ينج من ذلك دين،

ماذا لو ضاقت الصدور ونفد الصبر وانفلت العيار.. إن دخول الغلاة أو الغاضبين إلى ساحة المقارعة قد يكون ثمنا فادحا لشطحات المتغولين المتجنيين على الإسلام والمسلمين.. يومئذ يفقد العالم، وتفقد الإنسانية، ما نجح الإسلام للآن فى الحفاظ عليه فى توفير الوقار والإحترام للحوار حول الأديان، فهدم الأديان - أيا كانت! - هو هدم للسقوف التى حفظت وتحفظ الإنسانية من شطحات وضلالات لا يستطيع أحد حسبان تداعياتها حين تدهس الأديان فى حوار طائش يمس الناس - عموم الناس - فى أديانهم ومعتقداتهم.. يومها لن يكون على الدنيا سلام!!!

ooo

oaeikandl.com

عــاش الإســلام

عــاش الإســلام معطرا بباقة ما تحلى به من ســجايا وخصال وشمائــل، موصولا بالناس -كل الناس، المســلم وغير المسلم، بســماحته التى صاحبت رسالته منذ نزلت وللآن - ومن اللافت أن سماحة الإسلام لم تتوار حتى فى فترات الهبوط والإنحدار أو استبداد وبطش بعض الملوك والحكام والأمراء والولاة.. وهذه حجة مضاعفة لســماحة الإســلام التى لم تستطع صور البطش التى سقطت فيهــا بعــض فترات الحكم فى هذا القطر أو ذاك، دون حضور سماحة وإسماح الإســلام، وإلى هذا الحضور ســر الحضارة الإســلامية التى مضت متسامقة على رغم كل شــىء، تتسع بقيم ومبادىء وسماحة الإســلام للمسلم وغير المسلم، وتفسح لكل قادر أيا كانت ملته أو ديانته ليصب عطاءه فى نهر هذه الحضارة التى ظلت دافقة متدفقة لعدة قرون.

انطبع فى نســيج المســلمين، ما توالى فى ســنة رســول القرآن، قولية أو فعلية أو تقريرية، وما اقتــدى به خلفاؤه الراشــدون وصحابته الأبرار من صور الإســمــاح.. لم يفلح طغيان قريش فى إخــراج النبى عليه الســلام عن سماحته، فكان يقابل أذاهم بدعائــه الضارع إلى ربه: «اللهم اغفر لقومــى فإنهــم لايعلمون».. يأبى على عمر بن الخطاب أن يمثل بســهيل بن عمرو أســير بدر لقاء ما سلف منه فى إيذاء الإسلام ورسوله.. يقول لعمر فى إسماح رائع: «لا يا عمر.. لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا».. يطلق أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى من أسر بدر بغير فداء، رعاية لعياله الذين يعول برغم ما سبق منه من نكاية وأذى.. يمضى عليه السلام فــى إسماحه حتى يقبل فداءً من فقراء أســرى بدر أن يعلم الواحد منهم عشــرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة.. لم يثنه حزنه الشديد على عمه حمزة أن يوصى فيقول: «إياكم بالمثلة ولو بالكلب العقور»، ولم ينسه ألمه الهائل على التمثيل بجثة حمزة فى أحد ما تطبع به خلقه وتعطر به الإســلام من عفو وإسماح.. ينتظــر الناس يوم فتح مكة أن يثأر من «وحشــى» الحبشــى قاتل حمــزة المثل به، بيد أنه عليه الســلام يصفــح عنه وعن الجميع فى عفــو وإسمــاح.. يطلقه فيمن أطلق قائــلا لهم «اذهبوا فأنتم الطلقاء».. ولا يزال عليه السلام يدعو المسلمين إلى التسامح الكريم ويقول لهم: «من سَرَّه أن ترفع له

الدرجات (عند ربه) فليعف عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه» .. حمل عليه السلام إلى الناس شريعة فارقة بين الظلام والنور، وبين الضلال والتعصب، والهداية والسماحة.. لم تكن للأسير قبل الإسلام حقوق.. جميع الأسارى والسبايا كانوا يقتلون أو يستعبدون، فإذا بالإسلام يأتي في قرآنه المجيد فيوقف استرقاق الأسرى، ويخير بين المن وبين الفداء، ويجعل المن سابقا على الفداء، فيقول عز من قائل: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا (٤) ﴾ (محمد ٤).. يضيف الأسير إلى من تجب لهم الصدقة والرحمة والإطعام، فيقول عز وجل في صفات المؤمنين الصالحين: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ (الإنسان ٨)..

ooo

يعتنق الإسلام، ويعرف المسلمون من قرآنهم المجيد، أن الناس قد خلقوا مختلفين في عقولهم وقدراتهم، وفي فهمهم وعقائدهم.. هذه السنة الكونية تحدث عنها القرآن الحكيم فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾ (هود ١١٨) .. لا يقابل الإسلام هذا الاختلاف بالازدراء أو بالعداء، وإنما يمد له الهداية والإسماح.. لا يجبر الإسلام أحدا على اعتناقه، وليس صحيحا أن الجزية للإكراه على الدين أو مقابل لعدم الإسلام، وإنما هي ضريبة لا تحميل فيها.. فغير المسلم يتمتع بكافة مرافق ومنافع وحماية دار الإسلام التي يتمتع بها المسلم، ولا يؤدي الزكاة التي يؤديها المسلم، لأنها تعبدية فكان من سماحة الإسلام وعدل وسلامة منطقه أن لا يلزم بها غير المسلم.. الجزية إذن ضريبة يؤديها غير المسلم الذي لا تفرض عليه الزكاة لأنها فريضة تعبدية، ومن ثم كانت الجزية مساهمة اجتماعية فيما يعود على مؤديها من حماية ونفع من العدل أن يتساند المجتمع كله – المسلم وغير المسلم – في الوفاء بمستلزماته ، ومع ذلك فإن الجزية – على عكس الزكاة ـ ترد إلى دافعها إذا حال عائق يحول دون الدفاع عنه، وتسقط عن المرضى والضعفاء والمساكين وغير القادرين .. الذمي مصون في ماله ودمه، محفوظ في عرضه وشرفه، متاح له نصيبه من بيت المال ومن الوظائف العامة والخاصة.. ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ (٥) ﴾ (المائدة ٥).. في عهد النبي عليه السلام

لأهل نجـران: «ولنجران وحاشـيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله.. ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر».. الذميون فى الحديث: «لهم مالنا وعليهم ما علينا».. أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم .. ينتصر لهم رسول القرآن فينهى عن أذاهم أو ظلمهم أو التعرض لهم.. يقول للمسلمين: «مـن آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمتــه يوم القيامة».. ويقول: «ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شـيئا بغير طيب نفســه فأنا حجيجه يوم القيامة».. غير المسلم على دينه، لا يلويه أحد ولا يجبره على ترك دينه.. فى كتاب النبى عليه السلام إلى عامله باليمـن: «مـن كان على يهوديــة أو نصرانية فلا يفتنن عنها».. وفى خلافــة الصديق عاهد خالد بـن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيســة ولا قصـرا، وعلى ألاّ يمنعوا من ضرب نواقيســهم أو إخـراج الصلبان فى عيدهم، وعلى أن يعفى مـن الجزية (الضريبة) من أصابته آفة أو افتقر، بل ويعال هو وأولاده من بيت المال ما أقام بدار الإسلام.

لم تكـن الصـورة الرائعة التى قدمها الصحابة والتابعون ومـن تلاهم حتى بعد ذلك فى فترات الانحدار، إلاّ صدى وفهما مطبوعا فى نسـيجهم عن روح ومهجة وسماحة الإسلام لا ينظر أحدهم خلفه مسـتحضرا صفحات السـيرة، إلاّ طالعته مواقف رائعة موحية، تضيف إلى شـجرة التسامح الباسقة، حبات للعقد الفريد الذى اكتملت به منظومـة الإسلام التى ضربت للبشرية أعظم وأحكم المبادئ والأمثال لحقوق الإنسان حيث كان.

منـذ عهد الراشـدين، عاملوا الصابئـة عبدة الكواكب فى شمال العـراق معاملة أهل الكتاب، واتسـعت سماحتهم حتى للمجوس عبدة النار الذين ظلت معابدهم تملأ أراضى الإسـلام لقرون فى بغداد وفارس وكرمان وسجسـتان وخراسـان وأذربيجان، مثلما اتسعت سماحتهم لأهل الكتاب.. عاش أهل تلك العقائد والأديان، على تنوعها واختلافها، مسـتقرين آمنين فى دوحة الإسـلام.. هذا الأمان طمأنهم إلى حاضرهم وغدهم، فأقبلوا طائعين مختارين على تعاطى الحضارة الإسـلامية ودراسة لغتها ثم الإسهام فيها، ومنهم من بزغ نجما لامعا فى سمائها!.

لم تميز الحضارة الإسـلامية بروح إسماحها، بين المسـلم وغير المسـلم، نعم فيها اليهود بكل الحقـوق والمزايـا على رغم ميلهم إلى العزلة وحرصهم بفكرة «الجيتو» على التمايز وعدم الانخراط

فى النسيج العام.. لم يتح لليهود فى حضارة من الحضارات ما أتيح لهم فى واحة الحضارة الإسلامية.. وهيأ الإسماح الإسلامى أن يبزغ منهم نجوم.. منهم تمثيلا لا حصرا، موسى بن ميمون الطبيب الأندلسى الشهير، وإسحق بن سليمان الإسرائيلى المولود بمصر ٨٥٠ م، ونبغ فى الطب والفلسفة والحساب والهندسة وتأليف اللحون وعلم النجوم، ومعاصره إسحق بن عمران الطبيب اليهودى الذى بدأ ببغداد ونبغ وذاع صيته فى المغرب العربى، من هؤلاء اليهود هبة الله بن جميع، الطبيب المصرى اليهودى الذى كان طبيبا للناصر صلاح الدين.. استوزر الخلفاء منهم، فاستتاب الخليفة العزيز بالله الفاطمى فى الشام رجلا يهوديا يدعى منشّا بن إبراهيم. صحيح أنه مال وجنح وظلم وأثار السخط ومع ذلك تبقى دلالة استخدامه آية على إسماح الإسلام وانساع دوحته لجميع أهل الأديان.. فتحت الأندلس الإسلامية مصاريعها لليهود على مدى ثمانية قرون..احتموا فى ظلها من اضطهاد الغرب.. وها هو ذا «حسداى بن شبروط» يصير وزيرا لعبد الرحمن الناصر، وأفسح له فانطلق يبعث حركة للدراسات التلمودية، مضت نشيطة متخففة حتى صارت الأندلس برضاء الحكم الإسلامى مركزا للدراسات العبرية.. حين أزيح المسلمون من الأندلس بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م) وانطلق الإسبان يعيثون فى اليهود إيذاء واضطهادا بعد غياب شمس الإسلام عن البلاد، لم يجد اليهود فرارا من طغيان واضطهاد الملك فيليب الثالث لهم، إلاّ النزوح إلى ديار الإسلام فعبروا مضيق جبل طارق هاربين لائذين بتسامح الإسلام والمسلمين فى المغرب العربى..

سماحة الإسلام مع النصارى وأتباع السيد المسيح، سماحة لازمت نزول الذكر الحكيم.. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (المائدة ٨٢، ٨٣) .. هؤلاء أوصى رسول القرآن بهم خيرا فقال لأصحابه: «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما».. فى كتاب النبى عليه السلام إلى عامله باليمن ألا يفتتن نصرانى عن ملته.. عاش هذا كله فى نسيج وحنايا المسلمين

حتى شاهد العالم صورة للتسامح الإسلامى فى معاملة النصارى تجل عن أى وصف.. ها هو ذا عمر ابن الخطاب يتحرج من الصلاة فى كنيسة القيامة مخافة أن يطمح المسلمون فى اتخاذها مسجدا.. فى مشهد آخر يتراجع عمر بن الخطاب على صرامته عما كان قد شرع فيه من نهى عن استقبال النصارى له بالشام باللعب بالسيوف والريحان أمامه كما تعودوا فى احتفالاتهم بالعظماء.. ما يكاد أبو عبيدة بن الجراح يلفت نظره إلى أن هذه عادتهم وأنهم قد يعدون ذلك النهى نقضا للعهد الذى أعطاه لهم حتى يرجع عمر عما شرع فيه من نهى، ويقول فى سماحة ومودة: (دعوهم.. عمر وآل عمر فى طاعة مارآه أبوعبيد).. وهذا هو عمرو بن العاص، يدخل مصر فيعطى أقباطها الأمان على كنائسهم وصلبانهم ولايمد يده قط إلى شىء من أملاك الكنائس ولا يتدخل فى شأن من شئونها.

هذه الشجرة الباسقة للتسامح الإسلامى ظلت فروعها ممتدة إلى العصر الحديث.. اتخاذ صلاح الدين طبيبا مصريا يهوديا له هو هبة الله بن جميع، من مئات السنين، له أمثلة حية فى عصرنا الحاضر.. موسى قطاوى باشا، اليهودى المصرى، وُلِّىَ وزارة المالية المصرية فى القرن الماضى، ووُلِّىَ نوبار باشا الأرمنى الأصل رئاسة الوزارة المصرية، ومكرم عبيد كان شعلة حية للعطاء بلا فوارق دينية سواء فى مرحلته مع الوفد المصرى، أم بعد خروجه وتأليفه حزب الكتلة الوفدية.

المزارات المسيحية فى مصر الإسلامية، مزارات للمسلمين أيضا.. مزارات سانت كاترين، والقديس مار جرجس، والقديسة دميانة بالدقهلية، وسانت تريز بشبرا، ودير المحرق بأسيوط وغيرها، مزارات يوقرها ويزورها ويتبرك بها المسلمون.. هذه الصورة الرائعة للتآخى بين الأديان، محال أن تراها فى غير الإسلام.. الغرب الذى يتغنى بالحرية والإخاء، محال أن يتخذ أحد منه مزارا إسلاميا يتبرك فيه رعاياه.. لم يحدث، ولا أظنه يحدث، أن يتسمىٰ أبناء اليهودية أو المسيحية باسم محمد عليه السلام، أو باسم من الأسماء الإسلامية التى ارتبطت بالصحابة والتابعين وأعلام الإسلام، بينما أقبل المسلمون بسماحة الإسلام، على تسمية أولادهم بأسماء أنبياء الأديان والرسالات الأخرى لا يستثنون من ذلك أنبياء بنى إسرائيل.. فى البلدان الإسلامية ترى فى المسلمين أسماء نوح وموسى ويعقوب وعيسى وداود وسليمان ويوسف وإسحق وهود ويونس وهارون وعمران ومريم وشعيب.. لا يجد المسلمون فى ذلك غضاضة، بل ولا يلتفتون إليه لأنه صار

obeikandl.com

جزءا من نسيجهم طبعوا عليه من سماحة الإسلام وتوقيره وإجلاله لكل الأنبياء ولجميع الأديان والرسالات.

التعانق الفريد، بين «المساواة» و «التسامح» فى الإسلام، شكل ملمحا ناصعا من ملامح عالمية هذا الدين.. لا يطلب الإنسان.. أى إنسان.. من دين لا يدين به، أكثر من أن يحس فى كنفه بالمساواة مع الجميع.. قد خلق الناس مختلفين متمايزين.. تتسع الديانة للعالمين حين تراعى هذا، فتفتح قلبها بالمساواة والتسامح ليحيا الجميع فى دوحتها فى مساواة لاتمييز ولا تعالى ولا اضطهاد فيها.. عبقرية الإسلام أن «الأمان» الذى تبنى دوحته، يؤمه ويستظل به غير المسلم مع المسلم، لا يصادر على أحد فى دينه أو ملته أو معتقده.

عاش الإسلام، وسيعيش، بهذه الباقة التى ضمت التسامح إلى جانب ما فيه من جميل السجايا والشمائل والأخلاق والخصال، ويخطئ من يظن أن التسامح تفريط أو يؤدى إلى تفريط.. تسامح الأديان والمتدينين معلم أساسى من معالم الدعوات المفتوحة.. الدعوات المفتوحة دعوات جامعة تدعو وتشد وتجذب جذبا قوامه الحب والإعجاب والاقتناع والارتياح.. لم يكن التسامح فى الإسلام محض دعوة توردها آيات القرآن المجيد أو ترددها السنة النبوية المطهرة أو تلهج بها ألسنة الصحابة والتابعين.. وإنما كان منهاجا عاما وشاملا يجاوز فى ثرائه الأقوال أو النصوص المكتوبة أو الحكايات المروية.. ولم يحدث قط أن خسر الإسلام أو خسر المسلمون من هذا التسامح – خذ مثلا تسامح رسول القرآن يوم فتح مكة مع طواغيت قريش الذين أذاقوا المسلمين صنوفا هائلة من العذاب والاعنات.. يقول لهم النبى من موقف القدرة على الحساب على ما كان.. «اذهبوا فأنتم الطلقاء».. هل خسر الإسلام والمسلمون بهذا التسامح؟ أم كان أساسا لمراجعة اجتاحت نفوس وعقول وألباب وضمائر ووجدان هؤلاء الطغاة الذين بثوا سالفا عداءهم للإسلام.. هذه المراجعة كانت لصالح الإسلام الدين العالمى الجاذب، وليست ضده.. يومها اهتدت قلوب هؤلاء وأفئدتهم إلى نور الاسلام، ودخلوا فى دين الله أفواجا.. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ (النصر ١ – ٣).

طبائع الناس و قيم العدل فى الإسلام !

تتفـق منظومات الأخلاق، وضوابط القانون، مع دعوة الأديان بعامة للعدل والإنصاف.. ومـع ذلـك فالمتأمل فى أحوال الناس يلاحظ أن معظمهم لم يسـتطع إلى الآن إقناع نفسـه بـأن العدل قيمة مطلقة، وأنه يتلخص فـى الإقرار والاعتراف بحقوق الآخرين واحترامها والكف عن التعدى عليها أو الطمع فيها.. وأن هذا الاحترام واجب مهما كانت إغراءات الاستقواء بالمال أو بالقوة أو المكانة أو الجاه أو المنصب أو القدرة أو السلطان.. وبغض النظر عن الفوارق فى المكانة أو الأهمية بين الناس بعضهم البعض!

فلـم ينقطـع مثلا افتئات البالغـين من الذكور على حقوق القصـر أو الإناث، ولا طمع الأولياء أو الأوصياء فى أموال الأيتام، ولا توقف اسـتيلاء الطامعين على مال المالك الغائب أو العاجـز أو المقعد أو المريض أو المشـغول بأحماله عن متابعـة ومراقبة ماله، ولا انقطعت مماطلـة المدين فى حقوق الدائن الذى لم يتحـوط بكتابة أو ضاعت منه، ولم يرعو انتهاز المسـتأجرين أو يتوقف تحريضهم لتأليب الحكـام أو القوانيـن على المالكيـن، أو الادعاء عليهم كذبا بما يضنى ويرهق ويظلم.. ولم تتراجع الأطماع أو إساءة الانتفـاع بمـا بالحيازة أو تحـت اليـد من عـين أو أرض أو عقار.. كمـا لم ينقطع تجبر الأقويـاء على الضعفاء، ولا اسـتقواء الحكام بسـلطانهم علـى المحكومين، مثلما لم ترع الـدول القوية أو العظمى أو تنصـف ولـو بعض الإنصاف فى تعاملها أو بالأحرى تغولها على حقوق الدول الضعيفة التى لا تملك إيقاف عبث الكبار بمصالحها ومقدراتها!.

ولم ينقطع أحد من هؤلاء، شخصا طبيعيا كان أو اعتباريا، جماعة أو حزبا أو حكومة أو دولة، عن استيجاد المبررات والذرائع لتبرير مفارقة العدل والإنصاف، وإساغة التحيف والجور على حقوق الآخرين.. لا يقدم الأقوياء أسـبابا مفهومة ناهيك بالمقنعة لاعتراضهم على ما يجب للضعيف من إنصاف، ولا مبررا لاصطناعهم الوسائل لتقليم وتعجيز فرصته فى مواجهة القوى، ولا يكفون عن مصادرة أى مقاومة للرضوخ أو الانحناء!.

لا يخجـل الأقويـاء من تبرير تحيفهم بأنه قانون القوة والاقتدار، وأن من حق القوى الانتفاع بقوته واغتنام الفرص بقدرته، وعلى الضعيف أن يدفع ثمن عجزه وخوره..فالمال كالحق – لابد له فى نظرهم من قوة تقره وتحميه.. والمساواة – هكذا يبررون! – قضية نظرية تركن إليها الكثرة الخاملة العازفة عن بذل الجهد والمناضلة واتخاذ الأسـباب.. القاعدة عن بذل ما يبوئها الجدارة والاستحقاق، بينما العدل – هكذا يرى المتحيفون! – لا يكون إلاّ بحسب المواهب والقدرات، فيكون المال فى يد من يقوى على الانتفاع به فى أغراضه، لا فى يد الغافل أو السفيه أو الأحمق أو العديم الخبرة.. والعدل والمنطق أن تؤول غلته أو معظمها لمن يحسـن اسـتغلاله لا لمن لا يفكر فى اسـتغلاله أو لا يحسنه .. هذا الاسـتدلال سمعناه من فريق من مستأجرى الأراضى الزراعية يطالبـون بملكيتها قانونا لزارعيها وليس لسـواهم بمقولـة إن «الأرض لمن يزرعها فعلا».. معنى ملكيتهـا ينحصر عندهم فى زراعتها التى هى شـاهد ملكيتها.. وهـذه مغالطة تردنا إلى ما قبل التاريخ وقبل وجود الملكية الفردية!.. فالمالك فى زماننا غير المالك بالماضى السـحيق، والأرض فى عالم اليوم كغيرها من عناصر الملك، قد يزرعها المالك بنفسه، وقد يزرعها بأجراء.. وقد يعتل فيؤجرها لمن يزرعها، وقد يموت فلا يترك إلا نسـاءً، وقد يترك ذكرا بالغا لا يمارس الزراعة.. فمباشـرة المالك للزراعة بنفسـه وجه واحد فقط من الوجوه العديدة التى من حقه أن يستخدمها أو يستعملها لانتفاعه بأرضه!

لا ينفى ذلك أنه يجب على المالك أن يهتم بأرضه.. سواء زرعها بنفسه أو زرعها غيره مقابل أجرة.. يجب هذا الاهتمام بأفعال إيجابية تشهد بأنه يشعر بمسئوليتها ومسئولية إنتاجيتها لأنها من عناصر الإنتاج القومى الأساسـية.. وملكيتها يجب أن تكون مصحوبة دائما بالإحساس بتلك المسـئولية.. وهـذا يقتضى من المالك ألا ينقطع اتصاله بهـا بالطريق التى يرى أنها كافية مؤدية لهـذا الاتصال.. فهى ليسـت ملكية لمال مودع أو مقرض أو مصدر إيراد اصطلاحى كالسـندات وغيرها مما قد لا يقلق عليه صاحبه مادام الإيراد لا ينقطع أو لا يقل أو يتناقص.. وإنما هى ملكية متميـزة لشـىء فيه حياة لا للمالك وحده وإنما لعمـوم الحياة والناس، ولذلك يجب على مالكها أن يحافـظ علـى حيويتها وإنتاجيتها وأن يزداد ذلك مع الزمن وحسـن الخدمة والتبصر.. وإذا كان همّ المسـتأجر فى العادة هو الحصول على منفعته هو العاجلة مدة عقده مهما أهلك الأرض

أو أضعف خصوبتها، فإن المالك العاقل يهتم بالمنفعة الآجلة للأرض قبل العاجلة، وقد أطمع مستأجرى الأراضى الزراعية طول حيازتهم لما تحت يدهم برغم أنف المالكين وثبات أجرتها ثباتا لا يكاد يتغير برغم تغير الأوقات وارتفاع أسعار المحاصيل وشدة تدهور قوة النقود على الشراء!.. وهذا وذاك حرما الملاك من ميزتين أساسيتين هما توقيت الإجارة وإمكان زيادة الأجرة مما أدى إلى فقدان التوازن بين مركز المالك ومركز المستأجر، فصار المالك مجردا من الحماية أو يكاد، وصار المستأجر متخما بالحماية تسانده الدولة بقوانينها وسلطاتها.. ولم يعد فى مقدور المالك إلاّ أن يحتال بحيل معظمها غير مجدٍ للخلاص من هذين القيدين الثقيلين.. ولم يعد المستأجر يصبر عن طلب الاعتراف به كمالك قانونى لما تحت يده من أرض بعدما باتت فى يده سنوات طويلة، صارت بها فى نظره فى حكم المملوك له.. ولأولاده من بعده! وإذا أراد المالك أن يبيعها باعها والمستأجر عليها بالبخس وإلاّ قاسمه المستأجر ثمنها فأخذ نصفه ما لم يطمع المستأجر فى المزيد!

هذا ولم يعد الآدميون يستقبحون أو يجدون أى غضاضة فى أن تتحول الحيازة إلى استيلاء، ولا فى أن يتحول الاستيلاء على المال بغير حق بمرور الزمن إلى ملكية.. لأن الأساس الأصلى للملكية فى أذهانهم لا يزال للغلبة التى يدل عليها طول مدة وجود الشىء فى وضع يد حائزه الفعلى وعدم مقاومته فى هذه الغلبة التى انتقلت من الأفراد إلى الجماعات، ومن الجماعات إلى الحكومات، ومنها إلى الدول التى صار كبيرها يستبيح صغيرها ويعتبر الغلبة حقا لا يقاوم للأقوياء!.

هذا المثال، يردنا إلى الظاهرة العامة التى بها بدأنا.. نضوب الإحساس بالعدل والاقتناع بقيمته المطلقة، سواء لدى الأفراد أو الجماعات أو الحكومات أو الدول .. هذه الآفة آفة ظاهرة صارت قاسما مشتركا فى الكثير من التصرفات والأفعال، والخلافات والصراعات، ولم يعد باستطاعة وسيلة دنيوية أن ترد الناس الذين انفلت عيارهم إلى القصد والاعتدال!

وسط هذه العتامة المظلمة، تغدو واحة العدل الإسلامية هى الخيط والحبل، وهى الأمل والغاية جميعًا.. إقامة العدل فى الإسلام، ليست فضيلة مطلوبة وكفى، وإنما هى إقامة للحياة ذاتها على أسس آمنة، منصفة وحكيمة، تستقيم عليها حياة الناس فى طمأنينة وأمان وسلام!.

فى الدوحة الإسلامية، يعرف المسلم أن «العدل» من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته.. ويعرف أن عدله سبحانه وتعالى مطلق، وعدلنا - إن كان - نسبى!..وبالعدل أنزل سبحانه كتبه ورسله وشريعته لإقامة الحق والقسط.. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿٢٥﴾﴾ (الحديد ٢٥).. العدل ركن ركين من شريعة الإسلام، ودعامة رسالته إلى العالمين، وبه أمر تبارك وتعالى نبيه المصطفى ﷺ: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴿١٥﴾﴾(الشورى ١٥).. وفى الحديث القدسى: «ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا.. فلا تظالموا».. لا يحول شىء مهما كان فى وجوب العدل.. ففى القرآن المجيد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة ٨).

جبل الناس على كراهة الحق والعدل، فينبه القرآن المجيد إلى ذلك: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الزخرف ٧٨).. وفى سورة «المؤمنون»: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (المؤمنون ٧٠)..أرسل سبحانه - رسوله المصطفى ليهدى الناس بالحق إلى الحق: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ (الصف ٩).. يبلغهم رسالة ربه بأنه عز وجل يأمر بالعدل والإحسان: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴿٩٠﴾﴾ (النحل ٩٠).. المسلم مأمور فى شريعته السمحة بالعدل والقسط والإنصاف، ولو على نفسه.. فى الحديث الشريف: «لو أنصف المتقاضى لاستراح القاضى».. وفى الذكر الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ (النساء ١٣٥).

من آفات الآدمى أن يخبو فيه الالتفات إلى الحق والصواب، وقد يطمع فى الإفلات من الجزاء.. فيقول له القرآن الحكيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ

﴿٤٣﴾ (إبراهيم ٤٢، ٤٣).. هؤلاء يتوعدهم القرآن المجيد، ويذكرهم: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الفرقان ٢٧).. وفى سورة غافر ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (غافر٥٢).

من جمال وحكمة شرعة القرآن، أن جعلت العدل عملا وغاية، ومن عزم الأمور الذى تجمل فيه سجايا وأخلاق وشمائل الإسلام.. هو رسالة الأنبياء، وواجب الحكام والولاة، وأمانة فى عنق الرعاة.. يقول عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴿٥٨﴾ ﴾ (النساء ٥٨).

إن الله تبارك وتعالى، واسمه العدل، قد جعل إقامة العدل قانونا عاما لصلاح الحياة والأحياء.. من يتتبع منظومة العدل فى الإسلام يجدها شاملة راعية لصوره فى كل مجال، كافية وبها دفع كل أسباب وأشكال الظلم، والتضييق عليه، وتجفيف منابعه!.. فى صدق التعامل وشجب الغش والتطفيف: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ (الرحمن ٩).. ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (المطففين ١-٣).. مال اليتيم أمانة لا تمس: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (الأنعام١٥٢).. والوفاء بالعهد من خصال الإيمان وصفات المؤمنين الذين هم: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المؤمنون ٨).. مأمورون بذلك فى القرآن المجيد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴿١﴾ ﴾ (المائدة ١)..

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (الإسراء٣٤).

حيثما نظر الناظر فى دوحة الإسلام، يجد سجية العدل حاضرة واضحة، ليست محض حلية أو شعار، وإنما غاية مرعية أحاطها الإسلام بعناية شاملة، تدرأ عن الإنسان نوازع الشر، وتدعوه محبا إلى الخير والتزام مبادئ الحق والعدل والإنصاف.

هل الإسلام كفيل بسياسة العدل؟

هذا السؤال عنوان لأحد فصول كتاب السياسة الشرعية فى الشئون الدستورية والخارجية والمالية، لأستاذنا الجليل الراحل الشيخ عبد الوهاب خلاف، ودرسنا عليه الشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة قبل أن يتوفاه ربه ونحن لما نزل طلابا نطلب العلم فى الكلية، ولكن بقى على مدار الزمان أثرا حيا وصاحب منزلة رفيعة لدى من عرفوه أو زاملوه أو تتلمذوا على يديه.

وفى هذا الكتاب المتميز، يطرح الشيخ عبد الوهاب خلاف هذا السؤال، ليورد أن السياسة العادلة لأية أمة هى تدبير شئونها الداخلية والخارجية بالنظم والقوانين التى تكفل الأمن لأفرادها وجماعاتها والعدل بينهم، وتضمن تحقيق مصالحهم وتمهيد السبيل لرقيهم وتنظيم علاقتهم بغيرهم.

والإسلام كفيل بذلك، لأن أصوله تصلح أن تكون أساسا لهذه الغاية، وبرهان ذلك أمران: أحدهما أن الأصل المصدر العام للإسلام – وهو القرآن المجيد – لم يتعرض – فيما عدا المواريث – لتفصيل الجزئيات، بل نص على الأسس الثابتة والقواعد الكلية التى يبنى عليها تنظيم الشئون العامة. وهذه الأسس العامة تكاد تكون مشتركة بين الأمم، قلما تختلف فيها أمّة عن أمّة أو زمان عن زمان، أما التفصيلات – التى يمكن أن يرد عليها الاختلاف – فقد سكت عنها ليكون فى الاجتهاد سعة تتلمس فيه كل أمّة مصالحها طبقا لظروفها. ففى نظام الحكم لم يفصل القرآن الكريم نظاما محددا يشكل الحكومة، ولا لتنظيم سلطاتها ولا لاختيار ولاة الأمر أو أولى الحل والعقد. وإنما اكتفى بالنص على الأصول والمبادىء والقواعد العامة، أو إن شئت فقل على الدعائم الثابتة التى تقوم ويجب أن تعتمد عليها الحكومة الرشيدة العادلة، فجعل العدل قوام الحكم بعامة، وقيل فى القرآن المجيد: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۝٥٨﴾ (النساء ٥٨)، ونص على أن الشورى مبدأ عام يعين الراعى ويعطى الرعية حقها، فوصف المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم، وورد فى

القرآن الحكيم في وصفهم : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الشورى ٣٨)، والنبي ﷺ مأمور بالشورى ومندوب إليها، فيقول له رب العزة : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران ١٥٩).. وفي حديث رسول القرآن عليه السلام : «ما تشاور قوم قط بينهم إلاّ هداهم الله لأفضل ما يحضرهم».. وفي رواية : «إلا عزم الله لهم بالرشد أو الذى ينفع». أما كيف تكون الشورى، وتفصيلات أدائها، فمتروكة لظروف واجتهادات كل عصر.. لذلك كان المسلمون على الشورى، مع اختلاف شكل البيعة في كل مرة، في ولاية أبي بكر ثم ولاية عمر ثم عثمان ثم الإمام علي. وكذلك في المساواة، فالآية تركت التفصيل إلى وضع الأساس، فقال عز من قائل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحجرات ١٠) وهذا المنهج ملحوظ في كل التفصيلات التي سُكت عنها ليتسع للأمة وضع نظام الحكومة واختيار ولاة الأمور وكفالة الشورى وحسن الأداء بما يلائم أحوال الزمان والمكان ويتفق مع المصالح في غير تجاوز لحدود العدل والشورى والمساواة.

وفي غير جرائم القصاص أو الحدود في شأن من يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض والمجتمع فسادا، أو يقتلون النفس التي حرم الله بغير حق، فإن شريعة القرآن لم تحدد لسائر الجرائم الأخرى عقوبات محددة، وتركت تقدير عقوباتها بما يراه ولاة الأمر والجماعة كفيلا بحفظ الأمن وردع المجرم وتجفيف منابع الإجرام وتحقيق الردع بمعناه العام والخاص، حالة كون هذه التقديرات تختلف باختلاف البيئات والأمم والأماكن والأزمان، وذلك دون إغفال مبدأ عام يتعين الالتزام به هو أن يكون العقاب على قدر الخطأ أو الجرم، فقال عز من قائل: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (النحل ١٢٦)، وقال: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (البقرة ١٩٤)، وذلك دون إغفال اعتبارات الرحمة والصفح والغفران، من مثل : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ (البقرة ١٧٨)، ومثل: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ

فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الشورى ٤٠)، ومثل: ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (التغابن ١٤).

وفى المعاملات، نصت شريعة الإسلام على إباحة ما يقتضيه تبادل الحاجات ودفع الضرورات، فأحلت البيع والإجارة والرهن وغيرها من عقود المعاملات، وأشارت إلى الأسس العامة التى يتعين الالتزام بها، فلا ربا ولا تطفيف ولا أكل للأموال بالباطل، فقيل فى القرآن المجيد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ (النساء ٢٩)، وعنى بالنص على منع المعاملات التى تؤدى للعداوات والبغضاء، مثل الربا والميسر، ثم فرض للمجتمع ضرائب على أموال ذوى المال واليسار وعلى رءوس بعض الأنفس، ووجه حصيلتها فى مصارف ثمانية تتغيّا سد نفقات المنافع العامة.ومعونة الفقراء والمعوزين.

كنت أحب - لولا ضيق المجال - أن أحدثك عن معالم أخرى عديدة حقق بها الإسلام كفالة العدل للمجتمع، والضوابط بين الحاكم والحكومة والمحكومين، واستقامة تسيير شئون المجتمع، ولكنك تستطيع أن ترى وتلمس فى التاريخ أن المسلمين بقوا بخير وأقبلت عليهم الخيرات، حين التزموا هذه الأسس والمبادئ، وأن الشمس لم تغرب عنهم إلاّ حين تنكروا لها وأعطوها ظهورهم، وأن ترى أنه قد صار علينا فرض عين وفرض كفاية أن نتقدم إلى الإسلام.

○○○

الإسلام دين حياة
لا يحتقر الحياة ولا يزدريها!

يخطئ خطأ كبيرا، من يظن أن الإسلام دين أموات، معنىّ فقط بالآخرة. ولا عناية له بالحياة والأحياء إلا بقدر التمهيد للآخرة.. فالإسلام دين حياة وأحياء، لا يزهد في الحياة على هذه الأرض، ولا يحتقرها أو يزدريها..الإسلام دين حياة، نزل تكريما ورعاية للحياة والأحياء.. هو دين حياة لأحياء، لا يزهد فى الحياة على هذه الأرض، ولا يحتقرها أو يزدريها.. أخبر سبحانه وتعالى فى قرآنه المجيد أنه عز وجل قد خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أكثر عملا، فقال عز من قائل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ (الملك ١، ٢).. خطاب الآية الكريمة موجه إلى الإنسان، الذى كرمه الله سبحانه وتعالى واستخلفه فى الأرض وجعل إليه عمارة الحياة.. يقول فى محكم التنزيل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾(الإسراء ٧٠، ٧١).

إن قيمة ومنزلة المسلم، مستمدة أصلا من الحياة.. فحياته على الأرض هى المحك الحقيقى لميزانه.. اكتتاب الإنسان لآخرته، إنما يجرى فى حياته الدنيا.. الحياة هى المجال الوحيد لاكتتاب الآدمى، على قدر سعيه وسلوكه وعطائه والتزامه الخيرات فى دنياه، على قدر ما يكتتب بها فى آخرته.. لا مجال فى الآخرة للاكتتاب، فالإنسان يكتتب فى الحياة بما يسعه مخيرا فى سعيه بين الخير والشر، وبين المعروف والمنكر، على قدر اختياره وسلوكه فى دنياه، يكون حسابه فى أخراه.. الآخرة دار حساب لا دار امتحان.. الامتحان الذى يواجهه الإنسان هو فى هذه الحياة التى يحمل فيها أمانته باختياره.. هذه الأمانة التى قال فيها الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ

﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب ٧٢).. فى هذه الحياة الدنيا معقد رجاء الآدمى والاختبار الأساسى لمدى إدراكه لنعمة الحياة التى أنعم بها عليه الخالق البارىء عز وجل إنعاما مجانيا لم يتقاض عنه سبحانه أجرا ولا مقابلا.. حياة الإنسان على هذه الأرض هى المحك والاختبار الأساسى لمدى اغتنامه من عدمه الفرصة الموهوبة له فى الدنيا فى تنمية عقله وملكاته وروحه، وجنى الرصيد الذى توزن به حياته وأعماله.. إن قيمة الحياة تكمن فى قدرة الآدمى على السعى والاجتهاد وجزيل البذل والعطاء فيها، وعلى اختيار الحق والخير والمعروف من بين البدائل المختلفة التى تعرض للإنسان فى رحلته.. هذا الاختيار الرشيد هو أساس التكليف فى الإسلام.. فالإنسان المكلف فى الإسلام هو الإنسان المسئول، القادر بعقله ومداركه على الموازنة والاختيار والمفاضلة الفاهمة الواعية المريدة بين الخير والشر، وهذه القدرة هى المرآة الحقيقية لحياته التى يصنع فيها قدره وينمى رصيده المخزون للآخرة، فبغيرها لا توزن حياته ولا توزن أعماله..هذه الحياة الدنيا هى الفرصة الوحيدة للآدمى لكتابة مصيره فى آخرته.. بعدها ينزل الستار ويتوقف كدح الإنسان الذى كدحه وسعيه الذى سعاه.. ففى الحياة الأخرى لا تقارع ولا امتحان بين الخير والشر.. إن الجنة خير محض.. لا مجال فيها لاختيار أو مفاضلة بين خير وشر، ولا محك تعرض عليه قدرة الآدمى وميوله ورغباته ومآربه وأهواؤه وانعكاساته وأفعاله وردود أفعاله.. لا ميزان يعرض عليه عقله أو روحه.. تساميه أو انحداره، الآدمى فى الجنة ميسور الثواب والنعيم بلا جهد ولا مجاهدة ولا عناء ولا مكابدة.

فليس فى الجنة اختيار بين خير وشر، وليس فى الجنة موازنة أو مكابدة أو معاناة مابين الإقدام على هذا أو الإحجام عن ذلك،.. فالجنة دار جزاء ومكافأة صرف، مثلما كل ما فيها خير صرف.. لا صراع فى الجنة بين خير وشر، ولا امتحان للمخلوق بين الخير والشر.. لا انتصار لأحد ولا هزيمة لأحد.. الانتصار – إن كان – قد تحدد وارتسمت خطوطه ومعالمه ونتائجه فى الحياة الدنيا، وكذلك الهزيمة.. لذلك كانت الحياة هى هبة الله تعالى وامتحانه أيضا للأحياء!!..

الجنة هى دار القرار، ونعيم الأبرار.. لا شر فيها، ومن ثم لا امتحان ولا اختيار بين خير وشر.. لا يوجد فى الجنة خيار أو موازنة أو مكابدة أو معاناة ما بين الإقدام على هذا أو الإحجام عن ذلك.. فالجنة دار جزاء ومكافأة وثواب صرف مثلما كل ما فيها خير صرف.. لا صراع ولا تنازع فى الجنة بين خير وشر، ولا امتحان للمخلوق يوازن فيه بين الخير والشر.. لا انتصار لأحد ولا هزيمة لأحد.. انتصار الأبَرار قد اكتتبوا فيه وحققوه وارتسمت خطوطه ومعالمه ونتائجه فى الحياة الدنيا، على نقيضهم من فارقوا البرّ والمعروف فباءوا بالخسران!.. لذلك كانت الحياة هى هبة الله تعالى وامتحانه أيضا للأحياء!!..

المسلم السوى يعلم أن عطاءه على الأرض هو معراجه إلى السماء.. بحياته على أديمها تتحدد صفحته ومنزلته.. كل خط يخطه فيها هو رصيده الحقيقى يوم يقوم الأشهاد.. فلا أمل له فى حسن الثواب والنعيم إلاّ بما خطه فى حياته الدنيا ونجح أو أخفق فى تسطيره فى صفحته على ما أمره ربه سبحانه وتعالى.. لن يغنيه يوم الحساب لقب ولا مال ولا جاه ولا سلطان.. وإنما هذه الصفحة التى خطها فى إخلاص واستقامة ومعرفة حقه وتواضع وعرفان بحق الله تعالى وحقوق الناس.. فالحياة فى نظر الإسلام أثمن نعم الله جلت حكمته، وهى لذلك شيء غال يجب على المسلم السوى أن يحفظه وألا يهدره أو يفرط فيه!!

هذه الحياة الغالية هى صك الآدمى وكتابه، هى الامتحان الحقيقى، وصفحته التى يسطرها فيها هى المعبر وجواز المرور إلى ما وعد به القرآن المجيد الذى يقول:
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (فصلت ٣٠ - ٣٢).

هذه الحياة الغالية هى صك الآدمى وكتابه، هى الامتحان الحقيقى، وهى المعبر الحقيقى، لكل ما يتمناه المسلم السوى الذى قال ربه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ (الملك ١-٢).

يلحظ المطالع للقرآن الكريم أنه قد قرن كثيرا فى آياته بين الحياة والموت.. وبين الدنيا والآخرة، وأورد أن الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة وتفاخر ومتاع الغرور، وأن الآخرة خير وأبقي.. بل هى الحياة لمن يعرفون.. فى القرآن المجيد: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (العنكبوت ٦٤)... سعى الإنسان واكتتابه فى الدنيا لا يجيز أن يستحبها أو يؤثرها على الآخرة، ولا أن تغره الدنيا أو يغره بالله الغرور.. فمن كان يريد حرث الدنيا يؤته الله منها ولكن ما له فى الآخرة من نصيب.. هذه المقارنة لا تعنى تحقير الحياة والإزراء بها، وإنما تتغيا فى حكمة بالغة لفت نظر الآدمى إلى القيمة الحقيقية للحياة.. وإلى اتخاذها سبيلا جادا صادقا للآخرة التى هى دار القرار، وخير وأبقى.. والحياة لا تكون سبيلا نافعا للآخرة، ولحسن المآب فيها – مالم تكن حياة أمينة جادة صادقة فاعلة معطاءة.. لا يفقد فيها الآدمى حبله المتين بالله عز وجل..

أرادنا القرآن المجيد ألاّ نتخذ من الدنيا متاعا ولهوا ولعبا وزينة وتفاخرا وغرورا.. ألاّ يطمس سعينا فيها على القيم العليا لمنهاج الحياة الجادة الرصينة والتى إليها حُسن المآب فى الآخرة.. ألاّ يغرنا بالله الغرور فنضحى بالخالد الباقى طلبا لأعراض ومتع الدنيا الزائلة.. أن ندرك بذلك أن الحياة هى نعمة كبرى.. وهى نعمة لأنها ابتلاء وامتحان حقيقى للمسلم السوى ليحسن مآبه فى الآخرة..فغلو وقيمة الحياة فى الإسلام ليس لأنها فرصة للهو واللعب والتباهى والتفاخر والعبثية.. فالإسلام لا يطلب الحياة للحياة، ولا تتساوى فيه كل حياة مع أى حياة.. الإسلام لا يحفل ولا يعتنى بالحياة العدمية التافهة الخالية من المعنى الجامع، التى تستغرق الآدمى فيها الشواغل الذاتية التافهة والمآرب الشخصية المحصورة فى النظر الضيق للسباق والرغائب والمطالب والجنس والمال والأبهة والسلطان والتميز والتفرد.. هذه الصورة للحياة هى والعدم سواء.. لا قيمة لها فى الإسلام، وليست مقصد الحق سبحانه وتعالى الذى خلق الموت والحياة ليبتلينا ويختبرنا أينا أحسن عملا..

الصورة الإسلامية للحياة لا توجد إلا مع وجود المعنى الجامع، وهو الله عز وجل.. والولاء لله عز وجل، فحين يتعلق الآدمى بربه، ويتجه إليه، ويستحضره فى حركته

وسكونه.. فى سعيه وعطائه.. فى فكره وتدبره.. تسرى روح الله بهذا المعنى الجامع فى حياة الإنسان فى كلياتها وجزئياتها.. ومن البداية للنهاية.. فحياة المسلم السوى تبدأ من الله تعالى وتنتهى إليه، لذلك لايحار المسلم السوى قط بحياته.. ولا يعتريه قط أى إحساس بالخواء أو التفاهة أو قلة جدوى حياته مثلما يشعر كثير من أبناء هذا الزمان فى الحضارات التى طغت عليها المادية!.. بدون القيم والمعنى الجامع يفقد الآدمى البوصلة والسقف ويغشاه الإحساس بالعدمية واللا جدوى!!

هذه القيمة الحقيقية والجادة للحياة فى الإسلام، تتوارى بغير قصد فى خطاب الدعوة الإسلامى حين ينصب فقط فى الموت والقبر ويحقر الحياة ويلتفت عن قيمة «الحياة» الجادة الغالية التى هى الأساس فى الإسلام ومعراج المسلم السوى إلى السماء وإلى الحياة الأخرى.

حقيق بالمسلم أن يلتفت إلى معنى وقيمة وجدوى وغلو الحياة.. أن يدرك أنها الفرصة والاختبار والمحك الحقيقى لوجود ذاته.. أن انتماءه للمعنى الجامع وهو الله عز وجل مرهون بقدر عطائه وإخلاص نيته واستقامة عمله والتزامه بكل القيم السامية النبيلة التى رسمها الإسلام للحياة والأحياء.. مهم للمسلم أن يعرف أنه حين تقوم القيامة وينزل الستار، فلن يكون فى جعبته ما يتقدم به سوى كتابه هذا.. مقدار ما استطاع أن يسطره فى هذه الحياة لتثقل به أو تخف موازينه.. وصدق عز من قائل:
﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي
عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ
الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الحاقة ١٩-٢٩)

هل نتطامن إلى الخالق عز وجل ونفهم الحياة؟

هل عواطفنا ومشاعرنا وأفكارنا وأفعالنا وتروكنا وجميع ما نسنده لأنفسنا هو حقيقة فـى بدايتـه ونهايته وتوسـطه من ثمار ذواتنا نحـن؟ أم هو مع ذواتنـا منحةِ صْرف مُعطـاة لنـا مع الحياة وضمنها من سـاعة وجودنا فى هذه الدنيـا؟! إذ لم نكن قبل ذلك موجوديـن على أى وجـه لا ماديـا ولا معنويا.. لا حقيقة ولا مشـروعا ولا أملا، وإذا كان ذلك منحة من جهة أخرى سـوانا فلماذا نتجاهلها أغلب الوقت؟.. هل نحن بالفطـرة والغريـزة نخفى أو نتجاهل هذه الحقيقة لتكـون أقدامنا فى الحياة أكثر ثباتا وليكون تمسـكنا بها أشد توثقا وذلك بفضل الشعور بالذات المتأصل لدى كل منا.. هذا الشـعور الطاغى الذى يلابس ويلازم كل ما نأتيه أو نتـركـه.. عن قصد أو غير قصد.. بوعى أو بلا وعى؟ إن هذا إن صح – يجعل إحساسنا بهذه الحقيقة ضعيفا مهزوزا يبدو لخيالنا مصطنعـا متكلفـا.. معرضا للنسيـان أو للشك والاسترابة وعدم الإيمان، ويجعل تصورنـا لعمليـة ومهمة الخلق – تصورا مشوشـا فيه إبهام شـديد، لا يجذب التفاتنا واهتمامنـا، ويجعل أغلبنا فى حاجة دائمـة إلى ما يذكرنا بهذه الحقيقة.. وهى حاجة يزاحمها بل يسـد طريقها – انصرافنا إلى العناية بالذات ومشاغلها ومطالبها ومخاوفها وآمالها وأمانيها!!

وربما كان ذلك من دواعى ظاهرة وجود الأنبياء والرسـل ورسالاتهم التى لم تنقطع قط فى مجتمعات الآدميين.. وذلك على درجات مختلفة من الذيوع والانتشار بحسب ظروف كل رسـالة ومجتمع.. علما بأن كل رسـالة تكون عادة قوية فتية مصرة مصممة فى أصلها وحماسـة جدتها، ثم تسـترخى مع النجاح ومرور السنين، ويزايلها معظم حماسـها، وتسـتعيد ذواتنا عندئذ معظم سلطانها على سـلوك أغلب البشر، ويمسى هذا السـلوك فى احتياج يزداد باسـتمرار إلى ما يذكره أو يعيـد تذكيره بتلك الحقيقة الكبرى!

ذلك أن آثار الرسالات كلها مرتبطة بالبشر، وجماعات البشر، وكل هذه الآثار نسبية وقتية تتناقص باطراد مع تعاقب الأجيال - تتناقص من جهة القوة الروحية الدافعة بحكم ابتعادها زمانا عن مصدر الرسالة وتكدس وتراكم مخلفات الماضين الغابرين - دون تصفية وتنقية - أمام من جاءوا بعدهم، وقلة احتفال هؤلاء بالدقة وضآلة جرأتهم فى الحق وكثرة ميلهم لتفضيل السلامة فى أعين الغير - وإيثار الارياح غير المجهد، بالتسليم بصحة ما خلفه الآباء، لمجرد أنهم آباء!

ثم إن الرسالات كلها دعوات موجهة إلى جماعات من البشر بلا تفريق.. تستأنس بالسابق القديم والتذكير به لتوكيد صحة الجديد الذى تدعو إليه.. ويبدو أن هذا لا غنى عنه لإقناع سواد الناس بصحة العقيدة الجديدة، وإفساح الفرصة أمامها لتتمكن من قلوبهم وعقولهم.. حسب ما يسمح به مألوفهم وعاداتهم الفكرية والنفسية.

هذا الصلح عمل بشرى اعتاد عليه البشر كوسيلة نافعة لربط حاضرهم بماضيهم وللمزج المؤنس المهِّد بين ما خلفه الماضى مما يبدو أنه لائق بصفة عامة للبقاء والقبول، مع ما أظهره وكشفه الحاضر مما صح أو صلح وصار أولى من القديم بالتقديم. لكنه تقديم بلا محو ولا إبطال لأنه لا يؤثر على صحة القديم فى زمنه قبل لزوم الجديد .

ورسالات الأنبياء ليست من صنعهم، لأنهم أنبياء مبعوثون بمهمة، وليسوا مؤلفين ولا فلاسفة ولا حكماء ولا شعراء.. بمعنى أن رسالاتهم ليست من نتاج وحصيلة ذواتهم وعقولهم ومواهبهم كبقية البشر فيما يحسنون، وإنما هى أحوال مفاجئة تفاجئهم وليس فى إمكانهم ردها أو إهمالها أو تجاهلها.. مصدرها جهة عليا خيّرة جدا ليس فى إمكانهم رؤيتها، وإنما يملؤهم الإيمان بها والاعتماد عليها.. يعنيها هداية البشر على هذه الأرض أولا وفى الدرجة الأولى.. ولذا كانت رسالات الأنبياء وصايا وأصول وقواعد وإرشادات وتوجيهات للآدميين ليطبقوها ويتبعوها كل منهم فى الأجل المتاح له فى هذه الدنيا.. مصحوبة بغرض الإقناع والاقتناع بأخبار وأحداث ووقائع تناقلتها الجماعات البشرية عبر الأجيال، وبوعود سارة أبدية لمن يهتدى، ووعيد بأذى مخيف دائم لمن لا يهتدى. ومصداقية

رسالة النبى – أى نبى – تتركز أولا فى عمق إيمانه هو بها، وإصراره على إبلاغها، ثم على مبلغ نجاحه فى دخول الآدميين فيها وإيمانهم بها وبه.. على قدر طاقتهم بصفة عامة وطاقة كل منهم بصفة خاصة.. وهذا معمعان يزدحم بآلاف العوامل والاعتبارات التى تحرك البشر وتسوقهم، ومن أهمها ولادة الإنسان فى محيط يدين بعقيدة معينة، وإحاطته بالجو الإيحائى التلقينى المختلط بالأساطير الذى يسود الطفولة والصغر على أيدى النساء والأتباع الذى يترخص فيه الرجال.

رسالات الأنبياء ليست من صنعهم لا فى يقينهم ولا فى يقين أتباعهم.. مصدرها الرب أو من عند الرب أو كلام الرب ولكنه كلام مصوغ للمخاطبين بلغة هذه الأمة أو الجماعة أو تلك، ويلتزم كلامها قانون وأساليب هذه اللغة فى التعبير الذى يتبعه أهلها، كما تلتزم حياة البشر ومشاكلها ومناهجها فى ماضيها وحاضرها.

فهذه الرسالات عند معتنقيها هى أحاديث الرب.. موجهة لجماعات بلغة الجماعة، مقصورة على نواح من الماضى والحاضر والمستقبل.. تستهدف غرضا رئيسيا مهما هو هداية الأفراد إلى الاستقامة فى وجودهم على هذه الأرض! أما ما تتناوله رسالات الأنبياء من الغيبيات كنشأة الكون ونهايته والبعث والنشور فهو مجرد فرع لتزكية وتوكيد هذا الغرض الرئيسى، وليس لتوفير المعرفة المحققة بهذه الغيبيات.. لأن توفيرها يقتضى تركيز الالتفات وإتاحة الأدوات والمعدات والأجهزة والوسائل وتهيئة المعارف المتخصصة الدقيقة مما لا تتسع الأجيال العديدة من البشر لبلوغه والوصول إليه مع دوام الإصرار والمواظبة على طلبه والاستعداد له!.

إن رسالات الأنبياء دعوات موجهة ابتداء وانتهاء إلى عموم الناس.. القارئ وغير القارئ، والكاتب وغير الكاتب، لتلبية نداء الاستقامة داخل وخارج الآدمى تحت ظل الرب الذى لا نراه، ولكنه سبحانه يرانا، ولا ندركه بوعينا ولكنه عز وجل يعرفنا تمام المعرفة.. لا يجمعنا به مشابهة، وإنما يجمعنا به أنه جل شأنه خَلَقَنَا وأنعم علينا بنعمة الحياة وما اشتملت عليه، وأننا نتجه إليه – سبحانه – بفضل هذه الحياة، أى بما فى

مقدور المخلوق بالنسبة لخالقه، وبما فى استطاعة الفانى الأقل قِبَلَ الأزلى الأبدى. نغمض أعيننا ونفتح قلوبنا وهذا غاية ما نقوى عليه مما لا يشفى غليلنا، لكنه حدّنا الذى يجب أن نلتزمه إذا أردنا أن نبتعد عن الخيالات والأوهام.

هذا والأنبياء قلة من البشر لم يكد يخلو منهم زمان، لكن نجاح كل منهم نادر جدا.. لأن حساسيتهم شديدة للغاية وتصورهم حاد جدا، ونفورهم من الظلم هائل، ومع قلة إحساسهم أو اهتمامهم بالسعادة لأشخاصهم، فإنهم يهتمون بإسعاد من يعرفون ومن لا يعرفون، وهم لا يبالون بالمشاق التى تصيبهم؛ لأنهم يؤمنون بأنهم مخلوقون للآلام والصعاب المادية والمعنوية التى لا يحتملها غيرهم من الناس، وذلك بحكم مسئوليتهم التى يشعرون شعورا حادا بها، وإدراكهم أنهم مسئولون عن الهداية وتقويم انحراف المنحرفين وفساد الفاسدين وخطايا الخطاة!.

ويخرج كبار الأنبياء من الدنيا بلا احتفال كما دخلوها. ويكون خروجهم منها على نحو فاجع لأهلهم أو شبيه بالفاجع.. ويبدو أن هذا فيه تمهيد للخروج فى أذهان أتباعهم من البشر الذين يتزايدون مع مرور السنين، وتمهيد للابتعاد المطرد عن الآدمية، لكى تستطيع مهمة النبى بعد الموت – أن تواصل التحليق فى السيادة والعصمة غير الإنسانيتين، وهذا اقتراب ومزيد من الاقتراب لدى القلوب – من الرب سبحانه وتعالى اقترابا يشبه الالتصاق، بل يكون نوعا من الاندماج، ويفسح المجال للعبادات والطقوس والمراسم والمواسم. ويعطى هذه الأمور طابعها المميز لها عن سواها إلى آخر الدهر.

وسيادة وعصمة كبار الأنبياء بعد رحيلهم قد فتحت الأبواب لتفخيم حجم المأثور عنهم من الأفعال والأقوال.. وقد اكتتب فى هذا التفخيم كل من أراد.. لأنه مثوب محمود عند أهل الأديان، فضلا عن أنه زيادة خير للملة وسمعتها وليس اعتداء أو هجوما عليها.. وقد أوسع هذا ومثله فى السلطة أو السلطان المفردة أو المفرد للنبى إلى غير نهاية.. مع توالى الإضافات من التأويلات والشرح والبيان من كل جيل أو فى كل جيل.. وهكذا بُنِىَ على أكتاف كل نبى من الأكابر، تراثٌ هائل ضخم لم يكن قد صرح به أو أفصح عنه فى الواقع أو عرفه أوعرف به فعلا.. هذا التراث اختلفت واشتجرت حوله – بناء على ظاهره

أو باطنه – المذاهب وتفرقت الفرق والطوائف.. إذ الغرض الرئيسى الذى استهدفه كبار الأنبياء، وهو ضمان استقامة الإنسان العادى، وفى حياته اليومية العادية، قد ابتعد عنه الناس، ولم يعد يُؤبه له أو يهتم به سواد الناس اهتماما خاصا.. فقد انصرف التفاتهم للدين إلى ما يتيحه لهم من التعصب والانحياز العاطفى وأشكال واشتعال الخصومات والعداوات بشأن أمور وقضايا أضحت بعيدة كل البعد عن واقع هذا العصر ومطالبه، وعن حاجات هذا الواقع الذى يجب على الناس أن يفهموه ويواجهوه، وإلاّ واجههم هو بعنفه وقسوته ولا إنسانيته مرات ومرات في المستقبل القريب كما واجههم فى الماضى القريب والبعيد.. ويبدو أن تعلم البشر عملية معقدة عسيرة معرضة للتآكل والنسيان دائما.. يصعب على العقل مسايرتها وتوقع انتكاساتها وأزماتها.. مهما أعجبنا بذكاء الآدميين الذين ننتسب إليهم.. هؤلاء الذين يزعجنا ويدهشنا بُعد غرورهم وحجم شرودهم وقصر نظرهم قصرا يبلغ بهم حد العمى أحيانا!!

ما أقرب ارتباطنا بأنبيائنا وأقربه وأوثقنا به، وأوهن واعزه علينا وأهونه! وما أزهدنا فى الانصياع والحرص على ضوابط الملة، وأشد تعصبنا لها وحماقتنا بما نتوهم أنه الدفاع الواجب عنها إزاء الهجوم الذى نتخيله عليها! وما أكثف احتشاد الانفعال مع الوهم وسرعة الغضب مع عدم الاتزان وبطء التفكير وارتفاع الأصوات مع ضآلة القصد وهبوط الغرض فيما يتعلق بسلوكنا العقائدى وردود الأفعال المترتبة عليه!

بالقطع لم يتوقع أنبياؤنا أن نكون أو لا نكون على ما نحن عليه الآن، ولا أن نُنْسَب إلى رسالتهم فضلا عن أن نؤتمن عليها.. فنحن أبناء هذا الزمن مفروضون تاريخيا عليهم، وليس فى وسعهم نفى هذه التبعية بأية وسيلة.. وهذا هو تعاقب الأجيال الآدمية الذى يستوجب انفراد الأحياء بما تركه الأموات، وسيطرة الأحياء بلا معقب على آثار السابقين الماضين الغابرين!! فلا تنس أن هذه دنيا أحياء فقط يتركون جميعا كل ما فى أيديهم منها بلا أى استثناء متى تركوها..وليس فيهم من بوسعه ألاّ يترك!.

العاجلة والآجلة ؟!

تجـرى الأقلام والكلمات، والحكم والمواعظ، من مئات السـنين على المقابلة بين الدنيا والآخـرة، ووصف الدنيا بأنها الغرورة الفانية، والآخرة بأنها الحقيقة الباقية.. ونظرا لأن أحبال صبر المتعجلين لاتسـتطيع انتظار الآخرة، فتتعجـل الدنيا وتقع فى حبائلها تطور الخطـاب ليضع الآجلة مقابل العاجلة، على اعتبـار أن الآجلة أقرب من الآخرة، ويمكن أن ترد فى الدنيا. فتعوض الصابر الصبور، المتمسـك بالحبل المتين، عن مكاسب العاجلة التى يمكن أن تكون سـرابا قصاراه أن يذهـب بالمندفع إليها إلى فوات الاثنتين : العاجلة والآجلة، أو إلى زوايا النسيان، أو إلى مزبلة التاريخ !

عـالج القـرآن الحكيـم هذا الـداء، وحذر أشـد التحذير مـن عواقبه، فجاء بسـورة الإسـراء: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الإسـراء ١٨).. وفـى تحذير إلهـى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (يونس ١١).. وتكرر فى القرآن المجيد وصف الإنسـان بهذه الآفة، فجاء بسورة الإسراء : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ (الإسراء ١١) وفى سورة القيامة : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ (القيامة ٢٠ ، ٢١).

وعواقب هذا التعجل الضرير، وردت بالعديد من آيات القرآن الحكيم :

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (الأنعام ١١)

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (الأنعام ١٣٥)

﴿ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (الأعراف ٨٦).

﴿ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (النمل ٦٩).

﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (الحج ٤١).

﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (طه ١٣٢).

﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (القصص ٨٣).
﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (لقمان ٢٢).

على أن الناس لا تسمع أو تسمع ولا تتعظ، وعلى مدار أجيال علق هذا الداء بالآدميين وفى هذا الزمان، زماننا، لم يعد أحد يصبر على طلب العاجلة إيثارا للآجلة وإن كانت أكرم وأفضل وأعظم وأبقى.. يتساقط الرجال وأشباه الرجال كأوراق الخريف طمعا وجريا وراء منصب أو موقع أو ترشيح أو مغنم أو سبوبة، مع أن ذات هذا الزمان الذى نعيش فيه، يرينا كل يوم مآل من تسابقوا وأسرفوا على أنفسهم وكرامتهم وعلى وطنهم وعلى الناس، وماذا صار بهم الحال حين غربت النجومية المصنوعة أو المصطنعة، وانحسرت الأضواء، وأحاط بهم السكّون المطبق بلا مدد يعوضهم بذكريات تبل الخاطر، إلاّ سكاكين الندم والخذلان.. تقطع فى أحشائهم وتبرهن لهم بعد أن فات الأوان، أن الآجلة – لو فهموا وتفطنوا – كانت خيرا لهم وللوطن.. وأبقى!!

لو تأمل المتعجلون المتدافعون إلى العاجلات، لعرفوا أن الكون كله فى صيرورة دائمة.. الأرض والشمس والقمر والكواكب والأفلاك والمجرات، جميعا تدور فى حركة دائبة لا تتوقف.. وهكذا وقائع وظروف الحياة .. لا يبقى ملك فى ملكه، ولا حاكم فى سلطانه، ولا ناعم فى موقعه.. ولعرفوا أن التاريخ وإن بدا فى الحاضر أنه لا يكتب، إلا إنه يخط خطوطه يوما بيوم ولحظة بلحظة، وأن ما استتر أمره أو تحصن بيومه، مآله إلى الانكشاف وفقدان الحصانة باكر.. حين تظهر المخطوطات إلى حيز الوجود بعد تغير الظروف أو زوال الحصانات!.

لو تأمل المتعجلون فى المحاكمات الجنائية الجارية أو الأمور المستورة التى تكشف كل يوم، لأدركوا أن المفضوح الجارى المساءلة عليه الآن كان بالأمس فى طىّ الكتمان محجوبا عن عيون الناس.. ظن حاجبوه أنه فى حرز حصين لن يصل إليه مخلوق، فإذا هو اليوم متداول (على عينك يا تاجر) كما يقولون!!.

ماذا يساوى ما يؤخذ من كرامة الإنسان وشرفه، وماذا يساوى أصحاب العجلة حين تنحسر عنهم الهالات فيبدون للناس، وأمام أنفسهم، بلا شرف ولا كرامة؟!.. وماذا

سوف يجنى من تعجلوا الكسب الحرام، أو فرطوا فى واجب الشرف والصدق والنزاهة، أو باعوا ضمائرهم، أو تاجروا بولائهم، أو طعنوا أوطانهم وناسهم، أو تسابقوا فى مواكب الزيف والضلال والبهتان، وأعطوا ظهورهم للحق ولبلدهم وناسهم، واشتروا العاجلة بالآجلة، فلا العاجلة بقيت ودامت لهم، ولا الآجلة أفسحت لهم أو التفتت إليهم!.

إيثار العاجلة على الآجلة، نازع يحدث فى الحياة الخاصة كما يحدث فى الحياة العامة.. الفارق أن آثاره فى الحياة العامة أكثر اتساعا وأعم ضررا.. ولكنه فى الحالين استسلام لنازع تتراجع أو تنطمر أمامه الرؤية والفطنة والبصيرة، وتضعف أو تتلاشى إرادة الحق والصواب، وتحل محلها إرادة النفع وانتهاز الفرص، والتخلى عن الاتزان والوقار والالتحاف بالمداهنة والرياء والوصولية والنفاق، والاستسلام للرغائب والشهوات، وضمور داخل الآدمى بإسكات ثم موات ضميره، فتتساوى المرئيات، فلا تميز العدسة بين الكمال والنقص، ولا بين الجمال والقبح، ولا بين الحق والباطل.. معيار الرؤية الوحيد يختزل فى ثقب إبرة لا يمر منه إلاّ ما يصادف الهوى ويوافق الأغراض مهما كانت صغيرة أو باطلة!!.

حين تشيع هذه النزعات فى الحياة العامة، لا يقتصر أثرها المدمر على صاحبها، وإنما تنخر فى المجتمع وقيمه وأدائه وطرحه، فيتوارى الحق والجمال والصواب، ويتقدم الباطل والقبح والضلال!

المشاهد الجارية التى أوحت أو استحضرت هذه الكلمات، مشاهد تنشق لها الصدور.. ساد منطق المصانعات، وأسلوب العشائر، وتقدم النفاق وتأخر الإخلاص، وفتحت العاجلات أذرعها وأحضانها للخاملين والبلداء، وضنت على الأكفاء والمجتهدين، فاختلّت البوصلة وتاهت حتى لم يعد بمقدور المخلصين إلاّ أن يمسكوا بجمر النار!

ooo

إلام تقودنا الأطماع ؟!

لا مفـرّ للعاقل من الإقرار بأن أطماعنا تقودنا أكثر مـن أى دافع آخر، والأطماع تعنى ما نشتهيه ونسعى إليه مما نتصور أنه يرضينا فى الحال أو فى المآل. أما ما نشتهيه فقط دون أن نسعى إليه أى سعى فهو أمنية فقط!.

و «الأطماع» فى عمومها أعم بكثير من كلمات الرضا والقربى والذرية والإرث، وكلمات الخـير والعـدل والحلال والحرام والصـدق والحق والرزق والنعم، ومـن كلمات العطايا والمواهب، والاصطفاء والاختيار، والأمان والسـلام، والفـوز والانتصار والتوفيق، والذكر والجاه والسلطة والقوة، والولاء والأحباب والأتباع.

ولم يخـل قلـب لآدمـى ـ حتى ولو كان قديسـا أو وليا أو مقربا – مـن الأطماع فى عمومها.. لأنها فى عمومها لا تتعارض مع إخلاص المخلصين ووفاء الأوفياء وصفاء قلوب سـليمى القلب والسريرة.. فكل منا يطمع فى صحة البدن والعقل.. وكل مؤمن يطمع فى الجنة ومرضاة الله التى تؤهله للمغفرة والمثوبة والإكرام.

والأطمـاع فيها عنصر الاحتمال والاسـتقبال.. حتى ولـو كان موضوعها قد تحقق، مادام العلم بحصوله لم يصل إلى من ينتظره.. كشأن الناجح أو الفائز الذى لم تصله بعد نتيجـة الامتحان التى تقررت ولم تعلن بعـد أو تصل إلى علمه..إذ لا ينقطع الاحتمال والشـك إلاّ بيقين علمه بنتيجة الامتحان أو المسابقة. أما إن كان الموضوع مقطوعا بتحققه أو باستحالته فإن الطمع فيه إما تحصيل حاصل أو حماقة وعبث!.

وغلبـة الأطماع على حياة الآدمى ضرورة فرضتها كثرة الاحتمالات والمجاهيل والغيبيات فـى حياته الفردية والاجتماعيـة.. فهو من لحظة الإخصاب إلى أن يغادر الدنيا يتحسـس طريقه الذى لا يعرفه بيقين.. ويحدس ويخمن ويتأول ويخاطر ويغامر ويقامر ويَخْدع ويُخدع ويسـلم ويستسـلم، ثم ينتهى وهو صفر اليدين أو يكاد.. لا يترك إلاّ آثارا ومأثورات لا تقطع باتجاه واحد ثابت.. ولا تلقن الآخرين سلوكا بعينه يلتفتون إليه وينتفعون به ولا يخالفونه.

أطماع الآدمى لا تعرف منها نهاية بأطماع غيره من الحيوان والنبات.. وربما كان هذا وراء وحدة الاتجاه فى كل جنس ووحدة السلوك فى كل نوع.. ولعله وراء كثرة الأجناس وكثرة الأنواع كثرة هائلة لا يتصور معها إمكان وحدة أو توحيد كما قد يتصور مع الآدميين!.

ويبدو أن كثرة الاحتمالات والغيبيات فى حياة الآدمى، قد حُسِبَ حساب مواجهتها والتعايش معها ضمن تكوين المخ الآدمى والوعى والفهم والذاكرة والمخيلة والعواطف المركبة والمعقدة.

وهذا المخ هو الوحدة الحقيقية للجنس البشرى التى تجمعه لتفرقه وتفرقه لتجمعه هكذا دواليك.. ولا يشاركه فى تلك الخاصية الفذة الهائلة أى مخلوق آخر.. فأطماع الإنسان أيا كان وأيا كان موقعه وعصره ثمار مخه وفهمه.. قابلة لأن يقوّمها أو يفسدها ويضلها مخه وفهمه.. أيا كان زمانه ومكانه وجنسه ولونه ودينه ولغته.

وربما اختصر ترقى الوعى والفهم الكثير من أطماع الآدمى البدائى.. خاصة ما اعتمد منها على فورة الغضب والشبق والجشع.. أو ما اعتمد على فرط الثقة فى جدوى العنف والتيه بالقوة البدنية واستخدامها فى إذلال النساء والأطفال والضعاف وأصحاب العاهات والأغراب.. لكن الترقى زاد برغم هذا فى أطماعنا المتحضرة التى جعلت سلامنا حربا مستورة، وأمننا خوفا وتأمينا، وصحتنا علاجا متواصلا ومكلفا للفرد والدولة، وجعلت الأمومة والأبوة والقربى – أوهاما، وجعلت المحبة والصداقة والوفاء – أحلاما قصيرة الأجل جدا!

ولم يعد لأطماع المتحضر أوالجماعات المتحضرة.. لم يعد لهذه الأطماع حدٌ أو بعدٌ تقف عنده ولو لوقت يسمح بالتقاط الأنفاس والاستعداد.. لم يعد فرض هذا الحد على الناس أوإقناع الناس بالتزامه فى مقدور أى سلطة أو قوة سياسية أو عسكرية أو اجتماعية أو دينية، ولا هو فى مقدور أى مذهب أو مجموعة أو معارف أيا كان حظها من الإصابة أوبعد النظر.. وربما احتاج ذلك إلى تضافر جميع هذه القوى والرؤى والمعارف.. وهو ما يكاد يكون مستحيلا ولو تحقق زمنا أخفق أزمانا.. لأن حياة الآدميين نهر جارٍ عديد الروافد والمنعطفات والمنحدرات.. تتوالى عليه بغير انقطاع رياح التغيير والتطوير والإعاقة.. تارة هادئة، وتارات هادرة عاصفة بلا توقع يسمح

بالاستعداد والمسايرة المحسوبة المتبصرة.. ولذلك كان الآدميون من جميع الأجناس والملل والنحل ولا يزالون يؤمنون بسلطان القضاء والقدر وبأسرار الغيب التى لا يعلمها إلاّ الخالق.. وذلك وتلك بداياتها دائما أطماع بشرية اختيارية تتجاوز نهاياتها الحسابات والمشيئات التى كانت فى البدايات!

والصلة بين الأطماع وبين الحظ وثيقة للغاية.. إذ لا يخلو طمع طامع من افتراض شىء من حسن الظن بالأيام والأحداث، أو على الأقل من افتراض أنه لن يصادف هو بالذات سوء طالع مفاجئ ليس فى استطاعته إبعاده.. لأن من يطمع يفترض دائما أنه قد أقام مطمعه على أسس متينة محكمة، وزودها بما يكفيها من عوامل يرجح معها الفوز.. وهو غالبا ما يبالغ فى التفاؤل قليلا أو كثيرا لشدة شوقه وقوة رغبته فى نيل ما يطمع فيه.. وهو حين يفشل يعزو فى الغالب هذا الفشل للحظ العاثر والمقادير المكتوبة ومعها تدخل الخصوم والحاسدين الذين لا يغفر لهم قط تدخلهم ذلك الذى يزعمه أو يفترض حصوله بدلالة فشله الذى صدمه!!.

من يتأمل ما سلف من اندلاع الأطماع، وما تقود إليه، يلفاها مردودة إلى ضعف الإيمان الذى يسلم الآدمى للقلق ويشعل لديه الرغبة فى الاستحواذ طلبا لما يعتقد أنه سيحقق له الأمان من تقلبات الأيام وصنوف الاحتمالات، وإلى الاشتهاء الذى يدفع الآدمى إلى الاستسلام لغرائزه وشهواته والطمع فيما ليس له، وإلى طلب القوة والجاه والسؤدد والتميز على عباد الله، وإلى الحسد الذى يأكل صاحبه كما تأكل النار الحطب، لأنه دائما حانق ساخط ناظر إلى ما فى يد الغير!!.

ولم يترك الإسلام آفة من هذه الآفات التى تضرب النفوس، إلاّ حذر منها ونفر من عواقبها وأرشد سبل تفاديها وعلاجها.. فالمناقب الإسلامية قائمة على الصدق والقناعة والأمانة والإيثار والوفاء والعدل والإحسان، والعفو والصفح والتواضع، وفى المقابل حذر الإسلام ونفر من الكذب والنفاق والرياء والبخل والكبر والعجب والخيلاء، وهى أبواب تصب فى الحسد وإثارة الأطماع، وهو ما ركز القرآن المجيد والسنة النبوية على شجبه والتحذير منه.. ففى ذم الرياء والحرص على طلب الجاه: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا

﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴿٨٣﴾﴾ (القصص ٨٣) ، وفى الحديث: «حسب امرئ من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه إلاَّ من عصمه الله». «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».. والأخبار كثيرة فى ذم طلب الشهرة وكذلك الرياء، فهو مذموم إذ لابس العبادات أو المعاملات. ففى العبادات : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾﴾ (الماعون ٤-٦).. ولما سئل ﷺ عن الشرك الأصغر، قال: «الرياء. يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جاز العباد بأعمالهم -اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء» وفى حديث آخر: «لا يقبل الله عز وجل عملا فيه ذرة من رياء».

وفى ذم الكبر والعجب والخيلاء، وهى مفاتيح الطمع والحسد، قال تعالى : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿١٤٦﴾﴾ (الأعراف ١٤٦) ، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ (غافر ٣٥). وفى الحديث: «لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار». «لا ينظر الله إلى رجل يجرُّ إزاره بَطَرًا».. «من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه الله».. كذلك الغرور والخيلاء.. ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ (الحديد ٢٣).. وفى ذم الحقد والحسد، والحاقدين والحاسدين: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴿١٢٠﴾﴾ (آل عمران ١٢٠)، وفى الحديث «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».. «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله».. ومن يتابع القرآن والسنة، يجد أنهما تقصيا أسباب الحسد ومداخله، من عداوة وبغضاء وشره وطمع وتكبر وغرور وحذرا منها ومن عواقبها، وأقاما منظومة متكاملة غايتها حماية الإنسان من هوى ومزالق الأطماع، وما تؤدى إليه من فساد النفوس، وتقويض أواصر الجماعة الإنسانية.

التدين بين الصلاة الخاشعة والظاهرة الاجتماعية

الصلاة فى الأديان السماوية، إيمان وذكر وإخبات وتبتل وخشوع.. يقول عز وجل: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ (طه ١٤).. هى صفة من صفات المؤمنين ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ ﴾ (البقرة ٢، ٣).. وبها أمر المؤمنون ونُبهوا إلى أن الخشوع مهجتها وسبيلها: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ﴾ (البقرة ٤٥)... بُشّر المؤمنون بالفلاح لخشوعهم فى الصلاة فجاء فى الذكر الحكيم: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ ﴾ (المؤمنون ١، ٢).. الصلاة ذكر وتبتل وإخبات وخشوع.. هذا الخشوع هو لب الذكر ولب الصلاة.. ففى سورة الحديد: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ١٦ ﴾ (الحديد ١٦).. فالصلاة خطاب ذاكر مخبت خاشع ضارع إلى الله تعالى، يتجه بكله إليه، ولا يستعين إلاّ به.. متوكلا عليه مطمئنا إلى يومه وغده ورزقه: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ ﴾ (الذاريات٢٢).. والله تبارك وتعالى هو الرزاق: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨ ﴾ (الذاريات ٥٨).. وفى سورة هود: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾ (هود ٦).. وتعددت الآيات فى بسط الرزق وتقديره إلى الله تعالى، فقال سبحانه فى كتابه العزيز: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ ﴾ (العنكبوت ٦٠).. ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ ﴾ (العنكبوت ٦٢).. ﴿ فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ ﴾ (العنكبوت ١٧).. المؤمن قنوع يجمل فى الطلب ويعلم من دينه أن نفسا لن تموت إلا وتستوفى رزقها وإن أبطأ.. يدرك المؤمن أن العمل عبادة، وأن عمله وجهده هو واجبه، وأن رزقه بعد ذلك على الله.. ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ

ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الكهف ٢٣، ٢٤).. وهو يؤمن بأنه وقد بذل ما عليه، وتوكل على ربه، فإنه لا يخشى حاجة ولا إملاقا.. ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ (الإسراء ٣١).. هذه المعانى هى الصلاة الذاكرة الخاشعة الضارعة إلى الله مملوءة بنفحات الإيمان التى يطمئن بها المؤمن على يومه وغده.. لا يحمل فى قلبه غلا ولا ضغنا، مهجته وصية الرحيم الغفور: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النور ٢٢).

وفى إنجيل متى الأصحاح السادس (٩ – ١٣): «لِيَتقدَّسْ اسمك! ليأت ملكوتك! لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض! خبزنا كفافنا. أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا فى تجربة، ولكن نجنا من الشرير».. هذه العبارات صلاة يخاطب بها المخلوق خالقه يدعوه أولا أن يسود سلطانه هنا وأن يتبع الناس هداه على الأرض كما يتبعه أهل السماء، وأن يقنع الناس بخبز اليوم فقط، وأن يغفر الله ذنوبهم كما يغفرون هم ذنوب من يسيء إليهم، وأن لا يمتحنهم لأنهم أضعف من امتحانه وتجربته لهم. صلاة فيها تسليم شديد للخالق وشوق أكثر شدة للاستقامة ونفور يبلغ حد التبرؤ من التطاول والكبر، واكتفاء بأدنى حد ضرورى ليعيش المخلوق يومه فى سلام.. علما بأنَّ ما جاوز ذلك الحد الضرورى محنة يمتحنه بها الخالق وهو يسأله أن يجنبه إياها وما يصحبها من المحن.. هذه المحن التى لا حد لها التى تأتى حين يلتفت المخلوق إلى إمتاع ذاته والاستجابة إلى ما يرضيها بالسعى لكفالة غدها وضمان مستقبلها على حساب الآخرين!.. وهو ما اعتاد الناس عليه منذ آدم وأوغلوا فيه وتقاتلوا عليه وأفنى بعضهم بعضا من أجله وباتت عبادة الذات سائدة فى كل عصر وجماعة لا يقهرها إلا العقوبة العاجلة أو الخوف البالغ من التعجيل بها!

ولا عجب فالذات حاضرة لاصقة قريبة فى وعى الآدمى ونومه.. فى طفولته وشيخوخته.. ولعبه وجده.. وصحته ومرضه.. وسلمه وحربه.. ودينه ودنياه. لا تفارقه إلا إذا فارق

حياته.. فالصلاة إذا أخلص الآدمي في الاتجاه بها إلى الخالق عز وجل وانتوى بها طلب المعونة من الله، ورضى لذاته بالحد الأدنى لطعام يومه فقط رضاء قويا عميقا لا مداهنة فيه ولا افتعال، ونفض كل ما نسميه مطالب المنزلة والكرامة والمكانة الدائرة حول الذات.. إذا كان ذلك أمكنه أن يرفع رأسه حقيقة إلى السماء ويقلب عينيه في الوجود الباهر، وأن يتعامل تعاملا عاقلا فاهما مع الكون.. لأن تيار المعاني الكونية عندئذ يتخلل من كل اتجاه ويزداد تخلله له باطراد لا يفتر ولا ينقطع. ربما كانت هذه هي حالة الأنبياء والقديسين في كل دين وعصر ومجتمع.. ولكن يستحيل أن تصبح في أي مستقبل معقول حال الناس أو حال العلماء أو حال الفضلاء أو الصالحين.. لأننا لا نقوى على الإيمان العميق بالخالق لأكثر من ثانية.. مرة في الأسبوع أو كل مرة في الشهر أو كل مرة في السنة.. ومعظمنا لا يقوى على هذا الإيمان مرة في العمر!.

إننا نفضل الألفاظ والعبارات فقط ونفضل عمومها وعدم اعتمادها على موازين أو مقاييس باستعمال الناس لها.. صرنا نعتبر أنفسنا مسلمين أو نصارى أو يهودا أو بوذيين – حسب البيئة التي ننتمي إليها بالميلاد في الأغلب الأعم، ونعتبر أنفسنا مؤمنين بالمعبود الذي تتعبده بيئتنا، ونردد أسماءه وصفاته وفق المألوف المعتاد في المناسبات التي جرت العادة بترديد أسمائه وصفاته فيها – تسليما من جانبنا لهذا الانتماء الذي تحيط بنا شواهده ولوازمه المادية والعاطفية والفكرية في كل أوقات صحونا ونومنا. فمعبودنا الفعلي يكاد أن يكون دائما هو مجتمعنا الذي نحن منه وإليه ابتداء وانتهاءً.. وعبارات التنزيه أو التقديس المألوفة بيننا تعود فعلا وعملا لمجتمعنا لتحجب عنا – في الخيال والوهم – ما يشهده كل منّا من نواقصه وعيوبه وشروره.. ولتعيننا على الرضاء بالعيش في إطاره والتعلق بالانتساب إليه. ولتوقد باستمرار غيرتنا على بقائه وبقائنا فيه كائنا ما كان. هذا الالتصاق الغريزي بالمجتمع وراء تدين جماعات الناس بأديانها ومللها ونحلها ووراء انتشار الأديان والملل والنحل في الجماعات البشرية ووراء تباين الصور المختلفة التي يتخذها دين كان في الأصل دينا ذاتيا لجماعة واحدة بعينها في الجماعات متباينة الأعراق والبيئات.. وهذا الالتصاق بالمجتمع هو وراء تغير الدين بتغير المجتمع تغيرا أساسيا غَـيَّر آماله القريبة

والبعيدة على السواء. وهو أيضا وراء انصراف المجتمع عن الدين وإهماله إياه وعدم مبالاته به نتيجة فقده الثقة فى فائدته فقدا كليا عاما.. وكل ذلك عليه أمثلة فى تواريخ الشعوب والجماعات البشرية.. ولا يذكرها أهل الأديان إبان تعلقهم بالدين أو الملة.. لأنه تعلق غريزى كما قلنا يصعب مناقشته حال وجوده ويتعذر رد صاحبه – عند خضوعه لسلطانه– إلى التذكر والتأمل والتعقل وما يبعد به الآدمى الفرد عن نفوذ جماعته.. فالتدين كظاهرة فردية فى إنسان بعينه موهبة قد تكون قوية منذ الصغر، وقد تنمو مع نمو العقل والنفس والقدرة على التأمل والمقارنة والنظر، وقد يزيد نموها إلى حد الإفاضة على كل من يتصل بها.. وربما كان هذا هو الأصل فى كل صور التدين الجماعى.

أما التدين كظاهرة اجتماعية فهو امتصاص مجتمع معين لدين معين امتصاصا يصبح به هذا الدين من مقومات هذا المجتمع.. وهذا الامتصاص لا يحتاج إلى توافر موهبة لدى المعتنقين – بل يكفى فيه التقليد الإرادى واللا إرادى ورضاء المقلدين عن تقليد بعضهم لبعض وعن نجاحهم فى التقليد وأفضلية حالهم بعده عما كانت عليه قبله.. فليس فى بنية هذا النوع من التدين إلا ما هو مستعار من الجماعة التى تدين به أو نجاح هذه الجماعة وتاريخها إجمالا أى فى هزائمها وانتصاراتها وتشريدها وانتشارها.

وفى الجماعات التى تنتمى إلى دين أو ملة معينة – يغلب التدين إذا غلب –كظاهرة اجتماعية فقط. قوامها تقليد الكثرة وتمسك هذه الكثرة بتقليدها أو بتقاليدها.. ولا يكاد يلاحظ فيها التدين كموهبة فردية فى إنسان بعينه.. لأن الأغلبية الغالبة تفرض رؤيتها عن طريق أئمتها وأحبارها وعلمائها وكهنتها. فلا يكاد يُسمع فى هذا الجو المسيطر صوت لموهبة أو نداء لعقل تأمل أو قارن أو نظر إلى ما هو أبعد أو أعمق من رؤى المجتمع المتدين والمتحدثين باسم هذا المجتمع.

وفى الأزمات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية يُستعمل الرؤساء الدينيون إما فى محاولات التهدئة أو فى محاولات الإهاجة والإثارة.. ويتنازعون علانية فيما بينهم أو يجتذبون إلى جانب كل فريق فريقا من عامة الناس انحازوا لهم فى حقهم وباطلهم متأثرين بكيفية إحساسهم بالأزمة، فينعكس على الجدال أو العراك العام لون دينى

تثار فيه قضايا دينية قديمة كانت قد نامت من قرون.. وذلك بطبيعة أن الدين كظاهرة اجتماعية هو تعلق بماضٍ غالٍ على الناس.. لا يتغير مع تغير الأحوال فى المستقبل القريب أو البعيد.

وقد كان هذا الاتجاه إلى الماضى لا غبار عليه فى الجماعات البشرية إلى القرن الثامن عشر فى أوروبا، وظل لا غبار عليه فى الشرقين الأدنى والأقصى إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، وبدأ الاتجاه إلى المستقبل الذى انتشر فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية يسرى إلى بقية أجزاء العالم كخطى سريعة أو بطيئة على قدر حظ كل جزء من اليقظة والاجتهاد والمثابرة والإصرار على المنافسة فى الزيادة من العلوم والمعرفة والتطور والتفوق فى ذلك. فأدى ذلك بالأديان المعروفة المعترف بها إلى مأزق لم تعرف له سابقة.. هو افتراق الحاضر عن الماضى افتراقا شاسعا لا سبيل إلى أن تعيش الجماعة دون التسليم به والاعتراف بضرورياته ولوازمه ومقرراته.. ودون أن تهيئ نفسها لمقابلة ومواجهة اتساع الفارق المستمر بشكل أكثر عنفا فى مستقبل قريب جدا نظرا للسرعة الهائلة فى التطور التكنولوجى والتقدم العلمى المبنى عليه أو الباعث له.

هذا التطور العالمى الهائل أبرز ويبرز ويستمر فى إبراز مسئولية الإنسان كفرد.. ومسئوليته – كفرد ضمن مجموع – لا عن ماضيه فقط، بل وعن مستقبله ومستقبل المجموع الذى ينتمى إليه.. وهذا لا يتحقق فقط بدوام العبادات، وإنما لابد من دوام الفهم والتعلم واليقظة إلى ما كان خافيا والالتفات إلى ما أبصره وعرفه الآخرون ومساهمتهم فيه وإعانتهم على المزيد من البصر والمعرفة – لتجنب خطايا المستقبل، وهى أدهى وأفدح من خطايا الماضى.. ولاغتنام نجاح الأيام الآتية والزيادة المطردة فى نجاحها تشريفا للآدمى فى أداء رسالته فى هذا الكون العظيم.

وإذا كانت الحياة المنصرفة إلى الفوارغ والتوافه والجهالات خليقة بالهوان والاحتقار لأنها تحيل نعمة كونية إلى سراب وتراب فإن الحياة الجادة التى تطلب ما هو جاد ولتزيد منه لخيرها وخير أمثالها، تمضى فى طريق نعمتها إلى الأمام متدفقة من حال إلى حال..

أكثر بركة وأعمق فهما وأشد إحساسا بالتبعة وترحيبا بكل ما يزيد المعرفة ويكشف عن أسرار الوجود حولنا ويرفع من رأس الإنسان العاقل الفاهم فى حواره مع نفسه أو مع أمثاله أو إزاء خالقه تبارك وتعالى.

إن التدين كظاهرة اجتماعية جزء من حياة المجتمع الإنسانى.. لم يكف قط عن التغير والتطور فى الماضى مع تطور وتغير مقومات حياة الناس وظروف عيشهم ومقدار ما زاد أو نقص فى اهتماماتهم.. ولن يكف عن التغير والتطور فى المستقبل تبعا للسرعة الهائلة المتزايدة التى نلاحظها الآن فى كل جانب من جوانب الحياة فى التغيير والتجديد والقفز والانطلاق.. فالطمع فى بقاء القديم على ما هو عليه أو فى إعادة القديم إلى ما كان عليه طمع كاذب بيقين.. أيا ما كان مقدار تعلقنا بذلك القديم أو كان توهمنا لإمكان إنقاذه من موجات التغيير والتطوير العنيفة المتتالية على الحياة الآدمية بعامة.

ربما كان الأقرب للصواب والأدنى إلى النجاح والتوفيق هو انتقاء الأساس أو الجوهرى من ذلك القديم مما لا يتأثر بطبعه بتغير ظروف المكان والزمان – فى حياة الناس– واستخلاصه مما علق به من التفصيلات الزمانية والمكانية عبْر اختلاف الأزمنة والأمكنة.. وذلك لا يتأتى قط إلا بعد فهم عميق لما بين يدى الناس الآن من معارف وعلوم وفنون جادة أشد الجد والاكتتاب فيها – كما يفعل غيرنا – بهمّة وإخلاص ومثابرة وإصرار.. بحيث تدخل وتندمج فى التيار الرئيسى الجاد السائد فى حياة الآدمى المبنى على المعرفة العميقة والعمل الواثب والمنافسة التى لا تنقطع!

ooo

الإيمان بين الهداية والتصلب

يتفاوت الناس فى إيمانهم، كما يتفاوتون فى قيمهم وأخلاقهم ومحاسنهم، ويبدو أن الإيمان الدينى ليس بخارج القاعدة المتداولة فى شأن التعليم، والتى تقول: «التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر».. فمن الملحوظ أن الإيمان الدينى الممتص والمتكون إبان الطفولة والمراهقة وأول الشباب، يكون راسخ الجذور، لا سبيل إلى استئصاله مهما قد يعترضه فى رحلة الحياة من وهن أحيانا، أو خروج عن باحة الاستقامة أو الدين نفسه فى بعض الأحيان..

ومن الناس من يعايش إيمانه المزروع من الطفولة، ويستسلم له ويسايره بإذعان ودون مناقشة من أى نوع إلى أن يفارق الدنيا على الإيمان الذى شب عليه، ومنهم من قد يتغافل ولكنه لا يستشكل ولا يجب أن يشتبك فى الجدل والشك والدفاع والهجوم، ومنهم وإن كانوا أقلية من يحاولون جاهدين باستمرار للوصول إلى مرحلة من الفهم والتبرير المعقول لما لديهم من الإيمان، وهذه الأقلية لا تكاد فى الغالب ترضى أحدا، لا من عامة المؤمنين المعايشين لما شبوا عليه، ولا لمن بداخلهم شكوك مكتومة أو مفصح عنها!!.

والمعايش المستسلم للإيمان المتص من الطفولة، الذى شب عليه، لا يجد لديه حاجة ولا يتيح لنفسه – قط أو غالبا – أى فرصة للتأمل والبحث فى لزوم وضرورة إيمانه، ولا يدور بخياله أن يكون هذا البحث موضوعا لمناقشة أو تأمل، ويقابل بالصد والرفض الصلب العنيد من يحاول جره إلى ما يشبه المناقشة، ويرى أن رفضه وصلابته وعناده جزء لا يتجزأ من إيمانه ولا يفرط فيه البتة، لأنه محسوب له مأجور عليه مرضى عنه عند ربه تبارك وتعالى. ولذا فهو أحيانا ما يزهو به وينتهز الفرص لإظهاره وإعلانه والاشتهار به.. وهذا كله، خاص مخصوص بعلاقة العبد بربه مباشرة، لا مدخل فيه لسلكه فى دنياه وعلاقته مع غيره من الآدميين، ومبلغ قيامه أو عدم قيامه بمسئولياته قبلهم. وهنا يحس المؤمن إحساسا عارما طاغيا بانفصال الدين عن الدنيا بأسرها، وبأن قيمة الدين فى ذاته وبقدر قوة إيمانه هو به دون أن يتوقف ذلك على أى شىء أو اعتبار آخر.

علـى أن هنـاك من يتطرفون ويتعصبـون ويتصلبون، فيتصـورون أن الإيمان لا يتوقف أو يتعلق باستقامة السلوك أو عدم استقامته مع الآخرين، وأنه أمام الخدمة الخاصة المباشرة للرب، يهون على المتدين المتعصب كل شـيء آخر خلاف إيمانه بربه وتعلقه المباشـر به، فيتصور أن له فى هذا السـبيل أن يسـتخف – حسب اعتقاده! – بكل كائن دنيوى وكل شيء على الأرض، فيستحل الحرب، والقتل والاغتيال، والتدمير والتخريب، والقضاء على الجماعات والطوائف والأمم، باعتقاد أن المحاسب الأول هو الرب وأنه لا بد راضٍ – هكذا يعتقدون – أتم الرضا عمن يخدم قضيته حسـب تصوره ومعتقده. وقد سـجل التاريخ بعض ما جرى فى هذا الإطار من الفتن والحروب الدامية التى عبر بعضها البحار، وما أحدثته من دمار لقرون فى حروب طويلة انخرط فيها بعض شعوب الشرق الأدنى وأوروبا فى النوبات المتطرفة والمخربة، ولا يزال باقيا منها حتى الآن آثار اسـتغلال إيمان المؤمن وانفصاله عن سلوكه وأخلاقه!.

وربمـا كان مـا نراه الآن فى بعض البقاع من الكثرة الكاثـرة من الفاترين المتغافلين عن جوهر الإيمان، الذى لا يريدون أن يفهموا أو يتأملوا أو يدخلوا فى نقاش أو جدل أو دفاع أو هجوم.. ساخن أو هادئ.. ربما كان مرد ذلك الذى نراه أثرا ونتيجة لهبوط تلك النوبات المتطرفة العميقة، وما تركته فى معظم النفوس من انفصال الإيمان وافتراقه عن أخلاق البشر وسـلوكهم، إذ مرجعها الغالب الآن إلى تعلقهم السـطحى بالإنسانية والمبادئ والحضارة، وليس بالحرب والدين، وما جلبته هذه المرجعيات الجديدة من قداسة الحريات الشخصية وحريـة الاعتقاد والفكـر والجنس والتنقل والتجارة والصناعة والتعلم والاشـتراك والتجمع والعمـل، الأمـر الذى أطلق هؤلاء المتطورين من عصمة الأديان، ربما إلى غير رجعة جدية، وليست شكلية صورية كلامية نفعية كالذى نشهده اليوم فى بعض دول الحضارة الغربية، والتـى عادت الآن – برغم هذه المرجعيات الجديدة اللادينية – لتشـن حملة ضارية على الإسلام والمسلمين!.

والذين يتصلبون ويتطرفون من المسـلمين، يبتعدون دون وعى أو إدراك عن الإسـلام.. فالإسلام أبعد ما يكون عن التعصب والتطرف والتصلب، ومنظومته الأخلاقية كدين للعالمين

قد عبرت عن هذا الاتساع الكونى لرسالة الإسلام فى المكان وفى الزمن، من خلال وسطيته وسنن الرفق واللين والإسماح.. فالدين لا يسعى لفرض الإيمان بالقسر أو بالإرغام، ولا يجبر أحدا على اعتناقه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل ١٢٥).. والرسول ﷺ ما عليه إلاّ البلاغ: ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الشورى ٤٨)، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر ٢٣ -٢٤).. ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴿٢٧٢﴾ ﴾.. ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (البقرة ٢٥٦).. ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (يونس ٩٩) .. ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (يونس ١٠٨).

فالمسلم غنى بهدايته، لا يفقره ولا يضره ضلال غيره.. ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (المائدة ١٠٥)..

والإسلام لا يعادى الديانات والرسالات التى نزلت قبل الإسلام.. ففى القرآن المجيد: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ (البقرة ٢٨٥)..

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة ١٣٦).

والمسلم آلف ومألوف، وفى الحديث الشريف: «المسلم آلف ومألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».. «إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون».. الرفق دستوره وشيمته: «ما دخل الرفق فى شىء إلاّ زانه، وما خرج منه إلاّ شانه».. وتعاون المسلم هو على البر والمعروف لا على الإثم والعدوان.. فيقول عز

مـن قائـل: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴿٢﴾ ﴾ (المائدة ٢).. واختلاف الناس سنة كونية ليست محلا لعداوة أو خصام أو عراك.. فقال القرآن المجيد: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (هـود ١١٨).. وعلاقـة المسلم بأهل الكتاب علاقة صلة وتعايش: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (المائدة ٥).

والدين نفسـه قوامه اليسـر لا العسر أو التعسير، وفى حديث المصطفى ﷺ: «إن هذا الدين متين، ولن يشـاد الدين أحدا إلاّ غلبه، فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى».. والله سبحانه وتعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه.

إن الأقليـة المؤمنـة الفاهمة المتفطنـة لجوهر الدين والإيمان التـى لا تكاد ترضى أحدا خارجها..والتـى تحاول بإخلاص واجتهاد تكريـس الفهم وعقل ما لديها من دين، فإنها تحس إحساسـا لا يفارقها بنقص الحضارة الحالية وأى حضارة سـابقة وعدم كفايتها لأن تسـتمر – بغير أن تضع كفها فى كف الكون بطريقةٍ ما .. جدية فعالة مسـتمرة، لا تنقطع ولا ينقطـع مددهـا قط فعلا وعملا، وترى أنها إن لم يتيسـر لها فى أى زمن مسـتقبل فهـم الكـون كله أو فهم بدايته أو نهايته بيقين كما حاولت الأديان حتى اليوم – فإنها قد يتيسـر لها بالإصـرار والمواظبة والمثابرة، أن تفهم فهما معقـولا أقرب ما يكون من الصحة مـا هو المطلـوب الدائم اللازم الواجب قيام الآدمى به فى هذا الكون، بدلا من الجرى وراء التخمينـات التى يكـذب بعضها بعضا وما صاحب ويصاحب ذلـك من الكوارث وضحايا الكوارث وعقابيلها التى لاتعد!.

وهـذا المـراد لا بد له مـن قدر من الانضبـاط الداخلى، يتزايد باطـراد بازدياد اليقظة والانتباه والتجانس فى جماعات البشر، بحيث لا تتراجع ولا تنتكس بل تجعل إصرارهـا على مـوالاة تطورها وتقدمها – أشـد غاياتها وضوحا وأولها وأولاها طلبا. وهذا يسـتدعى

مراجعة كافة المبادئ والمثل والمعتقدات السائدة المتداولة من الآدميين على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم ، مراجعة متأنية أمينة خالية من الاندفاع والمبالغات صوب الأحلام. قد يبدو هذا عزيز المنال صعبا بالغ الصعوبة، لكنه ليس مستحيلا معجزا إذا تأملنا ما مُنِح الآدمي من المواهب والاستعدادات المهملة أو المبددة، وما يمكن أن يقوم به حين يعقد إرادته ويحشد عزمه ويكافح لينتصر.

والبشر يتساندون فى الانتصارات وفى الهزائم، فهم يتجمعون ويستميتون حتى يكتب لهم النصر، وهم قد ييأسون ويوئس بعضهم بعضا حتى تتكالب عليهم أسباب الهزيمة فيفرون منهزمين لا يلوون على شىء، وهم كمجموع فيهم مصادر خيرهم وشرهم، وقوتهم وضعفهم.. ومن أحوالهم صِيغَ صعودهم وهبوطهم، وكُتِبت صفحات تاريخهم كما كُتِبَ مصيرهم!.

هذه القلة موجودة حتى الآن.. تعيش حيرتها مع الإعراض التام عنها، ومع الأفكار المختلفة التى تظهر وتختفى داخلها لقدم صمودها عملا وعدم تماسكها، ولكن وجودها ذاته مبشر وفيه نسمة خير، إذ إن وجود الأغرار المتعصبين الحالمين، ووجود المتغافلين اللامبالين وحدهم وحولهم السطحيون العابثون، لا يطمئن عاقلا على بقاء شىء نافع خليق بالبقاء فى حضارة هذا العصر.. هذه الحضارة التى قد يُودى بها فى أية لحظة، ويُودى بما عرفته وما ابتدعته وما صار فى الأيدى من إنتاجها - من قوى التدمير غير المسبوقة.

لا بد من ظهور ومساهمة المزيد من العقل والاتزان والانضباط بين أهل هذه الحضارة الذين تكاد تضيق الأرض بأعدادهم، كى يتيسر لهم قدر من الأمان من الكوارث التى تهددهم بها ذات حضارتهم المليئة بدواعى وأدوات ووسائل الافتراس والتخريب!.

والسؤال الذى يفرض نفسه على العقلاء، هو كيف يتحقق ذلك فعلا، وهل نرى له بوادر دون أن تسبقها ويلات ونكبات يصحو بها النائم ويزول معها طيش البلايين من الطائشين الذى لا ينقطع توالدهم؟!.

الإسلام وشعار مغلوط!

يبدو لى أحيانا أننا نناقض أنفسنا بلا وعى، تخرج منا الأشياء والشعارات ببساطة دون أن نتأمل مدلولاتها تأملا حقيقيا يدرأ عنا سوء التأويل أو سوء انتهاز الفرص للإساءة إلينا.
لا نختلف نحن المسلمين على أن ديننا دين محبة وسلام وإخاء.. دخل قلوب من آمنوا به، اليوم والأمس، بالحكمة والموعظة الحسنة، مَدَّ ويمد أيديه إلى الدنيا بالسلام.. اسمه منحوت من السلم والسلام، وجعل السلام تحيته، وتحقيقه هدفه وغايته.. نعرف ذلك من آيات القرآن الكريم التى قالت لرسول القرآن على رغم كل ما لاقاه.. ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴿٦١﴾﴾ (الأنفال ٦١).. ونقرأ فى القرآن المجيد: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ ﴿٢﴾﴾ (المائدة ٢).. نعرف من حديث الرسول ﷺ أن إفشاء السلام هو سجية المسلم وباب التقارب والمحبة.. ونقرأ دعوة القرآن إلينا: ﴿ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴿٢٠٨﴾﴾(البقرة ٢٠٨). وأن الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ ﴿٢٥﴾﴾ (يونس: ٢٥).. ونعرف من إسلامنا أن السيف لم يشرع إلاّ لمدافعة الكفار الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم بمكة بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله!

نعرف ذلك كله وغيره عن شريعتنا السمحة، ونعرف أن تهمة العنف والإرهاب تهمة كاذبة مفتراة، ضالة مضلة لا تريد إلاّ النيل من الإسلام الذى عم المعمورة وبات انتشاره بين ظهرانيهم تحديا لا يطيقونه، فجعلوا بالرسوم وغيرها يفترون عليه وعلى رسوله العنف والإرهاب، ويصلون دعاوى الحاضر بمزاعم الماضى أن الإسلام لم ينتشر إلاّ بحد السيف، ولا يكلفون خاطرهم تفسير لماذا إذن ينتشر الإسلام اليوم فى أوروبا وأمريكا بينما لا يملك المسلمون الآن سيفا ولا نظيره، وأجنحتهم اليوم مهيضة، ليس بيدهم أى قوة ينشرون بها الإسلام.. اللهم إلاّ نوره الذى بذاته يجذب إليه القلوب، دون قوة تعينه أو تفرضه! هذا كله لا يراه أصحاب الإساءة إلى الإسلام ورسوله ﷺ، بالرسم والكلمة التى تصور الإسلام سيفا يرهب وإرهابا يخيف ويبطش!.

ونحن المسـلمين نغضب ونثور، ونهتاج ونتشـنج لهذه الأوصاف المفتراة، بينما دون أن ندرى نقدم لهم مادتها متطوعين غافلين، فنتخذ السـيفين المتقاطعين رمزا للإسلام بجوار المصحف أو اسـم الجلالة.. نقبل على ذلـك فى الملصقات التى طفقت تملأ كل مكان، إلى جوار شعارات وأعلام اتخذت هذا الرمز فى ظرف تاريخى لم يعد له الآن محل!.. نقبل على ذلك بغير تبصر، مع أن الهلال يغنى فى التعريف بالإسـلام، وكعنوان له، بدلا من السيف الذى يوحى أو يتيح لهم اتخاذه ذريعة ـ بالرسوم المسيئة! – لنعت الإسلام ورسوله الكريم بالعنف والإرهاب!.

لسـت أفهم لماذا فى عالم اليوم، وواقع الحياة، نصر على «السـيفين المتقاطعين» عنوانا أو شعارا إلى جوار المصحف أو اسم الجلالة؟! أليست الرسوم المسفة المسيئة تتخذ ذلك النظر ذاته لتصوير الإسـلام ورسـوله ونعتهما بالعنف والإرهاب؟!.. لماذا لا يتفق أولو الأمر من أصحاب الأعلام أو الشعارات، على اتخاذ عنوان آخر – وليكن الهلال – إلى جوار القرآن أو لفـظ الجلالة؟!.. ولـماذا نقدم بأيدينا– دون أن نتفطن – مـادة لحملات الافتراء علينا والإسـاءة إلينا والتطاول الوقح على رسـولنا ﷺ ؟!.. لماذا نقدم بأيدينا ما نعود فنسـعى لدرئه عنا؟!.. ظنى أن اتخاذ السيفين شعارا ينطوى دون أن ندرى على إساءة للإسلام!.

○○○

قدسية الروح
والأمن المجتمعى فى الإسلام

تصب جميع المبادئ وآليات الأمان المجتمعى التى يحرص عليها الإسلام، فى أمان الإنسان على روحه ونفسه وبدنه وعرضه وماله، فهذا الأمان، هو غاية المبادئ والقواعد والأحكام والآليات.. يأتى فى المقدمة أمان الإنسان على روحه، فالروح هى الأصل والأساس، لذلك لابد لكمال الحديث عن الأمن المجتمعى، من بيان منابع وأسس قدسية الروح فى الإسلام.

تقديس الإسلام للروح الإنسانية، هو فرع على تكريمه للإنسان، ومعلم أساسى من معالم عالميته وأمان مجتمعه.. لا يطلب الآدمى من الدين أكثر من أن تكون روحه فيه -وروح سواه- روحا عزيزة مقدسة محل احترام ورعاية وحماية.. «الحياة» فى الإسلام هى هبة الخالق البارئ جل شأنه.. وهى نفحته للإنسان الذى كرمه سبحانه وتعالى واجتباه وفضله على كثير من خلقه تفضيلا.. فى القرآن المجيد: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.. (الإسراء: ٧٠).. هذه الروح التى خلقها الله، أمرها بيد الله، لا يجوز لغير الله أن يعترض وجودها أو يجهضها أو يمسها أو ينهيها.. فى الإسلام، روح الآدمى - أى آدمى مهما كان عرقه أو ديانته - هى روح الناس جميعا.. إجهاضها هو إجهاض للحياة، وإزهاقها هو اعتداء على الحياة الإنسانية التى أوجدها الله ولا موجد ولا منهى لها سواه.. من هنا، نوه القرآن الحكيم إلى أن القتل ليس حسبه أنه عدوان على حياة المقتول وكفى، وليس إزهاقا لروح أزهقت بغير حق وكفى، وإنما هو اعتداء على الحياة الإنسانية كلها!!.. ومن يحترم الروح الإنسانية، ولا يمسها، ولا يزهق الحياة فيها، فكأنه أحيا الناس جميعا.. فى القرآن المجيد يقول رب العزة: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾.. (المائدة: ٣٢).

obeikandl.com

هذه الحياة – المنحة الربانية – المقدسة، محوطة برعاية وحماية محكمة فى الإسلام.. إزهاق الروح – أى روح – من أكبر الكبائر فى الإسلام، ومن أبشع الجرائم فى شريعة الله.. فرض الله تعالى لها قصاصا يرهب ويثنى الناس عن استباحتها أو الاستهانة بحرمتها.. يقول الحكم العدل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴿١٧٨﴾ ﴾ (البقرة : ١٧٨).. القصاص لغة يعنى المساواة، أى أن الجزاء من جنس العمل أو الجرم.. القصاص تتبع للجانى بالجزاء العادل، وللمجنى عليه أو ذويه بالشفاء.. القصاص عدالة.. وجزاء وفاق للجريمة، فالقتل اعتداء متعمد أزهق روحا خلقها الله، فتكون العدالة أن يؤخذ الجانى القاتل بمثل فعله ! ! هذا القصاص لم يفرض للنكاية أو الانتقام، وإنما عقابا عادلا ورادعا، حكيما واعيا، وأحكم ما فيه ونبه إليه القرآن المجيد أنه فى واقعه سبيل للحياة، لأنه حماية لها – بالردع والجزاء – من تغول المتغولين وعدوان المستهينين بالحرمات الإنسانية وبأرواح عباد الله.. فى القرآن المجيد : .. ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (البقرة : ١٧٩).. الردع فى العقاب يجرى على محورين، ردع خاص يتجه إلى الجانى الذى أخطأ وتعدى على حقوق أو حيوات الناس، والردع العام الذى يحذر الناس.. كل الناس من مغبة الجريمة والاعتبار بأن الجانى الملاحق بعقاب الدنيا والسلطة الحاكمة، ملاحق أيضا بعقاب السماء.. قد يستطيع الجانى أن يتوارى عن الناس بجرمه، وأن يفلت بالتالى من عقاب الدنيا، ولكنه لا يستطيع أبدا أن يفلت من عقاب الله الذى يعلم السر وما يخفى.. فى القرآن المجيد : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (النساء : ٩٣).. لا ينجيه من هذا العذاب المقيم أن يلقى جزاءه فى الدنيا بعقاب ينزل به، أو بفدية يقبلها أهل المجنى عليه منه، أو بعفو يبذلونه له ! ! .. وفى صحيحى البخارى ومسلم، عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ بيانا منه لبشاعة القتل وفداحة جرمه الذى ينتزع روحا خلقها الله – كان يقول : « ليس من نفس تُقتل ظلما – إلاّ كان على ابن آدم الأول (قابيل) كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل»

.. فى الحديث الشريف أن كل الآدمى على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه، يقول عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفس بغير حق» .. «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار» .. يحذرهم عليه الصلاة والسلام فيقول لهم: «إن قتل النفس التى حرم الله» من السبع الموبقات !!

ملاحقة القاتل بهذا الترهيب متعددة فى الإسلام.. فى القرآن المجيد: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (المائدة: ٤٥).. نفس الآدمى كما هى عزيزة عليه فإنها عزيزة على سواه، وكما هى غالية عنده فإنها غالية على غيره.. احترام الآدمى لروحه وحرصه عليها، يجب أن يردعه عن المساس بأرواح الآخرين.. إذا علم أن قبض روحه الغالية عليه هو هو ذات الجزاء العادل على إزهاقه روحا أخرى، ردعه هذا عن المساس بأرواح الناس!

ooo

عناية الإسلام بمواجهة ومحاصرة آفة الثأر، عناية تنبع من تقديسه للروح الآدمية.. صحيح أن الإسلام لاتواجهه مشكلة «الثأر» فى المجتمعات المتحضرة المتنورة التى لا تنخر فيها عصبية «القبليات» وما تؤدى إليه من تعصبات ضريرة عمياء كانت ولا تزال وراء نار الثأر، بيد أن «القبليات» معضلة تعانى منها المجتمعات، وكانت تعانى منها شبه الجزيرة العربية وما حولها، ولا تزال تعانى منها مجتمعات أخرى هنا أو هناك.. كان على الإسلام أن يواجه - وقد واجه - هذه المعضلة التى كانت شائعة بمجتمعات الجاهلية التى ضربت القبليات بعمق فى عاداتها وموروثاتها وتملكت من الناس فيها حتى صار التغنى بالقبلية والانتصار لها فى الحق وفى الباطل هو الصورة المعتقدة للبطولة، لا علاقة لها بالحق ولا موجباته، ولا بالعدل ومعادلته، ولا بالعقل وما يهدى إليه.. يعبر عن ذلك الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم حين يقول :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... كذاك البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاما ... تخر له الجبابر ساجدينا

لا يلتفت الثأر – فى عماه وضلاله – إلى الحق والعدل، ولا إلى البرىء والمذنب، وإنما هو ثأر ضرير لا يميز، فإن ميز – فليس لإيقاع الثأر بمن فعل وتجنى وقتل، وإنما بمن تكون «الوجيعة» فيه أثقل من الوجيعة فى غيره.. سواء فعل أم لم يفعل..فلا شأن للثأر بمن فعل، وإنما هو الانتقام الأعمى الذى يختار الضحية الموجعة للقبيلة المضادة.. وهذا هو أخطر ما يقوض أمان المجتمعات.. يتجلى ذلك حين نلاحظ أن قضايا الثأر قضايا قبائل وعائلات لا أفراد، وعرفت من أجل ذلك بما يسمى بالاتهامات الثأرية!!.. فالقتل الثأرى تقابله اتهامات ثأرية.. لا شأن لأيهما بموازين العدل ولا بشخصية المذنب.. لتبقى النيران مشتعلة إلى أن يحين الحين لواقعة ثأر مضادة، لتتوالى الواقعات. الطالب اليوم مطلوب غدا، وهكذا دواليك!! دون ما نهاية منظورة، إلاّ العقل الغائب، والدماء المسفوحة، والغل الذى يملأ النفوس بالأحقاد، ويقوضَ أمان المجتمع، ويورد الجميع موارد الهلاك!!

ooo

من عاداتنا السلبية المؤسفة، أننا لا نلتفت لمواجهة النوائب إلاّ بعد أن تلح بقارعة، تجبرنا بذيوعها وانتشار خبرها على الإفاقة والمواجهة .. ومن آفاتنا أيضا أن مواجهة القارعة تبدأ ساخنة بل وربما محمومة، حتى إذا ما انطمر ذكرها وبهتت صورتها من وعينا الحاضر أو المستحضر.. تسكن الكلمات الحارة أو تكاد، وتهدأ الضجة الساخنة أو توشك على الهدوء ـ وشيئا فشيئا تنطوى الصفحة أو الصفحات التى فتحت، وتدخل القضية برمتها ـ وقد ألحت لقارعة ـ فى أضابير أقلام المحفوظات إلى أن تصفعنا قارعة جديدة.

يخطئ من يتصور أن كارثة الثأر التى ضاعت فيها أرواح اثنين وعشرين نفسا ضربة واحدة، طارئ جديد فى نوعه أو صورته على القبليات المؤسفة الضاربة بجذورها فى الصعيد المصرى على التخصيص.. من سنوات طيرت الأنباء قتل المحافظ عبد الفتاح عزام ثأرا فى واضحة النهار، مثلما طيرت نبأ مصرع المستشار سليم عفان فور وصوله إلى منزله بقريته بالصعيد بعد انقطاع عن زيارتها استمر نحو عشر سنوات تحاشيا للثأر.. بيد أنه لابد مما ليس منه بد!!.. خالف المستشار حذره، وذهب لقريته، فقتل لتوه، مع أنه

لم يرفع على أحد سلاحا، ولم يتورط أو يشارك أو يتآمر على قتل أحد، وغير مطالب شخصيا بثأر.. ولكنه الثأر الأعمى!!.. فواقعات الثأر متلاحقة هناك.. لا تهدأ، ولا تدع أحدا يهدأ.. تتميز أقضياتها بأنها قضايا قبائل لا أفراد، مع أن المسئولية فى شريعة الله وفى القوانين الوضعية شخصية.. لا يسأل الشخص إلاّ عما فعل، لا محل لمساءلته – شرعا وقانونا – عن فعل سواه مهما كانت درجة قرابته أو انتمائه إليه.. المسئولية فى شريعة الله شخصية.. فى القرآن الحكيم: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴿١٣﴾ ﴾ (الإسراء ١٣)، ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (الطور ٢١) .. وفيه أيضاً: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (الأنعام١٦٤، فاطر ١٨).. ، ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ (النجم ٣٨– ٣٩).. ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (الزلزلة ٧– ٨).. والمسئولية شخصية أيضا فى القانون الوضعى.. فحملت جميع الدساتير المصرية المتعاقبة، ما تنص عليه المادة ٦٦ الحالية من أن «العقوبة شخصية» – فلا يلحق العقاب، ولا يجوز أن يلحق، إلاّ بمن ارتكب الجرم وثبت فى حقه ثبوتا يقره الشرع والقانون. بغير ذلك تكون المساءلة ظلما، ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ (غافر ٣١).

لا يلتفت الثأر فى شره وعماه وضلاله إلى هذه البدهيات، التى أجمع عليها الشرع والقانون، وإنما هو ثأر ضرير لا يميز ولا يعنيه أن يميز، فإن ميز فليس لإيقاع الثأر بمن فعل وتجنى وقتل، وإنما بمن تكون «الوجيعة» فيه أثقل من الوجيعة فى غيره.. سواء فعل أم لم يفعل.. فلا شأن للثأر بمن فعل، وإنما هو الانتقام الأعمى الذى يختار الضحية الموجعة للقبيلة لا للفرد .. لذلك كانت قضايا الثأر فى صعيدنا المصرى قضايا قبائل وعائلات لا أفراد، وعرفت من أجل ذلك ما يسمى بالاتهامات الثأرية!!.. لا شأن للاتهام فى واقعات الثأر، بمن ثأر وقتل، وإنما يتخير المتهم أوالمتهمين بقرار قبلى من أسرة الضحية.. يتجه بدوره إلى ما يؤلم ويوجع أكثر.. بغض النظر عما يكون حقيقة قد حدث. أما الشهود، فمسألة توفيق وتحضير، ولذلك تكثر نسبة أحكام البراءة فى قضايا

الثأر، لأن أحدا لا يعنى بما حدث، وإنما هو قتل ثأرى تقابله اتهامات ثأرية.. لا شأن لأيهما بموازين العدل ولا بشخصية المذنب.. إلى أن يحين الحين لواقعة ثأر مضادة، لتتوالى الواقعات على نظام الكراسى الموسيقية. الطالب اليوم مطلوب غدا، وهكذا دواليك!! دون ما نهاية منظورة، إلاّ العقل الغائب، والدماء المسفوحة، والغل الذى يملأ النفوس بالأحقاد، ويورد الجميع موارد الهلاك!!.

جذور هذا الانتقام الأعمى ترجع إلى الجاهلية العربية، لم يكن جنون الثأر يتوقف بهم عند معنى العدل، فلا شأن لهم به، يطلبون غير القاتل بالقاتل، والعدد أو الكثرة بالواحد..يروى أن واحدا قتل آخر من الأشراف، فاجتمع أقارب القاتل عند والد القتيل لاسترضائه. وقالوا له : ماذا تريد؟ قال : إحدى ثلاث. قالوا : وماهى؟. قال : إما أن تحيوا ولدى . أو تملأوا دارى من نجوم السماء، أو تدفعوا إلى جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أنى أخذت عوضا!.

ooo

أغرب الغرابة وقد حل نور الإسلام محل ظلام الجاهلية.. أن يحسب الغارقون فى بحور الدم جريا وراء الثأر، أنهم يصدرون فيما يترددون فيه عن منظور إسلامى، لا يستوقفهم أنهم يتجهون بالثأر إلى غير جان، ويبيحون قتل برئ أو حتى مشتبه فيه بغير بينة لغير ما جريرة شخصية إلاّ قرابة أو انتماء لأسرة .. لا يعظهم الدين الذى يؤمنون به.. ولا يردعهم أن الحياة التى يتجرأون على اغتيالها هى هبة الخالق البارىء جل شأنه لكائناته ومخلوقاته، ومنحته للإنسان الذى كرمه سبحانه وتعالى واجتباه وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً. فى القرآن المجيد: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء٧٠).. فى القرآن أن القتل ليس حسبه أنه اعتداء على حياة المقتول وكفى وإنما هو اعتداء على الحياة الإنسانية كلها!!.. يقول عز من قائل: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ

جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (المائدة ٣٢).. القتل من الكبائر ومن أبشع الجرائم في شريعة الله، إن استطاع القاتل أن يفلت من عقاب الدنيا، فإنه لن يستطيع أن يفلت من عقاب الله الذي يعلم السر وما يخفى.. ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (النساء٩٣).. لا ينجيه من هذا العذاب المقيم أن يلقى جزاءه في الدنيا بعقاب ينزل به بعد إقامة الدليل عليه، أو بفدية يقبلها أهل المجنى عليه، أو بعفو يبذلونه له!.

في حرص على قداسة الروح الإنسانية وتحريم القتل، لم يفرّق الإسلام في جزائه وعقابه بين من يقتل ابتداء، وبين من يقتل ثأرا.. القاتل لا يعفيه الثأر الذي يدفعه لا من عذاب الله، ولا من عقوبة القانون. لا يقتصر العقاب على من يقتل بريئا وهو عالم ببراءته، ولا على من يقتل مشتبها فيه بغير بينة، وإنما يمتد إلى كل إزهاق للروح التي حرم الله قتلها إلا بالحق مهما بلغ اعتقاد الآخذ بالثأر بأنه ينزل ثأره على «شخص» من يستحقه. فهيهات أن يكون لآحاد الناس سلطة ولا مقدرة ولا إمكانية تحديد الجاني المطلوب الاستيفاء منه تحديدا يبتعد عن الهوى ويتوسد الدليل والبينة.

إن القضاء ليس ترفا، ولا هو ميدان للهواة، ناهيك عن أصحاب المصالح أو الواقعين تحت نير الغضب أو حافز الانتقام.. إن رسول القرآن ﷺ يقول للقاضي ذاته، على حيدته وعلمه، «ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلمين مخرجا فخلوا سبيلهم، فلأن يخطئ الوالي في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة».. هذا القاضي المخاطب، أصبح في زماننا عبئه أكثر وتأهيله لأداء هذه المهمة المقدسة أوجب ـ قديما كان القاضي محذرا من الظن أو الأخذ بالظن: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (الحجرات ١٢).. ومحذرا أيضا من الإندفاع: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾. (الحجرات ٦).. ومأمورا بتوخي تحقق العدالة في شهوده.. ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴿٢﴾ ﴾ (الطلاق ٢).. ومنبها إلى وجوب الاتقاء والاحتراس

باستبعاد ذوى الشبهة من الشهادة عملا بحديث رسول القرآن ﷺ: «لا تقبل شهادة خصم ولا ظنين في ولاء ولا قرابة ولا ذى إحنة (عداوة) فالشبهة مسقطة للعدالة وبالتالى للشهادة، ويقول الحنفية والشافعية: «إن العدالة شرط لقبول الشهادة ولا يثبت القبول أصلا بدونها».

والقاضى مأمور فوق ذلك بمراعاة العدل والمساواة حتى الشكلية فى مجلسه، ضمانا لسعى ووصول الدليل إليه فى سهولة بلا مشقة من رهبة أوخوف أو مظنة غياب أو قلة العدل، ففى الحديث النبوى : «إذا ابتلى أحدكم بقضاء فلا يجلس أحد الخصمين مجلسا لا يجلسه صاحبه، وليبق الله فى مجلسه وفى لحظه وفى إشاراته» .. وفى وصية الفاروق عمر إلى أحد ولاته - وكان له القضاء فى الولاية - «آس بين الناس فى مجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف فى عدلك». ثم على القاضى بعد ذلك وقبله، أن يتسلح بالإخلاص وبالعلم، فالعلم هو سبيل دراسة النزاع أو الأقضية، ومعرفة وجه الصواب، والحكم فيها بالعدل. قال رسول القرآن ﷺ : «القضاة ثلاثة، قاض فى الجنة، وقاضيان فى النار. فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، وأما الذى فى النار فرجل عرف الحق فجار فى الحكم، ورجل قضى على جهل. قالوا: فما ذنب الذى يجهل؟ قال: ذنبه ألا يكون قاضيا حتى يعلم»!!.

فمع أن مهمة القاضى قديما كانت أيسر وأسهل، لبساطة الحياة، ومعرفته بالناس لمحدودية المجتمعات، إلا أن هذه المهمة الجليلة أحيطت من قديم بهذا السياج من الضمانات والشروط ضمانا لقدرة القاضى بعلمه وعدله، وبعدالة الشهود وحيدتهم، وبضوابط سماعهم فى مجلس القضاء على معرفة الحقيقة والحكم بالعدل على مقتضاها. فأين ذلك مما صارت عليه الحياة الآن من تعقيدات، وما آلت إليه أحوال الناس من منعطفات أقامت أستارا كثيفة أمام القاضى المحايد العالم تحول بينه وبين أن يعرف من الشهود حقيقة ماحدث وشاهدوه لا سواه؟!!

هل يمكن للمطالب بالثأر، على غضبه وشهوته وميله وهواه واندفاعه وربما نقص أو انعدام علمه، أن يحل محل القاضى ليحدد بدلا منه من فعل من واقع أدلة وبينات صحيحة مشروعة مقبولة تؤدى إلى القطع والجزم بأنه الجانى الذى يحق عليه القصاص؟!.

إن استقصاء هذه الحقيقة قد بات شاقا عسيرا على القاضى المحايد العالم، ولا يقبل بحال من الأحوال أن يحل محله المطالب بالثأر فينتهك باندفاعه وتهوره، وبشهوة الانتقام المعمية، أرواحا بريئة لم تقارف ذنبا ولم ترتكب وزرا، ناهيك بما يستبيحه ـ تحت شعار الثأر – من أرواح يعلم علم اليقين أنها بريئة من أى ذنب، وإنما هو يروم باغتيالها الإيجاع والإيلام؟!!

إن هذه الحقيقة الواضحة الجلية، تغلق غلقا باب الحديث المغلوط عن «الاستيفاء»، ليس فقط لأنه مرجوح، ولا فقط لما أورده الراجحون من الفقهاء، ومنهم الإمام شلتوت، من أن الآية ٣٣ من سورة الإسراء آية مكية، تتجه نحو الأحكام الكلية تاركة التفصيلات والتتميم للآيات المدنية، والتى يظهر من تكاملها أحكام القصاص وضوابطه، ومنها أن «الاستيفاء» موكول إلى الوالى (السلطة الحاكمة) أو القاضى (السلطة القضائية) وإنما، وهو الأهم، وهو القاطع الحاسم، لأن (الاستيفاء) لا يتجه إلاّ إلى الجانى الفاعل شخصيا، ومحال وغير مقبول شرعا وقانونا أن يتجه إلى سواه، أو يجزم بتحقق مسئوليته الموجبة للاستيفاء منه بغير أدلة معتبرة وبينات جازمة قاطعة، وما دام الأمر كذلك، وهو كذلك ويجب أن يكون كذلك، فإن «الاستيفاء» يعنى فى حقيقته «طلب الاستيفاء» ويستحيل أن يكون لغير السلطة القائمة.. القضائية والتنفيذية، وإلاّ شاركنا جميعا فى كبيرة قتل الأبرياء بغير حق، وإهدار الحيوات التى خلقها الله ، والاعتداء على كل سنن الحق والعدل والإنصاف.!!

ooo

إن الثأر – الذى حاربه الإسلام – هو استسلام لعادات اجتماعية موروثة من الجاهلية – ضالة وخاطئة، ولمفاهيم مغلوطة عن الرجولة والشجاعة.. يتصور البسطاء، ومن أسف بعض المتعلمين، أن الثأر بطولة وشجاعة ورجولة ترفع عارا.. مع أن الثأر هو العار نفسه، لا بطولة ولا شجاعة فيه.. الآدمى لا يركبه العار لكونه قويا ذا عزم استطاع بقوته وعزمه أن يكبح جماح غضبه ولم يستسلم لضلالة عمياء تدفع إلى إغضاب الله بمخالفة دينه وشريعته وإعمال التقتيل فى أرواح خلقها الله ولا يملكها سواه.. الآدمى لا يركبه العار لاحترام القانون وتفهمه أن تحديد الجانى وعقابه منوط بسلطة القضاء الذى يبحث ويدقق وينزل

العقاب حيث ينبغى أن ينزل، وإنما العار يركب من يخالف دين الله وأوامر الله ويغتال الأرواح بضربات عشواء تعمل التقتيل فى الأبرياء إشفاء لغليل ضال مضلل.. العار أن يكفر الآدمى ويقدم على هذه الكبائر وينهى حيوات خلقها ويملكها الله!!

يعلمنا الإسلام، الذى يقدس الروح الإنسانية - أنه لا ينتمى للشجاعة والبطولة قتل الناس غيلةً.. القتل ثأرا هو فى واقعه اغتيال مباغت - فى معظم الأحوال لأعزل - لا مواجهة ولا منازلة ولا مخاطرة ولا شجاعة ولا رجولة فيه. مهم جدا أن يفهم البسطاء، وأن يعى المتعلمون، أن هذا العمل هو العار ذاته، وأنه لا ينتمى لشجرة البطولة أو الرجولة أو الشجاعة. إذا فهم الناس ذلك، لم يبق إلاّ سلطان العادات الاجتماعية الجهولة الموروثة، ولا يقدر على منازلة هذه العادات والمفاهيم الخاطئة الضالة سوى الدين. الدين هداية تستقر فى القلب والوجدان والضمير. الدين الإسلامى، بنوره وهدايته، هو الذى قضى سلفا على كفر وشرك الآباء والأجداد، وهو الذى خرج بالناس من دياجير الظلام إلى نور الهداية.. الدين بما فيه من نور وهداية، وقواعد وأحكام، وبما له من قوة ومن تأثير على النفوس والعقول والأفئدة، قادر على أن يواجه ويهزم هذا الواقع الاجتماعى الجهول الأعمى، وتحقيق أمن وأمان المجتمع.. ولو استقر فهم الإسلام فى النفوس لتآكلت وسقطت من تلقاء نفسها هذه المفاهيم المغلوطة الضالة التى تدفع الجهلاء إلى الثأر المجنون الناجم عن الجهالة العمياء التى تسوق إلى ضلالة جزاؤها عند الله نار جهنم خالدين فيها أبدا وبئس المصير!.. تعلمنا مبادئ الإسلام أن القوة الحقة، والبطولة الحقة، هى فى الصبر والعزم وكظم الغضب والإيمان بأن الله تعالى.. المهيمن العزيز، الفتاح العليم، السميع البصير، الحكم العدل، اللطيف الخبير.. هو سبحانه الكفيل بإحقاق الحق والعدل، وأن الجانى أيا كان احتياطه، لابد ملاق جزاءه.. فى الدنيا وفى الآخرة، وأنه إذا كان عذابه فى الآخرة مقطوعا به، أخبر عنه القرآن المجيد، فإن الالتفات الجاد إلى معاونة العدالة بدلا من تجاهلها، كفيل بتحقيق أمن المجتمع، وكفيل بأن تصل السلطة القضائية إلى غايتها، وأن تحدد الجانى، وأن تنزل به العقاب الواجب، بدلا من أنهار الدم المسفوكة هنا وهناك فى دائرة لا نهاية لها من العنف والثأر المجنون!!

لقد واجه الإسلام بحكمة ورشاد القبليات المقيتة التى شاعت فى الجاهلية ليقتلعها ويداوى آثارها.. لفت الأنظار إلى أن الناس جميعا أبناء أصل واحد وأسرة واحدة.. خلقهم الله تعالى من نفس واحدة، وقال فى قرآنه المجيد: .. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿١﴾ ﴾.(النساء ١) .. أصل الإنسانية أمة واحدة ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴿١٩﴾ ﴾ (يونس: ١٩)..
﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ (البقرة ٢١٣)..
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات ١٣).

حرص الإسلام فى محاربته لآفة الثأر على أن يلفت نظر الآدمى إلى الأخوة الإنسانية التى تسمو على ما عداها، ولا محل إزاءها للتمسك بقبليات لأنها على ضوء «الأسرة الواحدة» التى تنتمى إليها البشرية لا تعدو أن تكون قرابات وقتية عارضة فى زمن ما، تنحسر لتصب فى النهاية فى الأسرة الإنسانية الكبرى التى تضم الناس جميعا بلا عصبيات ولا قبليات ولا أعراق.. هذه الأخوة الإنسانية تشكل معلما أساسيا من معالم احترام الإسلام للروح الإنسانية ورعايته لها.. فضمور القبليات يصب فى النهاية ضد عادة الثأر وما تسفكه من دماء وأرواح، ويحض الناس على الاحتكام للقانون بدلا من شرعة الغاب، بذلك حفظ الإسلام للروح الإنسانية قداستها وحماها من نيران الثارات وكفل للمجتمع الإسلامى أمنه وأمانه.

رأينا كيف أن القرآن المجيد قد جعل لنا فى القصاص حياة، لأنه بالردع الخاص وبالردع العام يرد الناس عن الاقتداء بالقاتل أو القتلة، ويغلق أبواب المحاكاة فى الشر والقتل والاستهانة بالأرواح! !.. كذلك جعل القرآن لنا حياة فى سعيه للقضاء على القبليات، مثلما جعل لنا حياة فى سياسة «العفو» الذى أباحه للمجنى عليه أو ذويه فى جرائم النفس.. لتطبيب وتضميد الجراح. تطبيب الجراح والتصالح عن رغبة وإرادة يغلق باب الثارات، ويحافظ على حيوات الناس، دون إخلال بحساب الجانى عند الله فى الآخرة.. فى المجتمعات القبلية لا تنغلق أبواب ولا ويلات الثارات، ونتيجتها سفك الدماء وحصد

الأرواح.. يقتلون العدد بالواحد، ويأخذون الإنسان بالبهيمة، ويستهدفون بالثأر من لا وزر له ولا ذنب ولا جريرة ما دامت وجيعة القبيلة الأخرى فيه أشد من وجيعتها فى سواه من أبنائها.. هذه الثارات ويلات ودمار وإعدام للحياة.. غلقها هو بعث للحياة وحرص عليها من هذا الانفلات الأعمى الذى لا يبقي ولا يذر.. والعفو الذى أباحه الإسلام للمجنى عليه أو ذويه سياسة ينبع من فهم حكيم عميق لسلبية العصبيات القبلية وعماها الضرير.. هى سياسة تخير بين القصاص والعفو.. والخيرة ترضى وتضمد وتطبب الجراح..

مع حرص الإسلام على الترهيب من وزر القتل. وعقابه دنيويا بالقصاص، والترهيب من جزاء الآخرة.. فإن الإسلام فتح بسياسته الحكيمة أبوابا لحقن الدماء حفاظا على الروح الإنسانية التى يستخرج القرآن المجيد والسنة المطهرة أطيب ما فيها لارتضاء الصلح وبذل العفو.. فمع قول القرآن: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (البقرة١٧٩).. فإنه يحث على الصلح والعفو، ويدعو إليهما.. يقول القرآن المجيد: ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ (البقرة ١٧٨).. فى السنة الشريفة أنه صح عن أنس رضى الله عنه أنه قال: «ما رفع إلى الرسول ﷺ أمر فيه قصاص، إلاّ أمر فيه بالعفو».. العافى الذى يصلح أجره وثوابه على الله – ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الشورى ٤٠).. فى عموم العفو كسجية عامة.. ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف ١٩٩).. ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ (البقرة :٢٣٧).. ﴿ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (التغابن ١٤)..

﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ (النساء ١٤٩).. ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النور ٢٢).. وقد وصف القرآن المؤمنين بأنهم العافون عن الناس فقال فيهم: .. «﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (آل عمران ١٣٤)..

العفـو في جرائم النفس، فـرع على سـجيـة عامة هى سـجية «العفو» التى أخذ بها الإسـلام فى مواضع كثيرة حرصا على بث السـلام وحفاظا على الوشيجة والآصرة الإنسـانية، علـى أن العفو فـى جرائم النفس يلتئم مع القصـاص فى غاية كبرى هى الحفاظ على الحياة الإنسـانية.. جعل الله لنا فى القصاص حياة، وجعل لنا أيضا فى العفـو حياة، بغلق باب الثارات وحصد الأرواح وسـفك الدماء.. دون أن يهمل النذير للجانـى بأنه إن أفلـت من عقاب الناس والدنيا، فلن يفلـت من عقاب الآخرة.. بل هـو عند الله تعالى آثم ومغضوب عليه وملعون.. يقول القرآن المجيد: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (النساء ٩٣).

كان الجفاة الغلاظ، يستخفون قبل الإسلام بالروح الإنسانية، حتى فى بنيهم وفلذات أكبادهـم، يئدون البنات كراهة لإنجابهـن أو مخافة لحاق العار بهم ، ويقتلون أولادهم خشـية الإملاق والفاقة ونضوب القدرة على إعاشـتهم والإنفاق عليهم .. إلى هؤلاء نزل القرآن الحكيم مقدسـا للروح الإنسـانية، آمرا باحترامها.. يقـول للوائدين منذرا ومحذرا ومرّهبـا.. ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ (التكويـر ٨، ٩). هـذا البيان القرآنـى إنما يرد على سـبيل التبكيت والتقريـع للوائدين.. لافتا منبهـا إلى أن الموءودة لم ترتكب بداهة ما يبيح أو يبرر قتلها؟!.. هؤلاء ضعاف العقول والأفهام الذين فيهم قـال القرآن : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (النحل ٥٩،٥٨).. ويقول القرآن لفاقدى الثقة والإيمان، القاتلين لأولادهم خشية الفقر والإملاق.. ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ (الإسـراء ٣١)، (الأنعـام ١٥١) .. الخـوف من الفاقة هو ضعف فى الإيمـان.. المؤمن الحق يعلم أن الله تعـالى هو الرزاق.. ما من مخلوق إلاّ ويوافيه سـبحانه برزقـه، حتى الدواب.. ﴿ وَمَا مِن

دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴿٦﴾ ﴾ (هـود ٦).. لا تنتهـى الآية الكريمة فى نهيها عن هذه الجريمة الكبرى التى نهت عنها، دون أن تقول إن ما مضى من هؤلاء الجفاة الذين استحلوا قتل أولادهم إنما كان خطأً كبيراً!!

مـن هذا الحرص الحريـص على الروح الإنسـانية وعلى الحياة، ما روى عن رسـول القرآن.. كان ﷺ يقول : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول فى النار».. فقيل هـذا القاتـل، فما بال المقتول؟ قال ﷺ: « إنه كان حريصـا على قتل صاحبه «.. بل إن الإسلام فى حرصه على الروح وعلى الحياة الإنسانية نهى عن الانتحار، وعده قتلا لنفسٍ حَرم الله تعالى قتلها.. حتى على صاحبها.. وفى حديث رسول القرآن ﷺ: «من قتل نفسه بحديـدة، فحديدته فى يـده يتوجأ بها فى بطنه، فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا.. ومن قتل نفسه بسم، فسمّه فى يده، يتحساه فى نار جهنم، خالدا مخلدا فيها أبدا.. ومن تـردى من جبل فقتل نفسـه، فهو متردٍ فى نار جهنـم، خالدا مخلدا فيها أبدا» .. وروى الشيخان عن جندب البجلى عن النبى ﷺ.

قـال: «كان مـن قبلكم رجل به جرح فجزع، فأخذ سـكينا فَحَزَّ بها يده فما رقأ الدم (أى لم يتوقف عن النزف) حتـى مـات، قـال الله تعالى : «بادرنى عبدى بنفسـه حرّمت عليه الجنة»..

الأسير، مع أنه قد يكون مقاتلا آذى وقَتَل، إلاّ أن روحه مصونة، بل هو مرعى محفوظ الحـق والكرامة، وإطعامه واجب على آسـره.. ففى القـرآن المجيد :.. ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ (الإنسـان ٨)، والمنّ عليه بإطلاقه من الأسـر سابق على الفداء.. ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾(محمد ٤).. الإسـلام الذى يحترم روح الأسير ولا يمسها، يحترم أيضا روح المعاهد الذى هو أصـلا من أهل دار الحرب الذين شنوا الحرب وقاتلوا وقَتَلوا.. روى عن عبد الله بن عمر، عن رسول القرآن ﷺ قال : «ومن قتـل معاهـدا لم يرح رائـحة الجنـة» .. وعنه عليه الصلاة والسـلام أيضا : «ألا من قتل نفسـا معاهـدة، لها ذمة الله، وذمة رسوله، فقد أخفر ذمة الله، ولا يرح رائحة الجنة»..

تقرير مبدأ شخصية المسئولية فى الإسلام، يصب فى النهاية فى صالح الروح الإنسانية وعدم جواز المساس بها ووجوب احترامها والنأى بها عن أى عقاب إلاّ لوزر شخصى ثبت فى حقها ثبوتا مؤكدا معدودا يستوجب عقابها حقا وعدلا.. بغير ذلك فإن الروح مصونة لا تُمس.. فى شرعة الإسلام أن المسئولية شخصية.. لا يسأل الشخص إلاّ عما فعل، لا محل لمساءلته شرعا عن فعل سواه مهما كانت درجة قرابته أو انتمائه إليه..المسئولية فى شريعة الله شخصية.. فى القرآن الحكيم : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴿١٣﴾ ﴾ (الإسراء: ١٣)، ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (الطور: ٢١).. وفيه أيضا : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (الأنعام ١٦٤، فاطر ١٨).. ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ (النجم ٣٨، ٣٩) .. ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (الزلزلة ٧، ٨).. - فلا يلحق العقاب، ولا يجوز أن يلحق، إلاّ بمن ارتكب الجرم وثبت فى حقه ثبوتا يقره الشرع والقانون، بغير ذلك تكون المساءلة ظلما، « ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ (غافر ٣١).

أينما يطوف المسلم، وغير المسلم - فى رياض الإسلام، يجد دوحة أظلت الروح الإنسانية بكل رعاية وأقامت سياجا عاليا لحفظها.. الدين الذى يقدم هذا كله، حرصا على الروح الإنسانية، وحماية ووقاية لها، ليس دين عنف ولا دين سيف ولا خنجر ولا مدفع ولا قنبلة.. آخر ما يمكن أن يتهم به الإسلام أن يقال إنه يبيح الاستهانة بالأرواح.. إن الدين الحنيف الذى يقيم هذه الترسانة الحكيمة لوقاية الروح الإنسانية واحترامها وحمايتها والحفاظ عليها - لا يستهين ولا يمكن أن يستهين بها.. هذا ادعاء باطل أظهر ما فيه بطلانا تعمده خلط الدفاع الشرعى بالاعتداء المؤثم.. الدفاع عن النفس والعرض والمال مباح فى كل شرائع السماء وقوانين الناس، ولكن يبقى للإسلام أنه قدس الروح الإنسانية تقديسا لا مثيل له فى أى دين من الأديان أو شريعة من الشرائع..هذا الدين الجامع الذى أنزله الله تعالى رسالة للعالمين.

الإسلام وشخصية المسئولية

لا يستطيع الكاتب أن ينفصل عن الواقع وعما يجول أو يدور فيه.. وواقع هذه الأيام يورى بأننا نعيش فى زمن انبهمت فيه قيم، واندثرت مبادئ أو تكاد، وعلا اللغط وانتشرت السطحية والانتهازية والتفاهة، وقل الوقار، وانعدمت أو تكاد القدرة على النظر الموضوعى، وعلى الرؤية الموضوعية والحديث الموضوعى.. انتقلت هذه الآفة من البسطاء أو الدهماء إلى بعض أصحاب الكلمة، وزاد الطين بلة أن لغة السياسة الرديئة سادت، مقرونة بانتهازية مقيتة، وبسطحية جوفاء، ولم تتوان الدول - ناهيك بالعظمى - عن الإدلاء بدلوها فيها، ففارقت كثيرا مما كانت تتزين وتتمنطق به وتدعو إليه من قيم العدل والحرية.. وانكشف الغطاء، فإذا القوة العظمى، والدول السائرة فى فلكها - تعزف ذات العزف، أو النشاز، وإذ القيم التى ادعيت لأجيال، سراب كان للزينة، انقضى عهده، واشرأب السلاح بنصله وسمه، يقول للعالم لا تصدقوا ما كان يقال بأمس.. القوة هى القوة، والغطرسة هى صنوها!. لا تصدقوا أن الحضارة التى أعجبتم بها حضارة إنسانية - لا!. لا قيمة فيها إلاّ للمادة، ولا معنى للحق والعدل والحرية.. هذه محض واجهات أو فتارين، اليوم انكشف الغطاء فإذا البصر حديد!. الحضارة الغربية بأنيابها لا تبغى إلاّ السيطرة والتحكم وتركيع وتسجيد العالم.. لا محل لقيم ولا لمبادئ.. ولا لحق ولا لعدل!!.

ومن الأسف المؤسف أن أصداء هذا السقوط عمت وشاعت، فإذا الجميع شركاء أو يكادون فى إهدار القيم وقلب المفاهيم وخلط الأوراق.. فى وطء شرعة العدل بالأقدام، أخذ الجميع واعين وغير واعين، ملتفتين أو ساهين، يهدرون مبدأ ساميا رفعته شرائع السماء قبل أن ينتبه إليه أهل الأرض، مبدأ «شخصية المسئولية» .. لم ينفع فى حمايته من غيلان الحاضر ما حملته كتب الأديان، ولا مواثيق أو قوانين بنى الإنسان.. ينظر الناظر فى هذا الملكوت فيصفعه أن إهدار هذه القيمة العظمى والمبدأ الرفيع، لم يتوقف عند جهالة الدهماء، بل تورط فيه أصحاب الرأى والكلمة، وكيف لا وقد صار سنة (؟!) متبعة لدى الدول وعلى رأسها القوة العظمى، الوحيدة الواحدة، واعتنقته لغة السياسة وكم

لها من مخالب وأنياب تبتعد بها عن العدالة حتى حق عليها قول شيخنا مكرم عبيد .. «السياسة والعدالة ضدان لا يجتمعان، وإذا اجتمعا لا يتمازجان.. العدالة من روح الله، والسياسة من صنع الناس».. وكم يفعل الناس بالناس؟!!

لا يسأل الشخص إلا عما فعل!

في القوانين الوضعية، مثلما هو في الشرائع السماوية.. أن المسئولية شخصية.. والجزاء شخصي، ولا تحل التبعة ولا المسئولية على أحد، إلاّ على ما فعل أو شارك في فعله.. المسئولية في شريعة الله، وفي القوانين الوضعية شخصية.. فلا محل لمساءلة شخص عن فعل سواه مالم يكن شريكا مساهما فيه..

في القرآن المجيد: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴿١٣﴾ ﴾ (الإسراء ١٣).. ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (الطور ٢١).. وفيه: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ (الأنعام١٦٤، فاطر١٨).. في القرآن أيضاً: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾(الزلزلة ٧، ٨) ..

من ضمان العدل في الإسلام، ألا يسأل الإنسان إلاّ على ما يفعل، ولا يسأل عن وزر أو خطيئة غيره.. فالإنسان في القرآن المجيد هو المخلوق المسئول.. وهذه المسئولية محكومة –عدالة– بضوابطها، وأولها أن مصير الإنسان معلق بيده وفعله، لا يسأل إلاّ على ما يصدر عنه، ولا يساءل عما فعله غيره قريبا كان أو بعيدا.. ما دام لم يشاركه إثمه أو يحرضه عليه أو يدفعه إليه.. كل إنسان طائره في عنقه، يحمل ثوابه كما يحمل خطيئته، إن أصاب فاز بثواب ما أصاب فيه، والحسنة بعشرة أمثالها، وإذا أخطأ لحقت به – دون سواه ـ جريرة خطيئته، والسيئة بمثلها. فكما هو بما كسب رهين، فإنه مسئول عما يفرط منه!

لم يعرف الإسلام خطيئة يحملها الأحفاد عن الأجداد، ولا الأهل أو الآباء عن الأبناء، ولا القريب عن قريبه، مالم يكن ضالعا معه فيها، حاملا بفعله وصنيعه مسئوليتها!

مؤدى هذا المبدأ أن الواحد لا يؤخذ بوزر آخر، وأن الأمة لا تؤخذ بوزر أخرى، وأن عقاب الوزر موقوف عليه، لا يمتد خارجه ولا يمس سواه!!

وما سبقت إليه شريعة الإسلام، سلمت به قوانين الناس.. فى كل دول العالم المتحضر.. حملت جميع الدساتير المصرية المتعاقبة، وأخيرا المادة ٦٦ من دستور ١٩٧١ أن: «العقوبة شخصية» .. فلا يلحق العقاب أو الجزاء، ولا يجوز أن يلحق، إلاّ بمن اقترف الجريمة أو الخطأ وثبت ذنبه ثبوتا مؤكدا يقره الشرع والقانون.

هذه المسئولية (الشخصية) قوامها الواقع، ولا تقوم إلا على الواقع، ولا مجال ولا جواز فيها للافتراض. وفيما أجمع عليه أهل الفقه والعلم، والقضاء.. أن المسئولية لاتتحقق عن فعل أو امتناع مؤثم إلاّ إذا كان ثابتا صدوره وإسناده إلى شخص ما محدد، وأن يكون نشاطه هو «السبب» فى وقوع الجريمة أو الخطأ أو الضرر أو النتيجة، ولم تعرف القوانين الوضعية، ولا المواثيق الدولية، مثلما لم تعرف الشرائع السماوية مسئولية عن عمل أو خطأ الغير.

لقد استقر فى ضمير وأحكام القضاء، على اختلاف مدارسه واختلاف دوله، أن من المبادئ الأساسية فى إقامة المسئولية ألاّ تزر وازرة وزر أخرى، وأن الجرائم لا تأخذ بجريرتها غير جانيها، وأن الجزاءات بصفة عامة، والعقوبة بصفة خاصة شخصية بحتة، وأن حكم هذا المبدأ أن الإجرام أو الخطأ لا يحتمل الاستنابة، وأن الخطأ الشخصى هو أساس المسئولية بكل صورها وأشكالها، وأن الإنسان لا يسأل إلاّ عن خطئه الشخصى.

لا أحد محسوب على أحد!!

يحلو للبعض، أن يلحق جرائر الناس. بعض الناس، بآخرين، وأن يعمم الخطاب تعميما جهولا لا يفرق بين من فعل ومن لم يفعل، ويخلط ـ عن جهل أو سوء قصد ـ بين مرتكب الجريمة وبين من سبق أن علّمه أو دَرَّبه أو هَيَّأه أو اختاره أو وَلاَّه أو عَيَّنه، أو كان منه فى موقع الرئاسة أو الإدارة أو التوجيه لا خلاف على أن مثل هذا الأخير يمكن أن يكون مسئولا عما عساه قد اقترفه أو ساهم فى اقترافه بالاتفاق أو بالتحريض أو بالمساعدة. القوانين تعرف من يسمى بالفاعل الأصلى، وتعرف أيضا من يسمى بالشريك أو المساهم. وكلاهما آثم فى نظر الشرع والقانون. هذا الإثم سببه وسنده أن الآثم مساهم حقيقى فعلى

فى الجريمة.. آثم بفعله أصليا كان أم اشتراكا، وآثم بقصده ونيته وخطيئته. إلاّ إنه بغير ذلك لامحل لتأثيم إنسان ولا لمساءلته عن جرم أو خطأ سواه مهما كان له من نصيب فى تعليمه أو إعداده أو تدريبه أو اختياره أو توليته.

ooo

لقد قام الرسل بما عليهم من نشر الدعوات، فَضَّل من ضل، واهتدى من اهتدى.. كل واحد من هؤلاء مسئول عن ضلالته أو عن هداه.. من ضل اليوم قد يهتدى بغد، فهدايته لـه.. ومن اهتدى اليوم قد يضل بغد، فعليه ضلالته.. لا أحد محسوب خطؤه أو ضلاله على نبى الدعوة أى دعوة،.. فكل إنسان مصيره وإرادته بيده، يُسأل عن فعله، ولا يُسأل عن سواه.. وفى القرآن المجيد: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴿١٠٨﴾ ﴾(يونس ١٠٨) .. وفيه أيضا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (المائدة ١٠٥).

كان يهوذا سمعان الإسخريوطى من الحواريين، ولكنه ضل وخان السيد المسيح عليه السلام، فهل هو محسوب على المسيح الذى خانه وتجنى عليه؟!!! .

فى الواحة المحمدية، شرب الصحابة من نبع النبوة، وتلقوا فى مدرسة رسول القرآن ﷺ، اختلفت منازلهم وأقدارهم بأعمالهم لا بأعمال سواهم .. وفى الفتنة الكبرى، التزم بعضهم بالإمام، ونفر آخرون وراء معاوية.. كلٌ مسئول عن اختياره وعن أسبابه لهذا الاختيار ونيته ومآلهم إلى الله فيما انتووا وفيما آثروا واختاروا.. سعد بن أبى وقاص اعتزل الفتنة، وابنه عمر بن سعد كان قائد الجيش الذى قتل أبا الشهداء الحسين بن على.. فلا عمر محسوب على أبيه سعد، ولا سعد مسئول عمّا انحاز إليه نجله عمر!! .

مقاليد الإنسان بيده..يحتكم - ويجب أن يحتكم - إلى عقله وضميره ليختار طريقه، وهو مسئول عن اختياره وعمله. ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ (الإسراء ١٣).

السياسة وشئونها!

على أن السياسة وشئونها، غير الدعوات ومبادئها.. وكثيرا ما تختلط الأوراق فى لغة السياسة، ويجرى الخروج وربما بسوء نية عن مبدأ شخصية المسئولية والجزاء.. اتباعا لأهواء، أو تصفية لحسابات، أو تحقيقا لأغراض، أو انتهازا لفرص، أو إشباعا لشهوات، أو شماتة فى بغيض، أو همزا ولمزا على سواه.. فتختلط أو تخلط الأوراق، وتنبهم الأصول، وتميع الحقائق، ويتصدر الزيف، وتعلو المغالطات للنيل من سياسى ما بقالة أن المخطئ واحد من رجاله أو من أتباعه أو من اختياره، أو أنه محسوب عليه، دون أن يكون مأخوذا عليه «خطأ محدد» يقيم فى حقه المسئولية عن «المساهمة» فى الجريمة أو فى الخطأ المنسوب للآخر المحسوب عليه دون معيار ولا ضابط ولا رابط.

لا جدال أن السياسى مسئول من الناحية السياسية والأدبية عن سياسته وعن قراراته وعن اختياراته.. مسئول عن إدارته لسياسته، وعن إدارته لرجاله المختارين أو المقبولين منه الذين يعهد إليهم بحمل مسئولية مشاركته فى المهام التى يضطلع بها.. ومسئولية الوزير بالذات مسئولية من نوع خاص، لا تفلته من المسئولية الجنائية إذا وقع فى حومة الجريمة، بأن ارتكبها شخصيا أو ساهم أو شارك فى ارتكابها، أما فيما عدا ذلك فإن مسئوليته من نوع خاص، أساسه أو علته أن الوزير من سلطاته إصدار القرارات واللوائح والتعليمات والأوامر، ولأنه سلطة إصدارها، فلا قيد عليه فيما يراه إلاّ المسئولية السياسية أو الأدبية باعتباره شاغلا لمنصب سياسى يملك منه سلطة رسم السياسات وإصدار اللوائح والأوامر والقرارات، ولا يقيده إلاّ أحكام القانون وحدها باعتبارها صادرة من السلطة التشريعية تقيده وتقيد سواه. أما سائر اللوائح والقرارات والأوامر فلا يتقيد بها لأنه واضعها ويملك سلطة تغييرها فى أى وقت ومن آن لآخر وفق السياسة العامة أو سياسة الوزارة وخطتها وأهدافها. وهذه السلطة الواسعة، لأهدافها وغايتها، يقابلها مسئولية واسعة أيضا جوهرها حسن استعمال السلطة والتوفيق والسداد فى استعمالها بما يحقق الأهداف المرجوه منها . فالسلطات الواسعة المعطاة للمواقع السياسية، لم تعط لمزية

شخصية، وإنما لتسخيرها للمصلحة العامة التى تحكمها اعتبارات عامة متعددة اقتصادية وسياسية واستثمارية واجتماعية. وهذا المنظور الواسع، اقتضى ويقتضى سلطات واسعة، ولكنها محكومة أساسا بالقانون المعبر عن السلطة التشريعية فى إطار المبدأ الدستورى «الفصل بين السلطات».. أما فيما عدا هذا فإن الاجتهاد والحركة والابتكار والإقدام والبت والحسم جميعها حسنات مطلوبة من الموقع الوزارى للمصلحة العامة وإلا نضب وتواضع وأقفر وجمد الأداء الوزارى وقعد عن تحقيق الغايات المأمول منه التقدم بجسارة وحكمة إليها.

الخطأ فى ذلك كله وارد، ومقدور، وينحل إلى مسئولية سياسية وأدبية واجبة، يدفعها الوزير أو صاحب الموقع السياسى من رصيده وربما من موقعه ذاته، ولكن ذلك لا يعنى تبادل صكوك الحساب، وحساب شخص على آخر، وتحميل الوزير مسئولية وزر أو خطأ أو جريمة لم يقارفها أو يساهم فيها شخصيا. المسئولية الجنائية بكل المقاييس شخصية لا يسأل الشخص جنائيا مالم يكن شخصيا فاعلا أصليا أو شريكا مساهما فى الجريمة. وفارق كبير ضخم بين هذا وبين مسئولية الاختيار التى قد تصيب وقد تخطئ خطأ لايمكن رده فى جميع الأحوال إلى من اختار، وإلاّ لأحجم الناس عن الاجتهاد وعن الاختيار!

مخالفات الدول أنكى وأضر!

تورط الدول فى مخالفة مبدأ شخصية المسئولية والجزاء، أخطر وأنكى وأشد وأضر من مخالفات الأفراد أو الجماعات غير المنظمة، وتأتى الجسامة– جسامة الخطر والضرر – من ناحيتين، الأولى أن الدول بحكم كونها أنظمة عاقلة أو مفترضا أن تكون عاقلة، ومحكومة بدساتير ونظم وفلسفات وحكومات، ينبغى أن تكون أكثر نضجا وأكثر فهما وأعرض رؤية وأعمق تقديرا وإنصافا من الأفراد والجماعات، والناحية الثانية أن مخالفات الدول للمبدأ تقترن دائما بأضرار أوسع بكثير، لأن دائرة المخالفة ذاتها أوسع بكثير مما قد يتحرك أو ينجز فيه أفراد أو جماعات غير منظمة. إن الشخص القاتل لغير الجانى أخذا بالثأر، يقتل – فى إهداره لمبدأ الشخصية – فردا أو فردين أو ثلاثة، أما الدولة التى توجه أجهزة

حربها إلى شعوب انتقاما أو تأديبا أو ردعا لحكومات، فإنها توقع الخسائر بالمئات والآلاف إن لم يكن بالملايين. لم تكن الولايات المتحدة على مبدأ شخصية المسئولية حين حاصرت وأجاعت وضيقت على الشعب الليبى أكثر من عشر سنوات لقاء ما اعتقدت –مصيبة أم مخطئة – أن الحكومة الليبية تورطت فيه بحادث لوكيربى. ولم تكن الولايات المتحدة على مبدأ الشخصية حين اجتاحت ودمرت بآلة حربها وترسانتها الضخمة الشعب الأفغانى الأعزل الفقير المعدم الذى لا ناقة له ولا جمل، لا فى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ولا بتنظيم « القاعدة » صحت مسئوليته عن الحادث أم لم تصح.. هؤلاء الشيوخ والنساء والأطفال – العراة، المعدمون، الجوعى – لا يعرفون موضع نيويورك ولا أمريكا كلها على الخريطة الأرضية، ولا يفهمون شيئا عن هذا الحوار أو الصراع الدائر فى عالم اليوم، ولا علاقة للغالبية العظمى منهم بتنظيم القاعدة الذى هو فى الحقيقة نبت خالص للسياسة الأمريكية. والآن تتورط الولايات المتحدة بترتيبها وإعدادها المصمم عليه لغزو وتدمير العراق طلبا لإسقاط حاكمها.. هى ليست – ومحال أن تكون – على مبدأ الشخصية – حتى لو استقامت أسبابها جدلا للقضاء على صدام حسين ـ إن ذات حجتها تعنى أن الشعب العراقى، ناهيك بالإنسان العراقى البسيط، مغلوب على أمره، تزيد الولايات المتحدة همه همين، وطحنه طحنين ، فتدمره وتنسفه عقابا له؟! على نصيبه العاثر الذى أخضعه لما ترى القوة الواحدة المهيمنة أنه عسف وبطش وطاغوت صدام!!!..

ويبدو أن حادث الحادى عشر من سبتمبر الدامى، والمؤسف، كان ذريعة لتحلل الولايات المتحدة من كل القيم والمبادئ التى قادت العالم عليها وازدانت بها أمامه عبر الأجيال الفائتة.. فدلت بذلك على صدق الرؤى العديدة للعلماء والباحثين الغربيين والتى جمعها الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى كتابه الضافى «الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ» .. تلك الرؤى العميقة التى ترد عنفى النازية والصهيونية كليهما إلى منبع واحد هو الحضارة الغربية التى قيموها بأنها تكنولوجية تعلى من قيم المنفعة والكفاءة والإنجاز والتقدم مهما كان الثمن، وترى أن البقاء للأصلح والأقوى دائما، وتهمل كثيرا من القيم «البالية» مثل التقوى والعدل والشهامة ومساعدة الآخرين. ومثل مبدأ شخصية المسئولية والجزاء. يرى هؤلاء الباحثون أن

الدليل على أن «النازية» – كالصهيونية – جزء أصيل من الحضارة الغربية، أن هذه الحضارة لجأت إلى ذات الحل حين سعت وتسعى لإبادة الشعب الفلسطينى وإحلال الصهاينة على أطلال جثثه، وهو هو ذات الحل الذى لجأت إليه الحضارة الغربية حين أبادت سكان أمريكا الأصليين لتحل المهاجرين الغربيين محلهم وليعيشوا فى هذه الأرض الجديدة بلا مضايقات من هذا الشعب الذى عدته الحضارة الغربية من الدرجة الثالثة أو الرابعة إن لم تكن قد صنفته – تعاليا – فى عالم الحيوان ! ! وبقيت تلك الحضارة على تفرقتها العنصرية وتعاليها على الفلول المتبقية من هذا الشعب حتى يومنا هذا ! !

خذ ما تناقلته وتتناقله – الآن – الصحافة العالمية والمحلية، عن «هجمة» أمريكية جديدة تكشف ابتعاد الحضارة الغربية وأمريكا فى مقدمتها عن كل قيم الحق والعدل والإنصاف، ومنها مبدأ شخصية المسئولية والجزاء، توالت الأنباء عن اتجاه أمريكى لتجميد – أجل تجميد – ممتلكات مؤسسات وأمراء ورجال أعمال سعوديين فى أمريكا، منهم ثلاثة من أفراد الأسرة الحاكمة هم : الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع، والأمير تركى الفيصل المدير السابق للمخابرات السعودية، والأمير محمد الفيصل، وذلك لما أسموه ضمانا لحق ضحايا سبتمبر المشئوم فى التعويضات. ولم يكلف أحد هناك خاطره الشريف ليبحث – مجرد بحث – ما سند هذا الافتئات والشذوذ عن مبدأ شخصية المسئولية فى انتهاك «أموال» و «ممتلكات» لآدميين. ولمؤسسات، لاحجة على أحد منهم ولا دور لأحد منهم ولا شبهة – مجرد شبهة – على أحد منهم فى أحداث سبتمبر المذكور ! !

ooo

واقع الحال، أن مبدأ شخصية المسئولية قد صار صريعا فى زماننا.. يتجاوزه الأفراد، وتتجاوزه السياسة، وتتجاوزه وتهدره الدول، ولا يلتفت إليه أصحاب الرأى والكلمة.. والمجنى عليه فى جميع الأحوال هو الإنسان الذى يتلقى هذه الطعنات على تنوعها، يدفع ثمنها من حريته ومن حياته ذاتها فى هذه المطحنة التى لا تتوقف ! ! .. ها هو ذا ضجيج تروس آلة الحرب الأمريكية، يلتهم العراق، والعالم يشاهد، ويرقب، محتبس الأنفاس، مغلوبا على أمره يشكو – كما الإنسان ! – العجز والإفلاس ! ! !.

ليس من الإسلام قتل النفس بغير حق!

ما حدث فى نجع حمادى عشية عيد الميلاد المجيد، يدينه الإسلام ويشجبه ولا يقره ولا يسمح به ويعتبره خروجا عن واحة الدين وما أمر به القرآن الحكيم.. وليس يبرره أو يشفع فيه أن يكون شاب مسيحى - فيما يقال! - قد اغتصب فتاة مسلمة بإحدى القرى هناك منذ فترة.. فجريمة الاغتصاب تلحق بالمغتصب، وعقوبته مغلظة تصل للمؤبد فى القانون الوضعى وتصل إلى الإعدام فى شريعة السماء.. ولكن جريرته لا تلحق ولا يجوز أن تلحق بسواه، لا بأحدٍ من ذوى قرباه، ولا بأحدٍ من ديانته أو طائفته أو ملّته.. بهذا أمر القرآن الحكيم ..

القرآن الحكيم هو الذى علمنا تقديس الروح الإنسانية.. فى المسلم وفى غيرِ المسلم.. فالكرامة وقداسة الروح هى لكل بنى الإنسان.. ففى القرآن المجيد: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء٧٠).. سبحانه وتعالى هو الذى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ (الرحمن٣، ٤).. سبحانه خلق الإنسان فسواه وعدله، وهو سبحانه القائل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الروم ٢٠).. ويقول جل شأنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴿٤٠﴾﴾ (الروم ٤٠).. هذه الأرواح خلقها الله، وأمْرها له سبحانه وتعالى، وروح الواحد هى روح الناس جميعا، وفى القرآن الحكيم يقول رب العزة: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾ (المائدة ٣٢)، فهذه الحياة هبة ربانية مقدسة، لكل إنسان بل وفى الحيوان.. وفى صحيحى البخارى ومسلم من حديث رسول القرآن ﷺ: «ليس من نفسٍ تُقتل ظلما إلاّ كان على ابن آدم الأول (قابيل) كفل من دمها، أنه أول من سن القتل»، وفى الحديث أيضا: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفس بغير حق». «وأن قتل النفس التى حرم الله من السبع الموبقات»!.

يعلمنا الإسلام، الذى قدس الروح الإنسانية، أن قتل الأبرياء – ناهيك بقتلهم غيلة– من أشد الموبقات، جزاؤه جهنم وغضب الله ولعنته، وما أعده للقاتل من عذاب أليم (النساء ٩٣)، وعلمنا أن المسئولية فى الدنيا وفى الآخرة لا تلحق بأحد إلاّ عن فعله هو لا عن فعل أو عمل غيره..لا مجال فى شرعة الإسلام لأن يتحمل أحد أو يُحمل بوزر أو خطيئة غيره حتى لو كان من أقرب ذوى قرباه.. ففى القرآن الحكيم: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ (الإسراء ١٣) ، وفيه أيضا: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (مريم ٩٥).. من مبادئ المسئولية فى شرعة القرآن الحكيم أن لا تزر وازرة وزر أخرى، فيقول الحكم العدل: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴿١٨﴾ ﴾ (الأنعام ١٦٤، فاطر ١٨)، وفى سورة النجم، قال عز من قائل: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ (النجم ٣٨، ٣٩).. لا يُمنح الثواب، ولا يقرر الجزاء، إلاّ لقاء العمل الشخصى.. خيرا أو شرا..﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾(الزلزلة ٧، ٨) .. لا يعرف الإسلام عقوبة تصيب بريئا، ولا شهادة تجامل قريبا، أو شنآنا يبرر تحاملا.. فالشاهد لا يشهد إلاّ بالحق ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (النساء١٣٥)، ولا يبرر له شنآن فرد أو جماعة أو قوم أن يحيد فى عمله أو سلوكه أو شهادته عن العدل أو الحق، فإنصاف الشانئ نفسه واجب، ولا يسقط شنآنه واجب العدل والتزام الحق معه، بل يجب على المسلم أن يعدل معه فى كل الأحوال، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المائدة ٨).

فالله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴿٩﴾ ﴾ (الصف ٩)، وهو سبحانه الذى أمر رسوله بأن يبلغ الناس رسالة ربه بأنه عز وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴿٩٠﴾ ﴾ (النحل٩٠)، وأنه تعالت حكمته: لا يقبل الظلم لأحد، مسلما كان أو غير مسلم، ويقول فى كتابه المبين: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ (غافر ٣١).

الذين حصدوا حصدا عشـوائيا أرواح الإخوة الأقبـاط الخارجين من الدير وفى موقعين تجاريين فى نجع حمادى، قد ارتكبوا إثما كبيرا وأتوا أمرا تشجبه وتدينه شريعة الإسلام، ويخرج عن مبادئ وأحكام وعقيدة هذا الدين الذى كرم الروح ورعاها فى كل مخلوق حتى فـى عـالم الطير والحيوان.. وفى الحديث: «من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة يقول: يارب، إن فلانا قتلنى عبثا»!.

إن قتل الأبرياء بغير حق، لا يتفق والدين، ولا يصحح خطأ، ولا يشفى غليلا.. الجانى المتهـم باغتيال عرض الطفلة واغتصابها، لا يزال حيّا يرزق، ينتظر حكم القانون.. والذين اغتالوا الأرواح البريئة، وأدموا الثكالى والأرامل والأطفال الذين يتموا، لم ينجزوا بجريمتهم النكراء عملا، ولا أقروا عدلا، ولا حققوا غاية يقرها العقل والعقلاء.. الشـىء الوحيد الذى أنجزوه، هو بث الاحتقان وإشعال النيران على غير حجة أو منطق!! من الحمق أن يدفع الأبرياء ثمن جرم لم يرتكبوه، ومن العماء الضرير أن يُحسب خطأ أو جريمة فردٍ على أبرياء لمحـض الاتفاقً فـى الدين.. تُرى ماذا كان الثائرون فاعلين لو كان الجانى الذى اغتصب الطفلة المسلمة مسلما؟! هل سيحملون الأسلحة ليعملوا القتل والاغتيال فى المسلمين، وماذا لو وقع اغتصاب من مسـلم على مسـيحية، هل تقبل سـنن الحق والعدل ويقبل العقل أن يشـرع المسيحيون الأسلحة لقتل المسلمين لأن واحدا منهم جمح وأخطأ وارتكب إثما كبيرا هو الذى يجب أن يحمل جـريرته فى الدنيا والآخرة؟!!.

لا معنـى لهذه الجريمة البشـعة يمكن أن يقره عقل، ناهيـك بالدين وأحكامه.. فهذا العمـل الضرير لا ينطلـق إلاّ من مجرد اختلاف ديانة الجانى والمجنـى عليها، وهو أمر حدث وسـيظل يحدث ما بقى الشـر والخطيئة عالقين بالآدمى.. أيا كانت ديانته وديانة المجنـى عليها.. وليس مـن الحق ولا من العدل ولا من العقل أن تحمل طائفة بأسـرها، مسـلمة كانت أو مسـيحية، مغبة جانح خرج على شـريعة دينه ذاته حين استباح عرضا لطفلة بغير حق.. خطأ الجانى جنوح شخصى، لا هو خطأ دينه ولا هو خطأ الطائفة التى ينتمى إليها أو يحسب عليها!

هل معنى اختلاف الدين تبادل العداء على غير حجة أو منطق أو عقل؟!

والقرآن المجيد هو الذى قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ (هود ١١٨).. وفى القرآن دلالة على الأصل الواحد لجميع الأديان، يقول الحق جل وعلا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة ١٣٦).. والقرآن الحكيم هو الذى جرت آياته على ما يحفظ العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، فقال تعالت حكمته: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ (المائدة ٥)..أباح الإسلام للمسلم طعام أهل الكتاب وأن يتزوج منهم وأن تبقى الزوجة على دينها ويبقى هو على دينه، لها كل ما للزوجة المسلمة من حقوق سواء بسواء.. ولم يتحدث كتاب عن السيد المسيح عليه السلام بمثل الحديث البليغ الرائع الذى ورد فى القرآن: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (آل عمران ٤٦، ٤٥)..

والقرآن المجيد هو الذى خص النصارى بإشارة خاصة لما بينهم وبين الإسلام والمسلمين من مودة ورحمة فقال تبارك وتعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (المائدة ٨٣، ٨٢).

والإســلام منحوت اسمه من لفظ الســلام، وتحيته هى الســلام، والسلام مهجة وروح الإســلام، تحية الله للمؤمنين تحية سلام: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الأحزاب ٤٤)، ومســتقر الصالحين – دار أمن وســلام: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (يونــس ٢٥).. ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (الأنعــام ١٢٧).. والأمن والأمان هما غاية الإسلام.

من أميز ما فى الإســلام،أن جميع المبادئ والأحكام التى قررها تصب فى آليات تحقيق الأمن والأمان المجتمعى التى يحــرص عليها الإســلام، لأمان الإنســان – كل إنســان – على روحه ونفســه وعرضه وماله، فهذا الأمان هو مهجة وعمود وغاية كل المبادئ والقواعد والأحكام الإسلامية.. وليس أجزى للإنسان، وأمان مجتمعه، من دين يطوى الناس جميعا فى أسرة إنسانية واحدة ينعم فيها الكل بالأمان، ولا تفاضل فيما بين أفرادها إلاّ بالتقوى والعمل الصالح.. وصدق تبارك وتعالى إذ قال فى كتابــه المبين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات ١٣).

ooo

«وكلهم آتيه يوم القيامة فردا»

استحضر انتباهى آية فى القرآن الكريم تنذر المنكرين والكفار والمعاندين، بقول الحق جل علاه: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (مريم ٩٥)..

ومن يقرأ القرآن المجيد، يلاحظ كيف أن النذير القرآنى قد أتى فى كل مواضعه بالغ الحكمة شديد الوقع نافذ الحجة، أينما يتابعه فى الكتاب المبين، يلمس هذه الخصائص مجتمعة، فالحق سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، وفى سورة آل عمران: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ (آل عمران ١٩٦-١٩٨)، وكما ترد البشارة والوعد، يأتى الوعيد فى موضعه منذرا بالعذاب الأليم، وربك سبحانه لا يظلم أحدا، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلاّ مثلها وهم لا يظلمون.. ومع غفرانه وتوبته سبحانه وتعالى على من يتوب إليه، فإن الآيات المبينة تقرن شدة العقاب بغفران الذنب وقبول التوبة، فيقول جلّ شأنه فى مستهل سورة غافر: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ (غافر٣).. ونرى فى آيات سورة مريم، بعد أن عددت صورا من عناد المنكرين أو ادعاءات المدعين، وتطاول البعض وتمنيهم الأمانى أنهم سيرزقون فى الجنة أموالا وولدا، وكفرهم بآيات الله، واتخاذ بعضهم من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا، وزعم بعضهم أن الملائكة بنات الله، أو أنه سبحانه وتعالى قد اتخذ ولدا، ترى الآيات لا تكتفى ببيان ما فى ذلك من منكر وفظاعة وبهتان، وإنما جاء النذير فى آيتين من سورة مريم بالغ الدلالة فى تقريع المعاندين واستحضار انتباههم إلى ما يفوتهم ويغيب عن حسبانهم، فتقول الآية (٩٣) من سورة مريم: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (مريم: ٩٣).. فقد أحصاهم تبارك وتعالى وعدهم عدا، ثم تقول الآية (٩٥): ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾..

قمة الحجة والبلاغة والمزاوجة بين العبودية التى لا يعز عليها مخلوق إلاّ ويأتى إلى الرحمن - ولاحظ صفة الرحمة التى أوردتها الآية هنا! - إلا ويأتى إليه عبدا خاضعا ذليلا لا يملك شيئا مما كان يتباهى أو يفاخر به أو يومئ إليه أو يعاند فيه.. الكل بلا استثناء عباده، لا يعز منهم أحد على حساب ربه الذى أحصاهم عددا وأحصى ما صدر عن كل منهم، ومع ذلك تقرن الآية هذا الوعيد والنذير بصفة رحمته.تباركت أسماؤه.. فى هذا اليوم لا ظهير لأحد لا نصير، ولا عزوة ولا قبيلة ولا أحزاب ولا عصبية، وإنما يأتى الجميع فرادى.. فردا فرداً..لا مال يعينه ويؤازره، ولا نصير يؤيده ويدعمه، ولا ملاذ له فى عصابة أو قوة أو أسرة أو قبيلة أو قوم.. فالكل آت إلى الله تعالى يوم القيامة فردا.. حسابه أمامه سبحانه وتعالى على ما قدمت يداه وسلك فى دنياه.. ففى القرآن المجيد: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ (الإسراء ١٣).

شخصية المسئولية ملمح قرآنى بالغ الحكمة، فالإنسان مسئول فى شريعته عما يفعل وعما يدع، يثاب وينجو بعمله لا بوساطة ولا بشفاعة الكهان أو الأحبار والرهبان.. يأتى إلى ربه فردا لا نصير له من مال أو جاه أو منصب أو عزوة أو قبيلة أو حزب، مصيره معلق بسجله وفعله، يأتى منسلخا من كل ما انتصر به أو تجبر أو اعتز أو اغتر فى دنياه .. طائره فى عنقه لا فى عنق سواه، عبد فرد خاضع ذليل إلى ربه، لم يخرج من الدنيا برصيد البنوك أو تلال الثروة أو سجلات المجد والفخار، أو صفحات التجبر والطغيان، أو أضغاث الأوهام.. لا يحمل إلاّ كتابه بيمينه أو بشماله، فيما وصفه القرآن المجيد وصفا بليغا يحمل بيانه لمن يعتبر.. فيقول عز وجل: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الحاقة ١٨-٣٣).

الوسطية وأثرها فى تكوين الشخصية الإسلامية
كفالة الأمن المجتمعى

تجرى أفكار البشر وعقائدهم كما يجرى سلوكهم على قنوات وفى اتجاهات عدة، قد تتطرف إلى أقصى اليمين، وقد تنحدر ببعضهم إلى أقصى اليسار فى تيارات تختلف مسمياتها باختلاف تخومها ومعالمها.. يتوسطها الاعتدال نهجا يختطه ذوو البصر والبصيرة ويقبل عليه المهتدون والعقلاء.

والوسطية سجية من سجايا القرآن الحكيم، وفضيلة جعلها الحق سبحانه وتعالى ضابطا لفكر المؤمن وخلقه وشعوره وسلوكه، فالوسط أو التوسط: هو العمل والاعتدال، وهو القوام بين النقائض أو بين الإفراط والتفريط.. ومن هنا كانت الوسطية سنة محمودة وغاية مرجوة لم تذكر فى شرعة الإسلام إلا فى معرض التزجية والتنويه والثناء..

إن الأمة الإسلامية قد تبوأت مكان الصدارة بين الأمم بدينها الذى به اهتدت، وبنص القرآن الذى به شرفت: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» .. فإذا كانت هذه منزلتها، فإن آية الآيات على مقام الوسطية وفضلها فى شرعة القرآن أنها جاءت فى الذكر الحكيم عنصرا من عناصر صدارة الأمة الإسلامية، وسببا من أسباب امتيازها بين الأمم ؛ بل والشهادة عليهم.. يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (البقرة ١٤٣).

ooo

والوسطية الإسلامية، فضلا عن كونها قيمة وشميلة، فإنها أحد العوامل الأساسية فى أمان المجتمع وحمايته من الجنوح والتطرف، وتجرى ضميمة مع شجرة «المساواة» التى يتساوى فى رحابها المسلم وغير المسلم، وتقى المجتمع من الاحتقان وفورات الإحساس بالظلم أو القهر أو الدونية، مكفولة باحترام الإنسان وقدسية روحه، باعتبارها أهم الركازات الأساسية التى تحفظ أمان المجتمع وتبث الطمأنينة والسلام بين آحاده ومجاميعه!.

والغلــو والتطــرف هــو أخطر ما يهدد أمــن المجتمعات، والتطرف إيغــال فى البعد عن أواســط الأمور، وهذا من أســف واقع أحوال الناس، ذلك أن أفكار البشــر وعقائدهم تجرى كما يجرى ســلوكهم على قنوات وفى اتجاهات عدة قد تتطرف إلى أقصى اليمين وقد تنحدر ببعضهم إلى أقصى اليســار فى تيارات تختلف مســمياتها باختلاف تخومها ومعالمها.. يتوســطها الاعتدال نهجا يختطه ذوو البصــر والبصيرة ويقبل عليـه المهتدون والعقلاء.

والتطــرف خلــل واضح فى اتزان الآدمى، وخلل هذا الاتــزان لا يحس به صاحبه فى الأغلب الأعم، إنما يشــعر به من حوله ومن يتعاملون معه ، فيحتاطون منه ويتحاشــونه ما أمكنهــم، ويتفادون مبالغته فى التعصب والعداوة والبغضــاء والغضب والتصلب وغرابة الحقد، مثلما يتحاشون ولعه بالشدة والانتقام، أو يكرهون ما يبديه من شدة البخل والشح والتقتير على أهله أو نفســه، أو من كثرة الإســراف والإفــراط والإتلاف، أو ما يبالغ فى تأكيده والإصرار عليه من انتحال العظمة والأهمية، أو من ادعاء الجمال أو الكمال أو الغنى أو العلم أو الأصل أو الفصل!

خطــورة هــذا الخلل فى اتزان الآدمى تغدو أكثر أهميــة وخطرا إذا ما أصاب الحاكم والقائد والقاضى والمفكر وأصحاب المهن الحرة، لأن هؤلاء يقومون بخدمات عامة للمجتمع ومؤســســاته وتوابعها، وهــم وإن كانــوا يحملــون تبعات ما يقومون به أو يقدمونه وتنعكس عليهــم، إلاّ أن الأضرار المترتبة على خلــل الاتزان كبيرة أوصغيرة تصب وتقع دائما على الناس كجماعات أو كأفراد!!

والوسطية هى صمام الأمان الحقيقى من كل صور التطرف والغلو، هذه الوسطية سجية من سجايا القرآن الحكيم وفضيلة إسلامية، وقد عاش الإسلام وعاش المجتمع الإسلامى فى أمان لأن الإســلام دين الفطرة والوســطية بلا تطرف ولا غلو ولا مغالاة.. عالج واقع الحياة وواقع الإنســان معالجة واعية متفطنة تســتخرج من النفس الإنسانية خير ما فيها وتحاصر ســلبياتها القائمة أو المحتملة، وتواجه الواقع بأفضل مــا تصلح به الحياة والأحياء.. فى كل زمان ومكان.. والوســطية هى ضابط فكر المسلم وشــعوره وسلوكه، فالوسط أو الوسطية

هـو الاعتـدال والقوام بـين النقائض أو بين الإفـراط والتفريط.. ومن هنا كانت الوسـطية سـنة محمودة وغاية مرجوة لم تذكر فى شـرعة الإسـلام إلا فى معرض التزجية والتنويه والثناء.

إن الأمة الإسـلامية قد تبوأت مكان الصـدارة بين الأمم بدينها الذى اهتدت به وبنص القرآن الذى به شرفت: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾ ﴾ (آل عمران ١١٠).

هذه الوسطية ما كان لها أن تكون ركيزة للصدارة وسببا لمقام الشهادة على الأمم لولا أثرها كمقوم أساسـى فى تكوين الشخصية الإسلامية بهداها وسوائها وبصيرتها وإنصافها.. وهى الصفـات التـى تؤهل الأمة لما أعدها القرآن المجيد له وكرمها به.. فقد دلنا القرآن الحكيم على أن التوسـط هو قوام الفضائل كلها من عقائد وعبادات ومعاملات.. وخصلة أصيلة من خصال المسلم، وإطار حميد فى مسائل العبادة والأخلاق والشعور والسلوك.

وفـى القصـد والاعتـدال فـى الشـعور: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الحديد ٢٣).

وفى صفة عباد الرحمن المتوسـطين فى انفاقهم بيـن السـرف والتقتير: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (الفرقان : ٦٧)

إن «الوسطية» كمنهاج زكاه القرآن الحكيم وحث عليه المصطفى ﷺ ليست حجرا على العقول ولا هى غلق للاجتهاد أو دعوة للجمود، وإنما هى معيار موضوعى.. منار المؤمن فيه القرآن والسنة، وهما فيما أوصيا به لم يغلقا بابا للرأى أو بابا للاجتهاد ما داما فى إطارهما الصحيح الذى تمثل الوسطية سمة أساسية من سماته..

وإذ كان الرأى والاجتهاد مندوبا إليهما، فإن الوسطية حصن المؤمن فيما يراه وفيما يسـلكه.. يقول المصطفى ﷺ : «خـير الأمـور أوسـاطها»، ويقول الإمام على وكان نجيبا فى مدرسة النبوة: «اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هى الجادة عليها باقى الكتاب وآثار النبوة ومنها منفذ السنة وإليها مصير العاقبة هلك من ادعى وخاب من افترى».

الوسطية ونبذ الغلو والتطرف ملمح رئيسى وأساسى من ملامح الإسلام، وسر من أسرار قدرته على احتواء كافة التيارات.

الوسـطية، تمثل العدسـة أو البوصلة التى تضبط فكر المسلم وخلقه وشعوره وسلوكه .. ومسـئوليته أيضا .. ولم تذكر الوسـطية فى شرعة الإسلام إلاّ فى معرض التزجية والتنويه والثناء.. من مقامها المحمود أن وصفت بها الأمة الإسـلامية ذاتها.. ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (البقرة ١٤٣) صدرت فلسفة الإسلام عن هذه الوسطية.. فى التنسك والعبادة.. ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ (البقرة ٢٣٨).

والمطالع للقرآن الكريم يلمح هذه الحفاوة بالوسطية فى ما زكى إليه من خصال وسجايا وأخلاق..فالكرم وسـط بين الشح والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والتواضع وسط بين الكبر والمذلة أو الاستخذاء، والحياء وسط بين الخور والوقاحة، والحلم وسط بين الطيش والقعود، والعدل وسـط بين الظلم والمحاباة، والرفق وسـط بين العنف والإضاعة. الوسـطية فـى الإسـلام منهاج يجمع الشـمائل بلا تفريـط ولا مغالاة.. الغلو نفسـه آفة مرفوضة.. يحذر منها رسـول الـقرآن ﷺ فيقول : «إن هذا الدين متين ولن يشـاد الدين أحد إلاّ غلبه. فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى». الوسطية سجية محمودة.. «خير الأمور أوساطها».

ooo

الإنســان فى القرآن الكريم

طالما تساءل الإنســان ولا يزال يتساءل منذ بدء الخليقة.. أسـئلة تصاعدت أعدادها، وتشـعبت مسالكها فى القرن العشرين.. القرن الذى تجمعت فيه الأسئلة عن كل نسبة من نسب الإنسان.

ما مكانة الإنسان.. فى هذا الكون كله؟.

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء؟.

ثم.. ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى؟.. وبين كل جماعة من هذا النوع الواحد؟ أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان الإنسان؟..

بهذه الأسئلة التى طالما راودت الإنسان.. ولا تزال تراوده.. يقدم عباس محمود العقاد.. كاتبنا ومفكرنا الكبير الراحل.. لكتابه القيم «الإنســان فى القرآن الكريم».. أحد شـوامخه العديدة التى صنعها على مدى خمسين عاما.. بالعرق، والجهد، والفكر، والإرادة الدءوب التى لا تعرف الكلل.. والجواب؟.

اسـتهل العقـاد كتابه القيم ببيان خلاصة فلسـفته ورأيه : «أن هذه الأسـئلة أسـئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية «.. عقيدة تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه , وصفوة إيمانه بغيبها المجهول!.. عقيدة تجمع له زبدة الثقة بعقله، وزبدة الثقة بالحياة.. حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان.

هـذه العقيـدة الدينية – فيما يقول – لا توجد اليـوم لتنبذ غدا، ولا توجد على الأيام للعارفـين دون الجاهلين، وللعاملـين دون الخاملين، ولمن يطلبون الخـير للناس دون من يطلبون الخير لأنفسهم، ولمن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورهبة.. ولمن يسعون سعيهم إلى العلم والإيمان دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين.

هـذه العقيـدة بنية حية.. قوامها دهور وأمم , ومعايـش وآمال، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق. سبيلها جميعا أن تهتدى إلى قبلة واحدة تنظر إليها فتمضى قدما، أو تفقدها فى الأفق فهى أشلاء ممزقة كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق؟..

العقيدة الدينية الجديرة بالرد على كل هذه الأسئلة والاستفسارات هى عقيدة القرآن.

فالقرن العشرون منذ مطالعه، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الإنسان وعلى الإنسانية، إلا إنه لم يعرض عليها حتى اليوم، قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن.. وهى عقيدة باقية خالدة.. بعظمتها وأحكامها وشمولها.. ما بقيت الحياة.

فقد استمع الناس إلى المادية التاريخية فوجدوها تنزل بالإنسان إلى مستوى العملة الاقتصادية فى سوق التجارة والصناعة.. تعلو وتهبط بمعايير العرض والطلب!.

واستمعوا إلى الفاشية فهالهم ما تزعمه من أن الإنسان.. الواحد.. من عنصر سيد أو عنصر مسود، واستمعوا إلى «العقلية» فوجدوها تنكر إنسانيتهم وتقول إنها شيء لا وجود له، ووهم من الأوهام، وإن الشيء الموجود حقا هو الفرد الواحد!.. وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى، كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث!.

وغيرها كثير من النظريات.. سمعها الناس من أهل العقائد الإلهية.. نظريات عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء، ومكانه من إخوته فى آدم وحواء.. بيد أنها لم تشف بدورها غليلهم أو ترشدهم إلى حيث تهدأ نفوسهم الحائرة المتسائلة..

ثم سمع الناس من القرآن الكريم غير ذلك..«الإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله.. يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، فلا تدركه الأبصار والأسماع.. والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد.. أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه».

هذه الحقيقة التى صدر بها المرحوم عباس العقاد كتابه القيم تحتاج إلى إثبات قائم على البحث والنقاش العلمى.. إثبات يهتدى به الباحثون عن الرشاد، وتسكت به السنة المعارضين : افتئاتا.. بغير حق.

طفق العقاد يسوق حججه حجة وراء حجة، فى عمق وأصالة، على صفحات الكتاب الذى قسمه إلى كتابين رئيسيين.. الأول عن الإنسان فى القرآن الكريم.. وفيه عرض إجابة القرآن عن كل الأسئلة التى تدور حول الإنسان فى هذا القرن وما سبقه من القرون..

موضحا من خلالها كيف وضعه الإسلام - دين القرآن - فى موضعه الصحيح الذى يتطلبه فلا تسعده عقيدة أخرى أصح له وأصلح من هذه العقيدة.. عقيدة القرآن فى الإنسان والإنسانية.

وفى الكتاب الثانى.. تحت عنوان الإنسان فى مذاهب العلم والفكر.. ومن خلال عشرة فصول متتالية.. أورد العقاد عرضا طريفا..شائقا وعميقا.. لنشأة الإنسان وموضعه فى مذاهب العلم والفكر، أو مذاهب الحدس والخيال.. ليعود فى النهاية إلى حيث بدأ.. مقارنا.. فى براعة العالم واقتداره.. بين ما تقرره هذه المذاهب وتسوقه.. على اختلافها.. وما تقره العقيدة القرآنية حول هذا الكائن الحي.. مكانه فى هذا الكون.. ومكانه على هذه الأرض بين كل ما يدب عليها من الأحياء.. ثم مكانه بين نوعه البشرى , وبين كل جماعة من هذا النوع.

المخلوق المسئول هو صفوة الصفات التى ذكرها القرآن عن الإنسان , إما خاصة بالتكليف أو عامة فى معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله.

فالإنسان قد ذكر فى بعض مواضع من آيات الكتاب الكريم بغاية الحمد، وفى مواضع أخرى بغاية الذم.. بل ذكر بهذا وذلك فى الآية الواحدة.

يقول جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء ٧٠)، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ (التين ٤، ٥)، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ (ابراهيم ٣٤)، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ (العصر ٢).

وليس معنى ذلك أن الإنسان يحمد ويذم فى آن واحد.. وإنما معناه أن الإنسان أهل للكمال والنقص بما فطر عليه.. وأهل للخير والشر لأنه أهل للتكليف.. والإنسان بهذا الاستعداد المتفرد بين مخلوقات الأرض ومخلوقات السماء هو أكرمها جميعا.. وإذا كان قد وصف فى القرآن بمساوئ لم يوصف بها غيره، فإنها مساوئ لا يوصف بها إلا مخلوق مسئول.. فالسيئة والحسنة لا ينعت بها غير المسئول لأنه غير أهل للقدح أو المدح.

والإنسان فى عقيدة القرآن.. مسئول عن عمله.. لا يؤخذ واحد بوزر آخر، ولا أمة بوزر أمة أخرى..

﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ (الطور ٢١)، ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴿١٣﴾﴾ (الإسراء ١٣)، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ (البقرة١٤١).

ومناط المسئولية فى القرآن جامع لكل أركانها المتفق عليها بين الباحثين المتعمقين فى حكمة التشريع الدينى أو التشريع الوضعى، فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة: تبليغ، وعلم، وعمل.

فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة .. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء ١٥).

والعلم هو أول ما تنزل على المصطفى عليه الصلاة والسلام فى أول ما نزل من القرآن المجيد. ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق ١، ٥)

أما العمل فهو مشروط فى القرآن بالتكليف الذى تسعه الطاقة.. وبالسعى الذى يسعاه المكلف لربه ونفسه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة ٢٨٦).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ (الزلزلة ٧ ، ٨)

فشريعة الإسلام لا تسأل الإنسان عما يجهل، ولكنها تسأله عما علم وعما وسعه أن يعلم.. وما من شىء فى عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الإنسان.. فما وسعه من علم فإنه محاسب عليه».

والقرآن الكريم كتاب تبليغ وإقناع وتبيين.. وقوام هذه الفضيلة فيه التوافق التام بين أركانه وأحكامه، وبين عقائده وعاداته، وبين حجته ومقصده.. فكل ركن من أركانه

يتنزل فيه بأقداره، ويوافق فى تفصيله سائر أركانه التى تتم به أو يتم بها، على قدر مبين».

وأمثلة ذلك فى الكتاب الكريم عديدة واضحة.. قاطعة فى بيانها وأحكامها.

فالتكليف - بداهة - يرتبط بالمسئولية، ويستند عليها.. والمسئولية لا تقوم بغير عقل يتلقى التبليغ والعلم ويهيئ النفس - بذلك - للعمل بما تكلف به..

ولــذلك...

ليس أتم ولا أعجب فى القرآن من هذا التوافق التام فيه بين تمييز الإنسان بالتكليف، وبين خطاب العقل بكل وصف من أوصافه، وكل وظيفة من وظائفه وملكة من ملكاته.. فالعقل بكل المعانى التى عرفت له موصول فى الكتاب المبين بكل حجة من حجج التكليف وكل أمر بمعروف أو نهى عن منكر.. أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يبصرون؟ أفلا يتدبرون؟ أفلا تتذكرون؟.

وخليق بالمسلم، وبكل دارس للأديان، أن يتنبه إلى هذه الفضيلة التى لا تراها فى غير القرآن من كتب الأديان.

فالبشرية لم تعرف قط قبل الإسلام تمييز الإنسان بخاصة التكاليف وإعداده لخطاب العقل وتبيان الإقناع.. وكانت الأمم قبل البعثة المحمدية تفهم النبوة على أنها استطلاع للغيب وكشف للأسرار والمخبآت.. كان منهم من يحسبها مجرد وساطة بين المعبود وعباده للتشفع إليه بالهدايا والقرابين.

ثم جاء الإسلام ليضع الإنسان فى أشرف مكان له فى ميزان الفكر وميزان الخليقة.. فهو الكائن المكلف.. يخاطب فيه صفته الباقية.. وهى خاصة النفس الناطقة والضمير المسئول.. الضمير الذى يحمل تبعته.. لا تغنيه عنها شفاعة ولا كفارة من سواه.

إنها نبوة فهم وهداية، وليست نبوة استطلاع وتنجيم.. هداية بالتأمل والنظر والتفكير، وليست بالخوارق والأهوال التى تروع البصر والبصيرة وتفزع الضمائر بالتخويف والإرهاب.. فهى نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا لا ضرا إلا ما يعملونه من خير أو شر بمشيئتهم.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ (الأعراف ١٨٨).

لذلك عندما جاءت سمعة المعجزة سهلة ميسرة لصاحب هذه النبوة، يوم مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس، وظن الناس أنها كسفت لموته، أبى محمد الصادق الأمين أن يسكت عليها، وأعلمهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته.

بذلك أغلق سلطان الأحبار، كما أسدل الستار على سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات!!.

لـذلك....

لا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة.. ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم إذا غاب عنه العلم. لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه، والروح إحدى العقائد الغيبية فى القرآن.. والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس التدين. تقوم عليه كل ديانة يطمئن إليها ضمير الإنسان.. ولكن الفضيلة الكبرى فى عقائد القرآن الغيبية أنها لا تعطل عقول المؤمنين بها، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسئول.

وعقيدة الروح.. فى القرآن.. هى إحدى العقائد «الغيبية» التى تلمس فيها هذه الفضيلة.. ذلك بأن الإيمان بالروح لم يفرض على العقل البشرى فى هذا الكتاب بصورة تنفصم بها النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين خلق الإنسان روحا وخلقه جسدا.

فالروح والجسد فى القرآن الكريم .. ملاك الذات الإنسانية.. تتم بهما الحياة، ولا غناء فى إحداهما عن الآخر.. لكلاهما حقه فى عقيدة الإسلام.. عقيدة على هداية واحدة.. نحس بالروح كما نحس بالجسد.

وقد كثر جدل حكماء اليونان وفلاسفته من قديم حول العقل والروح والجسد.. ورتبوها على حسب صفائها وعلو جوهرها.. فكان العقل عندهم أولها وأشرفها. لأن جوهر العقل المطلق هو الله جل شأنه، والعقل الإلهى هو العقل الفعال المنزه عن المادة، ثم تأتى الروح والنفس بعد ذلك.. الروح أقرب إلى عنصر النور، والنفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب.

أمـا كمـال هذه القـوى فى لغة القرآن، فإنـه مقيس إلى كمال الله عـز وجل.. أرفعها وأشرفها ما كان أقربها إلى الصفات الإلهية، وأدناها ما كان أبعدها عن تلك الصفات.

والمقابلة فى القرآن بين هذه القوى توحى بأن الروح.. وهو الجانب الذى اسـتأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه.. هو أقربها إلى الحياة الباقية، وأخفاها عن المدارك الحسية، لأنه سـر الوجود المطلق، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء ٨٥).

أمـا العقل، والنفـس.. فالراجح فى بيان القـرآن أن النفس أقربهمـا إلى الطبع والقوة الحيوية التى تشمل الإرادة كما تشمل الغريزة، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية.

والعقل.. يتوسـط بين القوتين.. الروح، والنفس، فهو وازع للغريزة، ومسـتلهم لهداية الروح، فالإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه، فيتصل من جانب النفس بقـوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسـدية، ويتصل من جانـب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم، وعلمه عند الله.. وحق العقل أن يدرك ما فى وسعه وطاقته من جانبه المحدود، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام.

وفى القرآن الكريم خطاب متكرر إلى العقل.. وبيان متكرر لحسـاب الإنسـان العاقل على الخير والشر، مع إسناد الإرادة إليه.. وهناك آيات أخرى صريحة تسند الإرادة إلى الله الخالق الفعال لما يريد.. فكيف تجد مسـئولية الإنسان طريقها المبنى على الإرادة من خلال ذلك؟.

يقول العقاد: إن من شـروط التكليف طاعة وحرية.. وهذه بدهية يغفل عنها كثير من المجادلـين فى قضية الإيمان، وفى قضية التكليف والجزاء، فيقصرون النظر على شـرط الحرية، ويهملون شرط الطاعة، كأنه مناقض للجزاء، وكأنه من اللازم عقلا أن يكون الجزاء مقرونا بالحرية المطلقة. فالحرية المطلقة.. لكل مخلوق.. استحالة عقلية.. والإرادة الوحيدة المطلقة هى إرادته جل شـأنه .. أما إرادة الإنسـان فليست مطلقة من كل القيود، ولا يمكن أن تكون كذلك.. لأن إرادة هذا شأنها هى فى حقيقتها قيد على كل إنسان سواه.

لا يمكن أيضا أن يكون الحكيم الخبير قد خلق الناس مكلفين بغير إرادة لهم على الإطلاق، هى إذن الإرادة المخلوقة التى يودعها الخالق فى الإنسان كما ينبغى أن تودع.. إرادة ولكنها ليست مطلقة من كل القيود، والحرية المخلوقة حرية صحيحة.. ولا يقال إنها ليست بحرية.. لأنه لا معنى للحرية من وراء إرادة الخالق وإرادة المخلوق.

ومن خلال هذه المعانى البارزة تجد إرادة الإنسان وحريته، طريقها.. إرادة مخلوقة وحرية مخلوقة بالقدر الذى يجعلها أهل للمسئولية والتكاليف.

وقضية الخلق .. خلق الإنسان ومكانه بين أبناء نوعه البشرى.. آخر القضايا التى يعرض لها العقاد فى عقيدة القرآن الكريم.. ليخلص فى نهاية بحثه - الوافى الشائق لما قالته مذاهب الفكر والعلم، والتطور والنشوء فى هذه القضايا - إلى كمال عقيدة القرآن، وكيف يجد الإنسان فى رحابها مكانته اللائقة التى هى أشرف مكانة لمخلوق فى ميزان الفكر وميزان الخليقة.

فهى عقيدة لا تنزل بالإنسان إلى مستوى العملة الاقتصادية فى سوق التجارة والصناعة.. تعلو وتهبط بمعايير العرض أو الطلب، وهى عقيدة لا تزعم أن الإنسان من عنصر سيد، وآخر مسود.. وهى لا تنكر الإنسانية وتدعى أنها شىء لا وجود له، ووهم من الأوهام، وأن الموجود حقا هو الفرد الواحد !..

لقد وضع القرآن الإنسان - علما ودينا - فى موضعه الصحيح حين جعل تقسيمه الحق أنه ابن ذكر وأنثى، وأنه ينتمى بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الإخوة فيها بغير التقوى والعمل الصالح .

فالإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد.. لا عصبية ولا عنصرية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات ١٣).

وهذه الوحدة فى صلة الإنسان بالإنسان، مشدودة الأزر بالوحدة بين الناس كافة فى الصلة بالله.. ربهم ورب العالمين. الذى يسوى بينهم، ويدينهم بالرحمة والإنصاف، ثم لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا بقسطاس العدل، أيهم أحسن عملا وأقرب إلى التقوى واستباق الخيرات: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110) ﴾ (الكهف ١١٠).

ولقد كان من الحق فى ذمة العلم – فيما يقول العقاد – أن يتريث علماء المقابلة بين الأديان طويلا عند هذه المرحلة العظمى فى تاريخ العقيدة وفى تاريخ الفكر، وفى تاريخ القيم الأخلاقية، بل فى تاريخ الحياة الإنسانية من مطلعها فى ظلمات الماضى المجهول إلى هذا الأوج السامق الذى ارتفعت إليه بعد ألوف السنين، وما كانت لترتفع إليه بعمل ولا عقيدة غير العقيدة فى رب واحد هو رب العالمين. العقيدة التى تركت جميع موازين المفاضلة بين بنى الإنسان وفاضلت بينهم بميزان التقوى والعمل الصالح: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (13) ﴾ (الحجرات ١٣).

وليس أكرم ولا أحكم للإنسان من هذه العقيدة.. عقيدة القرآن.. التى تضعه فى موضعه الذى يتطلبه، مقدمة للقرن العشرين إنسانه الذى ليس من إنسان أصح منه وأصلح لزمانه.

ooo

سقوط نظرية دارون؟!

نشرت بعض صحف السبت ٢٠٠٩/١٠/٣ أن فريقا من العلماء الأمريكيين فى أصول الجنس البشرى، توصلوا إلى هيكل عظمى بشرى لأثيوبية مضى عليه حوالى ٤،٤ مليون سنة، فيما يعد أقدم هيكل بشرى أمكن الوصول إليه، وأطلق عليه فريق البحث اسم «أردى». وأعلن الفريق البحثى، وهو من جامعتى كين ستيت وكاليفورنيا، فى تقرير نشرته مجلة «Science»، أن الكشف يسقط نظرية دارون التى أثارت ضجة هائلة منذ ظهورها فى أخريات القرن قبل الماضى، فالهيكل البشرى المكتشف واحد من أسلاف البشر القدامى يرجع إلى أكثر من أربعة ملايين سنة، وأقدم بنحو مليون سنة من هيكل «لوسى» التى كانت أحد أهم الأصول البشرية المعروفة. أما هيكل « أردى » المكتشف حديثا، فهو لأنثى قيل إنها بطول ١٢٠سم، وأنه وإن كان الرأس يشبه رأس القرد، إلاّ أن تجويف الحوض لديها يظهر أنها كانت تسير منتصبة كالبشر لا منحنية على مفاصل الأصابع كالشمبانزى والغوريلا!.. فهل أسقط هذا الكشف نظرية دارون فى النشوء والتطور والارتقاء وأصل الأنواع؟!

هذه النظرية وضعها دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢)، هو عالم طبيعى إنجليزى، درس الطب فى أدنبره نزولا على رغبة أبيه، ولكنه لم يجد ميلا للعمل بالطب وبدأ يدرس العلوم فى كيمبردج، وشغف بالتاريخ الطبيعى، وقام برحلة بحرية على الباخرة «بيجل» استغرقت خمس سنوات، وكانت بداية لأبحاثه فى النشوء والتطور والارتقاء، ووضع كتابه: «أصل الأنواع».

كان لمذهب دارون أثر كبير فى الميدان البيولوجى، وفى الفلسفة وميادين المعرفة الأخرى، وأدت دراساته إلى التساؤل عن الاعتقاد فى الخلق الخاص بكل نوع من الأنواع، وهى نظرية كانت موضع اعتقاد علماء عصره، فتقدم بالبيانات التى جمعها عن تطور الأشكال الحيّة جميعها من أصل واحد مشترك. وخلص إلى أن هناك كفاحا من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد، وأكد وجود تغير فردى فى داخل النوع، وأن الأفراد ذوى التغير

الأكثـر ملاءمة يكون لهم حظ أوفـر للبقاء. وأن بعض هذه التغيرات ينتقل للخلف ويحتفظ بها فى الأجيال التالية.. وهذا هو مبدأ الانتخاب الطبيعى الذى تأثر فيه بآراء «مالتوس».. وهذا الانتخاب الطبيعى هو أساس نظرية دارون فى عملية التطور العضوى.. فنظرا لعوامل بيئية مختلفة – ككمية الغذاء والماء المتوافرة، ودرجة الحرارة والضغط، وزيادة أو قلة الناتج الحيوانى والنباتى – نشأ وينشأ الكفاح من أجل البقاء، ويسفر هذا الكفاح دائما عن انتصار وبقـاء الأقوى والأصلح للتكيف تكيفا أفضل مع البيئة.. فيتكاثر الأفضل، وينقرض العاجز عـن مواجهة ظروف البيئـة.. وانتهى دارون إلى أن الفرد فى تاريخـه يعيد تاريخ تكوين الجماعات التى ينتمى إليها!.

ومـع الضجة التى أثارتها الداروينية، وتصاعد الإعجـاب بها، إلاّ إنها تعرضت لنقد بعض علماء القرن الماضى، فأخذوا عليها عدم تفرقتها بين التغيير المكتسب الذى لا يورث، والصفـات الجينية التى تـورث.. لذلك أدخلت على النظرية تحويـرات اقتضتها المعرفة الحديثة بأصول الوراثة!.

من الاختصار المخل اختزال الداروينية فى أن الإنسان أصله قرد. المسألة الأهم من نفى أن الإنســان كان قردا، هو ما تكشـف عنه البحوث تباعا عن هياكل عظمية بشرية ترجع إلى ملايين السنين، وتصطدم بقصة الخلق ومدته فى بعض كتب الأديان التى يستفاد منها أن عمر البشرية بين سبعة وعشرة آلاف عام!.

الاكتشـاف الجديد يعيد فتح قضية قديمة، اجتهد فيها الدكتور عبد الصبور شـاهين برأى عرضه فى كتابه: «أبى آدم».. توقف فيه عند اسـتعمال القرآن المجيد لكلمة «بشـر» وحالات ودلالات ومعانى اسـتخدام الكلمة، ثم عرض لاستعمال القرآن لكلمة «الإنسان».. والمواضـع التـى فيها ورد لفظ «البشـر» والأخرى التى ورد فيها لفظ «الإنسـان».. لينتهى باجتهاد يعرضه إلى أن «البشر» لفظ عام لكل مخلوق على الأرض يمشى منتصب القامة على قدمين، بينما «الإنســان» لفظ خاص بكل من كان من البشـر مكلفا بمعرفة الله وعبادته.. فكل إنسان بشر، وليس كـل بشر إنسانا. وإنه لأمر ما نرى القرآن لا يخاطب البشر وإنـما يخاطب الإنسان، ونجد التكليف الدينى منوطا بصفته «الإنسانية».. وأن الإنسان هو وحده

المقصود بالتكليف الدينى، وأنه إذا كان البشر بعامة هم طلائع الخليقة، ثم بادوا ودرست آثارهم، فإن آدم هو أبو الإنسان المكلف المجدول حوله قصة الخلق فى كتب الأديان..

وكما أثارت نظرية دارون ضجة كبرى، أثار كتاب الدكتور عبد الصبور شـاهين ضجة أكبر حتى تطرف البعض فعدوه من باب الكفر أو الإلحاد.. واعتدل البعض فطلبوا مراجعة بعض الصياغات، وليبقى الحوار دائما بين العلم والدين حول قصة الخليقة!

على أنك لا يمكن أن تقرأ مثل هذه الآراء، إلاّ وتجد حاضرا أمامك كتاب عباس العقاد الذى عرضته لك فى المقال السـابق: الإنسـان فى القرآن الكريم.. ليطل أمامك ما ختم به أنه ليس أكرم ولا أحكم للإنسان من عقيدة القرآن فيه، تلك العقيدة التى وضعته فى أكرم موضع مقدمة للقرن العشرين الذى وضع فيه الكتاب، ولكل القرون، إنسانه الذى ليس من إنسانه أصح منه وأصلح لزمانه.

ooo

الإيمان والواقع

يجب ألا ننسى أن عواطفنا - حتى الآن - تعيش أكثر ما تعيش على ميلنا الذى يكاد يكون فطريا إلى الإيمان المريح، ولا أقصد هنا الإيمان الدينى بخاصة، وإنما أعنى الإيمان بالمعنى العام الذى يشمل العقيدة والفكر والمذهب والرأى والعمل والسياسة وغير ذلك مما يعرض للآدمى فى حياته، ومثل هذا الإيمان المريح بعامة مبنى دائما على الاعتقادات ووجهات نظر دينية أو أخلاقية أو سياسية أو علمية أو اجتماعية أو أسرية.

وهذا الإيمان بشىء ما لا تخلو منه نفس بشرية، والذى يصعب على كل منا تركه، فهو يعطينا راحة التسليم والكف عن الانشغال والقلق لأمر من أمورنا موجود فعلا أو توهما. وهذه الراحة تساوى عندنا وتزيد على العناء الذى نكابده فى استمرار البحث والتحقيق والتمحيص العقلى.. فهو من هذه الزاوية ينقذنا من حيرة العقل وشكوكه وتمرده على الغيب الذى يجتاحنا.. وهو أيضا سهل الانتشار واجتذاب المرافقين والأنصار والأتباع، وتوفير المحيط أو البيئة التى تفسح لنا مجال الحركة الميسرة الموالية والمواتية، ويعطينا فرصا طيبة للإنشاء والبناء إنْ أردنا ذلك بعزم.. كما قد يعطينا فرصا متسعة للهدم والتخريب والتدمير فى تيارات الأحقاد والعداوات والفتن التى تجرى وتشتد فى محيطنا!!.

وللإيمان بهذا المعنى دوره فى وجود الحضارة الحالية، كما كان له دوره فى كل حضارة سابقة، وأيضا فى العقائد الملبوسة التى كان لها دور فى الفتن والقلاقل والحروب فى قرننا الحالى والقرن الماضى، كما كان فى كل القرون السابقة.. لأننا بالغين ما بلغنا من المعرفة والفهم والتطور والرقى، لم نتخل عن الانصياع للعواطف والانزلاق فى تياراتها إيجابا وسلبا!

ويدين تقدمنا وترقينا وتطورنا بالكثير للإيمان الصادق الصحيح الذى يدفعنا إلى المثابرة والإصرار على العمل والإتقان، والرضا ببذل الجهود وأحيانا بالمخاطرة بالحياة نفسها وببذلها.

فالإصرار والمثابرة على العمل الجاد فيهما دائما ووراءهما، دافع إيمانى بشيء قد لا نعيه، لكنه موجود وباق يؤدى مهمته فى صمت وبلا ضجيج. قد نفخر بنتائج أعمالنا وبما كلفتنا من عناء ومشقة، لكن لا نتذكر القوة الداخلية الدافعة وراء رضانا بهذه المكاره. هذه القوة الدافقة هى إيماننا العميق بشيء معين اعتنقناه وأطعناه بلا أى تردد أو مناقشة.

وتصعيد الإيمان بهذا الشيء المعين، إن جاز التعبير، إلى الخالق - جل وعلا - خطوة ترقٍ.. ليس فقط فى إنجاز هذا أو ذاك من أعمالنا، وإنما فى غاياتنا وأغراضنا ومقاصدنا من تلك الأعمال، وفى ألا يشذ من أغراضنا ومقاصدنا هذه غرضٌ أو مقصد إلى شر خاص أو عام نندم من أجله على ما أتيناه ونفذناه أو شرعنا فى تنفيذه فى سبيله!.

وتعلقنا بالقيم العامة التى لا تخلو من ذكرها مناسبة، وهى قيم بشرية أكثر بكثير من حيث العدد والأهمية من تعلق آبائنا وأجدادنا الذين لم يعرفوا الكثير منها.. وهذا التعلق ضرب من الإيمان، يحفزنا ويقود كلا منا فى موقف ما إلى موقف معين أو تصرف من التصرفات، وذلك دون أن نعرف بالدقة ما هى فحوى هذه القيمة، مكتفين بأن نعرف مفهومها العام وإن كان غامضا مبهما غير محدد، ودون أن نحتاج أو نشعر بالاحتياج إلى إزالة هذا الغموض والإبهام وعدم التحديد. لماذا؟!.. لأننا فى صدد إيمان لا فى صدد واقع يفتقر إلى معرفة كاملة لشيء معين!.

ooo

من منا يفكر فى ماهية الوطنية والعدالة والعدالة الاجتماعية، أو فى تحديد معنى حقوق الإنسان أو الحرية الشخصية أو حق الجمهور فى المعرفة بالشئون العامة، أو حقه فى التعليم، أو الحق فى الحصول على مستوى كاف ولائق لحرياته كآدمى، أو فى مدلول الحق فى المساواة وفى الديمقراطية، أو مدلول الاشتراكية أو مشروعية الملكية الفردية، أوكفالة حرية التنقل، وحرية التعبير عن الرأى، أو فى حرية التجارة وحرية الهجرة، أوفى حرية الاعتقاد واختيار وممارسة شعائر وطقوس الملة أو المذهب أو الدين إلى غير ذلك مما يعتبره الناس من القيم الأساسية فى حياة الأفراد والشعوب.

obeikandi.com

كل هــذه إيمانيــات نعيش بها وعليها.. لا يعلل إيماننا بها وانتماؤنــا إليها واعتمادنا عليها وامتثالنــا لها، لا يعلل مــا يحيط بها من غموض وإبهام وعدم تحديد. هذه الغوامض أو المبهمات أو التجريدات التى تفسح المجال للخلط وما نسميه إساءة الفهم والتأويل وحدة الاختلاف والتعصب والخصومات والفتن والحروب وما وراءها من أغراض ومقاصد معظمها عند التأمل إيمان اعتقادى.. دور العقل والتعقل فيه محدود محصور فى كيفية التنفيذ إن سمح لهما به!.

فالصلات البشــرية خاصة وعامـة، القائمة على القيم البشــرية، ذات أســاس إيمانى مستحكم معرض فى كل وقت، لذلك الخلط وإساءة الفهم والتأويل والاختلاف والتعصب، ومصــير تلك الصلات دائما فى كــف الاحتمالات وتحت تصرف المقاديــر التى يتجاهلها الناس عادة، ويفاجأون منها بما لا يتوقعون!.

هــذه ظاهرة مشــتركة متفقة مع أصول حياة الأحياء جميعــا، هذه الحياة التى يدخلها البشــر وغير البشر تسللا ويخرجون منها قســرا بلا مشيئة ولا مدخل لعقولهم وتعقلهم فى ذلك الدخول أو الخروج، وهما ـ الدخول والخروج ـ طرف كل حياة على هذه الأرض!.

ويبــدو أن ظهــور عقــل الآدمى – أى آدمــى – يحتاج إلى خــارج وإلى تعامل مع هذا الخارج، وبقدر اتساع هذا التعامل يتسع بنموه نمو المخ ونمو العقل.. هذا النمو يحصل فى وصاية الغرائز والعواطف والذاكرة، وربما فى وصاية نمو ذات الآدمى بصفة خاصة!

هذا هو الذى يفســر خضوع عقولنا لذواتنا، ومطالبها وغرائزها وعواطفها ومتوارثاتها، ويتوقف تقدم العقل وتطوره على تحرك هذه الوصايات الفطرية – هى الأخرى – فى طريق التطويــر والترقى برغم ما تحمله من ماضيها الطويــل وضعف قدرتها على التفطن والتبصر وحاجتها الدائمة إلى ما يعينها على هذا الضعف.. خاصة إذا لوحظ أن استعداداتنا العقلية والشعورية وذاكرتنا ومخيلتنا لا تعمل معا دائما، بل تتسابق إلى العمل لوقت يقصر أو يطول تنتظــر بعــده ناتج عمــل كل منها، هذا الناتج الذى قد يكون حصــاد هذا أو ذاك من هذه الاســتعدادات، أو نتــاج عون كل منها للآخر فى إنجــازه أو فى وجوده أو فى الدفاع عن مواقفــه. والتماس الأعـذار له. قد تعزو إمكانيات القوة إخفاق عملها إلى قلة أو نفـاد الصبر مثلا، أو تعزو المخيلة تعثرها إلى تواضع الذاكرة.. وهكذا!.

بين التدين والتصنع!

فارق بين التدين، وبين اصطناعه أو اصطناع العلم بالدين! لا تدهش من التعبير، فقد يغلب على رجل الدين مفهوم الصناعة، كصناعة الخزّاف أو الزجّاج أو النجّار حين يفقد إحساسه الداخلى العميق بالدين، ويتعامل معه على أنه محض مادة علمية للدراسة أو للتفقه أو للاتشاح بها طلبا لمكانة العلماء، أو صيت وقبول الدعاة، أو كرامة الأولياء!.

لفتنى الاقتراب من المتدينين البسطاء بلا تصنع، ومن متصنعى العلم بالدين ومن مسيّسى الدين، أن بين بسطاء المتدينين صفاء وسماحة وامتزاجا بالدين وتخلقا بشمائله وسجاياه، لم أجده فى بعض من يدعون العلم بالدين أو الساسة الذين يتخذونه «قنطرة» إلى منصة الحكم.. يتترسون بالدين، وقد لا تنطبع به نفوسهم ولا تلتزم به مسالكهم وتصرفاتهم!.

شتان بين شخص استقر الدين فى أعماق نفسه فملأ حناياه وصفحة وجدانه وضميره، وبين احتراف علم أو تفقه فاقد للروح مشغول بالتقعيد والتنظير، وبالتفاصح والتفلسف، وربما باصطناع الحكمة والموعظة، دون أن يحس بروح ما يشغل حياته ومسالكه ودروبه به، لأنه مصروف بالمظهر عن الإمساك بالجوهر، وبمكانة امتلاك العلم عن جمال تمثل روح الدين والتطبع به وبخصاله وأخلاقه وسجاياه وشمائله!.

المسلم الحقيقى، هو آية ورسالة الإسلام إلى الدنيا. هذا المسلم هو المسلم البسيط المتغلغل الإيمان.. قد لا يتسع علمه، ولكن يتسع فهمه لنقاء العقيدة والإحساس الصافى بمعنى وروح وجوهر الدين. آيته سماحته وبساطته وصدقه وإخلاصه وأمانته وتواضعه وعمله وتفانيه ووقاره.

صادفنى فى الحياة من يدعون العلم بالدين، بينما هم من أكثر الناس بعدا عن تمثل معانيه والتخلق بسماحته، وأكثرهم إغراقا فى النفاق والرياء والوصولية والانتهازية والحقد والغل والحسد وسواد القلب والضمير!.

ظنـــى أن المظهرية قد شـــغلت معظم الناس عـــن المضمون والجوهـــر، فغرقت فى ذلك ســـلوكياتنا، مثلما غرقت أســـاليب الدعوة فى القضايا الشـــكلية المثارة.. فـــى هذا الزقاق انحسرت وتوارت دون أن ندرى صورة الإسلام الصحيحة، وغابت عن باطن الناس فتعلقت تصرفاتهم بالمظاهر والأشكال والأزياء.. وانصرفت أو انشغلت بها عن عمار النفوس وتعميق الداخل بقيم وجوهر الدين. لو تمثلنا الدين فى داخلنا وطبعْنا به نســـيجنا والتزمناه حقيقة لا شـــكلا، لحســـنت أحوالنا، ولما شـــابت صورة المســـلمين فى نظر العالم ما علق بها من شـــطحات المتطرفين أو أوشاب المتنطعين. المســـلم الحقيقى يفزع من قطرة دماء تسيل بغير حق، ويأســـى لترويع الناس، ويتذوق الحياة فى لمسة وفاء أو نفحة عطاء أو تسرية رحيمة أو تعاطف حنون أو عمل طيب يساهم به فى عمار الحياة!

ooo

obeikandi.com

ولذكر الله أكبر

لا يخلو دين من الأديان السماوية من دعوة إلى ذكر الله، وتعددت فى القرآن الحكيم الدعوة إلى الذكر بمعانيه وأحواله وفضله وثوابه..لا تكاد تخلو منه سورة من سوره.. وفي سورة العنكبوت : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۝٤٥﴾ (العنكبوت: ٤٥).. وحذف بيان ماهو أكبر منه، لطيفة وإيضاح لمعنى أن ذكرالله أكبر على الإطلاق.. وأنه لا شيء أفضل من ذكر الله.. والمؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب.. هو تذكره سبحانه بربوبيته وبعظمته وجلاله وجماله وكماله ونعمائه وآلائه وسائر صفاته.. ولكن من ذا الذى يستطيع أن يتذكر الخالق أسرع أو أكثر من تذكره لنفسه والتفاته الدائب لأغراض هذه النفس ومصالحها ومخاوفها؟!.. هذه غاية بعيدة ليست سهلة لا يقوى عليها الآدمى العادى، وقد لا يسمح بها السير المعتاد لحياة البشر فى أى جماعة من الجماعات الاجتماعية الواسعة التلقائية غير المنتقاة وفق شروط أو سمات أو أوصاف خاصة. ذكر الله ليس مجرد كلمة تقال وتردد بلا وعى ولا التفات.. وإنما هو استحضار دائم يغمر القلب والضمير والوجدان، وهو لذلك أكبر.. بيد أن احتياجاتنا وشواغلنا ومصالحنا ورغابنا وهمومنا الشخصية والأسرية والمهنية والاجتماعية – تملأ أفقنا ووعينا أثناء اليقظة بل وأثناء النوم، ولا تترك لنا عادة فرصة حقيقية للالتفات إلى مقصود آخر خلاف الذات، بل إنك لتلاحظ أحيانا قليلة أو كثيرة، أنك مع عزمك على أداء عبادة من العبادات – يهرب منك الوعى إلى شاغل آخر شخصى «لك» يجعلك تسهو عما عزمت على أدائه، وتقع فى السهو فلا تدرى هل انتقصت أم زدت أم أتممت صلاتك كما ينبغى وكما أردت أنت نفسك أن تكون!

وإلحاح الكتب السماوية، وخاصة القرآن المجيد ـ على التذكير بالخالق، يرجع فيما يبدو إلى قصد مقاومة اعتياد البشر – بانصرافهم لذواتهم وشواغلها – على نسيانه ونسيان أنهم مخلوقون فانون مآلهم المحقق إلى فناء يلحق بهم وبكل أغراضهم ومصالحهم ومخاوفهم وما يستجدونه أو يخترعونه أو يبتكرونه، أو ما يتهيبونه

أويتمنونه أو يشتهونه أو يطمعون فيه. وأن طول اعتياد الآدميين على هذا الانصراف بشواغلهم عن ذكر الله ذكرا حقيقيا هو ما يقودهم إلى الهلكة حتما!.

تذكر الخالق ناموس كونى معفى من الالتفات إليه أجناس الأحياء الأخرى غير الانسان، وبات التذكير به لازما للآدمى بحكم أنه قابل إلى غير حد – للوعى والفهم والإدراك للمسئولية التى تركبه نحو نفسه وأسرته وقومه وجنسه.. ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب ٧٢)، ولأنه – أى الآدمى نفسه – محل للتفطن للعواقب والمعاطب العاجلة والآجلة، وقادر على أن يتعرف إلى النعم التى لا أول لها ولا آخر التى خصه بها الخالق منذ حملته أمه نطفة إلى أن يفارق هذه الدنيا.

فتذكر الخالق، الذى ألح به الرسل والأنبياء، ودعت إليه الكتب السماوية وحضت عليه وعلى الإخلاص فى تحصيله.. هذا التذكر للرب، ناموس كونى إيجابى لبقاء الجنس البشرى، احتاج ويحتاج من الآدميين إلى وقت طويل ليتم على وجهه الصحيح ولتتم به الإفاقة والانتباه لدى غالبية البشر ـ إلى الله تعالى رب العالمين، واستحضاره استحضارا حقيقيا فى القلب والوجدان والضمير.. هذه ليست سهلة التحقيق ، ولن تتحقق بمجرد ترديدات اللسان ولا بالإحالة الكلامية التى تقال وتردد بالألسنة والقلوب لاهية ودون ما التفات حقيقى لمعنى وغاية هذا الذكرخلال انشغالنا بأغراضنا وقيامنا وتعودنا فى الانتقال من فكرة شخصية إلى فكرة شخصية أخرى أو من موضوع دنيوى إلى موضوع دنيوى آخر!..

إن غالبيتنا لا تزال لليوم – مثلما كان يفعل غالبية أو معظم أجدادنا وآبائنا– قد لا تشعر أو لا تشعر شعورا حقيقيا أو كافيا، ملتفتا وعاقلا، لمعنى ولخطورة «ولذكر الله أكبر» الساحات والموالد والاحتفالات والحلقات مليئة بأذكار ترددها الألسنة بقلوب لاهية..، بيد أن خطورة «ولذكر الله أكبر» ليست خطورة مقولة تقال أو عبارة تردد دون أن تجاوز اللسان إلى القلب.... هذه الخطورة لا يشعر ولا يمكن أن يشعر بها جمهور الناس فى أى مكان. الآن وقبل الآن.لماذا؟!.. لأن هذه العبارة مما يجوز للسان الاعتياد على

ترديدها والإكثار من ترديدها كترديد الببغاوات، بيد أن فهمها واستيعابها يحتاج إلى فطنة ليست قليلة لا تتوفر لمعظم العاديين من الناس!..

الجمهور الآن، وقبل الآن، يردد هذه العبارة: «الله أكبر».. فى كل صلاة، قائما وراكعا وساجدا.. ولكن كم منا يعى معنى «الله أكبر» وهو يرددها بلسانه فى صلواته؟!.. كم منا استطاع ويستطيع أن يخرج من حالة «العادة» وهو يردد العبارة ليتأمل معناها ومغزاها ويلتفت إليها التفاتا حيّا عاقلا فاهما واعيا مدركا.. الجمهور الآن يردد هذه العبارة ويتلوها ولكن تلاوة الاعتياد المزمن المتصل – بالعادة! – عبر الأجيال، ممزوجا – للأسف! بتصور عامة الناس – السطحى! – للإيمان. لا يزال معظم العاديين من الناس، من قديم وإلى اليوم، على تصور بدائى شكلى لفظى للإيمان معظمه خيال ساذج ووهم سطحى يعاف التأمل وينفر من الفهم المتأنى الجاد. هذا التصور البدائى الشكلى اللفظى الساذج هو الذى يحرم أصحابه – قديما وحديثا – من الإحساس العميق الحقيقى بالإيمان، ومن الذكر الحقيقى الذى يجعل الآدمى عبدا ذكورا..

الآدمى الذكور، لا ينقطع بتاتا ما بينه وبين الله، يستحضره سبحانه دوما.. بلسانه وفى قلبه ووجدانه.. فى ذكره الصريح وتسبيحه، فى صلاته ونسكه، فى عمله وراحته، فى غدوه ورواحه، فى ليله ونهاره، فى البكرة والأصيل والعشى، وفى الغدو والآصال، فى سره وعلانيته، فى نجاحه وإخفاقه، فى ميسرته وفى عسره، فى سعادته وتعاسته، فى توفيقه وتنكبه، فى انتصاره وفى هزيمته، فى قوته وفى ضعفه، فى غناه وفقره، فى صحته وفى مرضه، فى حركته وسكونه، فى قيامه وقعوده، فى هنائه وفى شقوته..

تذكر الخالق، هو هذا الاستحضار الدائم الحى الذى لا ينقطع – هو الذكر على الدوام مع حضور القلب – أما الذكر باللسان والقلب مشغول ولاه فدون الذكر المقصود وجدواه قليلة.. فى الحديث أن الله تعالى لا يقبل الدعاء من قلب لاه.. الذكر هو حضور القلب مع الله تعالى على الدوام.. يحول بين معظم العاديين من الناس وبينه، سطحية الإيمان، والانحصار فى اللسان وترديداته الغير فاهمة أو غير الواعية أو غير المستوعبة، والنفور من الفهم المتأنى الجاد، والانشغال بالمصالح والمنافع والأغراض، وعدم تغلغل الإيمان تغلغلا

عميقـا.. لا فى الضمائر ولا فى السـلوك ولا فى المصالح ولا فـى الغايات والأغراض التى تفرضها الحياة على كل آدمى تبعا لأحواله وظروفه!!

لقد اطرد تاريخ جماهير البشرية على هذا المنوال منذ عرف لهم تاريخ إلى يومنا هذا. وهذا التقسـيم البشرى النفعى غير المفهوم والناجم عن الانشـغال بالمصالح والمنافع والأغراض، ليس مقصودا قط من رسالات الأنبياء والرسـل ولا ملحوظا قـط فى سلوكهم حال حياتهم، ولا مقررا قط فى أصل الدين أو الملة التى جاء بها كل منهم.

وكان هذا فيما بدا لقلة من الخلق جزءا من ناموس كونى لوحظ فيه بطء تطور الآدميين، وأن الأديان والملل بدايات لوضع غالبية البشـر من ذكـور وإناث على أوائـل الطريق إلـى النضج الذى يستحيل أن يحدث أو يتكامل فى جيل أو أجيـال بعينها، لأن كل جيل لا يمتص إلا وسعه بقدر ما تسمح به ظروفه ومقاديره.

يجـب على «جمهـور الناس» الذى يعانى الآن من انحصاره فـى أهوائه ومحاكاة بعضه لبعـض فى التفاهـات والحماقات والاندفاعات وراء فضول العيش وزهوه وزينته وسـخفه، والامتلاء بالضغائن والأحقاد والعداوات التى جرت الشـقاء والتعاسـة والهلاك على الجنس البشرى.. يجب على «جمهور الناس» الذى يعانى من هذا الانحصار فى هذا كله، أن يخرج مـن هـذه الهوة ومن تلك المعاناة، وأن يحرك أشـواقه إلى مزيد مـن الاتصال الوثيق بالكون والتعامل معه وعلى نواميسـه التى يزداد بها علما ومعرفة، تعاملا مثمرا دائما مطردا يحتل مكانة فى نفسـه وعقله ووجدانه، وفى مصالحه وغاياته، وينسـيه فى الوقت نفسه سخافة الانشـغال بخارجه الضيـق على هـذه الأرض.. عندئذ سـوف يعرف جمهور البشـر معنى ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴿٤٥﴾﴾ (العنكبـوت: ٤٥) ويعـرف إلى جـواره معنـى قـول القرآن المجيـد: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (الواقعة ٥٨-٥٩)

المدرك حقيقة لمعنى الذكـر، ولخطـورة «ولذكر الله أكبر».. لا تلهيه تجارة ولا بيع عـن ذكر الله، ولا يصرفه عن ذلك شـاغل من شـواغل الدنيا، ولا يلهيه عنه عارض مهما كان إغراؤه.. الذكر الحقيقى هو هذا الاستحضار الدائم فى القلب والخاطر والوجدان والضمير..

هو الخشوع القانت لعظمة رب العالمين المتجلية فى كونه هذا العظيم. الاتصال الحقيقى بالله، يؤدى إلى اتصال فاهم واع، مطرد ودائم، بهذا الكون العظيم البديع. لا يحدث هذا بما اعتدناه بالنزوح من القفر إلى العمران، أو من الجدب إلى الخصب، أو من عالم قديم مزدحم مختنق إلى عالم جديد بكر وغني.. ولا من مغامرات وانتقالات وسياحات الملاحين والصيادين والعمال والشاردين والمغامرين. هذا كله نزوح مادى غير مبصر ولا يستهدف هدفا كبيرا يصرف الآدمى عن التفاهات التى تشغله إلى التواصل بهذا الكون العظيم وآياته المبثوثة فى حناياه، وبخالقه سبحانه، اتصالا ملتفتا للمعنى العميق ولخطورة: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۝٤٥﴾ (العنكبوت: ٤٥).

لن يحدث هذا التواصل الوثيق المطرد الدائم بهذا الملكوت، إلا بكثرة مؤمنة ذاكرة متذكرة ذكورة واعية عارفة متعلمة ذكية قادرة على الفهم وزيادة الإدراك والتبصر والفطنة والنظام والانتظام، بهذا يقفز عالم الإنسان قفزة هائلة من وضعه الحالى السطحى الملئ بالمخاطر والأزمات الناجمة عن خمول الكثرة الغالبة ومحدودية معارفها وأفهامها وقلة حظها من الجدية والدأب وطول النفس والمثابرة والإصرار والتصميم. تلك الكثرة التى تترك عادة مصائرها للقلة التى تدير شئونها العاجلة والآجلة، وتتيح لها فرصة التميز بما لديها من دراية أو ذكاء أو مال أو جرأة أو خبث أو مقدرة أو قوة، بينما تستكين هذه الكثرة الغالبة المشغولة بكسب قوتها وإشباع شهواتها البدائية، وتستسلم للكسل وللخمول، وترضى ميولها المخدورة - أو تكاد - إلى الأحلام الوردية البعيدة التحقق التى هى فرص دائمة فى الوقت نفسه وسوق رائجة متاحة للمغامرين وشذاذ الآفاق والانتهازيين.. تهيئها لهم كثرة الناس بغفلتها وطيشها وجمعها بين سذاجة الأطفال وطمعهم وبين اشتهاءات البدائيين واندفاعاتهم.. فى القرآن المجيد: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۝٢٤﴾ (الكهف ٢٤). ذكر الله بتذكره واستحضاره بربوبيته وعظمته وجلاله وجماله وكماله استحضارا تتضاءل أمامه تفاهات الدنيا.. هذا الاستحضار الذى يسلس إلى التفكر فى بديع صنعه سبحانه وأسرار خليقته وعجائب سمواته وأرضه.. به يتصل الذاكر بهذا الكون بالتأمل وبالاطلاع

على أســرار ما فيه من إتقان وإبداع ومنافع دالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والنعم السـابغة والقـدرة التامة، والاهتداء بهـا إلى العليم الحكيم القـادر المقتدر الرحمن الرحيم الذى خلق ذلك كله وأبدع نظامه.. سـبحانه وتعالى، هو الأكبر، وذكره أكبر.. فى القرآن المجيد: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (الأنعام ٩١).

الاتصـال بهذا الملكوت العظيم، يحتـاج ابتداء وانتهاء وفى كل وقت إلى فهم ومجاهدة ومكابـدة ومداومة.. أولها يوجـب الأنس والحب، وآخرها يوجبه الأنس والحب.. يحتاج خُطًـى معروفـة بيقيـن مقدما لا يمكن أن يخطوها إلا آدمى واع مكتمل الوعى موفور الذكاء عارف ناضج المعرفة لمعنى نواميس الكون ولانهائيتها، مسـتعد دائما لاسـتكمالها والزيادة فيها بلا توقف، مدرك لضآلة ما دار سـالفا أو يدور حاليا على كرتنا الأرضية من مسـاعى البشـر خيرها وشـرها - هذه الضآلة التى تتبدى للآدمى بمقدار ما انفتح أمامه من انفساح واتسـاع وغنى وعمق الكون العظيم وخالقه ومبدعه ومصـوره، ملتفت لا ينى عن الالتفات بلسـان ذاكر وقلب خاشـع إلى مبدع هذا الملكوت المعجز للأفهام، يسـتحضره - سبحانه - اسـتحضارا دائمـا، موصولا ومدركا، للمغزى الحقيقى العميـق الهائل، ولخطورة قولـه سـبحانـه فـى قرآنه المجيد : «ولذكر الله أكبر» هذا الذاكر بلسانه وجنانه وقلبه وضميره ووجدانه، يأتيه على الدوام مدد لا ينتهى، ويتغشاه نور اليقين.

ooo

رباط الإسلام

لا يتصور الإسلام فيما يقول أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد فى كتابه : معالم التقريب..لا يتصور الإسلام بطبيعة الحال حرية اسمها حرية ترك الإسلام، فإن الإسلام ليس انتماء إلى حزب تنضوى تحته اليوم لتخلعه عنك غدا، أو ناديا تنضم إليه لتتركه إلى غيره، وليس برنامجا سياسيا أو اجتماعيا يلغيه الإنسان أو يرفضه متى أراد بلا معقبات.. فإمكان الإلغاء والرفض والخلع والانسلاخ والانضواء والترك مفروض أو مفترض أو متصور فى الانتماء إلى الأحزاب أو الأندية أو البرامج، ولكن الإسلام أخوة فى الله أبدية فى الدنيا والآخرة، ونوع وولاء لله، وبيعة له سبحانه وتعالى.. بيعة أبدية فى الدنيا والآخرة..

الإسلام نوع حياة لها وجهها الفردى والعائلى والجماعى.. الاستمرار فيها عنصر أساسى.. إذ يتسلمها الأبناء من الآباء، ليتسلمها منهم أبناؤهم وهكذا.. فحرية البقاء فى الإسلام أو تركه كأنه فندق أو خان تدخله متى شئت وتخرج منه حينما تشاء لتعود كيف تشاء.. هذه الحرية فى الدخول والخروج، والمناورة والمداورة، سخافة لا توجد إلاّ إذا كف المسلم وتوقف عن اتخاذ الإسلام دينا ملزما لأهله، لذلك فإن الارتداد عنه إذا وقع – والعياذ بالله – ليس ممارسة لحرية، وإنما سقوط وخيانة!.

الإسلام لا يحترم الرعونة ولا الحماقة، ولا يتصور أن يكون المسلم إلاّ عاقلا.. فلا يتصور حرية الطيش والهوى.. ونحن نخلط أحيانا بين الحرية والحماقة فى مباذلنا وملاهينا.. وأحيانا فى يأسنا وفشلنا.. ففى الأولى نتصور – واهمين! – أن الحرية تنسى وقارها وخطورتها لتحتضن وتحمى نزعات ونزوات وأهواء المآرب والمصالح أو فراغ الرءوس أو مبتدعات اللبس والزينة والتسلية.. بينما هذه وتلك أشياء أو شطحات لا يحميها كونها من حرية الإنسان الحديث بقدر ما يروج لها إقبال الناس عليها ومشاركة الكثيرين فى سخفها، وأن منعها لا يساوى المضايقة التى تتخلف عن إجراءات المنع أو القمع!.

obeikandi.com

هـذه النزعات أو الحماقات أو الأهواء يخدمها التهـور وأحيانا الجنون، فنقدم عالمين عامديـن علـى تصرفات نعلم أنها مخالفة للعقل.. لأننا نظن - واهمين! - أننا أحرار فى استعمال العقل وعدم استعماله، وأن هناك مواقف لا تصلح فيهـا الحكمة وضبط النفس أو أغـراض لا تنفع فيها المبادئ، وأنه يباح لذلـك أن نواجهها بخلع المبادئ لنعود إليها مـن بعـد أو لا نعود، أو أن نواجهها بالجنون والاندفـاع.. لا من باب التظاهر، وإنما من باب الاقتناع - ربما! - بجدوى الجنون وثمار المجانين.. وحين نمر بهذه الحال الغريبة - نعتبر الذين يصرون على التعقل والاعتدال خصوما لنا وللحرية.. لأنهم يقاومون مداورتنا أو هوسنا الذى نريد أن تكون له الكلمة العليا، ويشيعون حوله ترددا وشكوكا!.

والنـاس حين تخلع المبـادئ أو ترفع راية الهوس وتولى هـذا أو ذاك فى حياتها هذه المكانـة، تغير الأسماء المألوفة لهذه النزعات وتضفى عليها أسماء أخرى - مضللة! - ذات بريق مداراة لسـوئها!..ويسـاعدهم ذلك الخداع للنفس أو للغير على الاسـتمرار فى تلك الحالة التى اعتنقوها، وعلى نسـيان كيف دخلوها، وربما شـعروا بالزهو والذكاء لوجودهم فيها.. وربما اجتذب ذلك إليهم غيرهم من الشـواذ الذين يسـعون أصلا وراء فرص للتعبير عن آفاتهم وهم آمنون من الخوف والعار!.

والذيـن يختارون الهوس والجنون لا يعلمون إلى أين يؤديان بهم ولا أين يقفان.. فليس للهوس والجنون «حسـاب» يمكن معرفته مقدما أو ضبطه، ومتى سـيطرا فلن يتخليا عن السيطرة تلقائيا عندما تدعو المصلحة.. ثم إن الناس تعتاد الحمق بالممارسة، ويتعذر عليهم أن يقلعوا عنه على رغم فداحة ما يصيبهم من جرائه!!.

وإقدامنا على اختيار الجنون ورفض العقل دليل نقص هائل فى حريتنا الداخلية وعجز تـام عن ضبط رغباتنا، وانحراف بوصلتنا عن رباط الإسـلام والأديان بعامة، وابتعاد مبعد عن الولاء لله عز وجل!.

عناية الإسلام بضبط السلوك الإنسانى

مع عناية الإسلام بضبط السلوك الإنسانى، لم يعن بجانب ويهمل سواه.. واجه الواقع فى توازن لافت قوامه سجية الوسطية .. لم يتجاهل أن الإنسان روح وجسد، وأن لكل منهما وجوده ومطالبه.. لم يتجاهل الإسلام الجانب الجسدى أو الحسى فى الآدمى، ولم ينكر الرغبات، ولم يلغها، وإنما دعا إلى ضبطها.. ووافق فى تناسق وتوازن رائع بين المتقابلات.. بين الروح والجسد.. بين الفرد والمجتمع.. أشبع النفس البشرية وأعطاها حاجتها الروحية والمادية. عقيدة الإسلام ترتكز على المادة والروح معا.. للمادية حقائقها، وللروح السمو والقيادة وضبط الرغبات المادية.. لابأس ولا إنكار ولا مصادرة على الرغبات والمطالب، ولكنها محاطة بسياج من الضوابط والأخلاق بقيادة العقل والروح حتى لايتحول الآدمى عبدا للشهوات والحسيات فيفقد معنى وجوده.. هذا الآدمى الذى يلتقى فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، فرد فى مجتمع.. للمجتمع حقوقه وللجماعة أولويتها وريادتها، ولكن الفرد فرد بذاته. له ذاتيته وعقله وفهمه ووعيه ومسئول عما يختار وعما يفعل.. ليس إمعة يندفع بلا وعى مع التيار أو يساير الركب بلا فهم.. الإنسان أمام الله هو المخلوق المسئول.. يقول عنه رسول القرآن ﷺ: «لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم».

المسلم السوى، مدين للإسلام بوجوده الروحى وبوجوده المادى، ومدين له أيضا فيما حفظه له من توازن بين وجوده الروحى ووجوده المادى، فمن وسطية الإسلام أنه وهو يفتح للمسلم أبواب الحياة الروحية حرم عليه أن يوصد بيديه أبواب الحياة الجسدية، كما نهاه أن يترك العمل لينقطع عن الدنيا وينسى نصيبه منها .. فى القرآن المجيد: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (القصص : ٧٧). ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

الآخرة، وإنما قوام بين هذا وذاك .

الدين يخاطب القادر وغير القادر، القوى والضعيف، والصحيح والمريض.. وضع الإسلام القواعد، وسن الأحكام، ولم ينس الرخص.. بل وحرص رسول القرآن ﷺ أن يقول للناس: «فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه» يخرج إلى صحابته فرحا مستبشرا يزف إليهم مانزل من سورة الشرح : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ (الشرح ٥- ٦) .. يقول عليه السلام لهم: «أبشروا فلن يغلب عسر يسرين».. سن لهم القرآن القواعد والأحكام والحدود، ويدرأ فى نفس الوقت الحد بالشبهة بل ويقيم من حالة الضرورة عذرا عاما يقيل الآدمى من تقصيره .. بل من خطيئته .. ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (البقرة ١٧٣)، ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (المائدة: ٣) ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (الأنعام ١٤٥).. ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ (النحل: ١١٥).. وفى الحديث: «الضرورات تبيح المحظورات».. بهذه الوسطية، البعيدة عن التفريط أو الإعنات.. جعل صيام رمضان فريضة وركنا من أركان الدين، ولكن أبيح الإفطار للمريض والمسافر وجعلت الفدية للذين لا يطيقونه إلاّ بمشقة بالغة.. فالقرآن الذى قال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (البقرة :١٨٣) هو الذى قال: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (البقرة ١٨٤):والقرآن الذى فرض الحج فريضة وركنا من أركان الإسلام لمن إستطاع إليه سبيلا .. ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (آل عمران ٩٧).. هو القرآن الذى يسر على الحجيج، فقال: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ

مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ (البقرة ١٩٦) والقرآن الذى جعل الفدية مقابل الرخصة فى الصوم والحج ، والذى قبل الكفارة فى الظهار والحلف واللعان والصيد فى الحرم – تيسيرا على الناس (المائدة ٨٩–٩٥)، (الأحزاب ٤)، (المجادلة ٢–٤)، (النور ٣–٢٥) إن القرآن الذى وضع المبادئ ورسم الحدود، هو هو الذى قال ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴿١٨٥﴾ ﴾(البقرة ١٨٥) ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ (الطلاق ٧) ويقول صفى السماء، الرحمة المهداة «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا».

أراد الله تعالى بوسطية الإسلام.. الدين العالمى، أن يهدى الناس إلى خير ما تصلح به حياتهم، أن يرفع عنهم الحرج .. ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ ﴿٧٨﴾ ﴾ (الحج ٧٨) ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ ﴿٦﴾ ﴾ (المائدة: ٦) .. بهذه الوسطية والاعتدال، اتسعت دوحة الإسلام لتستخرج أفضل ما لدى القادرين والأصحاء والأقوياء والأغنياء وذوى العزم من استقامة وصلاح وعبادة وعطاء للإسلام وللمسلمين وللحياة، واتسعت هذه الدوحة أيضا لتفسح للمرضى والطاعنين والضعفاء وغير القادرين والفقراء، ولتسد عجزهم أو قصورهم أو ضعفهم أو مرضهم برخص أباحها بل وأحبها الله الذى أعلمهم نبيه المصطفى أنه تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه دون أن ينسلخ المسلم المرخص له عن واحة الدين أو ينغلق أمامه باب الرجاء فى اتساع رحمة السماء التى تجبر عجز العاجز ومرض المريض وشيخوخة الطاعن فى السن وتفسح لكل من صدق إيمانه وصح إخلاصه.. أليس واسع الرحمة – جل شأنه يقول فى قرآنه المجيد: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (البينة : ٥).

هذه الواحة الإسلامية، لهذا الدين العالمى، لا تصد ولا تغلق أبوابها أمام كل راغب فى الهداية حتى وإن طالت لجاجته واشتد عناده.. بل إنها تحمى المستجير الكافر حتى يسمع كلام الله وتبلغه مأمنه.. ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ (التوبة ٦).. كفرهم وإشراكهم دال على جهلهم وانعدام علمهم، فإذا علموا كان العلم كفيلا بجذبهم إلى واحة الإيمان.. لذلك لا ييأس الإسلام قط من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تتوقف دعوته قط عن «المجادلة بالتى هى أحسن».. ولا تنسلخ بتاتا من سعيها الدائم الرفيق إلى البيان والإقناع وهداية العقل والفؤاد والوجدان والضمير إلى الله الواحد رب العالمين.. لم ينتشر الإسلام هذا الانتشار الفسيح الذى عم الدنيا بعنف ولا بغلو ولا بقسر ولا بإكراه ولا بإجبار ولا بإرغام، وإنما انتشر الإسلام بوسطيته، وبالبيان والإقناع وبالرضا والتصديق والإيمان، وبهذه الروح الحية التى تكفل أمان الجميع فى المجتمع الإسلامى مستظلين بمظلة وارفة شاملة الحياة وجميع الأحياء إلى يوم الدين.

ooo

بناء ورعاية الفرد فى الإسلام

يستطيع المتأمل فى حكمة وفلسفة وسياسة ومبادئ وأحكام الإسلام، أن يرصد أنه قد جعل صلاح «الفرد» الإنسانى هدفه وغايته، وأنه إذ أراد صلاح الحياة والأحياء، فإنه وجه عنايته للفرد فى تكوينه وتنشئته ورعايته وكفالته، متتبعا إياه فى كل مرحلة من مراحل حياته منذ واقعة الميلاد حتى مفارقة الحياة الدنيا بالوفاة.. لا تستقيم أحوال الحياة إلاّ باستقامة وصلاح الأحياء.. الحى قبلة الدين الحنيف، راعاه حتى قبل أن يكون «نطفة»، وتتبعه نطفة ثم علقة ثم مضغة، بأن اعتنى بالأسرة التى سوف يتوالد منها، فجعل الزواج سكنا ومودة ورحمة، واعتنى بالأم الصالحة التى تلده وترضعه وتحتضنه وترعاه، ممن قال القرآن المجيد فيهن: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴿٣٤﴾﴾ (النساء ٣٤).. اعتنى الإسلام بسلامة محيط تكوين الأجنّة، فلم يدع علاقة الوالدين دون إرشاد وتوجيه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة ٢٢٢).. وكما اعتنى الإسلام بتكوين الجنين، اعتنى بحسن اختيار «اسم» المولود الذى سوف يواجه به الدنيا.. حتى كان النبى ﷺ يغير الاسم القبيح، ويوصى المسلمين فيقول لهم: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم»..

«من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه».. لا يتركه الإسلام حتى فى رضاعه وفطامه ليوفر له الأساس الصالح من بدايات تكوينه بعد ميلاده، فيقول القرآن المجيد: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴿١٥﴾﴾ (الأحقاف ١٥).. يوصى الوالدات بإتمام هذا الرضاع وعدم تعجيل الفطام، فيقول العزيز الرحمن: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا

تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ (٢٣٣)﴾ (البقرة ٢٣٣).. وفى سورة لقمان: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ (١٤)﴾ (لقمان ١٤)..

هـذه الرعاية ليست نتفـا متفرقة تأتى فى الإسـلام عفوا، وإنما هى أصداء نظر شـامل ومنظومــة متكاملة.. يتوالد الأبناء فى كنف أمهات وآباء، يتلقون منهم الحنان والبرّ والعطف والرحمــة، ويقابلون برّهم بالاحترام والإحســان وخفض الجناح لهـم.. أبناء اليوم هم آباء ثم أجــداد الغد، ومن هؤلاء وأولاء أنشـودة الحيـاة التى يتغياها الأبـرار ويدعون ربهم أن يمن بها عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ (٧٤)﴾ (الفرقان ٧٤).. قـرة الأعــين معنى عريض يعبر عن تكوين نابع من إحســان الأدب والتربية، وفيض الرحمة والحنان.. فى الحديث: «إذا مـات الإنسـان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علـم ينتفع به، أو ولد صالح يدعــو الله».. صلاح الأولاد ليس ضربة حظ وإنما هى صناعة وتربية ومجاهدة.. فى الحديث «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».. هذا التأديب شامل للأدب الخلقى وللبناء النفسى والبدنى على السواء.. ففى الحديث الشريف: «حق الولـد علـى الوالـد أن يعلمه الكتابة والسـباحة والرمى».. «علموا أولادكم السـباحة والرماية وركوبَ الخيل».. مع هذه التربية تتواكب التربية الأخلاقية، فيقول رسول القرآن ﷺ: «ما نحل والد ولدا من نحل، أفضل من أدب حسن».. الولد ينشأ ويتكون على ما تلقاه وتعلمه وتأدب به من والديه.. أو كمـا يقــال فـى الحكم والأوابد والأمثال: «كما تدين تــدان»!!.. كان من دعائه ووصاياه ﷺ: «رحم الله والدا أعان ولده على بره».. «أعينوا أولادكم على البر»، الإعانة على البر عطاء إيجابى مانح، يعين المتلقى على إحسان التفكير وإحسان الخلق والفعل والسلوك!.

دخل الأقرع بن حابس على النبى ﷺ، فوجده يقبل حفيده الحسن بن على، فقال الأقرع مندهشــا: «يا نبى الله. لى عشــرة من الولد ما قبلت واحــدا منهم!».. فيقول له الرحمة المهداة: «ولكنّا والله نقبل أولادنا.. من لا يرحم لا يُرحم».

الوصايا الربانية ببر الوالدين والمعرفة بفضلهما والإحسان إليهما متكررة فى القرآن المجيد ببيانه الرائع الجاذب.. لا تكاد الآيات فى سورة لقمان تورد من وصايا لقمان لابنه تحذيره من الشرك بالله، وتعقب على لسانه وهو يعظه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ (لقمان ١٣)، حتى تقفى بالوصية الإلهية بالوالدين، ولتقرن واجب الشكر إليهما بشكر الله عز وجل، فتورد الآيات على لسان رب العزة: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ١٤﴾ (لقمان ١٤).. هذه المزاوجة بين شكر الله سبحانه وتعالى والشكر إلى الوالدين، مزاوجة عميقة الدلالة تؤكد على أن واجب الشكر إليهما معطوف على شكر الخالق جل شأنه.. تستحضر فى إلماح لا يفوت أنه سبحانه وتعالى قد جعلهما جسر وجود من أرادت قدرة الله خلقه من الذرية .. فكان الشكر إليهما معطوفا بهذا البيان اللافت على شكر الخالق عز وجل.. هذا العرفان - بهذا العطف والإقران - متكرر البيان فى السنة النبوية الشريفة التى تكررت فيها الوصايا بالوالدين منبهة إلى صلة رضاهما أو سخطهما برضا الحق تبارك وتعالى وسخطه.. ففى الحديث «رضا الرب فى رضا الوالدين، وسخطه فى سخطهما».. عندما جاءه ﷺ رجل يسأله عن حق الوالدين أجابه: «هما جنتك ونارك».. منوها إلى أن الجنة فى رضاهما عنه، والنار جزاء سخطهما - إذا سخطا - عليه.. لذلك كان عقوقهما تاليا مباشرة للإشراك بالله عز وجل.. يقول ﷺ: « ألا أنبئك بأكبر الكبائر؟ : الإشراك بالله وعقوق الوالدين».. «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه (قالها عليه السلام أولا)، ومدمن الخمر، والمنّان».. ذهب إليه ﷺ سائل يتساءل : هل بقى شىء يبر به والديه بعد موتهما؟ فقال ﷺ: «نعم. خصال أربع : الدعاء لهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم».. يروى عنه ﷺ أنه كان يقول: «من سره أن يمد الله له فى عمره ويزاد له فى رزقه فليبر والديه وليصل رحمه».

لم تدع آيات سورة لقمان وصاياها الربانية بالوالدين، قبل أن تورد وصية بالغة العمق والقـوة والدلالـة على كمال وتمـام الرعاية.. فلا تعفى منها ولا تسـقط واجب المعروف للوالدين جنوح أحدهما أو كليهما حتى وإن بلغ حد الإشراك والحض عليه.. فـى بيان جلـىّ قاطع تقول الآية الحكيمـة: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٥﴾ ﴾ (لقمـان ١٥) .. أجـل لا طاعة لمخلوق فـى معصية الخالق، ومع ذلك حرص القرآن الكريم على أن يعطف بعدم طاعة الوالدين فى الإشـراك بالله، بتوصية رحيمة وآمرة بأن ذلك لا يعفى من وجوب مصاحبتهما فى الدنيا معروفا.. لاشىء فى الإسلام يبيح عقوق الوالدين.. روى عن نبى البرّ ﷺ أنه قال: «ولاتعق والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك».. تنهى السنة النبوية الشريفة عن كل ما قد يؤدى ولو بطريق غير مباشـر إلى الإسـاءة للوالدين، فتوصى بعفة اللسـان وكفه عن سـب الآخرين الذى يفتح أبواب تبادل السـباب ولعن الوالدين، وهو من أكبر الكبائر فيما يلفت إليه الحديث الشريف.. احترام مقام الوالدين، والحرص على برهما ورضائهما، ملمح إسـلامى فياض المعانى غامر البر والرحمة.. حين ذهب أحد المسلمين يبشـر رسـول القرآن ﷺ بأنه جاءه يبايع على الهجرة، وعرف منه أنه قد ترك والديه يبكيـان على فراقه إياهما، جعـل عليه السـلام يقول له فيمـا رواه ابن عمر رضى الله عنهما: «ارَجع فأضحكهما كما أبكيتهما».

هذه الرعاية الشـاملـة للإنسان فى كل أطوار حياته لا تغادره إذا ألّمت به نازلة أو أحاق به مكروه أو أصابه العجز أو الضعف أو الوهن، أو تداركته الشيخوخة.. جبر ورعاية الإسلام للضعف والضعفاء ملمح رئيسـى يكمل صورة التكافل فـى المجتمع.. هذا التكافل لا يعطى ظهره ولا يترك إنسـانًا فـى موقـف ضعف.. مريضـا أو محتاجا.. شـيخا أو عاجزا.. يتيمًا أومسكينًا أو أسيرًا.. لا يترك الإسلام أحدًا من هؤلاء إلاّ مد له يد الرعاية والكفالة، وشملـه بعنايتـه وبرّه.. يجمع هذه المعانى حديث رسـول القرآن ﷺ: «الضعيف أمير الركب».. ليس البرّ فى الشـكليات والمظهريات وإنما جوهره التراحم الذى اتخذه الإسـلام كنفا راعيا

للمجتمع.. في الآيـة الكريمة: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ (البقرة١٧٧).. وفي سورة الإسراء: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ (٢٦) ﴾ (الإسراء ٢٦).. يقول القرآن المجيد في وصف المؤمنين الأبرار: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ (الإنسان ٨) .. عين الإسلام على اليتيم حبا ورعاية وكفالة وحمايةً.. أليس سبحانه وتعالى القائل لنبيه المصطفى عليه السلام: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ (٦) ﴾ (الضحى ٦).. يوصيه - سبحانه وتعالى - في خواتيم ذات السورة بقوله له: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) ﴾ (الضحى٩، ١٠).. رعاية اليتيم نهج إسلامي منبعه وصايا القرآن المجيد والسنة النبوية الشريفة.. من وصايا القرآن: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾ (البقرة ٢٢٠).

في حديث رسول القرآن ﷺ: «من عال ثلاثة من الأيتام، كان كمن قام ليله وصام نهاره، وكنت أنا وهو في الجنة».. يقول عز من قائل في كتابه الحكيم: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾ (البقرة ٢١٥).. وفي سورة النساء: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) ﴾ (النساء ٣٦).. حض القرآن المجيد على رعاية أموال اليتامى بالتي هي أحسن فقال: «﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (الأنعام ١٥٢) .. ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (النساء ٢)، وتوعد سبحانه وتعالى المخالفين الطامعين فى أموالهم بأشد العذاب، فقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ (النساء ١٠).. أما ازدراء اليتيم فهو آية من آيات التكذيب بالدين، يقول تبارك وتعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ (الماعون ١-٣).

من جمال وكمال وثراء المنظومة الإسلامية فى الوفاء بحق الوالدين، أنها لم تكتف بالوصايا العامة والمتعددة بالإحسان إليهما، وإنما تبقى عين الإسلام منصرفة إلى حفائر الزمن ومرجعة عليهما إذا ما فارقا الشباب وأدركهما الوهن والشيخوخة.. فنرى القرآن المجيد فى واحدة من جميل آياته فى رعاية الوالدين، يشير إلى مَرّ الزمن عليهما، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الإسراء ٢٣، ٢٤).. هذه التقفية بعد عبادة الله بالإحسان بالوالدين قد لفتت إلى جوار مقتضيات الوفاء بعامة - إلى حق الشيخوخة أو الكبر فى أن تلقى المزيد من البرّ والرعاية والعناية، دالة بذلك كله على أن التكافل الاجتماعى ملمح أساسى فى المنظومة الإسلامية، فى كنفها الفرد مرعىّ ومكفول نطفة وجنينًا، مولودا ورضيعًا، مفطوما وطفلا، صبيا وشابًا، زوجا وزوجةً، والدا ووالدة، ولا غرو .. فالإنسان المسلم هو رسالة الإسلام وهديته إلى الدنيا إلى ما شاء الله.

ooo

الإيثار وإنكار الذات

ما من آدمى، إلاّ ويشعر بذاته شعورا لا يفارقه، ولا يغيب عنه لحظة إلاّ ليعاوده.. والتفات الآدمى لذاته، الملازم لشعوره بأنه حىّ، هو التفات للحياة.. فالصلة بين حياة الذات وبين الحياة من حولها، صلة مقدورة..

ويبدو أن المبالغة فى النظر إلى «الذات»، شىء فطرى فى الآدمى، يرجع إلى أن شعوره ابتداءً وانتهاءً هو شعوره بذاته ونفسه، وأنه أساس لشعوره بكل ما عداه.. ومعظم الناس يستحسن ذاته وينحاز لها، والآفة تأتى من الانحصار فيها وعدم الالتفات إلى غيرها. يبقى التوازن النفسى على سوائه، ما بقى هذا الاستحسان للنفس فى دائرة المعقول، فإن جاوزه إلى الإعجاب والتيه بها اختل هذا التوازن، فإذا فارقه تمامًا كاد فقدان هذا الإحساس أن يكون لحظة انتحار!.

والآدمى يحب الإطراء لأنه يحب ذاته ولا يشبع من مرضاة نفسه لأنها وقود حياته.. وليس كل الناس سواء فى كبح جماح هذه الرغبة وإبعادها عن الغلو والمبالغة، ومحاولة الالتفات المعقول لمرضاة الآخرين واحترام ما تواضعوا عليه من العدل والبر فى وسطهم وظروفهم. أما التجرد التام من مرضاة «الذات» فأمنية بعيدة المنال!.

والحياة يلازمها سعى للآدمى، لا يكف فيه عن محاولة الحصول على المزيد ومزيد المزيد من الرضا عن النفس، وقد يكون من باب تحسين حاله ومستواه وظروفه. والواقع أن هذا المسعى الدائب «قُطْب» تدور حوله الحياة ومعها تاريخ البشر، وكثيرا أو أحيانا ما يصاحب هذا المسعى تضخم للذات يجاوز المعقول أو لا يناسب ملكاتها واستعداداتها، وكثيرا ما ينحصر به انحصارا شديدا فى «أنانيتها».. وقد يتضخم هذا الشعور ويتفاقم ويتزايد على نحو سرطانى لا يرى فيه الآدمى إلا ذاته!.

وقد ينجرف هذا التضخم إلى عبادة الذات والإمعان فى التشيع لها، وقد يتشدق هؤلاء بالمساواة، ولكنهم ـ فى الواقع – فى هلع من التشابه والتماثل.. سيما فيما ينال أو يؤثر بالنقص على «المكانة» العليا التى يعتقدونها لأنفسهمْ أو يتوهمونها أو ينشدونها.. وأمثال

هؤلاء فى صراع لا ينى ولا يهدأ للطفو فوق بحر العاديين غير المعروفين من الناس.. يسعى كل منهم ليقرئ الدنيا اسمه ويحفره إن استطاع على جدار الزمن!.

هذه الطبيعة الآدمية كانت وراء سعى الأديان لرفع قيم الإيثار والتكافل والعناية بالغير والوفاء بحقوق الناس.. ويطالع القارئ فى القرآن الحكيم قول رب العزة: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحشر ٩).. ويطالعون فى سيرة وحديث رسول القرآن ﷺ: «إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو (طال بهم) أو قل فى أيديهم الطعام، جمعوا ما عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم بالسوية، فهم منى وأنا منهم»... ويقرءون فى الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وقد تختلط رغبات «الأنا» فى تحقيق ذاتها، أو تلتحق – صدقا أو تبريرا – بالغايات العامة، وقد يكون وراء هذه النزعة، رغبة غريزية فى التصدر والقيادة والأهمية، مقرونة بقدر كثير أو قليل من الحرص الغريزى على إشباع الرغبة الذاتية فى الوجاهة بأقل ما يمكن من الجهد والمشقة والمخاطر، وبأكثر ما يمكن ضمانه من الأمن والدعة والعافية!.

ومهما يكن من أمر هذه النزعة التى قد يخالطها تضخم الذات، أن اعتيادها يحيى لدى كثير من الناس إحساسا كاذبا بالعلم والخبرة والجدارة والتفوق! ويخلق لديهم شعورا طفوليا صبيانيا بأن تغيير أوضاع الحياة وتحويلها وتشكيلها سهل ويسير، وأن كلا منهم بمقدوره أن يكون «طبيب الملايين».. الذين يترقبون التشخيص والعلاج والإصلاح على يديه!.

وفكرة «المكانة» مطلب لدى الناس قديم.. ويكاد يكون فى زمننا مطلب الجميع.. يقتتل عليه الكل، ويرهقون أنفسهم وأهلهم وذويهم وأشياعهم من أجله.. ولا تعدو «المساواة» التى يتشدقون بها أن تكون عندهم مجرد كلمة تقال للزخرفة، سرعان ما ينفلت ملقيها منها ومن تبعاتها، ويسعى للتصدر وطلب الرفعة والمكانة وعلو القدر والمنزلة والفوز بالزعامة والاستئثار بالقيادة.

لذلك شدنى ولا يزال، فى سيرة الصحابى الجليل أبى عبيدة بن الجراح، أمين الأمة وأحد العشرة المبشرين بالجنة، مواقف عديدة فى سيرته توارت فيها ذاته تواريا تاما، حتى أطلقت عليه فى كتاب أكتبه عنه : «عبقرية إنكار الذات»..

فى سقيفة بنى ساعدة حيث اجتمعت الأنصار، يوم قُبِض المصطفى عليه الصلاة والسلام، أتته البيعة بالخلافة شاخصة إليه بغير سعى منه ولا طلب، حين ناداه الفاروق عمر بن الخطاب : «امدد يدك أبايعك».. ولكنه لم يمدد يده، وإنما عاتبه مغاضبًا كيف يبايعه ويتجاوز أبا بكر الصديق وثانى اثنين؟! فلما لحق بهما أبوبكر، وأراد أن يبايع أحدهما : الفاروق أو أبا عبيدة، أبيا عليه معًا، وصمم كلاهما على مبايعته هو بالخلافة، وتابعهما الأنصار والمهاجرة .

لم يكن هذا الإنكار للذات زهدا فى هين من الأمور، وإنما فى خلافة المسلمين.. بينما طبائع الناس تسعى للصدارة إلى حد الاقتتال.. استحضر ما فعله أبو عبيدة يوم السقيفة، ما صنعه فى غزوة ذات السلاسل، يوم أرسله النبى ﷺ على رأس مائتين من كبار الصحابة، مددا إلى عمرو بن العاص الذى تمسك بأن تكون القيادة له، فغضب كبار الصحابة لمنزلة وسابقة أبى عبيدة، ولكنه أبى الخلاف وتذكر ما وصاه به النبى عليه السلام، فبادر إلى عمرو يقول له : «وإنك والله إن عصيتنى أطعتك»!.

وتمر السنون، وفى ميدان معركة اليرموك، يأتى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة، يخبره بوفاة الصديق رضى الله عنهما، وبالبيعة له، ويأمره بعزل خالد بن الوليد وتولى القيادة مكانه، ولكن أبا عبيدة يطوى الكتاب ولا يحدث به أحدا، حتى أتم القائد خالد نصره العظيم.. هنالك استفسره خالد حين علم بالنبأ : «يرحمك الله أبا عبيدة. ما منعك من أن تخبرنى حين جاءك الكتاب»؟! فما زاد عبقرى إنكار الذات على أن قال له : «كرهت أن أكسر عليك حربك. ما سلطان الدنيا نريد..كلنا فى الله إخوة».

كان خالد بن الوليد فى الأوج السامق يوم عاد الفاروق وعزله عزلا تاما، وأمر باقتسام ماله، فخضع للأمر ينفذه علانية بالمسجد بلال بن رباح ويقتسم حتى نعليه، فلم يخلع القائد العظيم لباس الطاعة، واستمر يؤدى واجبه جنديا عاديا فى صفوف المسلمين،

ولم يساير من واساه بأنها الفتنة، فقال له فى إنكار هائل للذات: «أما وابن الخطاب حىّ فلا» .. قبل هؤلاء العظام، كان السائد فى الجاهلية منطق عمرو بن كلثوم: إذا بلغ الرضيع لنا فطامـا تخر له الجبابر ساجدينـا، ونشرب إن وردنا الماء صفوا، ويشرب غيرنا كدرا وطينـا.

فكيف انتقل الإسلام بهؤلاء هذه النقلة الكبيرة، وكيف استطاع أبو عبيدة بن الجراح وأترابـه، أن ينكروا ذواتهم هذا الإنكار فى باحة الإسـلام؟! كيف لم يهمهم أن يقرءوا أسماءهم، أو أن يمنحهم الناس الصيت والمجد؟! كيف ذابت ذواتهم حتى صار الواحد للكل، والكل فى واحد، حتى قال أبو عبيدة وهو أمير الأمراء بالشـام: «إنى مسـلم من قريش.. وما منكم مـن أحد، أحمر ولا أسـود يفضلنـى بتقوى، إلاّ وددت أن أكون فى إهابه».

إن الإيمـان الـذى عمّر قلوب هؤلاء العظمـاء، هو مفتاح هذه الصـور الرائعة لإنكار الـذات.. أعانهـم على تمثل هذه المعانـى والتخلق بها، أن كل العبـادات والمعاملات والأحكام الإسـلامية اهتمـت بالجوهر وشـجبت ونفرت من كل صور الادعـاء والرياء والتظاهر والاستعراض.

المسـلم السـوى لا يفتنه شـىء من زخارف الدنيا، ولا يعنيه أن يمنحـه الناس صيتا أو مجدا، أو حتى أن يعرفوا وجوده، لأن الناس فانون، والله تعالى وحده حىّ لا يموت.

المسلم السوى يتوحد مع الكل.. يعى أن نفحة الله تعالى فيه هى للكل ومن أجل الكل، لا تهمّه صدارة ولا قيادة ولا وجاهة ولا أبهة.. يدرك أن الصورة الإسـلامية الحقيقية إنما توجـد مـع وجود المعنى الجامع وهو الله عز وجل، وبالولاء المطلق لله عز وجل، وفيه وبه لا تنشد النفس سوى رضائه سبحانه الذى تتضاءل وتتلاشى أمامه مغريات المكانة والتصدر والوجاهة!!.

لقد علم هؤلاء العظماء من السـابقين الأولين من الإسـلام، أن القيمة هى فى الإخلاص وصدق التوجه ونبل الغاية وطلب الحق لا طلب السمعة.. لذلك فهموا أن «المكانة» فى الدنيا وهم وسـراب، وأن المسـلم السوى لا يفتنه شـىء من ذلك، لأنه موقن – بما زرعه الإسلام فيه– أن الناس ينسون ويموتون، وأن الله تعالى وحده حى لا يموت.

المسلم السوى يفهم أن المكانة فى الدنيا لا تأتى بالضرورة لمن يطلبها ويحرص على طلبها، وأنها قد تأتى ساعية بنفسها إلى من لا يطلبها بل وإلى من قد يعزف عنها أو يزهد فيها... والزهد فى المكانة والعزوف عن الإلحاح فى طلبها يحتاج إلى مجاهدة لأنه مضاد لطبيعة الآدمى.. وهذه المجاهدة أيسر بحكم الطبيعة والظروف لدى الحكماء والمفكرين والعلماء، منها لدى المنشغلين بلجج الحياة أو المشاركين فى إدارة شئون الناس.. فتنافس هؤلاء، وتباريهم، ودعاوى الاهتمام بالعمل العام، قد يجرفهم - وربما يدارون به - شهوة التصدر والقيادة، بدعوى أن كلا منهم أحكم الناس وأخلص الناس وأقدر الناس!!.

ooo

openkandil.com

كيف حقق الإسلام هذه الصورة الرائعة للإيثار !

أشـرت فى المقال الســابق عن الإيثار وإنكار الذات، إشارة عابرة إلى ما حققه الإسلام من نقلــة كبيرة من حفائر النعرات والغرور والخيلاء والتفاخر التى ســادت الجاهلية، إلى باحة الإيثار وإنكار الذات . فى هذه الإشــارة العابرة ذكرت أن الإســلام ذاته كان هو مفتاح هذه الصــورة الرائعــة للإيثار وإنكار الذات، وأن ماهيأ الســبيل لهذه الســجايا المانحة، أن كل العبــادات والمعاملات والأحكام الإســلامية اهتمت بالجوهر وشــجبت ونفرت من كل صور التظاهر والادعاء والرياء والاســتعراض، فبالإيمان تتــوارى ذات المؤمن أمام الله، ويدرك أن الصــورة الإســلامية الحقيقية تأتى من الــولاء لله والصدق الحقيقى فى اتبــاع أوامره ومنها الإيثار، والابتعاد عن نواهيه، ومنها الأنانية والكذب والرياء..

الإيمان هو الإيمان الحقيقى بالله، بين العبد وبين نفسه، بغير تظاهر ولا ادعاء، فماذا يغنــى التظاهر عن حقيقــة ما يعلمه الله الذى يعلم ما بالصدور ويعلم الســر وما أخفى؟! والعبــادات تتجه صدقا وإخلاصا إلى الله، كذلك الأعمال والصدقات.. لا يطلب بها المؤمن إلا وجــه الله، فى صــدق وإخلاص، العبرة فيها باســتقامة القلب والنيــة.. ففى حديث النبىﷺ «لا يســتقيم إيمان عبد، حتى يســتقيم قلبه». ومن استقام قلبه اتجه بقلب منيب إلى ربه، تذوب تجاهه ذاته، ولا يعنيه أن يطريه الناس ما دامت وجهته إلى الخالق البارئ جل شأنه..

هذا الصدق والإخلاص قوام كل عمل. خذ الشهادة فى سبيل الله مثلا.. القيمة الحقيقية فــى غايتها وفى صدق طلبها.. لا بالاســتعراض أو التظاهر الــكاذب.. لذلك كان ثوابها عن الصدق فيها. وقد روى عن الصادق المصدوق ﷺ : «من ســأل الله الشــهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشــهداء وإن مات على فراشــه».. فالمناط هو الإخلاص والصدق فى طلب الشهادة، ترجح به كفة الصادق فى طلبها من نالها – ظاهرا – بغير صدق. والله سبحانه

وتعالى طيّب لا يقبل إلاّ الطيّب الذى يتغيّا وجه الله تعالى، وفى الحديث الشـريف: «إن الله تعالى طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً».. ويقول عزّ وجل فى كتابه الحكيم: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ ﴿١٠﴾ ﴾ (فاطر١٠)، فلا قيمة ولا عبرة بالتشدق بكلام لا يقترن بعمل، فالعمل الطيب هو أساس وجوهر الكلام الطيّب، ولا وزن من ثم لكلام يعجب فى الظاهر ولا يواكبه وقد يختلف معه العمل .. وفى القرآن المجيد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الصف٢، ٣) ..

العبرة دائما فى الصدق.. فى صدق التوجه إلى الله وصدق الاسـتعانة به سـبحانه.. فى الحديث : «احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

الإخلاص هو جوهر الإيمان والعمل جميعا.. فلا معنى ولا قيمة لادعاء أو استعراض يغلفه ويدفعه الرياء. ففى الحديث «أخلص دينك يكفك القليل من العمل». فالعمل لا يقع موقعه من العبادة الحقة إلا إذا كان صادقا خالصا لوجه الله تعالى، بريئا من شـوائب النفاق والرياء.. يقول عزّ وجـل: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (البينة ٥).

سـئل الرسولﷺ : «ما الإيمان؟ قال: «الإخلاص» وسـئل عليه السلام يوما: «يا رسول الله، إنـا نعطـى التماس الذكر فهل لنا من أجر؟ قـال: إن الله تعالى لا يقبل إلاّ من أخلص لـه».. ثم تلا من قول ربه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ ﴿٣﴾ ﴾ (الزمر٢، ٣)..

فالعمــل يفقد معناه وقيمته إذا خالطه النفــاق أو التظاهر أو الرياء.. وعن هذه الآفة روى فـى الحديث الشـريف: «تجد من شـرار الناس يوم القيامة عنـد الله، ذا الوجهين، الذى يأتـى هؤلاء بوجه وهـؤلاء بوجه».. فما البال بمن يتظاهر بأنه يتجـه بعمله إلى ربه، بينما هو لا يقصد به إلا الاسـتعراض وطلب السـمعة بين الناس؟! لذلك كانت قيمة الصدقة فـى غايتها، وكان البعد عن «التظاهر» بما هو جوهرها، قيمة الصدقة فى أنها عمل صادق خالص

يتغيّا به المتصدق بذل معونة صادقة بعيدة عن كل آفات التظاهر. وفى الحديث الشـريف : «أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سر».. وفى الذكر الحكيم : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿٢٧١﴾ ﴾ (البقرة ٢٧١).. واحة الإسـلام تقـوم أركانها على الصدق والإخـلاص، ولا محل فيها لما يُبذل رياء ونفاقا وطلبا للسـمعة. والمولى تبارك وتعالى – وكما جاء فى الحديث: «لايقبل من مُسْـمع ولا مُراء ولا منّان». المرائى طالب السـمعة لا يطلب الله بعمله، وإنما يبغى المباهاة والرياء. وقد شـجب القرآن الحكيم من ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (النساء٣٨)، وفى الحديث : «اليسير من الرياء شرك، إن الله يحب الأنقياء الأخفياء».

المؤمن المخلص يرقب الله تعالى – لا سواه – فى كل أقوالـه وأعماله، ويتوجه إليه بقلب خالـص ونيّة صادقة وعمل خالـص.. ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴿٣﴾ ﴾ (الزمر٣).. وإذا كان الشـكر للناس على حسـن صنيعهم فضيلة، فإن أفضل الشكر هو الشكر لله عزّ وجل، وميزة التواضع الحقيقية فى صدق التواضع بلا تظاهر ولا طلب السمعة.

أينمـا نظر المتأمل فى الدوحة الإسـلامية، يجد أن الإسـلام يعنـى بالصدق والإخلاص، ويشجب وينفر من الكذب والنفاق والرياء.. ومن هذه السجايا الشاملة – دَخَلَ الإيثار من أوسع الأبواب خلة وشميلة مانحة من شمائل الإسـلام.. فلا يفتن المؤمن المخلص شـىء من عوارض الدنيا أو الانحصار فى ذاته، ويدرك أن المكانة الحقيقية هى عند الحق سـبحانه، يصغر لديه ما يتصارع ويتقاتل عليه الناس، ويصبح بشمائله عنوانا للإيثار ولو كانت به خصاصة، ولإنكار الذات فى سبيل المجتمع والمصالح العامة وحسن التواصل والبذل والعطاء لإخوته فى الله .

هـذا الإيثـار هو قوام كل شـىء طيب فى الحيـاة العامة، وفى الصـلات بين الناس.. فهـو دافـع الإخلاص فى العمل العـام، وفى إتقان العمل بلا تظاهـر لأن العامل يعرف أن الله سـبحانه وتعالى يـراه، وهذا الإيثار هـو الدافع لتقديم المصالح العامـة والمحافظة على الممتلـكات العامـة، وعلى صيانة ونظافة وسـلامة المرافق العامة، والاقتصاد فى اسـتهلاك ثروات المجتمع.. فى المياه ومصادر الطاقة، وفى إماطة الأذى عن الطرقات العامة، وفى كل مناحى البر والمعروف.. فى الصدقة، والبر بالفقراء والمسـاكين ، والجار وابن السـبيل، وفى

إغاثة الملهوف، وإنقاذ المأزوم، ونجدة وإسعاف وإخلاء المصابين المحتجزين فى الحرائق والانهيارات، وفى كل صور التساند والتكافل.

هذا كله ينبع من منظومة الأخلاق والسجايا والشمائل الإسلامية.. من يتأمل فيها يراها صورة مثلى للاهتمام بالأغيار والآخرين. فكل ما يتحلى به المسلم هو فى النهاية للخدمة والبذل والعطاء للآخرين. كافة هذه المناقب الإسلامية، من صدق وبر وعدل وأمانة ووفاء بالعهود والعقود والمواثيق، وإحسان وأمان للجوار، وسماحة مع الناس فى التعامل معهم وفى البيع إليهم أو الشراء منهم.. فى الاقتضاء منهم أو الأداء إليهم.. فى إكرام الضيف، وإيثار العفو والصلح، والتواضع والرفق والرحمة.. كافة هذه المناقب تتجه فى الواقع إلى رعاية الأغيار وكفالة حقوقهم والأمانة معهم والوفاء إليهم والعدل معهم.. فى الحكم بينهم حتى وإن كان المحكوم له قد سلف منه شنآن، وفى الشهادة بينهم بالحق لا سواه، حتى وإن كانت الشهادة على النفس أو الوالدين أو الأقربين.. هذه الأخلاق والمناقب جمال وكمال لصاحبها، ثم هى فى جوهرها احتفاء وعناية بالأغيار والآخرين.. العطاء الحى لهذه الخصال والسجايا يتجه بحصاده النهائى إليهم.

هذه المناقب الإسلامية بينها وبين الإيثار علاقة تبادلية، فكل منهما يأخذ من الآخر ويعطيه.. فبالإيثار يتحقق إنكار الذات ويصدر المؤثر على نفسه عن كل هذه الشمائل فى كافة تعاملاته مع المجتمع والناس، بينما تصقل هذه السجايا شميلة الإيثار وتنميها حتى ليكون الأخ أعز على الإنسان من نفسه.

عن أنس بن مالك أن الهادى البشير ﷺ قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». هذا الحديث الشريف ربط واضح بين الايمان وبين الإيثار.. فكلاهما : الإيمان والايثار، قرينان يتبع ثانيهما أولهما، ويتعاضدان فى تحقيق هذه الصورة الرائعة المثلى التى تجعل المسلمين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم .. وكما قال عليه الصلاة والسلام «كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر». حين نتأمل هذه المعانى، يطلّ علينا معنى الحديث الشريف : «أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما».

التكافل وتماسك المجتمع الإسلامى

فى أوقات الضيق والشدة والأزمات، تحتاج المجتمعات بعامة كما يحتاج الأفراد، إلى التكافل والتساند بأكثر من الحاجة إليهما وقت اللين والسعة والرخاء.. كان لافتا ولا يزال، مستحضرا لكل هذه المعانى وزيادة، ومعبرا عن مقومات المجتمع الإسلامى، حديث رسول القرآن ﷺ حين قال «إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو، أو قل فى أيديهم الطعام، جمعوا ما عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه فيما بينهم. فهم منى وأنا منهم» هذا الإحساس المتبادل بأوجاع واحتياجات الجماعة، والتساند والتكافل فيما بينها، هو أحد أهم سمات ومقومات المجتمع الإسلامى الذى ينهض على سلامة الاعتقاد وعلى العدالة والحب والتوحد ووحدة الشعور، وعلى التعاون والتكافل والتساند.. هذا التضافر الذى فيه يقول حديث الهادى البشير ﷺ «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»..

إحساس المسلم بالآخرين، ينبع من فيض المعانى الإنسانية والقيم الأخلاقية التى طفق الإسلام يبثها فى نفوس المسلمين.. وحدة الشعور فى الجماعة تدعو للتعاطف والتساند مع الضعف والمرض والحاجة.. الضعيف فى الحديث النبوى أمير الركب، يتلقى من الركب كله ما يجبر ضعفه ويقيله من وهنه.. والمؤمن للمؤمن – فيما قال عليه السلام – كالبنيان يشد بعضه بعضا.. يتحاب المؤمنون جميعا فى الله، ويتكاتفون فى الضوائق والملمات.. خير الناس فى الإسلام هو أنفعهم وأرحمهم بالناس.. يقول لهم الهادى البشير ﷺ : «الراحمون يرحمهم الرحمن».. «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».. «لا يرضى المسلم أن يشبع بينما جاره جوعان، أو أن يتدثر وهناك عرايا يلتحفون السماء»!!، أو أن لا يبالى بما يصيب الآخرين من كربات.. يسمع من وصايا الرحمة المهداة – عليه السلام «أيما أهل عَرَصَة – وهى البقعة بين الدور – أصبح فيهم امرؤ جائعًا، فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى».. يعرف من الهدى النبوى أن عيادة

المريض واجب، ويعلمه الحديث القدسى أن من عاد مريضا فى مرضه فكأنما عاد الله.. يتنادى المسلمون بأحاديث صفى السماء عليه السلام «مَنْ كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته».. «مَنْ نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر فى الدنيا يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه».. عن نبى البر والرحمة أنه كان عليه السلام يقول «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»... «أيما مسلم كسا مسلما ثوبا على عرى، كساه الله من خضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلما على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلما على ظمإ سقاه الله عز وجل من الرحيق المختوم».. ينصت المسلم لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ (الإنسان ٥-٩) .. ويتأمل قوله تبارك وتعالى فى سورة البلد: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ (البلد ١٢ - ١٦).

فكرة أو قيمة التكافل الإسلامى قيمة شاملة، تعنى بالمعنويات إلى جانب الماديات، وتتغيا تحقيق أهدافها النبيلة بالعطاء المباشر الذى يتلقاه المتلقى مباشرة، وبالعطاء غير المباشر الذى يتلقى ثماره وشذاه كل من يصادفه، مقصودا فى العطاء بشخصه أو غير مقصود.. دعا الإسلام إلى التكافل فى العلم والتعليم إلى جوار دعوته للتكافل فى الطعام والشراب والسكن والملبس.. فى الحديث الشريف «أفضل الصدقة أن يتعلم المسلم علما، ثم يعلمه أخاه المسلم».. الساعى مأجور فى طلبه العلم، ومثاب فى بذله إياه.. هذا التكافل تعضيد للمجتمع بتعليم وإنارة عقول وأفهام وبصائر أفراده.. شيوع العلم والعمل به فى المجتمع ثمرة تكافل، يدرك به الفرد أن عطاءه للمجموع مردود إليه فيما يتلقاه من ارتقاء مستوى العطاء العام ارتقاء ينعكس على المجموع فى جميع المجالات.. فى

الصحة والتعليم والإسكان والاقتصاد والأمن وكافة الخدمات.. فكرة التكافل الإسلامى بمعناها وغايتها لا تنحصر فى صلة مباشرة أو عطاء مباشر يستهوى المعطى فيه ما يحسه من امتنان المتلقى أو إعجاب المحيط وتسامعه بالعطاء.. فى القرآن المجيد ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿٢٧١﴾ ﴾ (البقرة ٢٧١).. لذلك كان العطاء أو الصدقة فى السر، أفضل وأكرم وأثوب أنواع العطاء، لأنه بعيد عن الاصطناع والاستعراض وطلب السمعة من ناحية، وحافظ لشعور وكرامة المتلقى من ناحية أخرى.. ويكون التكافل أوسع من هذا هدفا وغاية، حين يمتد إلى عطاء مجرد غير معروف أو غير محدد سلفا من الذين سينتفعون به.. فكرة السبع الجاريات تنبع من هذا النظر الشامل، وفرع عليها فكرة المرفق العام، والاهتمام به حاضر فى التكافل الإسلامى قبل مئات السنين من نحت هذا «المصطلح» فى العصر الحديث..

فكرة المجتمع حاضرة فى التكافل الإسلامى مع نجدة ومعاونة الفرد.. نجدة الفرد ومساندته والتكافل معه تصب فى المجتمع الذى هو مجموع أفراده بصلاتهم وعلاقاتهم وأواصرهم.. قوانين السوق ورعاية الآخرين فى الأسواق فرع على اهتمام الفرد بالجماعة.. لا يبيع حاضر لبادٍ، ولا يطفف البائع أو يغش فى الميزان، ولا يقبل المؤمن أن يكتنز الذهب والفضة ويحرم المجتمع من تداول وحركة المال التى تعود على المجتمع بالنماء، أو أن يحتكر الطعام ويخفيه ليعلو بثمنه على الناس.. يتأسى المسلمون بوصية الرحمة المهداة ﷺ «الناس شركاء فى ثلاثة: الكلأ والماء والنار».. حق الجماعة يوجب ألاّ يشذ أحد بنفسه جاريا وراء أطماعه غير مبالٍ بأحوال واحتياجات الناس .. فى الحديث الشريف فيما رواه الإمام أحمد والحاكم بإسناد جيد : «من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه».. وقيل: « وكأنما قتل الناس جميعا».. عن الإمام علىّ رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلاّ بما يصنع أغنياؤهم. ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا، ويعذبهم عذابا أليما».

واجب الطريق فى الإسلام فرع على شجرة التكافل والاهتمام بالمجتمع ومرافقه من قبل صياغة تعبير «المرفق العام».. للطريق حق يجب على الكل كفالته، بغض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتطهير الطريق وإماطة الأذى عنه واجب.. فى الحديث الشريف : «الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق».. كان عليه السلام يوصى فيما روى عنه بإسناد صحيح، بعزل الأذى عن الطريق، بينما نراه ﷺ يوصى بالزرع والغرس والإنبات رعاية لحق المجتمع وأفراده وتوفير ما ينفع الناس بل وكافة الكائنات.. روى البخارى ومسلم من حديث المصطفى ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان، إلاّ كان له به صدقة»..

وقوله ﷺ : «من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، كان له فى كل شىء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل».

إماطة الأذى عن الطريق، والحض على الزرع والإنبات والتشجير، يعبران عن انتباه مبكر ولافت لفكرة «المرفق العام» ووجوب تضامن وتكاتف وتكافل الأفراد فى الالتفات إليه ورعايته والعناية به.

هذه المعانى التى تلقاها نجباء مدرسة النبوة الأبرار، عاشت فى حناياهم واستقرت فى أخلادهم وضمائرهم، فصدروا عنها وعبروا عن قيمها الإنسانية والإجتماعية فى كثير من المشاهد والمواقف التى حفظتها أسفار السير والأخبار.. عرف هؤلاء النجباء، وتعلموا مما أوصاهم به رسول القرآن ﷺ، أنه لا قيمة للفرد مفصوما عن المجموع، وأنه لا معنى ولا قيمة لعلم ينفرد به صاحبه يوكئ عليه ويحرم المجتمع والناس منه! ، وأدركوا أنه لا معنى للغنى والثراء إذا احتجزه صاحبه واكتنزه وحرم الحياة الاقتصادية منه وضن به على احتياجات المحتاجين! .. رأينا الفاروق عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يقتر على نفسه وأهل بيته فى عام المجاعة أو الرمادة ، ويقول «لو لم أجد للناس ما يسعهم إلاّ أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالحيا فعلت، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم».. بين عبارة رسول القرآن عليه السلام

فى التنويه بصنيع الأشعريين وقت الشدة، وبين قالة الفاروق عمر فى عام الرمادة، ما يناهز عشرين عاما، ولكن المنهج العمرى دل على أن رسالة الإسلام تغلغلت فى النفوس والضمائر، وعلم منها هؤلاء الأتقياء الأصفياء الأنقياء أن مظلة التعاون والتكافل هى مرفأ المسلمين، والحافظ لأواصرهم، والغيث الحانى الرحيم لضعيفهم ومريضهم ومكروبهم وعاريهم وظامئهم ومعوزهم.. فى هذا التكافل روح الإسلام الحقيقية السامية التى دعا وأرشد إليها إمام مدرسة النبوة وتلقاها وأشربها نجباء مدرسته الأبرار، فتواصلوا معها وعبروا عنه وأثبتوا أنه لا خوف على المجتمع الإسلامى ما بقى مرعيا بالمحبة والتواد والتعاطف والتراحم والتكافل.. تأتلف وتلتقى فيه القلوب على نبض واحد، وتتوحد سواعد العاملين صناع الحياة على نسق واحد، ويتضافر المجتمع متأسيا بالهدى النبوى : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا».. هذا الهدى هو الذى حفظ على الدوام كيان المجتمع الإسلامى وكفل للمسلمين ارتفاع أعمالهم إلى مستوى آمالهم وعمق إيمانهم الصادق فى دوحة الإسلام .

ooo

openkandil.com

الديـــن محبة

الدين الذى أعنيه، هو كل دين، إسلاما كان أو مسيحية أو يهودية.. لم تنزل الأديان لبـذر العداوة أو الكراهية أو الشـقاق بين الناس.. الأديان دعـوة ربانية للإخاء والمحبة، والإخلاص والود والوفاء والرحمة.. فالإنسانية أسرة واحدة، تنتمى إلى جذور واحدة، وإلى أصل واحد.. وتدين كلها مهما اختلفت أديانها إلى رب واحد هو رب العالمين..

تنتمى الإنسـانية إلى نفس واحدة خلقها الله تعالى وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء.. وفى خطاب موجه إلى الناس كافة، لا إلى أبناء دين بعينه، يقول القـرآن المجيـد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (النســاء ١) ويقـول عز وجــل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ (الأنعــام ٩٨)، ويقول ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١٨٩﴾ ﴾ (الأعراف ١٨٩) .

يلتقى السلام والمحبة فى رسم صلة الإنسان فى الإسلام بأخيه الإنسان.. فلفظ «السلام» هو تحية الإسـلام، ولفظ الإسـلام ذاته : عنوان الدين، منحوت من مادة «الســلام»، لأن السلام والإسلام يلتقيان فى توفير الأمن والطمأنينة والسكينة لبنى الإنسان.. فرسول القرآن عليه الســلام : «رحمة مهداة».. وهو آخر عناقيد شـجرة الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى هدية من السماء إلى العالمين.. وبذلك أرسل صفيه محمدا عليه السلام، فيقول له الحق عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(الأنبياء ١٠٧).. وكان عليه الســلام يقول للناس: «إن الله تعالى جعل السلام تحية لأمتنا».. ويقول: «السلام قبل الكلام»..

المحبة هى الجسر الذى يؤلف بين القلوب، ويفشى السلام، ويطهر النفوس من أدران الحقد وأسـباب البغضاء والعداوة.. لا إيمــان بلا محبة، ولا محبة بلا تآلف ومودة.. وفى حديث رســول القرآن عليه الســلام: «لا تؤمنـوا حتى تحابوا.. ألا أدلكم على شـىء إذا فعلتموه تحاببتم؟، أفشوا السلام بينكم»..

وفى الحديث الشريف «إن من عباد الله أناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانتهم من الله تعالى. قالوا : يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها. فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور.. لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس».. لذلك كان المؤمن آلف ومألوف، ولا خير فيمن لا يَألف ولا يُؤْلف. وقيل أيضا: «ما دخل الرفق فى شيء إلاّ زانه، وما خرج من شيء إلاّ شانه : « إن الله – سبحانه وتعالى – رفيق يحب الرفق فى الأمر كله»..

لم تنزل الأديان السماوية لبث العداوة والكراهية، وإنما لإيمان وهداية الناس.. والإيمان معرفة بالله وثقة به ويقين فيه سبحانه، ومحبة وعطاء ومنفعة للناس.. لا يوجد فى الأديان أسباب ولا حض أو تحريض على الكراهية والعداء.. فالمصالح والأهواء والمآرب والعداوات صناعة آدمية، وليست ولا يمكن أن تكون دعوة إلهية..

وكما رأينا دعوة الإسلام للإخاء والمحبة، نرى ذلك حاضرا أيضا فى المسيحية: ديانة المحبة.. كان مجد المسيحية الحقيقى الهداية والمحبة، دعت وتدعو إلى ملكوت السماء فى الضمير والوجدان، ويقول السيد المسيح عليه السلام للناس «لن تربح شيئا إذا كسبت كل شيء وخسرت نفسك»!.. لا تبال هداية المسيح بظاهر الدنيا كله إذا سلم للإنسان باطن ضميره.. مجده الحقيقى هذه الدعوة الهادية إلى نقاء السريرة، وإشاعة المحبة.. من على الجبل يلقى عليه السلام موعظته إلى جموع الناس فيقول لهم «طوبى للمساكين بالروح، فإن لهم ملكوت السماوات، طوبى للحزانى، فإنهم سيعزون. طوبى للودعاء، فإنهم سيرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر، فإنهم سيشبعون. طوبى للرحماء، فإنهم سيرحمون. طوبى لأنقياء القلب، فإنهم سيرون الله، طوبى لصانعى السلام، فإنهم سيدعون «أبناء الله». طوبى للمضطهدين من أجل البر، فإن لهم ملكوت السماوات. طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدوكم، وقالوا فيكم من أجلى كل سوء كاذبين. افرحوا وتهللوا، فإن مكافأتكم فى السماوات عظيمة. فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم»! (متى ٥ : ٣ – ١٢) .

مثلما يقرأ المسلم فى القرآن المجيد، قول الحق جل وعلا ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ (البقرة ٢٢٤)، فإن المسيحى يقرأ من موعظة السيد المسيح على الجبل : « سمعتم أنه قيل للأقدمين: لا تخالف قسمك.. أما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا أبدا (متى ٥ : ٣٤، ٣٥).. وسمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك. أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، وباركوا لاعنيكم، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم» (متى٥ : ٤٣ - ٤٥).. يمضى المسيحى فى قراءة الأناجيل فيرى فيما يراه قول السيد المسيح عليه السلام : «لا تدينوا لئلا تدانوا. فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون، وبالكيل الذى به تكيلون يُكال لكم» (متى٧ : ١ - ٣).. هذه الباحة الإنسانية الفياضة المعطرة بالمحبة والود والتسامح والإخاء، تقيم جسور المودة بين المسيحى وبين غيره من أبناء الديانات.. هذه المودة التى تحدث عنها القرآن المجيد، وبذلها النجاشى ونصارى الحبشة للمسلمين، حتى حزن نبى القرآن عليه السلام حزنا شديدا حينما بلغته وفاة النجاشى عرفانا بما قدمه للمهاجرين من كرم الضيافة وصدق المودة وعطر المحبات.. وكما لا يوجد فى الإسلام دعاوى للإثم والعدوان، فإنه لا يوجد بمدونات المسيحية، لا فى الأناجيل، ولا فى الرسائل الملحقة بالعهد الجديد، ما يورى بعداوة مضمرة للأغيار، ولا حض على كراهة أو مقت أو عداء.. العداوات صناعة آدمية، أما الأديان والمدونات المقدسة فتفيض بعطر المحبة والإخاء.

ooo

الالتفاف بالدين لهدم الدين؟!

الإســـلام ممتحـن هذه الأيام ببعض الشـاردين من أبنائه أو المنتســبين إليه، مثلما هو مبتلى بأعدائه المعلنين والمتســترين.. يجاهر البعض باستهدافهم الإسلام، ويتخفى ويلتف البعض الآخر لضرب الدين من داخله، واعين قاصدين، أو مخدوعين مغررين!.

لا يختلـف مسـلم على أن القرآن الحكيم هو كتاب الإســلام المبـين، ومعجزته إلى الدنيا.. وحجة رسـوله ﷺ إلى البشـرية، ودستور المسـلمين كافة فى كل شئون دينهم ودنياهـم.. معجـز فى بلاغتـه ورصفه وبيانه.. فى جرســه ومعماره الموسـيقى ونظمه البديع وشحنته التى تملأ وتتغشى حنايا القارئ له.. معجز فى إخباره بأحوال القرون السـابقة على تنزيله، وفى إخباره عن وقوع حوادث فـى مسـتقبل لا يتأتى العلم بها إلاّ لعلاّم الغيوب.. ومعجز فيما اشـتمل عليه من حقائق الكون وأسـراره.. وفى اتسـاق عباراته ومعانيه، ودقة وشمول أحكامه وشـريعته الجامعة التى يدرك إعجازها المسـلم وغير المسـلم، ويفهمها العربى وغير العربى.. من يعرف لسـان القرآن ومن لا يعرفه.. القرآن المجيد هو دسـتور المسـلمين الجامع فى كل شئون دينهم ودنياهم..فى العقائد، والعبادات، والأحوال الشخصية، والمعاملات، والعقوبات، والشئون الدولية.. ليس من شـىء إلاّ وفى القرآن المجيد بيانه.. جعله سـبحانه وتعالى هداية وبشـرى للمؤمنين.. يهدى للتى هى أقوم، وفيه شفاء ورحمة.. ما فرط فيه سبحانه وتعالى من شىء: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنعام ٣٨).

هذا القرآن المجيد لم ينزل به الوحى مباشرة إلى الناس، وإنما إلى رسول كريم اصطفاه الله لتلقيه وإبلاغ رسـالته إلى العالمين.. الأنبياء هم حملة رسـالات السماء، ومهمة رسول القرآن عليه السـلام مسـتمدة من ذات القرآن.. يخاطبه رب العـزة فى قرآنه الذى أمره باتباعه فيقول له: ﴿ يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾ (يـس ١– ٥).. وفـى سـورة الإنسـان: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الإنسان٢٣).. لماذا؟!.. ليبلغ رسالته إلى الناس، ويهديهم ويرشدهم ويبين لهم.. ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (النحل٨٩).. ليقرأه رسول القرآن على الناس على مكث ويبين لهم.. ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الإسراء١٠٦).. في حمل الرسالة وواجبات هذا التبيين يقول عز وجل: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النحل٤٤).. ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النحل ٦٤)..

أغرب الغرابة أن يتخذ القرآن ذاته – على صراحة ووضوح ما أتى به عن تكليفه رسول القرآن عليه السلام بحمل رسالته إلى العالمين – مدخلا أو سبيلا وعنوانا لتنحية السنة النبوية وإهدارها تحت مسمى: «القرآنيون».. هذا اللفظ مختار بعناية مقصودة لخلق انطباع فيه مصادرة على المتلقين، بالإيحاء أن أصحاب هذا الفكر – أو الابتداع! – يعظمون ويجلون ويقدمون القرآن، وهو تعظيم وإجلال وتقديم لا يمكن أن يعترض أو يختلف عليه أحد، إلاّ أن المقصود به لديهم هو تنحية وإهدار السنة النبوية بزعم أن القرآن المجيد فيه الكفاية والغناء. أجل. فيه الكفاية والغناء، ولكن دور وسنة حامل الرسالة في بيان وتفصيل أحكامه، جزء لا يتجزأ من رسالة الإسلام.. الانحياز للقرآن المجيد وتعظيمه وإجلاله وتقديمه – وهو المصدر الأول للإسلام – لا يعني استبعاد السنة النبوية.. قولية كانت أو فعلية أو تقريرية.. هذا الاستبعاد للسنة النبوية، هو ما ترمي إليه دعوة المتسمين بالقرآنيين.. هذه الدعوة ـ والله تعالى أعلم بالمقاصد والنوايا ولا نكفر أحدًا! – دعوة تلتف بالدين لهدم الدين، وتتشح بالقرآن المجيد لتنحية سنة رسول القرآن! الفصم أو الفصل بين سنة رسول القرآن والقرآن يناقض القرآن ذاته، مثلما يناقض معنى (الرسالة) ودورها في البلاغ والبيان.. من (٣٧) عاما، تحديدا في يوليو١٩٧٠، وقبل تفشي هذه البدعة، كتبت مقالا لمجلة منبر الإسلام بعنوان «معاضدة السنة للقرآن». هذه المعاضدة التي يرمي «القرآنيون» إلى تفتيتها وإهدارها بدعوى أنه لا حاجة إلى السنة أو السنة القولية مع وجود القرآن المجيد، هذه الدعوى ترمي إلى اختزال الدين وهدمه.. يسوقون لذلك تعلاّت وذرائع مغلوطة لا تصمد للبحث، ولكن الخطر أن هذه البدعة يمكن أن تتسلل إلى البسطاء

أو أنصاف العارفين الذين لا يتعمقون الأمور أو اقتصر إلمامهم ببعض القشور دون أن تكتمل قاعدة علمهم بالدين ومصادره وأحكامه، ولا يدركون معنى الرسالة واستحالة انفصامها عن سنة الرسول الذى حمل بلاغها وبيانها وتفصيلها وقواعدها إلى الناس!.

الدعوة إلى حذف السنة بعامة أو السنة القولية بخاصة، دعوة ضالة مغلوطة، تحذف ركنا أصيلا من أركان المصدر الإسلامى. وتناقض ذات القرآن المجيد الذى تتوسل به لضرب دينه وهدمه!.

رسول القرآن – عليه السلام – هو الذى حمل، كسنن كافة الرسالات السماوية، رسالة القرآن المجيد إلى الناس.. لا تتصور الرسالة بغير الرسول الذى تلقاها وأبلغها إلى الناس، ولا يتصور الإبلاغ بها مشمولا ببيانها بغير دور هذا الرسول فى أقواله وأفعاله وتقريراته.. ويتضح لزوم ذلك فى الإسلام بخاصة، أنه دين عالمى نزل للعالمين إلى يوم الدين، واقتضت عالميته أن يكتفى فى بعض المواضع ببيان المجمل المناسب لشتى العصور والأمكنة، وهذا من أسرار إعجازه، موكلا إلى رسول القرآن الذى لا ينطق عن الهوى أن يبين ويفصل ويوضح، بيانا وتفصيلا يعاضد القرآن المجيد ولا يناقضه أو يخرج عنه، مقرونا بآيات قرآنية صريحة تأمر باتباع الرسول وطاعته والأخذ بما يأمر به والانتهاء عما ينهى عنه، دون أن تقيد هذه الطاعة الواجبة أو تخصصها بأى قيد أو تخصيص!

فى ذات القرآن المجيد الذى يتشح به «القرآنيون» لتنحية واستبعاد وإهدار سنة رسول القرآن ﷺ، وردت آيات بينات فى هذه الطاعة وموجباتها.. ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النساء ٦٤) .. وفى سورة آل عمران: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ ﴿٣٢﴾ ﴾ (آل عمران٣٢).. ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (آل عمران ١٣٢).. وفى سورة المائدة: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴿١٢﴾ ﴾ (المائدة ٩٢، التغابن ١٢).. وفى الأمر بطاعته فيما يأتى به، والانتهاء عما نهى عنه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴿٧﴾ ﴾ (الحشر٧).. من أطاعه – عليه السلام – فقد أطاع الله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴿٨٠﴾ ﴾ (النساء ٨٠).. ﴿ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾ (محمد ٣٣).

تعدد الأمر بطاعة رسول القرآن في العديد من آياته: (النساء ٥٩، الأنفال ٢٤، الرعد ٣٨، غافر٧٨، النور ٥٤، ٥٦ وغيرها).. هذا الأمر بالطاعة العامة، بغير تقييد أو تخصيص، قد اقترن بآيات أخرى تدل على معنى الأسوة والاقتداء، أو تدل على وجوب اتباع ما يقضي أو يقول به.. معنى الأسوة يدل دلالة قاطعة على وجوب التأسي والاقتداء بمنهج السنة، وجوبا عاما لا يقتصر على سنة فعلية دون السنة القولية أو التقريرية، وإهدار هذه السنة هو إهدار لمعنى الأسوة والاهتداء الذى قال فيه القرآن الحكيم ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب ٢١)، ولذلك فليس غريبا أن يجعل القرآن من الرضاء بحكم رسول القرآن شرطا للإيمان لا يتم بغير تمامه واكتماله.. ترى فى سورة النساء دعوة صريحة إلى رد الأمور إليه عليه السلام، لا تكتفى بما ورد بالآية (٨٠) من أن من يطع الرسول فقط أطاع الله، وإنما توجب الآية (٨٣) رد الأمور إليه وتبين أنهم لو ردوها إليه «لعلمه الذين يستنبطونه منهم».. ثم ترى فى الآية (٦٥) من سورة النساء دور النبوة فيما يشجر بين الناس وما يقتضيه من أقضيات أو أحكام أو أقوال جعل القرآن المجيد من قبولها والعمل بها آية من آيات طاعة الرسول بل شرطا من شروط الإيمان.. تقول الآية الكريمة: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء ٦٥).

الدعوة إلى إهدار سنة رسول القرآن هى دعوة مضادة لذات القرآن المجيد، ندرك خطرها حين نعلم أن السنة فى الاصطلاح الشرعى هى ما صدر عن النبى عليه السلام من سنن قولية ومنها تتكون معظم السنة، أو فعلية مثل أدائه الصلاة بهيئاتها وأركانها أو مناسك الحج، ومن أحاديثه عليه السلام التى اشتملت على مثل هذه التوجيهات النبوية: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»... «خذوا عنى مناسككم».. ومن السنة التقريرية، وهى ما أقره عليه السلام مما شاهده أو صدر عن بعض أصحابه من أقوال أو أفعال، سواء بسكوته وعدم إنكاره لها، أو بإفصاحه عن موافقته عليها.

والسنة المحمدية بأقسامها الثلاثة.. القولية، والفعلية، والتقريرية.. حجة على المسلمين.. تعد مكملة للقرآن الكريم، ومعضدة له.. ومصدرا من مصادر التشريع الإسلامى

بعد الكتاب العزيز مباشـرة.. وهى تكتسـب هذه الحجية ما دامت مقصودا بها التشـريع والاقتـداء، ونقلت إلينا بسـند صحيح يفيد القطـع، أو الظن الراجح بصدقه.. فلا يعد من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يأتيه من تصرفات وأعمال عادية فى مجال حياته اليومية وأمور معاشه، ما دام لم يقصد بها أن تكون تشريعا للمسلمين أو قدوة يحتذونها.. وليس من شـك أنه قد زاد من أهمية السـنة المحمدية أن المصطفى عليه الصلاة والسـلام أجـاب علـى مـدى ثلاث وعشرين سنة على عدد لا يحصى من أسئلة صحابته وغيرهم ممن أخذوا الدين عنه، وآمنوا برسـالته.. تارة بما يلهمـه الله تعالـى بـه، وتارة بما يؤديه إليه اجتهـاده النبوى.. هذه الإجابات المتنوعة فـى موضوعاتها المحكمة الجامعة فى مبادئها النبوية الرشـيدة، قد صارت مصدرا خصبا ومفيدا لفهم الإسـلام فى مبادئه وأصوله، وفى شتى فروعه التى تتصل بحياة الناس، وعلاقاتهم، وأمور دينهم.. ودنياهم..

وإذا كانت السـنة المحمدية لها هذه المكانة والأهمية التى اكتسـبتها بقيمتها الذاتية.. فإن البراهين الأخرى على حجيتها ولزوم اتباعها، ما دام مقصودا بها التشريع والاقتداء، عديـدة وقاطعة.. أولها هذه الآيات البينات التى عرضناها، والتى يحثنا سـبحانه وتعالى فيها ويأمرنا بطاعة الرسـول والإيمان بنبوته.. وثانيها أن هـذه السنة المحمدية ما هى فى حقيقتها إلاّ تبليغ لرسـالة أمره الله عز وجل بتبليغها.. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (النجم ٣-٥).

حجية السنة التى تريد دعوة «القرآنيون» استبعادها وإهدارها، جزء أساسى من الدين.. هى التى بينت – قولا وفعلا – فرائض الصلاة والصوم والزكاة والحج.. لا مرجع سواها فى بيان هذه الفرائض التى هى أركان الإسلام.. وهى فى أحيان أخرى جاءت مفصلة ومفسرة لما جاء فى القرآن مجملا، أو منشـئة ومثبتة لحكم لا ينطق فيه رسـول القرآن عن الهوى مثـل تحريـم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، أو تحريم الحمر الأهلية وسـباع البهائم تفصيلا لما ورد فـى القرآن المجيد فى قوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف ١٥٧).

حذف السـنة من المدونة الإسلامية، هو هدم للإسلام.. وأكثر منه مغالطة التذرع بمدى ثبوت السـنة لإهدارها.. فالسـنة النبوية قد جمعها أئمة كبار سـجلوا فى كتب الصحاح رواياتهـا ورواتها تفصيـلا دقيقا فيما انبنى عليه علـم الحديث الـذى أقام بقواعد صارمة مصفاة بالغة الدقة والإحكام لا يمر منها الحديث الموضوع، وأول معاييرهـا الدقيقـة المدققة ألاّ يتعارض الحديث مع القرآن، فإن تعارض دل ذلك على أنه موضوع ومنسـوب كذبا إلى رسول القرآن عليه السلام.

لا نكفر أحدا ولا نتهمه فى نواياه، ولكننا نريد للمسلمين أن يعوا أن السنة هى والقرآن الكريم معا متعاضدان فى إقامة الدين، وأن الدعوة تحت أى سـتار لتنحيتها أو استبعادها هى فى الواقع اختزال ضرير وهدم للدين يتناقض مع معنى الرسـالة، ودور حاملها الذى كان التجسـيد الحى والتطبيق الواعى لأحكام الشـريعة، والمشـعل الوضاء والمنار الهادى لأحكام الدين، بل إن هذه البدعة تتناقض مع ما أورده ذات القرآن الذى تتشح به البدعة اتشـاحا مغلوطا.. وتصادر على رسـول القرآن المجيد الذى قـال فيه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب ٣٦).. وكيف تهمل أو تجنب أو تسـتبعد سنة رسول القرآن الذى قال فيه الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب٤٥، ٤٦) صدق الله العظيم

ooo

الولاية: بين أمانة الأداء وأمانة الاختيار

مسئولية الإنسان إزاء الحياة، وإزاء نفسه مسئولية كبيرة ثقيلة.. يتبلور فيها موقف الإنسان من الحياة، وتقديره لنعمتها، وفهمه لرسالتها، واضطلاعه بأحمالها.. يحدثنا القرآن المجيد عن قيمة وعراضة هذه المسئولية الكبرى، فيسبغ عليها وصف الأمانة، ويقول على لسان الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب ٧٢).. لايقدّر هذه المسئولية وينأى بنفسه عن أن يكون ظلوما جهولا إلا من عرف لها قدرها، وحفظ واجباتها.. فإذا كان حملها إزاء النفس كبير، فإن أحمالها قبل الغير أكبر وأثقل.. هى رزء ضخم وامتحان هائل لا ينهض عليه إلاّ من استقام قصده وخلصت نيته وصح عزمه وعمله وأدى الذى عليه فيها.. المسلم مأمور بأداء هذه الأمانة والوفاء بحقها.. فى الذكر الحكيم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (النساء ٥٨).. أخطر الأمانات «ولاية» أمور الغير، ففيها مظنة أو مخافة ألاّ ينهض القائم بها نهوضه فى أدائها بما يقوم به إزاء نفسه.. من فرط خطر الولاية حذر النبى عليه السلام صاحبه الأثير أبا ذر الغفارى من نذر ومغبة مسئوليتها الجسيمة فقال له: «يا أبا ذر، إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلاّ لمن أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها». تتنوع الولاية بين ولاية أمور الناس بعامة، وبين ولاية القضاء، وولاية الأعمال والعاملين، وولاية الأموال، وولاية المحكومين.. المسلم مأمور بصيانة الولاية والتزام الأمانة فى كل ما ينهض به ويقوم عليه، فالأمانة صفة لصيقة بالمؤمنين، لا يجوز أن تنفصم عنهم أو أن ينفصموا عنها.. فى وصف المؤمنين، يقول القرآن المجيد: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المؤمنون ٨، والمعارج ٣٢).. هذه الأمانة مشتقة من الإيمان، فمن حفظ أمانة الله حفظ الله إيمانه، وفى حديث رسول القرآن عليه السلام: «لا إيمان لمن لا أمانة له»، بهذه الأمانة

نهض الأنبياء برسالاتهم، فيقول نوح عليه السلام لقومه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ (الشعراء ١٠٧-١٠٨) . وجعل هود عليه السلام يقول ذلك لقومه عاد الذين كذبوا المرسلين: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾ (الشعراء ١٢٥- ١٢٦).. وكذلك قال صالح لقومه ثمود وشعيب لقومه مدين فيما ترويه الآيات ١٤٣ وما بعدها و ١٧٧ وما بعدها من سورة الشعراء.. هى أمانة لازمة للحاكم والمحكوم، وللخادم والمخدوم، ولرب العمل والعامل.. لم تجد بنت شعيب عليه السلام خيرا من الأمانة تزكى بها موسى عليه السلام لأبيها، فطفقت تقول فيما يرويه القرآن الحكيم: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ (القصص ٢٦).. تتجلى الوصايا بالأمانة فى ولاية أمور الناس بالحق والعدل كما رأينا فى الآية ٥٨ من سورة النساء، فيما يقول فيه رسول القرآن عليه السلام: «ما من والٍ يلىَ أمور الناس إلاّ أتى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه لا يفكها إلاّ عدله».. هذه الأمانة واجبة فى إدارة شئون الحكم وفى البيوع والعقود وأداء الشهادة لأن كاتمها آثم قلبه (الآية ٢٨٣ من سورة البقرة) وفى رعاية وحفظ ما ينهض عليه الولى من أموال اليتامى وحسن أداء الواجب فيها..﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٥٢﴾﴾ (الأنعام ١٥٢).. حتى كان النبى عليه السلام يشير إلى أصحابه بإصبعيه ويقول لهم: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين».. هذه الرعاية رعاية عامة واجبة فى أداء كل ولاية، عنها قال رسول القرآن ﷺ: «ما من راع يسترعيه الله رعيته يموت يوم يموت وهو غاش لها إلاّ حرم الله عليه رائحة الجنة».

على أن القيام بأمانة الولاية لا يكون مباشرا فى جميع الأحوال، فلا غناء لكل صاحب ولاية عن إيكال أجزاء أو فروع أو أمور أو واجبات منها إلى من تشهد أحواله وصفاته وسجاياه بأهليته وصلاحيته وأمانته وقدرته على حمل هذه الولاية.. لا يحل الوالى من أمانته، إلا أن يحسن ويصدق فى اختيار من يعهد إليه بولايات الناس.. فأمانة المستخدم فرع على أمانة المخدوم، والتزامه نابع من حسن اختياره للمهمة من ناحية، ومن إدراكه أنه يحاسب على عمله حسابا لا مجال فيه للإيثار أو المجاملة أو المحاباة!

الولايــة فى زماننا صارت أكثر تركيبا وأشــد تعقيدا من الزمــن الماضى.. فى الماضى كانت سياســة أمور الناس أكثر وضوحا وربما أشد بســاطة.. لم تكن المشاكل والأقضيات وتعقيدات أنشطة الحياة كتلك التى قذفت بها حضارات اليوم واستوجبت تفريعات فى التصدى والمعالجة فتحــت أبوابا لولاية أمور كثيرة التنوع متعددة الوجــوه.. كان مضمون الولاية يكاد يقتصر فى الزمن الماضى على سياسة أمور الناس وإدارة المال وفض المنازعات والخلافات، مما كانت تكفى فيه الولاية العامة وولاية القضاء قبل تخصيص من يقوم على ديوان أو بيت المال!.

لــم تكن متطلبات الولاية فى زمن النبــوة كمتطلباتها اليوم، ولا كانت أنواعها وتفريعاتها وتعقيدات مهامها كتعقيدات اليوم، ومع ذلك نرى الإســلام يســبق زمان نزوله ويستشــرف ما ســيأتى به المســتقبل، فيدلنا على أهمية الولاية ملمحا إلى تفريعات أنواعها التى تنبأ بها فلــم تقتصر وصايــاه فقط علــى وظيفة الحكم التقليديــة أو فقط علــى وظيفة القضاء أو فقط على ولاية المال. فمع حديث القرآن الكريم والسنة النبوية عن هذه وتلك من ولايات الحكم والقضاء والمال، دل فى حديث النبى ﷺ على أن (الولاية) قـد ترد على غير هذه الأبواب التقليدية.. فى حديثه عليه الســلام المروى عنه بإســناد صحيح: «من وُلّى من أمر المسلمين شيئا فولّى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمســلمين منه، فقد خان الله ورســوله والمؤمنــين».. نرى أن الصياغة لم تخص نوعا معينا مـن الولايات وإنمـا اختارت أن تطلـق اللّفظ فقالت: يلى «شــيئا» تعبيرا عن أن ما قد يليه الشــخص من أمور للناس يتنوع بتنوع أنشطة الحياة، وحرصت العبارة على تعميم معنى الأمانة ليشمل كل ولاية بقولها «فولّى رجلا» دون أن تخصص أو تقيدَ هذه الولاية أو الأمانة بقيد أو تخصيص بشــىء أو نوع بذاته، لتنســحب القاعدة العامة فى وجوب الأمانة على كل نوع من أنواع الولايات، وفى كل أمر من أمور الجماعة أو الناس يعهد به الوالى إلى من يختارهم من ولاة.. عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه أن الهادى البشــير ﷺقـال «من ولى من أمر المســلمين شــيئا فأمر عليهم أحدا محاباة، فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخلـه جهنـم».. وفى وصاياه عليه الســلام لأصحابه: «أيما رجل اســتعمل رجلا على عشرة أنفس، علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل، فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين»!!.

الشهادة : واجب لا وظيفة!

هذه الخواطر حول الشهادة استدعتها قصة من الواقع، ظنت فيها إحدى الجهات -ولا أريد أن أسميها- أن سلطة الوظيفة تعطى وصاية على الموظف فى أداء الشهادة، متى يقولها أو يحجبها، وماذا يبدى أو لا يبدى فيها.. ما استدعى خواطرى آنذاك بشدة، جسامة الواقعة، وموقع الشاهدة الرفيع فى هيئة من هيئاتنا العلمية التعليمية المرموقة، ومع ذلك ورغمه اختلطت الأوراق، حتى ظن صاحب الشوكة أنه يستطيع بشوكة السلطة أن يرهب الأستاذة الدكتورة صاحبة الموقع الرفيع، واسترسل حتى أحالها إلى التحقيق التأديبى لأنها دون إذنه والتنسيق معه لبت استدعاء محكمة رأت أن تسمع شهادتها، فذهبت وأدتها بما لم يعجب القيادة الإدارية لأن الإدارة ذاتها كانت على المحك فى خصومة لم يجد طرفها الآخر بدا إزاء التجنى الواقع عليه من اللجوء بمظلمته إلى القضاء!.

ما كان يمكن أن يصدر هذا التصرف الذى صدته وأوقفته سلطة التحقيق بقرارها بالحفظ - ما كان هذا التصرف الضرير ليصدر لولا اختلاط والتباس فى مفهوم وواجب الشهادة، تردًّ بإقحام سلطة الوظيفة فيها، مع أن الشهادة ليست واجبا وظيفيًّا، ولا تدخل تحت حزمة الواجبات الوظيفية لائحية كانت أو تعاقدية، وإنما هى واجب دينى وشرعى وأخلاقى، وقانونى أيضا لمن لا يكتفى بواجب الدين والشرع والأخلاق، يتجه خطاب الواجب بها إلى الآدمى من حيث هو آدمى لا من حيث هو موظف أو غير موظف، صاحب عمل أو عامل أو أجير، حاكم أو محكوم، غنى أو فقير.. ولذلك فإن الاستجابة لأداء الشهادة، وأداءها واجب شخصى لا وظيفى، مصدره الدين والشرع والأخلاق والقانون.

الشهادة فى شريعة الإسلام، شهادة لله وللحق، فيقول القرآن المجيد: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۝٢﴾ (الطلاق ٢) .. وهى لاتكون لله سبحانه وتعالى إلاّ طلبا للحق وإعلاء له، والقيام بهذا الحمل الثقيل لا يقبل مساومة ولا تشيعا ولا استمالة ولا تنسيقا، فلا ينوب عن الشاهد فى حمل ثقله عن شهادته أمام الله خصم ولارفيق ولا رئيس

ولا زميل ولا قريب ولا صاحب ولا رب عمل ولا شئون قانونية ولا سواهم، لذلك كان شرط «العدالة» شرطا أساسيا فى الشاهد. فيقول القرآن المجيد: ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ (الطلاق ٢)، هذا «العدل» المأمور به إلهيًا، لايقبل تدخلا من أحد تحت أى شعار ولا تكئة ولا ذريعة من ترتيب أو تنسيق أو سواه، لأن ذلك معناه إباحة «استقطاب» الشاهد لمصلحة أو رؤية هذا أو ذاك من أطراف الخصومة بذرائع لا يقرها العدل ولا الشرع ولا القانون ولا المنطق.

يأبى هذا الواجب الملقى مباشرة على عاتق الشاهد أن يستأذن أحدا لأداء الشهادة، أو يمنعه أحد من أدائها، فالواجب واجبه، لا يحله منه اعتراض وظيفته، ووزر وعقاب التخلف عن أدائها واقع عليه لا على سواه.. فهو مأمور بأداء الشهادة متى دُعى إليها، بل ودون أن يدعى إليها، فيقول القرآن المجيد: « وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ» (البقرة ٢٨٢). ويقول الحديث الشريف: »الساكت عن الحق شيطان أخرس»، ويقول القرآن الحكيم: ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٨٣).. ويقول عز من قائل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة ١٤٠) .

من الأوزار الجسيمة الاعتقاد الضرير بأن على الشاهد أن ينسق شهادته مع جهة عمله أو سواها.. فماذا لو أرادت جهة العمل من هذا التنسيق أن تستقطبه لما يخالف ما يعتقده الشاهد أو يتنافر مع الحقيقة.. لا يجوز لأحد ولا لسلطة اقتحام ما يؤمن به ضمير الشاهد الذى حذره سبحانه وتعالى من كتمان الحق ومن قول الزور أوالشهادة بالزور، فقال له فى محكم تنزيله ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ٤٢)، وجعل البعد عن شهادة الزور صفة لازمة من صفات المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ (الفرقان ٧٢) ونهاهم لذلك عن الزور فى الشهادة والتزييف والبهتان والتضليل فيها، فأمرهم بالبعد عن هذا كله، وقرنه فى درجة إثمه بعبادة الأوثان، فقال فى قرآنه الحكيم: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ

رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الحج ٣٠).

الله سبحانه وتعالى يأمر الشاهد بالعدل فى شهادته أيا كان المشهود عليه، قريبا أو حبيبا أو أبا أو شانئا.. الشاهد يؤدى الشهادة لله والحق.. يوصى بذلك القرآن المجيد فيقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المائدة ٨).. ولايحول بين الشاهد وبين الصدق فى شهادته – أن يكون هو المشهود عليه أو يكون من أهله أو ذوى قرباه أو الوالدين والأقربين .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (النساء١٣٥).. ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (الأنعام ١٥٢).

إن ما ورد بالشريعة الإسلامية، وبكتاب الله وسنة رسول القرآن ﷺ، يقف وراء منظومة رائعة للشهادة فى قانون المرافعات وفى قانون الإجراءات الجنائية، لم تدع شاردة ولا واردة إلاّ أحصتها وأوردتها وعالجتها لتضمن أن يؤدى الشاهد شهادته إذا مادعى إليها، وتعاقبه إذا تخلف أو امتنع عن أدائها، ولتلزمه بأداء اليمين ضمانا لصدقه وعدله، وتعاقبه إذا نكل، وتلزمه بأن يشهد بالصدق، وإلا عاقبته على الشهادة الزور – سواء فى دعوى جنائية أو مدنية – والتى يمكن أن تصل إلى عقوبة الإعدام إذا ترتب عليها ضياع روح إنسان ! !

لم يكتف المشرع المصرى بالسياج الذى أقامه الدين والشرع، ولا بما نص عليه قانون المرافعات وقانون الإجراءات الجنائية، وإنما أقام سياجا بالغ الأهمية فى قانون العقوبات فى الباب السادس من الكتاب الثالث، بعنوان «شهادة الزور واليمين الكاذبة» – حماية للناس من الكذب والتزييف والزور فى الشهادة، سواء فى الدعاوى الجنائية أو المدنية، فتنص المادة ٢٩٤ عقوبات على أنه: «كل من شهد زورا لمتهم فى جناية أو عليه يعاقب بالحبس»، وتغلظ هذه العقوبة إلى حد الإعدام تبعا لما يحكم به على من شهد زورا عليه

(المادة ٢٩٥ عقوبات) وتنص المادة ٢٩٦ عقوبات على أنه: «كل من شهد زورا على متهم بجنحة أو مخالفة أو شهد له زورا يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنتين»، وتنص المادة ٢٩٧ عقوبات على أنه: «كل من شهد زورا فى دعوى مدنية يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنتين».

لم يترك قانون العقوبات الشاهد لخياره إذا ما أراد أو قبل الميل عن الشهادة، فحذره وحصنه ونهاه عن قبول أى تداخل أو تدخل تحت أى مسمى أو تعلة فى شهادته، فكثيرا ما تتلبس الأغراض بأثواب وتعلات ومسميات شتى، ولذلك نصت المادة ٢٩٨ عقوبات على أنه: «إذا قبل من شهد زورا فى دعوى جنائية أو مدنية عطية أو وعدا بشىء ما – يحكم عليه هو والمعطى أو من وعده بالعقوبات المقررة للرشوة أو للشهادة الزور إن كانت هذه أشد من عقوبات الرشوة».

فإذا حدث الإخلال والتعدى على الحقيقة، فى شأن تكليف من سلطة قضائية بعمل خبرة أو ترجمة فى دعوى مدنية أو تجارية أو جنائية، فيعاقب بعقوبة الشهادة الزور طبقا لما نصت عليه المادة ٢٩٩ عقوبات.

فكيف إذن وعلى أى أساس نهض أو ينهض التصور بوجوب الاستئذان أو الإخطار والتنسيق فى أمر شهادة موكول الصدق فيها إلى الشاهد، ومفروض العقاب على الكذب والزور فيها على الشاهد، وما هو السند الذى نهض أو ينهض عليه هذا التصور الضرير الذى يصب فى إقامة «وصاية» على الشهادة والشاهد قد تسلس إلى نهى عنها أو تدخل غير محمود فى أدائها؟!.

لقد حملت المادة ٣٠٠ من قانون العقوبات تحذيرا ونذيرا بنصها على أنه: «من أكره شاهدا على عدم أداء الشهادة أو على الشهادة زورا يعاقب بمثل عقوبة شاهد الزور مع مراعاة الأحوال المقررة فى المواد السابقة».. هذه الأحوال التى يمكن أن تصل عقوبة القانون الوضعى فيها إلى الإعدام!.

الإسلام وحملات الإساءة!

لم تكن قد مضت على عضويتى لمجمع البحوث الإسلامية إلاّ ثلاث سنوات، ومع ذلك عرض علينا خلالها كثير من الهجمات الجائرة المفتئتة على الإسلام ورسوله عليه السلام، معظمها آتية من الخارج، من الدانمارك أو بابا الفاتيكان أو غيرهما من بلدان الغرب، إلاّ أن أقلاما مسلمة، ومن داخل مصر، ساهمت فى هذا الغثاء تحت تعلة التنوير، وماهو بتنوير ولكنه تسخيم لوجه الإسلام فى وقت تأتيه رياح الافتئات ظالمة جهولة من كل باب. لقد شاركت وناقشت، وصغت فيمن صاغوا كثيرا من بيانات الشجب والاحتجاج، وكثيرا من عبارات الدعوة إلى التعقل والإنصاف، فلا هذه نفعت، ولا تلك أجدت، واستمرت حملات الخارج، وانفلاتات الداخل، دون أن ترعوى أو تقتصد أو تفهم المخاطر والمحاذير فى هذا المساس الغشوم بسقوف الأديان!

والحملة المشنونة بالغرب وأمريكا على الإسلام، والتى طالعتنا بشدة فى الشهور الأولى لعام ٢٠٠٨ ميلادية، لم تقتصر على إيذاء مشاعر المسلمين، إنما هى تصب فى صميم حياة المسلمين هناك، وأعدادهم ليست قليلة ولا هينة، بل بالملايين العديدة كما هو حاصل على سبيل المثال فى كل من أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا وغيرها. فتعداد المسلمين فى الولايات المتحدة قد قارب سبعة ملايين مسلم، ونحو ستة ملايين فى فرنسا، وخمسة عشر مليونا فى روسيا، وقرابة أربعة ملايين فى ألمانيا، وقرابة المليونين فى بريطانيا، وزيادة عن المليون فى البلاد الواطئة، وكذا فى بولندا، ونحو ٢٠٪ من جملة سكان يوغوسلافيا قبل التفتيت، غير المسلمين وهم بمئات الألوف وتقترب أحيانا من المليون فى باقى الدول الأوروبية غير دول الأمريكتين. الصورة المغلوطة التى يصورون بها الإسلام هناك، تخلق متاعب عديدة للمسلمين المضطرين للتعامل مع الأنظمة ومع المجتمعات التى يعيشون فيها فى القارة الأوروبية أو الأمريكتين. حملات الكراهية وتشويه الإسلام فى هذه الدول لا تمس فقط مشاعر المسلمين هناك، إنما تحيل حياتهم وسط هذه المجتمعات اللافظة إلى جحيم موصول! وظنى كذلك أن المتطرفين الذين

يعطـون المادة لحملات مهاجمة الإسـلام، لا يلتفتون إلى قدر الأزمـات والمصاعب التى يتسـببون فيها بأعمال طائشـة لا طحن لها، بينما هى تنحر من صورة الإسلام والمسلمين بعامة، وتسـبب لجالياتنا الإسلامية العديد من الأزمات والمصاعب وتجعل مـن حياتهـم جحيما وسط محيط بات يتوجس منهم أو يصطنع الأسباب لمجافاتهم ثم للفظهم وطردهم من هذه البلدان التى كانوا فى السالف عنوانا جاذبا فيها للإسلام.. ودالا فى الوقت ذاته على جور وافتئات الصورة الكاذبة التى ظلوا يحشدون بها الكتب فى الغرب ضد الإسلام على مدار قرون، فلما جعلت الصورة تتعدل لصالح الإسـلام والمسلمين، تردت الحركات الشاذة والمتطرفة ببعض الأعمال الجامحة التى يأباها الإسلام نفسه فى إعطاء الفرصة لرد الحاضر إلى ما كانت عليه الكراهية للإسلام وزيادة!

المسلم فى الشرق والغرب، ابن البلد أو وافد أو مهاجر فى البلد الذى فيه يعيش، يرى الإسـلام كما يعتقده هو ويؤمن به، وبوسعه أن يعرف كم هو جائر وغير صحيح أن تحسب الأعمال المتطرفة الضالة على الإسـلام. فهو يعرف كيف أن الإسـلام نهى عن العنصرية، واعتنق السماحة والمساواة، وأقام شريعته على شخصية المسئولية بحيث لا يسأل الشخص إلاّ عما يفعل، ولا يحاسـب على فعل أو عمل غيره. أينما ولى المسـلم يرى حقيقة الإسلام فى مصادره الإسـلامية المكتوبة قرآنا وسـنة وسيرة وأثرا، أو مسموعة فيما يتلقاه من تلاوة ترددهـا الإذاعات المسـموعة والمرئية، أو دعوة رشـيدة لا يعـدم الوصـول إليهـا، إلاّ أن الأجنبى غير المسلم لا يطلع ولا يرى شيئا من ذلك، فكل هذه الروافد غير موجهة إليه، وهو لو صادفها لا يستطيع لحاجز اللغة أن يلم بها، وتكاد رؤيته للإسلام أن تكون محصورة فى المشهد المتطرف الشاذ الذى لا ينتمى للإسلام ولا يصوره أو المسلمين ولا ينصفه أو ينصفهم.

حـادث تفجـير واحد – فى مدريد أو لندن، أو فى الرياض أو الأقصر – يحتل للأسـف معظـم الصورة التى يفهمها الآخرون للإسـلام والمسـلمين، وهيهـات أن تقنعهم بخطبة عصماء أو بيان شـجب، أن هذا من فعل متطرفين مغالين وليس من الإسـلام.. يسـاهم فـى ضياع الصدى أنهم يتكلمون لغـات غير لغتنا، ولا يفهمون بالتـالى خطابنا ولا بثنا

ولا دعوتنـا، بينما تلـح عليهم ميديا عالمية معظمها أحول يحكمـه الهوى - بأن هذا هو الإسـلام، ويجتزئون كلمة فى آية، يخرجونها من السياق، ليقولوا امسك هذا هو القرآن.. أليست تقول الآية: ﴿ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ (الأنفال٦٠).. إذن هذا هو الإرهـاب، ومصدره ومنبعـه، لا تعنيهم الآية، ولا يعنيهم سـياقها، ولا حقيقة مقصدها، وإنما يتسـقطون لفظة من هنا وأخرى من هناك ليقولوا إرهاب الإسـلام أو فاشـية القرآن، فـى الوقت الذى يصابون فيه بالعمى الضرير عن رؤية مقاطع كاملة مليئة بالدماء والتقتيل والتحريق فى العديد من أسفار العهد القديم، ولا ما فيه من إساءة واتهامات وإهانة للأنبياء. الميديا الإعلامية العالمية مغرضة ولا شـك، ولكننا نحن المسـلمين نمدهم بالمادة المغذية فى بعض سـلوكياتنا الغريبة الغارقة فى مظهر شـكلى فقط وعافاه الزمن، وابتعادنا عن جوهر الإسـلام والتشـويش على صورة المسلم الحق الذى هو عنوان الإسلام وآيته إلى الدنيا، بينما يلاحقنا المتطرفون ويلاحقـون العالم بأعمـال عبثية تضرب ضربـا عشـوائيا على غير سـنن ومبادئ الإسلام لتحسب فى النهاية على المسلمين وعلى الإسلام!

هـذا المشهد لا يقبل أن نغسل أيدينا منه بالولولة، ولا بالآهات، ولا ببيانات الشجب، ولا بالخطب العصماء. هذا المشهد يحتاج إلى محورين كبيرين بالغى الأهمية: مراجعة النفس مراجعة شـاملة المظهر العام والسلوكى للمسلم بعامة، وموجات التطرف والمتطرفين وأثرهما المدمـر بخاصة، وخطاب للآخر معنى به وموجـه إليه بلغته هو حيثما هو لا بلغتنا نحن. وظنى أننا مفرطون حتى النخاع فى مراجعة النفس، وفى مناسبة ولغة خطابنا للآخرين!

على أنه يخطئ التشـخيص من يظن أن الحملة الغشـوم المطلقة الآن على الإسـلام طارئ جديد، فتاريخ الغرب فى النكير على الاسـلام، وسوء فهمه والتهجم عليه وعلى رسـوله الكريم أمر قديم، يسـتطيع من يريد تقصيه أن يراجعه فى العرض الوافى جدا الذى أوردته الراهبة السابقة كارين أرمسترونج فى كتابها الضافى: «محمد» الذى ترجمه الدكتوران محمد عنانى وفاطمة نصر. والمؤلفة إذ تتبع هذه الحملة الغشـوم على الإسلام عـبر قـرون، تؤكد أنها تحققت من أن تلك الأحقاد دافعها المفاهيم المغلوطة والأسـاطير المختلقـة، ثم هـى وراء ما يتبناه الغرب مـن مواقف إزاء «الآخر» وهـذا الآخر - فيما

تصرح – هو الإســلام! تقر الراهبة السابقة أن لديهم فى الغرب تاريخا طويلا من العداء للإســلام، وبأنه راســخ الجذور مثل عدائهم للســامية، ولكن الكراهية القديمة للإسلام تواصــل ازدهارهــا – فيما تقول – على جانبى المحيط الأطلســى، ولم يعد يوجـد وازع – والكــلام لهـا – يمنع الناس مـن مهاجمـة ذلك الدين حتى ولو كانوا لا يعرفون عنه إلاّ القليل. تعزو المؤلفة هذا العداء الحاضر إلى أنه لم يحدث قبل ظهور الاتحاد السوفيتى أن واجه الغرب تحديا يوازى التحدى الذى يمثله الإسلام. تزداد هذه الصورة جلاء لدى من يســتصفى ويستقطر كتاب (صدام الحضارات) لصمويل هنتنجتون، وهـو ما تنبأ به العقاد من أكثر من نصف قرن فى الكثير من كتاباته.. إن عداء الغرب القديم للإســلام يحمـل الآن بذور ودوافع وأغراض السياسة التى أقلقها ولا يزال تقدم الإسلام واتساعه.. أو على حد ما ورد فـى الدراســة البحثية التى نشــرت مؤخرا للمعهد البحثى المسيحى Christian Research Institute وهى متاحة على الإنترنت، وتؤكد أن الإســلام يزداد انتشارا وقوة فى العالم، وأنه بات يمثل أقوى التهديدات أهمية للكنيسة الأمريكية، وأن المؤشــرات تورى بأنه أسرع الأديان انتشارا ونموا فى العالم وفى أمريكا، وأن نسبة نموّه وانتشــاره فى الولايات المتحدة ما بين ســنتى ١٩٨٩، ١٩٩٨ قد زادت بنســبة هائلة، كذلك فى فرنســا وألمانيا والمملكة المتحدة، وأن المصادر المســيحية والإسلامية تتفق على تأكيد أن الإســلام هو أسرع الأديان والمذاهب انتشـارا الآن فــى الولايات المتحدة، وأن الكتاب الســنوى (٢٠٠٠) للكنائس الأمريكية والكندية أعطى مؤشـــرات مقلقة لزيادة المســلمين، وتتوقف الدراســة البحثيــة حائرة فى محاولة استشفاف أسباب هـذا التزايد الســريع فـى أعداد المســلمين، لتنقل فى النهاية عن جيمس دريتك James Dretke قوله:

It is great thrill to see many Muslimes on our doorsteps. While we cannot easily gain entry in their countries.. God has brought them to ours

«إنهــا لإثارة كبــيرة أن نرى الكثيرين من المســلمين على أعتابنا، وبينما لا نســتطيع بسهولة أن ننال الدخول إلى أوطانهم فإن الله قد أتى بهم إلى أوطاننا»

سنظل متخلفين عن مواجهة الحرب الشرسة الضالة على الإسلام والمسلمين ما دمنا تعاملنا معها برد الفعل لا الفعل. من المهم أن نستوعب دوافع وأبعاد ووسائل وأساليب هذه الحملة ثم نتعامل معها بمنطق الفعل في إطار رؤية شاملة وخطة مدروسة وبرنامج تفصيلي وأدوات وآليات فاعلة.

ooo

رأيت بنفسي كثيرا من الرسوم الكاريكاتيرية المنشورة بالدانمارك التي تسيء إلى رسول الإسلام ﷺ، وظني من واقع ما لاحظته فيها من إسفاف مسف، وتطاول شنيع، واستهزاء مغرق في السفالة أنها تقصد قصدا إلى إثارة وإهاجة المسلمين، ودفعهم إلى ردود أفعال مغموسة بالغضب الذي تثيره بداهة هذه الإساءات البالغة المنحطة.. يعرف المتطاولون بالرسوم المسيئة على رسول الإسلام وعلى الإسلام، أنهم لا يضربون في المليان، ولا يقدمون حجة على الإسلام أو شيئا ذا قيمة، وإنما هم يستهزئون ويسخرون ويسفون، ويعرفون أن هذا كله لا قيمة ولا طحن له فماذا يريدون؟!. يريدون بالقطع إثارتنا.. ظني أن أغلظ أنواع رد الفعل هو الانفعال. هذا الانفعال هو المطلوب على الجانب الآخر ليكون شاهدا على المراد. أننا ظاهرة صوتية بانفعالات همجية لا تقدر حرية الرأى وحرية التعبير.. هكذا يقولون! .. نؤثر الغضب والثورة والضجيج على المناقشة والحوار. بعضهم يقول إن الدانمارك – مثلا – علمانية غير متدينة، وأن الغرب بعامة لا يجد بأسا من التوغل في الأديان. ألم يخرجوا فيلم «الإغواء الأخير للمسيح» of Christ The last temptation صوروا فيه المسيح في مشاهد جنسية مع مريم المجدلية على أنها مخايل راودته وهو على الصليب، وجعلوه أبا لابنة من مريم المجدلية في فيلم «شفرة دافنشي» «The Davinci Code»، وجسدوا جلده وتعذيبه وصلبه في فيلم «آلام المسيح».. «The passion of Christ» ؟!.. فلماذا إذن يهتاج المسلمون على رسوم كاريكاتيرية؟!..

يتجاهلون بذلك أنهم هم الذين كتبوا وأخرجوا وصوروا هذه الأفلام، ويتجاهلون أن هذه الأفلام التي هم صانعوها لا تسخر ولا تهين أو تستهزئ، بينما الرسوم الكاريكاتورية محض قلة أدب واستهزاء ولغو لا يرد عليه بمنطق أو بحجة أو بحوار!.

ومــع ذلــك فأغلط ما نفعله أن نتعامل مع هذا الإســفاف برد الفعل الهائج، لأننا بذلك نعطى قيمة لغثاء لا قيمة له، مثلما روجنا بردود أفعالنا الغاضبة أعمالا هابطة لا قيمة لها مثل رواية آيـات شيطانية! الحصاد النهائـى أو الحســاب الختامى لردود أفعالنا العصبية إنما يصب لصالح ما يريده ويســتهدفه المسفون المسيئون! نقع فى هذا الخطأ رغم أن ديننا حض على عدم الالتفات إلى اللغو والترهات، ووصف المؤمنين فى القرآن الكريم بأنهم: «إذا مروا باللغو مروا كراما».. وبأنهم: «إذا خاطبهم الجاهلون قالوا ســلاما».. لقد تَرَفّعَ رسـول القرآن عن مجاراة أو إعطاء أى قيمة لترهـات وإســاءات ودعاوى ولغو وتطاول الكافرين، فما زاده ترفّعه إلاّ قيمة وثباتا، وزاد الإسلام رسوخا وانتشارا..

يكفــى أن نلتفــت لما يحدث فــى الولايات المتحــدة لنعرف أن الإســلام أكبر من كل حملات الإســاءة.. فبرغم أنهم يشنون الغزو والحملات الغشومة ضد الإسلام تحت دعاوى الإرهاب، فإن الإســلام يزداد هناك انتشــارا، وتورى إحصائيات الكتاب السنوى لدائرة المعارف البريطانية أن المسلمين يتزايدون بكثرة فى الولايات المتحدة رغم حملات الكراهية التى لا تتوقف هناك. يكفيك أن تعرف أن المســلمين كانوا عشــرة آلاف فقط سنة ١٩٠٠، ثم وصلوا إلى مليون مسلم فى ١٩٧٠، وأنهم زادوا سنة ٢٠٠٠ إلى ٠٠٠, ٨٥٠, ٥ مسلم، ثم زادوا فى منتصف عام ٢٠٠٥ إلى ٠٠٠ , ٤٩١ , ٦ مسلم، وتقدر أعدادهم الآن بقرابة عشرة ملايين.. هذه الزيادات دليل مؤكد على أن الحملات الكاذبة المغلوطة لا تنال من دين عامر بمبادئــه وقيمه وأحكامــه، مثلما لم ينل كل تهجم الكفار ودعاواهم الكاذبة من مقام القرآن المجيد، حجة الله وحبله المتين.

الإســلام ورســوله قرة عين المســلمين، لا يعنيهم حول الأحول ولا عـوار الأعور الذى لا يســتطيع أن يــرى أو تنحــرف لديه الرؤية بعمــاه أو بانحراف عدســة رؤيته المحدبة أو المقعرة أو المنكسرة. لن يضير الإسلام أن ينكره ناكر، ولن يذوى القرآن لعمى ضرير أمسك بتلابيب عميان أو مغرضين، ولن تختل قيمة ومقام ومكانة رســول القرآن لأن قلم أو ريشــة ســفيه تطاولا عليه. ســيبقى الإسلام رغم كل شــىء معمارا لقلوب وحنايا وعقول المؤمنين به، وســيبقى قرآنه المجيد دســتورهم الهادى مهما اتهموه بالفاشــية أو الإرهاب، فقيمته

فيه لا فيما يغالط به المغالطون، وسيبقى رسول القرآن قدوة وأسوة للمسلمين وهداية ومنارة للدين في العالمين. لا ينبغى إذن أن نجزع، وإنما علينا أن نفهم، وأن نترك رد الفعل إلى الفعل الذى يحيط بالمخطط ومراميه، ويتخذ له على مهل وأناة، وحكمة وبصيرة، ما يرد عن الإسلام والمسلمين كيد الكائدين !

من مزايا الخروج من موقف الدفاع، وعدم الاكتفاء برد الفعل على رسم مسيء أو تهجم وقح، أن نلتقط الأخبار والحالات والشواهد الإيجابية لنكرسها أو نبرزها بإلقاء الأضواء عليها، أو جعلها موضوعا للمناقشة واستخلاص دلالتها. من هذه الحقائق الإيجابية ما دلت عليه إحصاءات الغرب نفسه، والأمريكان، أن الإسلام يتقدم بقوة ويزداد الإقبال عليه في الغرب، واللافت أن يحدث ذلك فى الولايات المتحدة حيث تشن إدارتها حملة شعواء على الإسلام والمسلمين!.

لست أدرى لماذا يتوارى وباختزال داخل الصفحات الداخلية لصحفنا ـ خبر دخول ثانى مسلم إلى الكونجرس فى التاريخ الأمريكى. الخبر المختزل المتوارى، يقول إن الناخبين الأمريكيين اختاروا الشاب المسلم أندريه كارسون (٣٣ عاما) لعضوية الكونجرس عن ولاية إنديانا فى انتخابات خاصة بعد وفاة جدته جوليا كارسون التى كانت ممثلة الولاية، وأنه سبقه انتخاب مسلم آخر لعضوية الكونجرس عن ولاية مينيسوتا. هذا الخبر المزدوج الذى لم نحسن تصديره واستقصاء دلالته!.

تأتى أخبار انتخاب السيناتور الجديد المسلم، مع ارتفاع معدلات الإسلام فى أمريكا، وسابقة انتخاب المسلم الآخر – شهادة للإسلام بأنه جاذب يعطى النموذج لحسن وكمال الخلق والسلوك. ولو كان دين عنف وإرهاب لما قدم هذه النماذج، ولما اعتنقوا الإسلام أصلاً! قارن مثلا محمد على كلاى الملاكم الأعظم فى تاريخ الملاكمة، هذا البطل الأسطورة الذى إعتنق الإسلام وتسمى بمحمد على، قارنه بغيره من الملاكمين لترى الفارق الكبير فى المعدن والسلوك.. يشهد لمحمد على كلاى بأنه صار بالإسلام نموذجا لرياضى على خلق رفيع وإنسان يفيض إنسانية وصاحب رسالة وعطاء لأوجه البر والخير ودعم مجتمع الفقراء، بينما غيره من الملاكمين أبطال أيضا ولكن فى الجنوح والمخدرات والاغتصاب

والقمـار.. لا يخـرج بعضهم من السـجن إلاّ ليعـود إليه بعد أن بدد علـى جنوحه مئات الملايين!.

لا أدرى لماذا لا نكثف علاقاتنا بالمسـلمين فى شـتى بقاع الأرض، ونقيم وإياهم جسورا تكشف وجه الإسلام الصبوح، بدلا من الملصقات والشعـارات والأعـلام التى جعلت تتزايد حاملـة السـيفين المتقاطعين إلى جوار المصحف أو اسـم الجلالة، مع أن الهلال يغنى فى التعريف بالإسلام، وكعنوان له، بدلا مما يوحيه أو يتيحه السيف لصيادى الإساءة ليقيموا من حولها مناحة باتهامات الإرهاب أو بالرسوم المسيئة؟!.

صورة المسـلم الصحيحة التى صارت الآن تملأ شـتى بقـاع الأرض، هى أبلغ رد على حملات الإسـاءة والتجنى على الإسـلام مهما علت موجتها وتنوعت أساليبها ورسوماتها وصورها.. هذه النماذج الإسـلامية تحمل فى بسـاطة ويسر ردا مفحما على التهجم الجائر على الإسـلام والمسـلمين أجدى مـن الدفـاع ومن كل ردود الأفعـال الغاضبة المتشنجة التى تأخذ منا ولا تعطينا.. قيمة ما يقال أو يجسـد هناك - أنه آتٍ منهم وبلغتهم.. آية ناطقة لديهم لا تكلفنا سوى الالتفات إليها وإبرازها فى إطار رؤية وخطة شاملة وآلية مؤهلة قادرة متصلة تتابع إيضاح الإسلام لنا وللعالمين.

ooo

رأينا أن حملات الإساءة للإسلام، والتهجم عليه وعلى رسوله الكريم، لا تمس المشاعر وكفى، وإنما هى ضمن خطة مدروسة منظمة لبث الكراهية للمسلمين، والعدوان عليهم فى أوطانهـم تحت ذرائع مختلفة، كما حدث فى العراق ومن قبلها فى أفغانستان، ومن قبلهما فى البوسـنة والهرسـك.. غير ما تورى المقدمات بأنه يدبر ضد سـوريا وإيران، فضلا عن الانتهاكات والمؤامرات الجارية فى لبنان، وحرب الإبادة فى غزة وباقى فلسطين.. ويدخل هذا المخطط فى اعتباره ـ حصار الأقليات الإسلامية وخنقها فى أوروبا والأمريكتين، وإحالة حياتها إلى جحيم يلجئها إلى الانكماش أو المغادرة.. هذا الهجوم الجهول على الإسـلام، يجاوز فى ضلاله وتوحشـه كل ما سـبق أن تعرض له الإسـلام والمسلمون فى السالف من هجمات ضالة ساهم فيها كتاب وفلاسفة وملوك وأباطرة وجيوش!.

خطأ بالغ مواجهة هذا المخطط بردود أفعال هنا وهناك، متفرقة شاردة موزعة غير مترابطة، مغموسة بالغضب والانفعال، تعطى مادة لمزيد من الافتئات على المسلمين ودينهم، بأكثر مما ترد عنهم إساءات المسيئين وكيد وتدبير الكائدين. الرؤية الشاملة المطلوبة لمواجهة هذه الحملات يجب أن تتسع لنا، ماذا علينا فى سلوكنا وفى صورتنا أن نصححه ونلتزمه، وأن تتجه أيضا للأغيار.. من ساءت أو حسنت مقاصدهم، فالخطاب المتجه إليهم، وأساليب التعامل معهم، تختلف بلا شك عن وسائل وأساليب التعامل مع أنفسنا وإخواننا فى ديارنا.

مع أن الدنيا من نصف قرن لم تكن كالحال الآن الذى فيه تزايدت الحملات على الإسلام، إلاّ أننا نرى كاتبا فردا : عباس محمود العقاد، يضع كتابا (الهلال ديسمبر ١٩٦٦)، مادته وعنوانه : «ما يقال عن الإسلام»، لا يتشنج ولا يهتاج وإنما يتأمل ويتقصى كتابات الغربيين فيما يكتبونه عن الإسلام كتابة تتفاوت تبعا للبواعث والنيات أضعاف التفاوت الذى مرجعه لقدر الدراية والمعرفة.. منهم من ينحرفون عن الصواب اضطرارا أو اختيارا بباعث من التعصب، ومنهم من يخدمون السياسة الغالبة على دولهم، فيصطنعون لغة الدعاية ضد الإسلام اصطناعا، ومنهم طلاب معرفة حسنت نواياهم ولكن لم تسعفهم معرفتهم وأدوات بحثهم، ومنهم ولو قليلون ينشدون الرأى خالصا لوجه الحقيقة العلمية، ولكنه رأى مشوب بالقصور الذى لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب فى لغة غير لغته فضلا عن أن يكون من غير أهل الأدب فى لغته.. لا يضيق العقاد بشىء من ذلك، وإنما يستعرضه ليقول لنا إنه من حقنا - بل واجبنا - أن نعرف ما يقال عنا، وأن نعرف كل قول من تلك الأقوال بقيمته وقيمة من يصدر عنه، ليس فقط لنرد عليها ونوضح وجه الخطأ أو الصواب أو القصور فيها، بل لأننا نستطيع أن نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر إليها الغرباء عنها، وعرفنا مبلغ الصدق والفهم إن كان، ومبلغ الخطأ فيما يعتقدون فينا أو يظنون عن هوى أو جهالة!

وجوب الالتزام بالفعل لا برد الفعل، يستوجب أن يتضافر عليه المسلمون والدول العربية والإسلامية بعامة، لا للغضب من وقت لآخر على رسم أو قصة أو رواية

أو فيلم، ولا لمعاداة الغرب أو غير المسلمين، فالإسلام يمد يده إلى الدنيا بالسلام، واسمه منحوت من السلم والسلام، والسلام هو تحية الإسلام، وقرآنه المجيد يحض على السلام ويدعو إليه، فهو مهجة وروح الإسلام.. تحية الله للمؤمنين هى تحية سلام: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الأحزاب ٤٤).. ومستقر الصالحين دار أمن وسلام : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (يونس٢٥).. ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴿١٢٧﴾ ﴾ (الأنعام ١٢٧).. وأهل الجنة لا يتحدثون بغير لغة السلام: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الواقعة ٢٥، ٢٦).. ورغم ما لاقاه الرسول الكريم يقول له القرآن المجيد ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴿٦١﴾ ﴾ (الأنفال ٦١) ومع هذا نترك هذا الرصيد لنتخذ من السيفين المتقاطعين رمزا للإسلام مع المصحف أو اسم الجلالة، مقدمين بلا وعى المادة التى يتصيدونها لإقامة مناحة حولها أن الإسلام يحض على العنف والإرهاب!

تضافر المسلمين إزاء هذه المفتريات ليس للبغى والعدوان، وإنما لتوفير آلية مهيأة بالمال وبالعلم وامتلاك اللغات، لبث صورة المسلم والإسلام الصحيحة إلى الدنيا بلغاتها.. إلى الغير قبل الذات، بالبث المرئى والمسموع، وبالكتاب والمجلة والجريدة، وبمظهر سلوك المسلم ذاته، ليروا الإسلام كما هو لا كما يتوهمون أو يتصورون أو يغالطون.. ليعرفوا أن هذا الإسلام دين سماحة وإنسانية وإخاء، تتسع واحته لغير المسلم كما تتسع للمسلم، لا عصبية فيه للعرق أو للدين، يحترم جميع الرسل والأنبياء، قوامه العقل والحكمة والموعظة الحسنة، يقدس الروح حتى فى الحيوان، ويوقر العلم والعلماء، والعمل والاجتهاد، ويدعو إلى عمار الحياة، ويتخذ من المسلم صحيح الإسلام عنوانه ورسالته إلى الدنيا. لا عذر للمسلمين – ولديهم المال والإمكانيات – أفرادا وجماعات وأمما ودولا فى التقاعس عن إنشاء هذه الآلية. ربما كانت متوفرة فعلا فى هذا المؤتمر أو ذاك، أو هذه الهيئة أو تلك، ولكن ينقصها الالتفات والدعم المالى والبشرى، والاستمرار فى بث صورة الإسلام الصحيحة إلى الدنيا، ليعرف من لا يعرف حقيقة الإسلام، وليضيق الخناق على من يرمون الإسلام والمسلمين عن غرض أو عداء!

غايـة هـذه الآلية أن نبسـط للدنيا، لنا وللآخرين، أن الإسـلام ديـن عالمى يتجه إلى العالمين، أمس واليوم وإلى يوم الدين.. وأن هذه الخاصية قد أوجبت أن يكون دينا مفتوحا يتجـه بدعوتـه وهدايته إلى الناس كافة، بلا تفرقة لعرق أو جنس أو وطن، وأن هذه الغاية تسـتوجب بداهـة أن يكون دينا جاذبا محببا لا طاردا ولا منفـرا، ومحال وهذه غايته أن يميل إلى العنف أو الإرهاب، فكلاهما ينفر لا يحبب ولا يجذب، أو أن يتوسل إلى ما يريده مـن انتشـار وهداية بالسـيف أو الإكراه.. فلا إكـراه فى الدين فى الإسـلام، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسـنة هى غايته وسـجيته، والمساواة والإسماح والعدل دستوره.. لا يعطى ظهره للأديان السابقة، وإنما يجعل قرآنه المجيد من الإيمان بهم جزءا لا يتجزأ من الإيمان بالإسـلام، لذلك تحدث بأجمل الحديث عن كافة الأنبياء والرسـل، وكرمهـم أجمل تكريم، ومـن سـوره ما أطلـق عليه أسمـاء الأنبياء بل والأولياء السابقين وعائلاتهم، كسـورة آل عمران، ويونس، وهود، ويوسـف، وإبراهيم، ومريـم، والأنبيـاء، ولقمـان، ويس، ونوح.. لا يجد المسلمون بأسا ولا حرجا من التسمى بهذه الأسماء، فترى فيهم أسماء نوح، وهود، ويوسف، وإسحق، ويعقوب، وعيسى، وموسى، ويحيى، وشعيب،وأيوب، وهـارون، وزكريا.. دين يحترم العقـل ويجعل التفكير فريضة فيه، ويحترم العلم والعمل، ويقدس الروح حتى فى الحيوان، ويقيم سننه على العدل والإسماح والمساواة، وعلى منظومة متكاملة من السـجايا والشـمائل التـى تتجه فى مجملها ومغزاهـا إلى رعاية الأغيار أمانة وصدقـا وعطفـا ورحمة وإخلاصا ووفـاء بالمواثيق والعهود. هذه هى حقيقة الإسـلام الذى سيبقى للآلية المتضافرة أن تتدبر كافة الوسائل لتوصيلها إلى المسلمين حتى لا يتطرف منهم أحد أو يجنح عن صحيح الإسـلام، وإلـى الأغيار حتى يفهموا هـذا الدين الحنيف حق فهمه، ولو فهموه لما تطاولوا على رسوله هذا التطاول المؤسف!

لو التزمنا بأسـلوب الفعل وأدائه، لتابعنا بكل السـبل حملـة مدعومة بالحجة لحض المجتمـع الدولى ومنظماتـه الدولية على تجريم ازدراء الأديـان.. التجريم الذى يتـق مع ما يجب للأديان من احترام، ويسـتبعد مخاطر التذرع بحرية الرأى والتعبير للإسـاءة إلى الأديان والأنبياء!

من المهم أن يدرك المجتمع الدولى أن الجميع سوف يدفعون ثمنا فادحا إذا استمرت هذه الحملات المهينة للأديان وجرى التقارع بين أبنائها بأسلوب الفعل ورد الفعل، فتطول المحاجاة والإساءة كافة الأديان، بينما هى سقوف البشرية التى تضبط ما لا تستطيع القوانين والنظم ضبطه، وتقوم من السلوك ما قد لا تكفى الأساليب الوضعية لتقويمه، لأن الأديان تخاطب مناطق فى الوجدان والضمير لا يستطيع غيرها أن يخاطبها أو أن يكون مؤثرا فيها. ماذا سوف تجنى البشرية يوم يفلت العيار فيرد كل طرف على الآخر بضرب دينه والتغول عليه للانتصار للنفس ورد هجوم المتهجم إلى نحره؟!.. لن تستطيع أى قوة أن تسيطر على حرب الأديان إذا اشتعلت، ولن يهدأ للبشرية بال أو يتوفر لها أمان لو صارت الأديان مادة فى هذه اللعبة الحمقاء الكفيلة بتدمير كل شيء ما لم يتداركها العقلاء ويجرم المجتمع الدولى وبعقوبات رادعة ازدراء الأديان!.

ooo

obeikandl.com

نحن والإسلام وعيون الآخرين!

أتيح لى فى مجمع البحوث الإسـلامية، أن أناقش الترجمة العربية المحققة والمعلق عليها بمعرفة الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ لكتاب «محمد : مؤسس الدين الإسلامى، ومؤسس الإمبراطورية الإسلامية» الذى وضعه بالإنجليزية جورج بوش الجد الأعلى (١٧٩٦ – ١٨٥٩)، وصدرت طبعته الأولى سنة (١٨٣٠) بعنوان :

The life of Mohamed; founder of the religion of Islam, and of the Empire of the Saracens ..

والطبعة المترجمة التى راجعتها، قد تضمنت النص الإنجليزى عن الطبعة الإنجليزية الثانية وفى مقابلها الترجمة العربية متضمنة التحقيق والتعليق، حالة كون المؤلف الجد الأعلى للرئيس جورج بوش الأب، يكتب بقاموسه الذى وإن تخلص تناوله لرسول الإسلام من كثير من المفاهيم الخاطئة، إلا أن الكاتب – بالبداهة – ليس مسلم العقيدة، ولا هو إسلامى الهوى، بل تفلت منه قصدا أو عفوا، تعبيرات تفصح عن عقيدته ولا تتفق مع عقيدة المسلمين فى رسول القرآن عليه السلام. فهو من البداية، وفى العنوان، يحرص على استخدام لفظ «مؤسس» «Founder»، ويستخدم فى العديد من المواضع كلمة «الدعىّ» «Imposter» وصفا لرسول القرآن عليه السلام، قاصدا بذلك، وإن استخدم أحيانا وصف «النبى» أو «الرسول» استحضار أو إسباغ معنى الصناعة البشرية على دين هدايته من السماء، ولذلك فإن المترجم المحقق المعلق، يحرص فى تقديمه للترجمة الشاملة للنصين الإنجليزى والعربى على أن يبين أن من أغراض ترجمة هذا الكتاب، التصدى لمزاعم المؤلف، وافتراءاته على خاتم النبيين ﷺ، وتفنيد هذه المزاعم والرد على تلك الافتراءات أولا، وثانيا معرفة الفكر الدينى الذى يسود برأس الحفيد الأدنى الرئيس الأمريكى الحالى وقلبه، كما ساد من قبل رأس أبيه الرئيس الأسبق، والمتوارث عن فكر دينى لآل بوش متغلغل فيهم منذ سنوات بعيدة!

ومن أغراض هذه الترجمة على حد ما أورده تقديم الناشر، الكشف عن المصادر الأساسية للكراهية والحقد والعنصرية التي يمارسها تيار متطرف في فكر الغرب الأمريكي ضد الإسلام، يصف العرب والمسلمين بالتطرف، ويشن عليهم حملة ظالمة!.. وقد تساءلت وقت مناقشة الترجمة الكاملة للكتاب، ولازلت أتساءل، ما الحاجة إلى هذه الترجمة إلى العربية حتى وإن حملت ما حملته من تعليقات وتعقيبات تكشف الفكر الملبوس والحقد الدفين لدى المؤلف الأمريكي الراجع إلى قرابة مائتي عام. إن الترجمة إلى العربية لا تخدم الخطاب الديني الإسلامي أو العربي، فالمسلم الناطق بالعربية يفهم ويعرف دينه من القرآن المجيد والسنة النبوية ومن السيرة والأثر وكافة المصادر والمؤلفات الإسلامية، وليس بحاجة إلى استحضار الأغلاط والافتراءات الأمريكية أو الغربية ثم التعقيب أو الرد عليها، ربما يهتم بذلك الخواص المتصدون للدعوة الموجهة إلى الأغيار، ولكن هؤلاء لديهم علمهم ومعرفتهم وأدواتهم لتحصيل ما كتبه المؤلف بالإنجليزية، والتعقيب عليه هناك لا هنا، وبلغة هؤلاء الأغيار لا بلغتنا العربية. ربما أغرى المترجم المحقق المعقب - وكما قال في تقديمه - أن بالكتاب إقرارا من المؤلف بإشارات وردت عن النبي محمد ﷺ في بعض أسفار العهد القديم، ولكن المؤلف يغالط في دلالتها فيتصدى المترجم للتعقيب عليها، ليثبت خطأ مخالفته التفسير الصحيح لهذه البشارات، وليمسك على المؤلف أنه هو ذاته قد أورد آيات أخرى من العهدين القديم والجديد، مؤكدا أنها تشير إلى ظهور النبي محمد وانتشار دعوته. ولكن هل تبرر هذه الجزئية ترجمة الكتاب كله إلى العربية، وألا يكفي انتقاء ما سلم به المؤلف من إشارات والتعقيب عليه في مقال أو فصل في كتاب، وهل يحتاج هذا الاستدلال إلى ترجمة ضخمة بلغت بالنصين الإنجليزي والعربي (٦٦٥) صفحة لكتاب بالإنجليزية يناهض الإسلام ورسوله، كتبه بوش الجد الأعلى من قرنين من الزمان؟!.

إن المؤلف بوش الجد الأعلى، سجل - في تقديمه للكتاب بنصه الإنجليزي - أن دافعه للتصدي لما كتبه التأثير الضخم الذي أحدثه ما أسماه بالدين (المحمدي) بصرف النظر عن كونه - فيما يقول - دينا صحيحا!.. وإنه لكون هذا الدين قد

وقع على رأس الكنيسة المسيحية، واهتم به كثيرون بوصفه هرطقة مسيحية على حد قوله، أى مذهبا مسيحيا غير صحيح، أو خرافة وثنية، فإنه من هنا، وبنص عبارة المؤلف بوش الجد الأعلى «فقد كان قدر هذا الدين أن يرتبط بكل العقائد الفاسدة التى أفسدت الإنجيل. وبقدر ما نفضح هذه النبوة ونكشفها أو بقدر ما نكشف الادعاء الحالى Present posture الموجود على ظهر الأرض، كلما عجلنا بسقوط الخداع Delusion، وعجلنا بتأصيل الحق، وزاد اهتمامنا - بعمق - بهذه المناطق التى طالت فيها سيادة هذا الدين»!!.

لست بداهة أتحفظ على التصدى والتعقيب الذى أورده المترجم على الفكر الملبوس فى هذا الكتاب للمؤلف جورج بوش الجد الأعلى، والحق أن المترجم المحقق المعلق قد قام بجهد موفور فى التصدى لكتابات المؤلف الضالة والتعقيب عليها، وليس هدفى هنا أن أستحضر ما افترى به المؤلف على الإسلام ورسوله وتصدى له المترجم ورد عليه، فذلك التصدى واجب، والرد اللازم، ولكن السؤال هو إلى أين وبأى لغة يجب أن يتجه التصدى والرد؟! وهل يحتاج ذلك إلى هذه الترجمة الضخمة للكتاب كله، وألا يجزئ فيه مقال أو فصل فى كتاب بدلا من الترويج (غير المقصود) لهذا الكتاب المليء بالضلالات الذى وضعه - سنة (١٨٣٠) - جورج بوش الجد الأعلى؟! ظنى أن الأولى والأجدر، بالمبالغ الطائلة التى أنفقت على إعادة نشر الكتاب مترجما، أن ينهض المترجم وهو قادر مالك لأدواته، على تسطير ما يريده بالإنجليزية تعقيبا على ضلالات هذا الكتاب، وتلمس السبل والوسائل لبثه إلى قراء الإنجليزية، سواء فى أمريكا أو فى غيرها من البلدان الناطقة بالإنجليزية.

ظنى أن خطابنا الدينى يكاد يغفل الأغيار الأجانب، الناطقين بغير العربية، إغفالا تاما، فلا يحدثهم ولا يكتب إليهم بلغاتهم، بينما نرى كاتبا فردا كعباس العقاد، يتصدى وحده ومن أكثر من نصف قرن، إلى كتابات الغرب عن الإسلام ورسوله متناولا كلا منها بما يستوجبه تبعا لنواياها أو لمادتها، رأيناه مستشهدا فى كتابه «عبقرية محمد» بما كتبه العالم الأوروبى ماركس دودز Marcus Dodds فى كتابه محمد وبوذا

والمسيح: «Mohamed , Budda and Christ» ، ورأيناه يورد كثيرا من الاستشهادات أو التعقيبات على كتابات الغرب، الإيجابية والسلبية، ويناقشها مناقشة واعية متمكنة فى كتبه أمثال : ما يقال عن الإسلام، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه، وعقائد المفكرين فى القرن العشرين، والإنسان فى عقيدة القرآن إزاء العقائد الأخرى أو المذاهب الإنسانية، والإسلام دعوة عالمية.

التصدى لحملات الإساءة لرسول الإسلام والإسلام، لا ينبغى أن ينحصر فى ردود أفعال أو التزام الدفاع، مثلما لا يلزمه الإفراط فى الخطاب إلى المسلمين، فالمسلمون يعرفون دينهم وقدر ومكانة رسولهم الكريم، وينزلانهما منزلة العقيدة الهادية التى بها يؤمنون. التصدى لهذه الحملات يستوجب خطابا موصولا إلى الأغيار، بأسلوبهم وبلغاتهم وبالمنطق الذى يفهمونه هناك، لكشف بهتان ما ران عليه اعتيادهم منذ قرون، وجلاء حقيقة براءة الإسلام والمسلمين مما يرام إلصاقه بهم من أعمال متطرفين لا تنتمى بل تناهض جوهر وحقيقة الإسلام.

يحتاج هذا الخطاب إلى جمهرة من العلماء المجيدين للإنجليزية والفرنسية والإسبانية وغيرها من لغات الغرب، وإلى آلية حاضنة، تتوفر لها الإمكانيات، والروح والإخلاص، لتنهض بهؤلاء العلماء والمفكرين على هذه الرسالة العظمى التى ليس حسبها فقط أن ترد عن الإسلام ما يفترى به عليه، وإنما تبصر العالم وتقى البشرية مما يمكن أن يحيق بالجميع يوم تدخل الأديان فى معترك المناجزات، ويتعادى ويتصارع ويتقاتل حولها أبناء الأديان!

ooo

obeikandi.com

من أين جاء التعصب؟!

حاولت فى كتاب الأديان والزمن والناس، أن ألفت إلى أن التعصب لم يأت منها وإنما أتى من الذين لم يفهموا رسالة الأديان حق فهمها، وحصروا أنفسهم فى أزقة ضيقة لا تطل ولا ترى أن الأديان الثلاثة الكبرى هى ديانة السماء، وكلها من عند الله، وأن رقى الإنسان الروحى والخلقى والاجتماعى والسلوكى هو الحكمة الإلهية من هذه الرسالات التى تعاقبت علـى البشـر أمة بعد أمة، وجيـلا بعد جيل، تخاطب الناس فى أوان نزولها بقدر سـعة عقولهم وأفهامهم، وتتجه إلى هدف واحد هو توجيه الإنسان إلى الحق والكمال.

تذكرت كيف تقوم أبراج الكنائس إلى جوار مآذن الجوامع فى ربوع مصر، وكيف يتردد المسـلمون فى مصر على المزارات المسـيحية تبركا وإجلالا.. وكيف ظلت القاعدة العريضة من المسلمين والمسيحيين على صلات الإخاء والمحبة بعيدا عن الاحتقانات التى استجلبها التطـرف أو ضيـق الأفق أو افتعلها التعصـب أو صَدَّرها الكارهون لسـلام مصر.. تذكرت ذلك كله وأنا أتابع صفحة التعصب المقيت التى سـطرها ٥٧٪ من الشـعب السويسرى ابن الحضارة الغربية وحقوق الإنسـان، الذين صادقوا على حظر بناء مآذن للمساجد الإسلامية فى سويسرا.. وهذا التصويت انحياز طائفى بغيض قوامه طغيان روح التعصب لدى الأغلبية العددية إزاء الأقلية الإسـلامية التى بلغت هناك قرابة ثلث مليون مسـلم فى تعداد كتاب Romania factbook طـ ٢٠٠٥ .. دليل التعصب أن أحدا لم يتعرض لأبراج الكنائس، برغم اتحاد العلة إن كان الأمر خارج دائرة التعصب والاستقواء بالأغلبية على الأقلية.

فى تبرير هذا التعصب الضرير، حاولت الحكومة السويسـرية تخفيفه فى بيانها الذى أصدرته بعد أربع سـاعات من إعلان نتيجة الاسـتفتاء، منوهة إلى أن حظر بناء المآذن فى الدستور السويسرى سيدرج على أنه إجراء يرمى إلى الحفاظ على السلام بين أفراد مختلف المجموعـات الدينية.. وهى ذريعـة متهافتة لم تقبلها منظمة العفـو الدولية، فأعلنت أن التضييق على المسـاجد انتهاك لحرية العقيدة.. وصرح نيكولا دكووث مدير برنامج أوروبا ووسط آسيا فى منظمة العفو الدولية بأن « حظر بناء المآذن مع السماح – على سبيل المثال–

ببناء الكنائس، سوف يشكل تمييزا على أساس الدين، وأن حظر بناء المآذن سيمثل انتهاكا لالتزامات سويسـرا بتعزيز حرية العقيدة، وانتهاكا لحق المسـلمين فى سويسرا فى إظهار دينهم!.

إذن، فـإن التطـرف أو التعصب، ليس مقصورا على بـلاد الشـرق، فها هى سويسـرا التى تلتزم الحياد، وتخاصم الحروب، وتلتزم السـلام، تسـقط أغلبيتها العددية فى عماء التعصب، وتصادر على حق المسـلمين فى بلد الحياد والسلام فى ممارسة شعائرهم الدينية فى مسـاجدهم، مع أن عدد المسـاجد فى كل سويسـرا خمسة مسـاجد، لا تمثل إزعاجا ولا إقلاقـا، ولا تطـرح مئذنة للمسـجد الخامس قضيـة تبرر هذا التعصـب والتمييز بين الأديان..وقد رأينا ما حدث فى ألمانيا، وهو وإن كان حادثة فردية، راحت ضحيتها زوجة وأم مسـلمة لم تقـارف وزرا ولم تزعج أحدا حين تحجبـت، إلاّ أن المتابعين لما يجرى فى بعض الدول الغربية، ومنها ألمانيا التى يزيد عدد المسـلمين فيها على أربعة ملايين مسلم، وفرنسـا التى يبلغ تعداد المسـلمين فيها قرابة ستة ملايين مسلم، سوف يرى ملامح حركة آخذة فى التصاعد والاشتداد ضد الإسـلام والمسلمين!.

أعـود فأقول إن الأديان ذاتها بريئة من هذا التعصـب.. فهو تعصب آدمى، وقد رأينا كيف اتسـعت فى انجلترا سماحة الدين واشتد تعصب العلمانيين.. رأينا فى مطلع ٢٠٠٨ كبير أسـاقفة كانتربرى يطالب فى انجلترا بالإفسـاح للمسلمين للتعامل بمقتضى شريعتهم الإسـلامية فى شأن أحوالهم المدنية والأسـرية المتعلقة بالزواج والطلاق والمواريث والوصاية والقوامة وما شابه، وهو ما سبقت إليه مصر من قرن من الزمان بالنسبة للأحوال الشخصية لغير المسلمين، دون أن يعترض أو يحتج أحد من المسلمين، ولكننا طالعنا موجات هائلة من الاحتجاجات العنيفة ثارت على كبير الأساقفة الإنجليزى، شارك فيها من العلمانيين وزير الثقافة ووزيرة الداخلية، وزعيم حزب المحافظين المعارض، وبعض الـوزراء السابقـين!!

لعل هذا المشهد الأخير الذى تصدر الصورة فى سويسرا، يقنع العالم بأن الأديان بريئة من أسباب التعصب، وأن هذا التعصب طفح آدمى مريض لا وطن له!!

هل صار العدو هو الإسلام؟!

أتابع فى اندهاش شديد، واستغراب ممض، أقلاما وكلماتٍ تركت ما نعانيه، وتجاهلته وصمتت صمت القبور عنه وعن أسـبابه، وطفقت تحت شعارالتنوير الذى لا يختلف عليه أحد، تعادى الإسـلام نفسـه كدين، وتشدد عليه النكير، وتعزو إليه – دون غيره! – كل المشـاكل والمثالـب والرزايا والنكبات التى أحاطتنا مـن كل جانب، حتى ليظن القارئ أو السـامع أن الإسـلام –الدين– هو سـبب الظلام والإظلام، والرجعية والجمود، والتراجع والقهر، وأنه السبب الوحيد لكل مآسينا.. هو سبب كارثة الدويقة، واختلاط مياه المجارى والصرف الصحى بمياه الشـرب، وجالب التيفود، وأنفلونـزا الطيور والخنازير، وأنه هو هو هذا الإسـلام! – سبب الاحتقانات التى تشجر من وقت لآخر، فى الصحافة والقضاء والخبراء والنقابات، وأنه – هذا الإسلام!–هو سبب المليارات التى ضاعت فى فوسفات أبو طرطور، وفى مشروع توشكى، وفى منح وتوزيع الأراضى على أصحاب الحظوة، وتسريب الغاز إلى إسـرائيل بأقل الأثمان ورفض النجدة الـتى أتت مـن القضاء لإقالة الاتفاق اللا متوازن مما تعثر فيه، وأنه هو هو – هذا الإسـلام؟!– الذى سـرب الأرض إلى شخص ذى حظوة كبيرة وفجر وأضاع مئات الملايين من الجنيهات وأدى إلى خسران القضايا والتحكيم فى قضيـة سياج، وأنه هو هو – هذا الإسلام؟! – السبب فى انحدار التعليم وتآكل وترنح مؤسسته، وفى تراجع الصحة وانتشار الأوبئة والأمراض، وفى محاصرة وضرب الحريات، وأنه هو هو – هذا الإسـلام! – السـبب فى القمع والاعتقال وتجاهل الدستور ثم تطويقه، وفى مصادرة تكوين الأحزاب، وعدم تنفيذ حكم القضاء بعودة حزب العمل، وضرب باقى الأحزاب من داخلها، وأنه هو هو – هذا الإسـلام دون سـواه!! – سـبب العشـوائيات وما يجـرى فيها من شـيوع الرذيلة والمخـدرات حتى زنى المحارم، وأنـه هو هـو –هذا الإسلام!– سبب تراجع حال الرياضة وانتشار العشوائية فى الإدارة والبناء، وسبب فوضى الشـوارع وانتشار الزبالة والقاذورات فـى كل مكان، وأنه هو هو – هذا الدين الإسلامى!– سبب خراب النفوس والذمم وشيوع النفعية والفساد والرشاوى والسرقات والاختلاسات!

حرام أن تترك الأقلام الكبيرة هذه الكبائر لتصور للناس أن العدو الحقيقى هو الدين الإسلامى، ولا تتفضل حتى بالفصل بين الدين كدين قيمته فيه، وبين جنوح بعض المنتسبين إليه، وهو قدر على كل الديانات، وتسحب وتشد ما قيل ويقال عن تنكب الصواب فى منح إحدى جوائز الدولة - إلى منطقة الإظلام والتنوير، والتكفير والإيمان!.. وهذه لعبة خطيرة، ولكنها لا تنطلى على أحد.. فالنقد الموضوعى العاقل ينصرف إلى معايير وضوابط منح جائزة الدولة، ووجوب الابتعاد بها عن تحقيق الأغراض السياسية أو المنافع الشخصية، وأن هذا النقد يستوجب بالضرورة التعرض للحالة لبحث معايير إعطاء الجائزة، وهل توافرت أم لم تتوافر، والبحث من ثم فى المقومات والإنتاج، ليس تفتيشا فى الضمائر، ولا فى مناطق العقيدة، فالممنوح له الجائزة من حقه - كمواطن - أن يكون مسلما أو مسيحيا أو يهوديا أو ملحدا، ومن حقه أن يعتقد وأن يكتب ما يشاء إلاّ أن يدخل قانونا فى دائرة إزدراء الأديان.. وهذه الحرية التى لا ينازع فيها أحد لا تحول بين الباحث فى تقويم اعتبارات إعطائه الجائزة، وبين وزن ما حصل أو لم يحصل عليه من شهادات كانت ولا شك ضمن معايير الإعطاء، سيما أن الانتحال - إن كان - له مدلول بالغ الخطورة، ولا تحول بين الباحث - للتقويم - وبين وزن أعماله واستشراف مدى الصواب أو الخطأ أو التهافت أو الجنوح فيها، لا للمصادرة على حقه حتى فى أن يجنح، وإنما لاستطلاع المعايير التى منح على أساسها جائزة الدولة التقديرية، وهل أصابت هى - لا هو! - أم جنحت، وهل أحسنت هى - لا هو! - أم لم تحسن الاختيار والإرساء!.

لم يفتنى السعى الخبيث لشد القضية إلى منطقة العقيدة والادعاء بأن نقد تقرير الجائزة يندرج فى باب التكفير أو مصادرة حرية البحث والرأى، وهو سعى مغلوط لإخراج القضية من دائرتها الحقيقية إلى دائرة مصطنعة للخداع والتمويه!!.

الأخطر من هذا أن هذا الشد الذى طفقت تباركه أقلام لها انتماء أو ولاء أو مصالح لدى الجهة المانحة، قد اقترن للأسف بالهجوم على الدين الإسلامى.. فهل تفضل أصحاب هذا التهجم الضرير على سقف الدين بالنظر والكتابة ولو فى موضوع واحد من الموضوعات العديدة التى أشرت إلى بعضها من باب الإشارة ليس إلاّ؟! هل من نجاة من هذا الغثاء الذى يقلب كل الموازين ويقود البلاد إلى أوخم العواقب ؟!.

الإسلام فى كتابات منصفة

فى كتاب «محمد».. سيرة النبى «الصادر بالإنجليزية فى نيويورك ١٩٩٢، وأقر مجمع البحوث الإسلامية ترجمته التى أجراها الدكتوران محمد عنانى وفاطمة نصر توطئ مؤلفته الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج، الراهبة السابقة والباحثة فى تاريخ الأديان - توطئ لكتابها المنصف الموضوعى - بفصل مستفيض عن جذور العداء فى الغرب لرسول الإسلام بعنوان «العدو محمد»!.. لتستأصل ببحثها الموضوعى شأفة المفاهيم المغلوطة التى تراكمت مع هذا العداء وصارت كالأساطير التى لا يحاول أحد مناقشتها هناك!.. من الغريب أننا مع عنايتنا بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، لم نلتفت لترويج نسخه الإنجليزية، مع أن ذلك متاح بأموال النفط الفائضة بالمليارات، ما عليها سوى أن تروج التوزيع- ولو مجانا!- بالغرب، ليرى الغربيون بلغتهم وأسلوبهم ومفاهيمهم كيف تراكمت المغالطات المضلة فصارت تلالا ثم جبالا باتت تحجب الرؤية وتسلس إلى التجاوزات المتتابعة التى سوف تفتح أبوابا لن تنغلق للصراع بين الأديان!.

معرفة وفهم تراكمات وجذور المغالطات، وكيف شكلت منظور كثير من الغربيين عن الإسلام ورسوله، ضرورة بالغة الأهمية لتوجيه الخطاب إليهم، بلغتهم لا بلغتنا، وهى غاية جاءتنا على الجاهز فى كتاب الراهبة البريطانية السابقة كارين أرمسترونج الموضوعى المنصف، فيه تتبعت جذور العداء والصورة المغلوطة التى أخذت تتراكم فى الغرب ضد الإسلام ورسوله!.. كيف اعتقد يولو جوليو وألفارو - وغيرهما أن سطوع نجم الإسلام ما هو إلا إشارة لقدوم المسيخ الدجال، وهو «الدجال العظيم» الذى ورد وصفه فى العهد القديم، والذى ينذر حكمه بحلول الأيام الأخيرة للبشرية. وكيف جعل البعض يفسرون ما ورد فى سفر «رؤيا يوحنا اللاهوتى» عن وحش عظيم، يخرج من الهاوية ويتوج نفسه على عرش جبل المعبد، ويحكم العالم بأنها نذير يطابق

مقدم «محمد» الذى أتى بعد المسيح، ويومئ إلى انتشار الدين الذى جاء به، وإلى فتح المسلمين بيت المقدس، وبنائهم مسجدين عظيمين على جبل المعبد، وأن إقبال المسيحيين على هذا الدين الجديد ما هو إلاّ ارتداد وهرطقة! حتى جعل بعضهم يتساءل : «كيف سمح الله لهذه العقيدة (الكاذبة) بالظهور والانتشار؟ ترى هل تخلى الله عن مناصرة شعبه وأهله»؟!.

على مدار سنين، فيما فصلته كارين أرمسترونج، توالت صيحات التهجم المحمومة ضد نبى الإسلام، مدفوعة بالوهم الذى سيطر على الأذهان بالتفاسير المغلوطة «للرؤيا»، والرعب الذى طفق يسيطر أن «محمدا» – عليه السلام – دجال كاذب، نصب نفسه نبيا ليخدع العالم، وجعلت هذه الأوهام الكاذبة تصور نبى الإسلام بأنه فاسق يستمرئ الفسق البذىء، ويدفع أتباعه إلى محاكاته، ويجبر الناس بحد السيف على اعتناق عقيدته. أما الإسلام فليس دينا مستقلا أو منزلا، بل بدعة وصورة مشوهة من صور المسيحية، تؤمن بالعنف والسيف، وتمجد الحرب والقتل!

تعقب الراهبة البريطانية السابقة : كارين أرمسترونج – بأن هذه الأساطير الغربية، عادت إلى الظهور بعد ٢٥٠ سنة وأوروبا توشك على العودة للساحة الدولية، ولتعيد رسم هذه الصورة الوهمية الخيالية لنبى الإسلام الذى حُرف اسمه إلى «ماهوند» Mahond، وأصبح مع انتشار هذه الأوهام على المستوى الشعبى – العدو الأكبر للهوية الغربية الناشئة! وصار – فيما تقول المؤلفة: «يرمز لكل ما نتمنى أن ننفيه عن ذواتنا. ولا تزال آثار الوهم القديم قائمة حتى يومنا هذا. إذ لا يزال الشائع عند الغرب أن يسلموا دون نقاش بأن محمدا ليس سوى رجل» استغل الدين فى تحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الإسلام دين عنف يعتمد على السيف، وذلك على الرغم ـ والكلام للمؤلفة – من وجود دراسات علمية وموضوعية كثيرة عن الإسلام ونبى الإسلام تثبت خطل هذه الأسطورة المرتبطة (بماهوند)!

تتوقف الباحثة البريطانية، فى استقصائها تراكم عداء الغرب للإسلام، واستشراءه عن جهالة وسوء فهم واستسلام للأساطير.. تتوقف عند موجات الحروب الصليبية

التى تزامنت مع شـن الحروب من الشمال ضد مسـلمى الأندلس، وقيام البابا أوريان الثانى باسـتدعاء فرسـان أوروبا عام ١٠٩٥ لما أسماه تحرير قبر المسـيح فى أورشليم. تبرز كارين أرمسترونج كيف تفصح ملحمة «أنشودة رولان» التى ألفت فى زمن الحملة الصليبيـة الأولى عن جهـل فاضح بالطبيعة الأساسـية لعقيدة المسـلمين، إذ صورتهـم «عابـدى أصنـام» يركعون للآلهـة «أبولو» و «تيرفاجـان» و «محمد»!!.. وأنهم وباء وقذارة ينبغى تطهير الأماكن المقدسة منهم!!

تكشـف أرمسترونج كيف صنعوا «أسـطورة ماهوند» عدو الممالك المسيحية، وكيف صارت هذه الأسـطورة الزائفة راسـخة فى مخيلة أبناء الغرب، وكيف أدى هذا الوهم الكاذب الخيالى «لشخصية ماهوند» (نبى الإسلام) – إلى زيادة الصعوبة التى يواجهها الغربيون اليوم إذا حاولوا النظر إليه باعتباره – على الأقل – شخصية تاريخية جديرة بالدراسة التى يولونها لنابليون أو للإسكندر الأكبر!

يسـتغرب كل عاقل، مقدار خيبة الأساطير التى شكلت الوجدان الغربى بعامة عن رسـول القرآن عليه السلام. فهو فى هذه الأساطير ساحر دبر «معجزات» زائفة ليخدع العرب السـذج ويدمر الكنيسة فى أفريقيا والشرق الأوسط. تتحدث إحـدى الحكايات عـن نور أبيض أثار الذعر ثم ظهر آخر الأمـر بالقرآن الذى أتى به محمد إلى العرب، وأخرى تروى أن محمدا قام بتدريب حمامه على التقاط حبات البازلاء من أذنيه ليبدو للرائـى كأن روح القدس تتنزل عليه. مهما غضبت فلـن تسـتطيع إلا الإشـفـاق على تصديقهم:هـذه الخزعبلات التى اصطنعها مغرضون لم يجدوا تفسـيرا لنجاح الإسلام إلا بإنكار الوحى وتصويره أنه مجرد هرطقة أو فرقة خارجة على المسيحية، وهى أوهام تراكمت فى تكوين القلق من الإسـلام ثم العداء له وللمسـلمين.. سطـروا بها صفحات مخجلـة لا يتسـع المقام هنا لتفصيلهـا!!.. يكفى أن تعرف أن دانتى الذى يتشـدق كثـيرون بعبقريتـه فى الكوميديا الإلهية، قد صور فيها محمدا – عليه السـلام – فى الـدرك الثامن من الجحيم فى عذاب مهين مع أرباب الفتنة التى أحدثت الانشـقاق الدينى!!.. قريب من هذا الفكر الملبوس ما وقع فيه مارتن لوثر والبروتستانت وآخرون

من بعدهم درجوا - حتى فى عصر النهضة - على نعت الإسلام «بالمذهب المحمدى» ونعت رسوله بأنه : «الدجال» الشهير بمحمد، أو بأنه النبى الكاذب، وإطلاق مسمى «المحمدية» Mohamadism بدلا من «الإسلام».. وهو ما صار يجرى الآن فيما تمد به الولايات المتحدة شبكة الإنترنت، متوهمة أنها بذلك تستطيع أن تخفى الإسلام الذى عم المعمورة ويتزايد معتنقوه كل يوم فى أمريكا ذاتها!

تستعرض كارين أرمسترونج بعض مؤلفات الغرب الغارقة فى التجنى والزيف والوهم، حيث لم تبدأ محاولات التخلص منه، إلاّ مع ترجمة معانى القرآن وتوالى الدراسات التاريخية الموضوعية التى شهد القرن ١٨ بعض جهودها الرامية إلى تفهم أكثر للإسلام .. ككتاب «تاريخ المسلمين» لسايمون أوكلى (١٧٠٨)، وكتاب «أخلاق الأمم وروحها» «لفرانسوا فولتير» (١٧٥١)، واستشفاف المستشرق الهولندى يوهان يعقوب رايسكى (ت١٧٧٤) للمسحة الربانية فى حياة محمد ونزول الإسلام، وثناء ادوارد جيبون على عقيدته التوحيدية بكتابه «تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية»، ومحاضرة كارلايل «البطل باعتباره نبياً» التى دافع فيها دفاعا حارّا عن محمد عليه السلام - منكرا أوهام القرون الوسطى، وضمّنها كتابه المعروف عن البطولة والأبطال (١٨٤١).

لم تنقطع للأسف زيوف الأوهام القديمة برغم هذه الكتابات الموضوعية، فبقيت تدلى بدلوها فى تأجيج التعصب والكراهية للإسلام، مثلما فعل شاتوبريان فى كتابه: «الرحلة من باريس إلى أورشليم ومنها إلى باريس» (١٨١٠- ١٨١١) الذى بشر فيه - بخياله الصليبى - بوجوب سيطرة الغرب على العرب أرباب الهمجية والوحشية!! هذا العرق الملبوس المدود الذى عبر عنه الجنرال اللنبى عام ١٩١٧ حين أعلن وهو على أعتاب القدس: «الآن قد اكتملت الحملات الصليبية!!

هذا هو ما كشفته كارين أرمسترونج - الراهبة السابقة - الباحثة فى تاريخ الأديان فى كتابها الرائع : «سيرة محمد».

.. ومع موضوعية وروعة ما كتبته إنصافا للنبى والوحى، ولسيرته ودعوته، فظنى أن أخطر ما فى الكتاب ما كشفته عن قدم أثر الأساطير الغربية فى تشكيل الوجدان الغربى بعامة إزاء الإسلام ورسوله.. هذه الأساطير التى تجذرت حتى بات الكثيرون هناك يقبلون الفكر المللبوس عن الإسلام بلا مناقشة، لا ينجو من الوقوع تحت تأثيره المغلوط إلا قليلون قرءوا وتمعنوا وفهموا، بعضهم أفصح كما فعلت، وبعضهم اشترى راحته بالسكوت !!!

مرة ثانية. ليست الغاية مقابلة العداء بعداء، فذلك يجافى الإسلام، ويفوت فرصة البيان والإيضاح. مقصدى أن نفهم الصورة هناك.. كيف أنها أوسع كثيرا من رسم مسىء أو شريط فيديو، وندرك أن رؤيتها بكل جوانبها، هى الكفيلة بوضع رؤية شاملة، مدروسة لا عشوائية، تواجه هذا التجنى المبعد عن الحقيقة والإنصاف، وسيلة مواجهته الأولى تصحيح صورة وسلوك المسلم ذاته فى عيون الغرب، ومعها خطاب مدروس ومتواصل، بلغتهم ومنطقهم، يخاطب العقل بالحجة والبرهان، ويفوت فرص الإساءة الجاهلة أو المتعمدة، ويبطل موجات الكراهية والشحن ضد الإسلام والمسلمين، ويفتح منافذ لفهم متبادل لا غناء عنه للبشرية فى هذا الزمان، وفى كل زمان!

ooo

من الفوارق الكبيرة بين اليوم والبارحة، أنهم كانوا بأمس يفهمون أبعاد القضية ومساحة العداء للإسلام ورسوله وللمسلمين، ويملكون وسائل وأدوات التصدى لكثير من اللغو الذى حفلت به من قرون كتابات الغرب من افتراءات وخرافات وعداء دفين ضد الإسلام ورسوله مما تغدو معه الرسومات المسيئة كقطرة فى محيط.. لم يحصر آباؤنا وأجدادنا أنفسهم فى صراخ أو تظاهر أو ولولة، وإنما استنطقوا مخزون علمهم، وشرعوا أقلامهم بالعربية وبغير العربية ـ لبيان شامل محيط لا يتمحور فى محض رد فعل متشنج أو حتى غير متشنج، وإنما يتسع بفهم وعلم وحجة ليقدم لقراء العربية ولغيرهم بيانا وبحوثا شافية تعرف بحقيقة الإسلام ورسوله ﷺ، وتحض المسلم ذاته على أن يكون بسلوكه صورة مشرفة للإسلام.

وقــد رأينــا فى كتاب حياة محمد للدكتور محمد حســين هيكل صــورة لافتة للإحاطة بما كتبه عن الإســلام ورسوله المستشرقون والمبشرون، والمنصفون وغير المنصفين وهم أكثر، ولكتابـات كتاب الغرب بعامة أعانه على ذلك إلمامه بالإنجليزية والفرنسية، ووعيه لمعرفة جذور هذه الضغينة التى يحملها الغرب للإسلام.

ظنى أن علو حناجرنا جاء على حســاب دور عقولنا. أشــعر بالخجل من الحاضر حين أجوب مثلا فى دوحة العقاد، فأرى حجم وعمق ما قدمه هذا العملاق للإســلام بلا صخب ولا ضجيج ولا انفعال. هل تذكرنا فى ردود أفعالنا الصاخبة بلا طحن، ماذا فعل العقاد فى كتاب واحد : «ما يقال عن الإسلام»؟!.. فى أكثر من ثلاثين مقالا، جاب أركان الأرض غربا وشــرقا، وجنوبا وشمالا، فى أوروبا وأفريقيا وآســيا وأمريكا، واســتقصى العشرات من الكتابات هناك عن الإســلام وقرآنه ورســوله.. يقول فى تقديمــه للكتاب إن صفحاته مجموعة من المقالات عن الكتب التى ألّفها كتاب الغرب عن الإســلام من شــتى وجهات النظر، وإنه اختار الأكثر شــيوعا واعتبارا فــى العصر الحديث، ليلخصهــا ويعقب عليهــا ويناقش ما يحتاج منها للمناقشة، وجمعها فى كتابه ما يقال عن الإسلام يبتغى بها المزيد من التعريف بالإسلام والبحث عن حقائقه وأباطيل خصومه، لعلها تغنى طلاب المعرفة من القراء فى الأمم الإسلامية.

يتناول العقاد فى مقالاته المتنوعة، الإسلام والعصر الحديث، والإسلام والثقافة الأفريقية، ويوضــح الفارق بين العقيدة الإلهية فى الإســلام وغيره من الأديــان، والفارق بين الأديان المغلقــة كاليهوديــة.. وبين الأديان المفتوحــة أو أديان الدعوة كالإســلام، وأوضاع وقضايا المسلمين السود فى أمريكا، ومفهوم الجهاد فى الإسلام.. وأغلاط المبشرين فى نقد القرآن.. وغير ذلك من الموضوعات التى خاضت فيها كتب الغربيين. فهل كل هذه الأشتات صادرة عــن نية واحــدة أو قصد واحد؟ يتوقف العقاد عند هذا الســؤال ليقول : إن المهم فى هذه الكتابات هو محك الإخلاص فى كتابتها. فمن هم المخلصون منهم؟ ولماذا يخلصون؟

المخلصون إما طلاب معرفة أو طلاب عقيدة، وقد يجمعهما طلب الحقيقة فى عالم العلم وعالم الضمير، وفيما عدا هؤلاء يندر الإخلاص فى كتابات الذين عرضوا فى الغــرب للمسلمين

obeikandi.com

أو لما اعتقدوه أو تعودوه، ولكنهم فى قلة الإخلاص أو سوء النية أنواع ودرجات!.. عن هؤلاء وأولاء دبج العقاد مقالاته بيانا لحقيقة الإسلام ودحضا لدعاوى المتعصبين والماديين والملحدين والمبشرين الذين لا يقلون عداوة للإسلام عنهم. ظنى أنه فضلا عن الأثر العميق لهذه البحوث التى كتبها العقاد فى أمم الإسلام، فإن ترجمتها إلى اللغات الغربية قمينة بتجلية صورة وحقيقة الإسلام هناك، ودحض الدعاوى والحملات والأغلاط سواء حركها العداء أم الجهالة أم نضوب المعرفة!

تذكرت وأنا أتابع قارئا أو كاتبا، حملات الإساءة للإسلام - ماكتبه العقاد فى كتابه «الإسلام دعوة عالمية» عن آراء كتاب الغرب فى نبى الإسلام فأشار إلى كتاب «القادة الدينيين» Religious leaders .. من تأليف هنرى توماس ودانالى توماس..بدآ ترجمتهما لنبى الإسلام قائلين : «فى القرن السابع، حين بدا على الدنيا أنها أصيبت بالجفاف، وحين فقدت اليهودية مولدها واختلطت المسيحية بموروثات الأمم الرومانية البربرية، نبع فى المشرق – فجأة – ينبوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم... وإن حكمة الله لعجيبة ذات قوة فى قضائها العجيب، فإن هذا الينبوع الصافى قد انبثق من أجدب بقعة بين بقاع الأرض قاطبة: صحراء الجزيرة العربية.. وتروى الأخبار المأثورة كثيرا من المعجزات والخوارق التى صحبت مولد محمد وطفولته، ولكن محمدا لم يذكر هذه المعجزات ولم يذكر قط معجزة متصلة بشخصه أو برسالته، لأنه لم يأت كما قال بغير معجزة واحدة هى معجزة القرآن الذى تلقاه من وحى الله.. وقد جاء بالدين ليدعو إلى ملة إبراهيم وموسى والمسيح على هدى جديد».

يصف المؤلفان نبى الإسلام بأنه «كان محبا لإخوته من بنى الإنسان، بسيطا فى معيشته يأكل خبز الشعير ويخدم نفسه وإن اجتمعت له أسباب الثراء، ويتورع أن يضرب أحدا أو يسوءه بكلمة تقريع.. ولم يغتفر لنفسه أنه أعرض ذات مرة عن سائل ضرير.. وقد حاول أن يقابل كراهة أعدائه بالحب لأنه يعلم الناس أن أحب الخلق إلى الله أحبهم إلى خلق الله، ولكن عباد الأوثان بمكة لم يستمعوا لدعوة الحكمة والمحبة ونظروا إليه فلم يفهموا من قوله ولا عمله إلا أنه ثائر عليهم يسفه أحلامهم ويحطم أصنامهم، فصادروه وتوعدوه

واعتدوا على حريته وأوشكوا أن يعتدوا على حياته».... «إن صاحب الدعوة الإسلامية لم يبدأ المخالفين له بالحرب، بل هم الذين بدأوه بها واضطروه إليها، وكان من خلائقه المعروفة أن يرحم الضعيف، ويأمر بالرحمة، ويرفق بالحيوان، وينهى عن التحريش بين البهائم، ويدعو أتباعه إلى ادخال السرور على قلوب المحزونين، وهو القائل: «أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورا أو تقضى عنه دينا أو تطعمه خبزا»... وهو القائل : «فكوا العانى وأجيبوا الداعى».

أشار المؤلفان إلى الخبر الذى ورد عن وقوف النبى لجنازة اليهودى، وإلى الأخبار الكثيرة التى وردت عن أدبه عليه السلام فى معاملة الضعفاء والأتباع، ومعاملة اليتامى والأيامى فقالا : «إن هذا الأدب هو أدب النبوة الإسلامية فى لبابها، وليس أدب القتال عنوانا لها كما حسب بعض الناقدين للإسلام على السماع». أما الجهاد، فهو فريضة يؤمر بها المسلم ويتعلم معها من نبيه أن «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه».

يقول هنرى ودانلى توماس فى ختام السيرة: «الإسلام لا يخاصم الديانات الأخرى، بل هو دين يجمع ويؤلف، ولا يطرد أو يستثنى، ومن أدب المسلم أن يحترم عقائد غيره، وأن يؤمن بأن العالم أمة واحدة تدين لإله واحد، هو رب العالمين».

يورد العقاد فى كتابه الضافى «عبقرية محمد» مقارنة عقدها العالم الأوروبى الدكتور ماركس دودز Marcus Dodds فى كتابه «محمد وبوذا والمسيح» – Mohammed Budda and Christ فى هذه المقارنة يقول العالم الأوروبى: «أليس محمد نبيا على وجه من الوجوه؟» ثم أجاب قائلا: «إنه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء: فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة، وإنه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بنى إسرائيل، لأنه جازف بحياته فى سبيل الحق، وصبر على الإيذاء يوما بعد يوم عدة سنين، وقابل النفى والحرمان والضغينة، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة. فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على إسكاته وعدٌ ولا وعيد ولا إغراء.. وربما اهتدى إلى

التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان، إلا أن أحدا آخر غير محمد لم يقم فى العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم مكين، وما أتيح له ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان. فإذا سأل سائل : ما الذى دفع بمحمد إلى إقناع غيره حيث رضى الموحدون بعبادة العزلة؟ فلا مناص لنا أن نسلم أنه هو العمق والقوة فى إيمانه بصدق ما دعا إليه».

والحقيقة التى يراها المنصف مسلما كان أو غير مسلم ـ أن رسول القرآن عليه السلام قد جاءه الإغراء الذى أشار إليه العالم الأوروبى فى أحوال كثيرة فما تغير.. جاءه الإغراء وهو داع مهدد فى سربه، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته، فما حفل بالإغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل له وهو واصل إليه!

فهل وعينا أن صورة وسلوك المسلم، هما أساس وآية رسالة الإسلام إلى الدنيا، والتفتنا إلى أمثال هذه المؤلفات المكتوبة أصلا بلغات الغرب ولمؤلفين غربيين، والتفتت إليها الهيئات الإسلامية التى تملك المال والإمكانيات، لتتدبر الوسائل لبث هذه الكتابات إلى أوروبا والأمريكتين بدلا من الاحتجاجات الصاخبة المتشنجة التى سرعان ما تتلاشى بلا طحن ويطمرها النسيان، بينما فى كتاباتهم بأقلام المنصفين منهم ما يصد ويفحم حملات الإساءة والكراهية، ويجلى الصورة الصحيحة المنصفة للرسول وللإسلام الذى يعم المعمورة دينا هاديا للعالمين إلى يوم الدين !

ooo

اعتذار بابا الفاتيكان!

الاعتــذار الــذى أبداه بابا الفاتيكان فى خطابه (يونيــو ٢٠٠٨)، للأطفال الذين وقعت عليهم اعتداءات من بعض رجال الدين فى أستراليا، وحوادث أخرى سابقة –هذا الاعتذار مواجهــة صادقــة لعوارض لا يليق تجنبها.. وهى عوارض لم ينــج منها بعض رجال هذا الدين أو ذاك.

هذه الحوادث، مهما كانت عارضة، تلفت إلى أن التدين الصادق ليس مظاهر وطقوسا شكلية، وإنما هو إيمان داخلى عميق يهتم بســواء النفس ونقاء الضمير.. الســواء لا يلازم بالضرورة المسوح الذى يتشح به بعض رجال هذا الدين أو ذاك، أو أدعياء التدين المهتمون بمظاهر الرياء والتشــنج دون جوهر الداخل وصفاء الوجدان والســريرة، وســلامة العقيدة، والتزام الحق فى الظاهر والباطن!

فى تاريخ الأديان آلاف مؤلفة من البسطاء الذين آمنوا فى صدق، وحافظوا على إمساكهم بحبــل الله بغير تظاهــر ولا ادعاء، والتزموا الحــق فى باطنهم وظاهرهم، وفى ســلوكهم وأعمالهم وتصرفاتهم.. لم ينشــغلوا بالرياء والتظاهر، ولا بالتصنع والافتعال، وإنما عمرت قلوبهم بإيمان جارف عميق لا يعنيه إلاّ أن يكون المؤمن رسالة دينه وآيته الصادقة المعطاءة إلى الدنيا!

هــذه الكلمــات لا تصادر دور وعطاء علماء ورجال الدين فى كل ديانة، ولا تعمم جنوح البعــض هنا وهناك على الــكل، وإنما هى تقصد التركيز ولفــت الانتباه إلى قيمة «داخل» الآدمى. هذا «الداخل» إذا عمر بالإيمان، هو الذى يقود خطى الآدمى إلى الحق والصواب، لايتوقف ذلك على مظهر ولا على زى ولا على مسوح معين، وإنما ينشد غايته فى بساطة وصدق وبلا استعراض إلى صفاء الروح والرضا وقناعة النفس.

أريــد بذلك أن أقــول إنه لا وصاية لأحد على دين.. الدين لله، وهو علاقة بين الآدمى وربه عز وجل.. لا وصى فيها ولا قيم ولا وسيط. لا محل لتشنجات المتشنجين ولا لأدعياء

الوصاية والقوامة على الدين، ولا لأمراء التكفير الذين يعطون لأنفسهم الدخول فى علاقة الإنسان بربه، وفرض ما يريدون وصولا لأغراض ومغانم لا علاقة لها بالدين.. أى دين!

ما أسهل التشدق بالكلمات، وما أصعب الالتزام بالسلوك والأعمال.. عن هذه الآفة يقول سبحانه وتعالى فى قرآنه المجيد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ (الصف ٢ – ٣).. أمّا الرياء، فهو مزيج من التظاهر والاستعراض، يصاحبهما كذب ونفاق ومداهنة!

تضيع الأمم، مثلما يضيع الأفراد، ويضيع الحق.. حينما يشيع الرياء والنفاق، ولا يلتفت المجتمع والناس إلى التفرقة بين الحق وإن استحى من الإعلان عن نفسه، وبين الباطل مهما علت موجته وأحاط نفسه بالتزيين والتجميل.. تستقيم خُطَى الإنسانية حين تدرك أنه لا قيمة ولا أثر إلاّ بالنية الخالصة والعمل الصادق!

ooo

الإسلام دين الإنسانية

أحسنت سلسلة قضايا إسلامية صنعا، حين أصدرت عدة طبعات آخرها الثالثة فى مايو ٢٠٠٧ لكتاب منصف للإسلام.. للمستشرقة الألمانية آنا مارى شيمل التى فارقت الدنيا فى يناير ٢٠٠٣ الكتاب صدر أصلا بالألمانية فى مدينة شتوتجارت بألمانيا عام ١٩٨٩، وترجمه وعلق عليه الدكتور صلاح عبد العزيز محجوب بعنوان «الإسلام دين الإنسانية».

قدم للكتاب ومؤلفته، الصديق العالم الجليل المستنير الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف، ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. يروى لنا الدكتور زقزوق أنه تعرف على هذه المستشرقة فى الستينيات من القرن الماضى من خلال بحوثها الإسلامية الجادة التى تمتاز بالأمانة العلمية والدقة الموضوعية، ثم التقى بها لأول مرة بأحد المؤتمرات بجامعة ماربورج بألمانيا عام ١٩٩٨، وهى الجامعة التى تخرجت وتخرج بدوره فيها إبان دراسته بألمانيا منذ أكثر من ربع قرن.

يحكى لنا الدكتور زقزوق عن مشهد إنسانى، وعن قلادة عليها اسم الجلالة كانت تتزين بها المستشرقة الألمانية التى يرجح كثيرون، ولقرائن أخرى، أنها اعتنقت الإسلام. ولكن الشيء المؤكد أنها اتخذت موقفا شجاعا قد يحجم عنه مسلمون إن عاشوا ظروفها المحيطة فى ألمانيا! فتحت المستشرقة الألمانية آنا مارى شيمل على نفسها النيران حين علقت على فتوى الخمينى بالنسبة لسلمان رشدى صاحب رواية «آيات شيطانية»، بأن الأفظع من هذه الفتوى «إهانة أمة»! هذه الإهانة البالغة التى ارتكبها رشدى فى حق الإسلام بروايته الشيطانية!

يومها دفعت المستشرقة الألمانية ثمنا فادحا لإنصافها للإسلام. تعرضت لحملة ظالمة من الإعلام الألمانى الذى طلب من الرئيس الألمانى عدم تسليمها «جائزة السلام» التى كان اتحاد الناشرين الألمان قد قرر منحها لها بمعرض فرانكفورت الدولى للكتاب، وارتفعت موجة لتحريض اتحاد الناشرين على سحب الجائزة، ولكنها عبرت الموقف بشجاعة وحصلت أيضا على الجائزة!.

الكتاب : «الإســلام دين الإنســانية» - مكتوب أصلا كفصل وافٍ فى كتاب نهض على جمعه عن أديان الإنســانية الأستاذ «فيدريش هايلر» بجامعة ماربورج، ولكن آنا مارى شيمل عادت إلى مراجعة هذا الفصل مراجعة شــاملة وأضافــت إليه إضافات كثيرة، وختمته بفصل ضاف عن الإســلام فى العصر الحديث ونشــرته فى كتاب مستقل هو الذى ترجم وعلق عليه لسلسلة قضايا إسلامية الدكتور صلاح عبد العزيز محجوب.

الكتاب قيمة مضافة لكتابات الغرب المنصفة عن الإسلام، عرضت فيه المستشرقة الألمانية لأبحاث الأوروبيين عن الإســلام منذ القــرن (١٧) الميلادى، المنصفة والمتجنية ، وإلى ترجمة معانى القرآن الكريم التى كانت مقدمة لبداية الدراسات الحقيقية الجادة عن الإسلام. تعرض بعد ذلك إلى الجزيرة العربية فى الجاهلية ، قبل أن تعقد فصلا ضافيا لرسول القرآن، ومنه إلى انتشار الإسلام، فأركانه وتعاليمه ، وسننه وشريعته ، وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية ، والفقه والمذاهب الإسلامية ، والتصوف والطرق الصوفية ، قبل أن تختتم بفصل عن الإسلام فى العصر الحديث. هذه دراســة منصفة للإســلام، نحن بحاجة أيضا إلى ترويجها بلغتها الألمانية التى كتبت بها ليعرف الغرب مقدار التجنى الجارى الآن على الإسلام ورسوله !

ooo

التنوير الآتى من الشرق!

أخذنى الأستاذ الجليل الدكتور شوقى جلال فى رحلة دسمة ممتعة مع مقدمته والكتاب الذى ترجمه بالعدد ٣٤٦ (٢٠٠٧/١٢) من السلسلة الكويتية القيمة : «عالم المعرفة». دعانى للقراءة مكانة المترجم وإنتاجه الغزير القيم، واسم وموضوع الكتاب : «التنوير الآتى من الشرق»..

Oriental Elightment. The ecounter between Asian and western thought

الكتاب رحلة عميقة فى العقل الشرقى وإشعاعه القادم من الهند والصين واليابان، وتلاقحه مع العقل الغربى من خلال دراسة شاملة تعد استطرادا بالفعل للكتاب المهم جدا الذى وضعه المفكر العربى إدوارد سعيد عن «الاستشراق».. من البداية يشدك الدكتور شوقى جلال إلى أن العقل غايته. العقل ليس مجرد تراكم كمى للمعارف، وليس كذلك نموا ذاتيا، ولا هو قسمة عادلة بين البشر، ولا هو خزانة معلومات، وليس مكتفيا بذاته، وإنما العقل منتج ومنسق شبكى للفعل والتفاعل الاجتماعى فى إطار شامل يجمع الإنسان والمجتمع والبيئة فى وحدة تكاملية. من أسف أننا قد ألفنا على مدى قرون وضع رءوسنا على وسادة اليقين الموروث، وغاب الفعل الاجتماعى، مما أفضى إلى جمود الفكر وغياب ديناميكية الحياة عن وعينا. اعتبرنا الشك رذيلة، فقعدنا عن الفحص والتجديد والإبداع، فلا غرو إذن فى هذا السياق أن تترسخ النرجسية الذاتية بنقيضيها : عبادة الذات، والعدوانية على الآخر!.

والكتاب فيما قدم الدكتور شوقى جلال رسالة بالغة الأهمية لنقد العقل الإنسانى بعامة فى انحيازاته وتطلعاته، أو فى تراجعه وتقاعسه بل وتزييفاته. يؤكد ما ذهب إليه الدكتور إدوارد سعيد فى كتابه «الاستشراق» أن رسالة الغرب فى الشرق لم تكن كالزعم رسالة حضارية إنسانية تجاه الشرق، وإنما استهدفت احتلاله واستغلاله عبر دروب متناقضة بين الوقوع فى أسر سحره وعبقه، وما بين التعالى عليه أو إزدرائه. ومع ذلك استطاع الاستشراق أن يجمع من النقيضين وعيا نقديا لتراث الشرق، واستكشف

- وإن كان هدفه إحكام القبضة - مناطق هامة لدوائر ورؤية الفكر النابع من الشرق.

هذه المقدمة دعوة وتمهيد. دعوة للقراءة، وتمهيد لتقبل الدراسة النقدية التى تؤهل لتفاعل نقدى مع التراث والآخرين، ودعوة إلى أن ينهل الفكر العربى فى فهم واستبصار من كل إنجازات تراث الشرق، وبعقل ناقد لا يكابر ولا يعاند وإنما تحفزه رغبة الفهم والتفكير المتجدد المستوعب لدور المنافسة الحضارية. هذه الدعوة دعوة للإقلاع عن حياة الإشباع الغريزى والاستهلاك المظهرى، إلى حياة نقدية متفاعلة قوامها الإبداع والإنجاز!

يتوقف المؤلف عند النظرات التى أخذت الشرق وأفكاره وفلسفته بل وأصوله، مأخذا سلبيا، وتطرف آخرين إلى قالة الاختلاف الأبدى بين الشرق والغرب، أو التبعية الهامشية له، إلى حد وصل بالبعض إلى إغفال دور التراث الشرقى داخل التراث الفكرى الغربى بأوسع معانيه. ولا يخفى المؤلف هنا أن هدفه من هذا الكتاب هو محاولة تغيير هذه المدركات وبيان أن الشرق وابتداء من عهد النهضة فصاعدا قد مارس تأثيره الساحر القوى على عقول غربية، ودخل الحياة الفكرية والثقافية الغربية من روافد مهمة متعددة وليست عابرة!.

فى تناوله للحوار بين الأديان ينقل المؤلف فى موضوعية محمودة، عن ميرياس إلياد مؤرخ الأديان المقارنة قوله : «إن الثقافة الغربية سوف تواجه خطر الانحسار وتتحول إلى نظرة محلية محدودة وعقيم إذا ما دأبت على احتقار أو إنكار الحوار مع الثقافات الأخرى».

ooo

بل نور الهداية وسلامة اليقين!

فى خفة واندفاع غير متبصر - رمت كلمات بابا الفاتيكان (ديسمبر ٢٠٠٦)- رمت الإسلام ورسوله عليه السلام بأنهما جاءا بالسيف، وأنه به وبالعنف انتشر!، وهذه الكلمات المتجنية كلمات قديمة مكررة، لاقت على مدى القرون ردودا مفحمة، استخرجت من كنوز القرآن المجيد والسنة النبوية ما يدحضها ويثبت أن الإسلام دين هداية وإقناع، وسلام ورحمة ومحبة، منهجه الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن.. لذلك لست أريد أن أحاجى البابا أو سواه بما اعتدنا أن نحاجى هذه الدعاوى الباطلة به، وإنما أريد هنا أن أحاجى العالم بواقع الإحصائيات التى لا تكذب، والتى تؤكد أن الإسلام بلا إرساليات! ماضٍ فى انتشاره، تتزايد أعداد المؤمنين به فى تصاعد متنام إلى اليوم، برغم كل حملات التشويه وبث الكراهية ضد الإسلام والمسلمين. فإذا كان الإسلام ينتشر اليوم ويتزايد معتنقوه، فهل تراهم يتزايدون اليوم بحد السيف؟!.. وأين هو السيف والمسلمون يعيشون زمنا كسيحا يتعرضون فيه للهوان، وتنزل بهم نوازل الغزو والتدمير والإبادة؟!.. كان مقتضى كلمات زعيم الكنيسة الكاثوليكية، أن نرى الآن تراجعا وانحسارا للإسلام، بينما يقول الواقع إن الإسلام آخذ فى الانتشار والازدياد، وفى أوروبا قبل انتشاره المشهود فى آسيا وأفريقيا، بل وتتزايد أعداد معتنقيه فى عقر ديار الولايات المتحدة رغم حملتها الشعواء على الإسلام والمسلمين!!

هذه الحقيقة لا تشهد بها فقط إحصائيات الأزهر الشريف.. وإنما تشهد عليها إحصائيات الغرب ودوائر معارفه، ودراسات معاهده ومراكز دراساته.. تُجمع كلها على أن الإسلام فى انتشار متزايد، وعلى أن انتشاره بلغ حد إقلاق دوائر الغرب الكارهة للإسلام والمسلمين، فنضحت به تعليقاتهم على دلالة الإحصائيات والدراسات على نحو لا مجال لإنكاره!

إحصائيات الأزهر الشريف لا تحصى كل من أسلموا، فهناك آلاف يسلمون خارج الأزهر، ومع ذلك تورى الاحصائيات أن باحته قد شهدت - رغم الحملة الظالمة - إقبالا متزايدا لافتا على إشهار الإسلام، أقبل إليه رجال ونساء من كل فج عميق من شتى بقاع الأرض وقاراته الست ليشهروا إسلامهم.. تقول الاحصائيات ما بين عامى ٢٠٠٣- ٢٠٠٥ أنه قد جاء إليه من القارتين الأمريكيتين من أسلموا من الولايات المتحدة ومن كندا والمكسيك والبرازيل وبيرو وشيلى والأرجنتين وبنما وفنزويلا وجامايكا وسلفادور وكولومبيا والماديف وبوليفيا.. وجاء من أوروبا من أسلموا من روسيا وألمانيا وبريطانيا وفرنسا والنمسا وبولندا وإسبانيا والسويد والنرويج وسويسرا وبلجيكا والمجر وأيرلندا وسلوفانيا ومقدونيا واليونان ومالطة وهولندا وفنلندا والتشيك وسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا وكرواتيا ويوغوسلافيا والدانمرك وألبانيا والبوسنة والهرسك والبرتغال وقبرص.. جاء من أسلموا من استراليا فى أقصى الأرض، ومن أقاصى وأواسط وشمال وجنوب آسيا.. من اليابان والصين وسنغافورة وأوكرانيا والهند وكوريا وسريلانكا وأندونيسيا وبيلا روسيا والباكستان ومنغوليا وماليزيا ومانيمار وبنجلاديش والفلبين وتركستان وطاجستان وتايلاند وكازاخستان وأذربيجان ومولدوفا وكمبوديا وليتوانيا وكوسوفا وأرمينيا وهونج كونج وتركيا.. أما أفريقيا فلا توجد دولة من دولها إلاّ وحضر منها من أسلموا، ومن بقاع تكاد تكون مجهولة.. أعداد من أسلموا إناثا وذكورا، تدهش المتابع للحملة الضارية الموجهة للإسلام والمسلمين!.. تقول الإحصائيات إن من أشهروا إسلامهم بالأزهر من الولايات المتحدة الأمريكية ناهزوا ستمائة غير من أسلموا هناك.. ومن فرنسا قرابة مائتين، ومن ألمانيا ١١٦.. أغلبهم من الإناث، حتى سويسرا التى لا يظن أحد أن فى أهلها من يهتمون بالإسلام، أسلم منها فى الأزهر اثنان وسبعون سويسريا منهم ٥٦ من الإناث.. ينظر الناظر فى إحصائيات الأزهر فيدهشه أن يسلم من روسيا ٨١٣.. أما اليابان : بلاد الشمس فى أقصى الأرض، فقد أسلم منها ٤٥ أكثرهم من الإناث.. ومن الصين حيث لا يتصور أحد : أسلم منها ٣٦٨.. ومن بريطانيا قدم إلى

قاهرة المعز ٢٦٥ بريطانيا غالبيتهم من النســاء ليشهروا إسلامهم فى الأزهر الشريف؟..
كنت أتمنى أن استطرد.. فالأرقام لافتة، تشهد بأن موجة الإسلام صاعدة فى ازدياد رغم حملات الكراهية والافتراء، وأن أعدادا من شتى البقاع يفارقون أوطانهم بأقاصى الأرض من قارات الدنيا الســت، ليشهروا بالأزهر اعتناقهم الإســـلام الذى تقول الإحصائيات الأجنبية قبل الإســـلامية، إن أعداد المؤمنين به فى تزايد مستمر، وجاوز تعدادهم المليار وخمسمائة مليون مسلم.. بلا إرساليات وبلا حملات للتبشير!

يعرف المتابعون لدائرة المعارف البريطانية، وهى أشهر وأدق وأضبط دوائر المعارف العالمية – أنها تُصدر كل عام كتابا سنويا Year BooK – بما يستجد من أخبار العالم.. فى الكتاب الســنوى ٢٠٠٤ أن عدد المسلمين بمنتصف ٢٠٠٣ قد بلغ فى آسيا ٠٠٠ ٨٩٦٨٨٠ مسلم (مقابل ٠٠٠ ٠٣٤ ٣٢٥ مسيحى، وأن تعدادهم فى أفريقيا بلغ ٠٠٠ ٠٢٠ ٣٤٤ مسلم) لقاء ٠٠٠ ٦٤٠ ٣٩٤ مسيحى.. على أن أهم ما ورد به البيان الإحصائى لأعداد المسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية ... يقول البيان إن تعداد المسلمين بالولايات المتحدة عام ١٩٠٠ لم يــزد على عشــرة آلاف، ولكن أعدادهــم ارتفعت لتبلغ فى منتصف ١٩٧٠ مليون مسـلم منهم مائتا ألف مسلم من السود.. وفى منتصف عام ٢٠٠٠ نرى طفرة لافتة زاد فيها عدد المسلمين إلى ٠٠٠ ٥٨٥٠ مسلم.. المدهش أن موجة هذا التزايد المتصاعد لم تتراجع أو حتى تتوقف تحت تأثير الحملة الشـعواء الضارية التى شـنت على الإسلام والمسلمين فى أعقاب «سـبتمبر ٢٠٠١».. يقول البيان الإحصائى للكتاب الســنوى لدائرة المعارف البريطانية إن عدد المسلمين فى الولايات المتحدة قد زاد فى منتصف عام ٢٠٠٥ ليبلغ ٠٠٠ ٦٤٩١ مسلم بزيادة ستمائة ألف مسلم عن تعداد سنة ٢٠٠٠!

يظل تفسير هذه الظاهرة أمرا محيرا للغرب.. كيف يزداد عدد المسلمين البيض والسود فــى الولايــات المتحدة الأمريكية هــذه الزيادات اللافتة رغم الهجــوم الضارى هناك على الإسلام والمسلمين، وعلى رغم حملة التجنى الملاحقة للمسلمين فى خارج وداخل الولايات المتحدة!!.

فـي كتـاب Romania FactbooK٢٠٠٥ ، وهـو متاح على شـبكة الإنترنت، بيان لتعداد المسلمين في دول العالم، نرى فيه أن بالقارة الأوروبية حيث قوة الغرب يبلغ تعداد المسلمين فى النمسا ١٨١٠٠٠ مسلم، وفى بلجيكا ٣٦٩ ٠٠٠ مسلم، وفى فرنسا نحو ستة ملايين مسلم.. وقرابة أربعة ملايين فى ألمانيا، وفى اليونان ١٥٨ ٠٠٠ مسلم، وفى المجر ٦٠٦ ٠٠٠ مسـلم، وفـى أيرلندا ٧٦ ٠٠٠ مسـلم، وفى البلاد الواطئة قرابة مليون مسلم، وفى النرويج بأقصى الشـمـال الأوربى ٤٦ ٠٠٠ مسلم، وفـى بولندا قرابـة المليون مسلم، وفى رومانيا ٢١٦ ٠٠٠ مسلم.. أما روسيا فيبلغ عدد المسلمين فيها قرابة خمسة عشر مليون مسـلم، وفى السـويد بأقصى الشمال ٣٠٣ ٠٠٠ مسـلم، وفى سويسرا ٢٢٥ ٠٠٠ مسلم، وفـى بريطانيا زاد عـدد المسلمين على المليون وبلغ ١١٦٩٠٠٠ مسلم، وفى يوغسلافيا بلغ عددهم ١٩٪ من جملة السكان.

تعمدت التوقف عند الأرقام فى أوروبا، ولم أتوقف عند الأرقام والنسب فى بلدان آسيا وأفريقيا التى بلغ تعداد المسلمين فى بعضها ١٠٠٪ من مجموع السكان، ففيما عدا الأندلس التـى غادرهـا المسـلمون من قرون، لم يقـترب أى جيش أو قوات إسـلامية من أى دولة أوروبية، ومع هذا نجد الإسلام قد وصل إلى أقصى الشمال الأوروبى حيث البرد والصقيع، واللافت أن نجد أعدادا كبيرة للمسلمين فى دول كروسيا وفرنسا وألمانيا وانجلترا والأراضى الواطئة، بلغت قرابة خمسـة عشـر مليونا فى روسيا، ومع ذلك لا نجد فى إسبانيا حيث استمر الحكم الإسلامى قرونا سوى ٤٨٠ ٠٠٠ مسلم بنسبة (١,٢ ٪)، وهى بالغة التواضع بالقياس إلى دول كروسـيا (١٠٪) وفرنسـا (١٠٪) وألمانيا(٣,٧ ٪) والمجر(٦ ٪) ومالطة (١٤٪) – الأمر الذى يؤكد بهتان الزعم الكاذب بأن الإسلام انتشر بالسيف!

الحجة البالغة أيضا، أن تعداد المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ حسب الكتاب الرومانى ـ قد بلغ نحو عشـرة ملايين، وفى كندا قرابة النصف مليون مسـلم، وهذا يعانق دلالة التعداد فى أوروبا، ويطرح تساؤلا قاطعا لا تجيب عنه كلمات بابا الفاتيكان : كيف انتشر الإسلام هذا الانتشار فى أوروبا وأمريكا، فضلا عن الانتشار الهائل فى آسيا وأفريقيا

وفـــى دول وبقاع لـم تقترب منهـا أى جيوش أو فتوحات إســلامية.. ما تفســير هذا المد الإسلامى إلاّ أن تكون عقيدة وأحكام الإسلام التى هدت وجذبت إليها هذه الملايين الغفيرة التى أقبلت طائعة مختارة إلى دوحة الإســلام رغم حمــلات القمع والكراهية التى لاحقت وتلاحق الإسلام والمسلمين؟!!

فـى دراســة بحثيـة للمعهـد البحثى المســيحى Christian Research Institute وهى متاحة على الإنترنت، أن الإســلام يزداد انتشــارا وقوة فى أمريكا، وأنه بات يمثل أقوى التهديدات أهمية للكنيسة الأمريكية، وأن المؤشرات تورى بأنه أسرع الأديان انتشارا ونموا فى العالم وفى أمريكا، وأن نســبة نموّه وانتشــاره فى الولايات المتحدة ما بين سنتى ١٩٨٩، ١٩٩٨ ـ قد زادت بنســبة هائلة، كذلك فى فرنســا وألمانيا والمملكة المتحدة، وأن المصادر المســيحية والإســلامية تتفق على تأكيد أن الإســلام هو أســرع الأديان والمذاهب انتشــارا الآن فى الولايــات المتحدة، وأن الكتاب السـنوى (٢٠٠٠) للكنائس الأمريكية والكنديــة أعطى مؤشــرات مقلقة لزيادة المســلمين، وتتوقف الدراســة البحثية حائرة فى محاولة استشــفاف أسباب هذا التزايد السريع فى أعداد المسلمين، لتنقل فى النهاية عن جيمس دريتك James Dretke قوله:

It is great thrill to see many Muslimes on our doorsteps. While we cannot easily gain entry in their countries.. God has brought them to ours

«إنهــا لإثــارة كبيرة أن نرى الكثيرين من المســلمين على أعتابنا، وبينمـا لا نســتطيع بسهولة أن ننال الدخول إلى أوطانهم ـ فإن الله قد أتى بهم إلى أوطاننا»!!

لا يوجد بيد الإســلام والمســلمين ســيف ولا مدفع.. لا فى الولايات المتحدة الأمريكية ولا فى غيرها، وليس فى جعبتهم فى هذا الزمن الكســيح الذى يتعرضون فيه لما يتعرضون لــه أى قوة يتســاندون إليها فى نشــر الدعــوة، إلاّ أن تكـون قوة الديــن والعقيدة، وعدل ورحمــة ونــور هداية ما جاء به الإســلام الذى طفق ينتشــر من أربعة عشــر قرنا بالهداية وبالحكمة والموعظة الحســنة.. لم يتوقف الغرب طوال هــذه القرون عن محاربته والتهجم

عليه، ومع ذلك يتزايد انتشاره وللآن على رغم ما يقع عليه وعلى المسلمين من عدوان فى زمن التراجع والهوان؟! ما سـر أن تتراجع قوة المسلمين، بينما يتقدم الإسلام نفسه ويقبل عليـه أهـل الأرض طرا حتى فى عقر الدولة الأمريكية المتحكمـة فى أقدار العالم؟.. تقول الحقائق الدامغة إن البقاع الشـتى التى يدخلها الإسـلام ويقبل أبناؤها عليه، لم تدخلها جيوش إسلامية، ولا توجد بها إرساليات تبشيرية.. لم يجتذب هؤلاء المقبلون إلى الإسلام . إلاّ مـا وجـدوه فى واحته من توحيد يقبله العقـل، وهداية تقود إلى إيمان غامر، وعقيدة سليمة، وأحكام للمعاملات حكيمة ومنصفة، ورحمة مرفرفة، وإنسانية فياضة تغمر الإنسان بالقيمـة والحرية والعدل والكرامة ، وتعطى للحياة معنىً موصولا بسقفٍ ظليل وسلام وارف واحترام كامل للإنسـانية لا ينظـر إلى عـرق أو لـون أو أصل أو مال أو جاه، وإنما يحترم الإنسان ويصله بمناقبه وشمائله وسجاياه حيث كان!

ooo

الدقة والإتقان
مهجة العمل فى الإسلام

فى عالم اليوم، الذى تنامى فيه الإنتاج فى كل لون، تناميا هائلا من حيث الكم والنوع والكيف، بات الاتقان والدقة عصب هذا الإنتاج ومفتاح ما يفرضه قانون المنافسة على الجميع، سواء فى طلب الجودة بعامة، أو فى أفضليات التسويق المحلى والخارجى.. لا يقتصر طلب الدقة والإتقان على عالم الصناعة أو الإنتاج المادى بعامة، بل يكاد يتفق الناس اليوم.. عاملهم وباطلهم.. على أن «الإتقان» و «الدقة» هما قوام كل عمل مادى أو فكرى أو أدبى.. بدونهما يفقد العمل المادى عناصر جودته وإتقانه وتميزه، مثلما يفقد العمل الفكرى والأدبى روحه وجدته وطرافته.. ربما لهذا الإتفاق كانت كلمة «الدقة» ومشتقاتها من أكثر الكلمات شيوعا فى زماننا!

هذا المطلب : الإتقان والدقة، سجية إسلامية تأتى فى إطار منظومة كبرى تحترم العمل والعاملين.. العمل الطيب هو حجة الإسلام إلى الدنيا التى أراد لأبنائه أن يكونوا فيها بعملهم فى مكان الريادة تعبيرا عن قيمه الأصيلة وإسهاما مثمرا فى عمارة الدنيا وإثراء الحياة ونفع الإنسان.. لم يقبل الإسلام من المسلم أى عمل من قبيل تسديد «الخانات»، وإنما نبهه إلى قيمته والتفات الخالق عز وجل إليه، فورد بالقرآن المجيد : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ (١٠٥) ﴾ (التوبة ١٠٥).. تلفت هذه الآية أنظار المؤمنين إلى أن عملهم مراقب ومرئى ومشهود.. من الله تعالى ومن رسوله ومن المؤمنين.. فيدل القرآن بذلك على أن المنزلة عنده سبحانه وتعالى هى بالعمل للدنيا والآخرة: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ (المطففين ٢٦).. هذا التنافس قوامه الإخلاص والإجادة.. فكان ﷺ - يقول لأصحابه: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».. الإتقان هو روح العمل ومهجة الإسلام، وهو المدخل للإجادة وللدقة التى يكاد يتفق عليها الناس عاملهم وباطلهم!

ولكن !.. ما هى الدقة، وما هو الأداء الدقيق صنعا كان أو تعبيرا، وهل فى مقدور الإنسان العادى أن يكون دقيقا فى غير حرفته أو مهنته أو فى غير تخصصه أو فنه؟!

يبدو أن «الدقة» هى أصلا المطابقة بين تصورنا الداخلى للموضوع والصورة التى نقوم بأدائه بها، وبين نموذج خارجى استوحيناه أو مفترض اتباعه اختيارا أو جبرا، تصورا وأداء.. فالدقة تحمل دائما اهتماما بالضبط وبالانضباط وبالحساب والمسئولية ولذلك فلا توصف آلام المريض بالدقة، أو يوصف بها غضب المشترى لسوء حالة المبيع، أو حزن الوالد على رسوب ولده فى الامتحان، أو استياء الناس من غلاء الأسعار، أو ازدحام الطرقات فى المدينة، أو عدم نجاح الحكومة فى مكافحة تجارة المخدرات أو فشلها فى حل مشكلة المجارى! هذه صور لا توصف بذاتها بأنها دقيقة، وإنما المراد أن يعالج كل منها بدقة، سواء من جانب الطبيب أو الخبير أو المدرس أو الاقتصادى، أو من جانب الاختصاصيين فى مكافحة المخدرات وغيرها مما يتولاه أهل الاختصاص.. لأن هؤلاء جميعا هم الموكول إليهم العمل والمطلوب منهم فى أدائه أن يلتزموا الحساب والدراسة والضبط والانضباط والمسئولية!.

نعم، من حق الإنسان العادى أن يضيق بما يؤدى إليه بغير دقة وإتقان.. ومن الوارد أو المحتمل أن يتألم وأن يغضب وأن يحزن وأن يستاء، وأن يعبر عن ذلك علنا، لأنه فى النهاية هو الذى يكتوى بعدم دقة أداء الفنيين والاختصاصيين أو بسوء تشخيصهم أو سوء علاجهم وتدبيرهم أو قلة تبصرهم للعواقب أو ضيق أفقهم أو قصور وتخلف معلوماتهم وأدواتهم ومعداتهم. ولكن لا ينبغى له أن يتجاهل الفارق بين العادى وبين الفنى المتخصص أو المحترف أو صاحب المهنة أو الحرفة أو الفن. فالإنسان العادى يحتكم عادة إلى خبراته بشئون الدنيا والحياة وإلى معلوماته العامة، وشكواه مهما بلغت من الحق لا تعتبر تشخيصا طبيا أو هندسيا أو فنيا أو اقتصاديا أو قانونيا أو دستوريا.

للمشاكل، ولا يمكن أن يُبنى عليها علاج لمتطلبات أو لمشاكل أو معضلات الأفراد أو الأمة أو الدولة أو للمشاكل الدولية!

إنما قد تطلب الدقة من الإنسان العادى فى كثير مما يعترض حياته، فيكون مطالبا بالتزام الدقة فى اتباع الأنظمة وتطبيق التعليمات الواجبة الاتباع، وهذه الدقة تمضى فى سلاسة وسكون بلا ضجيج.. لا نسمع لها صوتا، لأنه لا يصحبها سمعة أو شهرة مما يجرى وراءه الناس طلبا للصيت أو حبا فى الظهور.. كما لا يصاحبها قيادة أو زعامة محتملة أو قريبة الاحتمال مما يرنو إليه معظم الناس، بل يصحبها فى أحيان كثيرة التعرض ـ إذا أفلتت الدقة ـ لأضرار تتنوع تبعا لما أعوزته الدقة فيه، وقد تبلغ به حد التعرض للجزاءات الإدارية أو للعقوبات الجنائية.. لايستغنى الإنسان العادى عن الدقة فى كل شئون حياته، ويدفع ثمن مفارقتها إذا ما خولفت – مثلا – تعليمات تعاطى الأدوية بدقة فى مواعيدها الدقيقة المقررة، أو خولفت تعليمات تطعيم الأطفال فى أوقاتها المحددة فى السنوات الأولى من أعمارهم!، أو كما يحصل عند مخالفة الإرشادات الفنية المتعلقة بالمحاصيل والمواشى والدواجن والنحل وغير ذلك من الخسائر والأضرار!!

لا تقتصر «الدقة» مثلما لا يقتصر «الإتقان» – على العمل أو الإنتاج المادى، فدقة التعبير «مطلب» أساسى أيضا فى العلوم والآداب والفنون، بل هى مطلوبة فى الحديث وفى الكتابة، يعترض هذه «الدقة» ما قد يدور فى أخلاد البعض أنه حر فيما يقول أو يكتب من قيود الضوابط أو المسئولية، وهو ظن ظاهره الصحة على اعتبار أن الإنسان يمتلك حرية التعبير كتابة أو شفاهة، ولكنه ليس صحيحا على إطلاقه، لأن التعبير كتابة أو شفاهة باب واسع يصب فى روافد متعددة، منها ما يمس الشئون العامة التى تهم المجموع، ومنها ما يمس حياة شخص أو أشخاص من حقهم صيانة حيواتهم الشخصية من الاقتحام والتلصص، أو حماية سمعتهم وعرضهم ومالهم من الإيذاء من رذاذ سوء التعبير متعمدا كان أو غير متعمد.. الدقة مطلوب أساسى حين تمس الكتابة أو القول حياة الأفراد أو الجماعات أو حياة المجتمع بعامة فى حقوق أفراده وحقوق مجموعه!

ليس كثيرا على الإنسان أن يبذل قدرا معقولا من الاحتياط فى كتابته أو حديثه فى أمثال تلك الأمور الجادة المؤثرة فى حيوات الناس وقوام المجتمع، وليس كثيرا أن يتعرض الجانح الشارد والمشتط للمساءلة حين لا يحتاط لحقوق وكرامات المجتمع والناس، وحين

يجاوز المألوف فى الترخص إلى الجموح والشطط وقلة الانضباط التى قد توصف عندئذ بعدم الدقة أو بالتشهير أو بالمساس بالشرف والاعتبار أو بالطعن على النظم المقررة أو بانتهاك الآداب أو بترويج الأخبار الكاذبة أو الشائعات أو الأفكار الهدامة!

فموضـــوع الدقة المطلوبة فى الكتابة أو الحديث هو الاحتياط الواجب العاقل من الوقوع فى الأخطاء المؤذية للغير المفترض فى كل فرد أن يتحاشاها ويتجنب الوقوع فيها، صيانة لحقــوق وكرامات الآخرين، وانصياعا لضوابط المســاءلة التى تقــوم على إيجاد توازن لازم وحتمى ومطلوب بين الكلمة منطوقة أو مكتوبة، وبين مسئوليتهــا.. المقاييس فى هذه الأمور معياريـــة كلها، وقد يدق ويصعب التفريق بين المباح وبين غير المباح أو المحظور فى بعض الصور بالنظر لتغير الأذواق والأخلاق والمثل تبعا لتغير الزمان أو المكان، أو لتطور الجماعة فكريا وماديا وشيوع اتجاهات جديدة فيها يجب أن يحسب حسابها فى توقع وعى والتزام الأفراد لتلك المعايير!.

الدقـة وإتقـان العمل واجب عام لا يتخصص بعمل دون عمل، ولا بسلوك دون سلوك، ولا بتصرف دون آخر.. وإنما هو طبع عام وســجية مانحة تعطى ثمارها فى كل ما يؤديه الإنسان من عمل ويلتزم فيه واجب الجادة والدقة والإخلاص والإتقان.. هذا الواجب العام لا محـــل لتخصيصـــه بلا مخصــص، ولا لتقييده بلا مقيد.. وما لنا نقيــده ونحاصره بينما التزامه كفيل باســتقامة الأمور وتعطير الحياة بقسمات الكمال والجلال والجمال.. سبحانه وتعالى الذى خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحســن عملا وأكثر جادة وإخلاصا وإتقانا فى عمارة الحياة!.

OOO

الفتوى فى الإســلام

يقول رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام.. «العلم خزائن مفاتيحها السؤال، فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل، والعالم، والمستمع، والمحب لهم!».

فمنزلة السؤال من منزلة العلم.. فهو يمهد له ويؤدى إليه.. وقد كانت الدعوة الإسلامية نورا أضاء للبشــرية، وحرك لــدى الناس كوامن الرغبة فى المعرفــة.. معرفة هذه الأحكام والتعاليم الجديدة التى ينادى بها المصطفى عليه الصلاة والســلام : وتتحدث عنها الآيات القرآنية الشريفة..وحينما يكون جديد يكون السؤال والاستفسار : ويكون الجواب والإفتاء.. وقد تحدث الإســلام عن الأحوال الشخصية والمعاملات والعقوبات كما تحدث عن العقائد والعبــادات.. وفى كل هذه الأحكام احتاج المســلمون لأن يتوجهــوا إلى نبيهم عليه الصلاة والســلام بالســؤال.. يستجلون ما غمض عليهم منها، ويعرضون ما وقع لهم من أحداث لم يتبينوا وجه الصواب فيها.. وكان المصطفى عليه الصلاة والســلام يجيب عن تســاؤلاتهم ويفتيهــم.. تــارة بآية أو آيات كريمة يوحى بها إليه، وتــارة باجتهاده الذى يلهمه الله- ســبحانه - فيه فوق ما يهديه إليه عقله وبحثه وتقديره.. ومنذ هذا العهد-عهد التنزيل- درج المسلمون منذ وفاة الرسولﷺ إلى يومنا هذا على التوجه إلى علمائهم وفقهائهم ليبينوا لهــم أحــكام دينهم الحنيف، ويفتوهم فيما يعرض لهم من شــئون دينهــم ودنياهم.. ففى الكتاب المجيد : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ ﴾ (الأنبياء ٧).

وقد كان الرســول عليه الصلاة والسلام أول مفتٍ فى الإسلام.. من فتاواه تكونت معظم الســنة (القولية) المصدر الذى يلى الكتاب الكريم مباشــرة من مصادر التشريع الإسلامى.. فقد تضمنت فتاواه جوامع الأحكام المشــتملة على فصل الخطاب.. أمرنا الله تبارك وتعالى بإطاعتها والعمل بها.. فيقول سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز:

﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩ ﴾ (النساء ٥٩)

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (النساء ٨٠).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴿٥٩﴾ ﴾ (النساء ٥٩)

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم ٣، ٤)

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (الأعراف ١٥٨)

ooo

والفتوى هى الجواب عما يشكل من الأحكام ببيان الحكم الشرعى لمن يريد معرفته.. وهى بهذا تختلف عن الاجتهاد.. أو هى بالأحرى أخص منه : ذلك أن الاجتهاد هو استنباط الأحكام سواء أكان هناك سؤال فى موضوعها أم لم يكن.. أما الفتوى فإنها تكون ردا على سؤال بصدد واقعة معينة يتولى الفقيه المفتى التعرف على حكمها وإرشاد السائل إليه..وقد كان المصطفى عليه الصلاة والسلام يتوخى تفقيه أصحابه فى أحكام الدين، وتأهيلهم للقيام بدورهم من بعده فى الإفتاء.. لذلك كان يشجع من يرسله منهم إلى المناطق النائية على الاجتهاد فيما لم يرد بشأنه نص فى الكتاب أو السنة..

روى أنه عليه الصلاة والسلام عندما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن داعيا وهاديا وقاضيا سأله بم يقضى إذا لم يجد بغيته فى كتاب الله وسنة رسوله.. فلما أجاب معاذ: «أجتهد رأيى، لا آلو» سر المصطفى عليه الصلاة والسلام وتهلل وجهه وقال له : «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»..

وقد تابع الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ الاجتهاد وإفتاء المسلمين فيما يشكل عليهم.. فقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وترامت أبعادها بانتشار الإسلام.. ونمو حركة الفتح.. وأخذت أعداد الوافدين الجدد فى رحاب الدعوة تكبر وتتعاظم.. ولم يكن كل واحد منهم على درجة من التفقه فى الدين والقدرة على الرجوع بنفسه إلى المصادر الأساسية فى الكتاب والسنة تمكنانه من التعرف على الحكم الشرعى الصحيح فى كل المسائل، فقد كانت نصوص القرآن الكريم لا تزال فى ذلك العهد مدونة فى صحائف خاصة محفوظة

فى بيت الرسول ﷺ وبعض أصحابه، ولم تكن السنة قد دونت بعد تدوينا شاملا، فضلا عما طرأ على المسلمين من حاجات وحوادث وأقضية لم تطرأ فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.. ومن هنا اضطلع علماء الصحابة بمهمة نشر القرآن الكريم والحديث الشريف وتفسيرهما، وإفتاء الناس فيما يعرض لهم من وقائع فى مختلف الأمصار الإسلامية.. وفى هذا المجال اشتهر منهم نحو مائة وثلاثين صحابيا.. من أبرزهم الخلفاء الأربعة، والسيدة عائشة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم.. رضى الله تعالى عنهم أجمعين..

كان علماء الصحابة خير من يتولى هذه المهمة فى هذه الحقبة.. لعمق إيمانهم وورعهم وطول صحبتهم للرسول، وحفظهم عنه القرآن والسنة، ولمشاهدتهم مواضع التنزيل وإلمامهم بأسبابه، وتلقيهم تعاليم الرسول وإرشاداته.. كل ذلك مع العقل الواعى والإخلاص جعلهم أقدر الناس على معرفة مرامى الشرع وإدراك حكمه.. فوظيفة الإفتاء من أجل المهام وأخطرها. والمفتى الحق يقوم بعمل هو من عمل الأنبياء.. فهو يبين للناس ما يحل لهم وما يحرم عليهم، ويرشدهم إلى أحكام دينهم الحقة.. وهو دور تبدو أهميته وخطره فى تهيب السلف ـ على علمهم ـ من الفتيا، وإحجامهم عن إعطائها ـ فى عهد الراشدين ـ إلا لضرورة تتمثل فى واقعة حصلت بالفعل، وبعد البحث والتحرى المتأنى..

يقول الإمام النووى فى مقدمة شرح المهذب : «أعلم أن الإفتاء عظيم الخطر كبير الموقع كثير الفضل، لأن المفتى وارث الأنبياء وقائم بفرض الكفاية»..

ويقول عبد الرحمن بن أبى ليلى : «أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب الرسول.. يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترفع إلى الأول»..
وفى رواية : ما منهم من يحدث بحديث إلا ود أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شىء إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا»..

ويتفق جمهور الفقهاء على الأخذ بالإجماع ثم بفتوى الصحابى على الترتيب كمصدرين للتشريع الإسلامى يليان الكتاب والسنة مباشرة.. فأقوال الصحابة عليهم الرضوان حجة بعد النصوص لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ

﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (التوبة ١٠٠).

ولقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «أنا أمان لأصحابى، وأصحابى أمان لأمتى» «لا تجتمع أمتى على ضلالة»..

وقد رأى الفقهاء أنه لم يعرف إجماع متفق على وقوعه غير إجماع الصحابة، وهو الذى سلم به الجميع.. فالإجماع لم يكن ممكنا عملا إلا فى عهد الصحابة رضى الله تبارك وتعالى عنهم قبل أن يتفرقوا فى الأقاليم، ثم أصبح بعد ذلك غير ميسور، إن لم يكن متعذرا، حين تفرق هؤلاء والتابعون فى الأمصار والأقطار الإسلامية مع عدم وجود وسائل الاتصال الحديثة التى ابتكرتها الحضارة الحالية والتى يمكن أن تتيح الحوار والتواصل وإمكان الإجماع بالاتصال من خلالها بين علماء المسلمين فى شتى أقطار الأرض.. على أنه لم يكن ذلك متاحا فيما مضى، وبدأت آراء وفتاوى الصحابة نافذة مهمة جدًا للتعرف على ما كان يشكل على المسلمين.. وقد أسهب ابن القيم فى بيان منزلة آراء الصحابة، وكيف أنها أقرب إلى الكتاب والسنة من آراء من جاء بعدهم.. فتاواهم حجة علينا لذلك ولأسباب أخرى أفاض ابن القيم إيضاحها فى كتابه المعروف «أعلام الموقعين» ومن جملة رأيه:

الفتوى التى يفتى بها الصحابى لا تخرج عن ستة وجوه:

أن يكون سمعها من النبى عليه الصلاة والسلام.

أن يكون سمعها ممن سمعها.

أن يكون فهمها من آية فى كتاب الله فهما خفى علينا.

أن يكون قد اتفق عليه ملؤهم (إجماعهم) ولم ينتقل إلينا إلا قول المفتى وحده..

أن يكون رأيه لكمال علمه باللغة ودلالة اللفظ على الوجه الذى انفرد به عنا، أو لقرائن حالية اقترنت بالخطاب أو لمجموع أمور فهمها على طول الزمان من رؤية النبى ﷺ، ومشاهدة أفعاله وأحواله، وسيرته وسماع كلامه والعلم بمقاصده، وشهود تنزيل الوحى، ومشاهدة تأويله بالفعل فيكون فهم ما لا نفهمه نحن.

وعلى هذه التقارير الخمسة تكون فتواه حجة علينا.

أما الوجه السادس فهو أن يكون فهم ما لم يروه عن النبى عليه الصلاة والسلام وأخطأ فى فهمه..

وعلى هذا التقدير لا يكون قوله حجة..وقد أثر عن الأئمة الأربعة أنهم كانوا يتبعون أقوال الصحابة بعد الكتاب والسنة، ولا يخرجون عنها، ويقول الإمام أبو حنيفة فى ذلك: «إن لم أجد فى كتاب الله تعالى وسنة النبى ﷺ أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت، وأدع من شئت منهم، .ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم».

ولم تقف حركة الاجتهاد والإفتاء بانتهاء عهد الصحابة الأبرار.. فقد حمل المشعل من بعدهم نفر من الفقهاء أصحاب الورع والصلاح، وعمق الفكرة وسعة الاطلاع والدراسة.. من أبرزهم أبو حنيفة النعمان ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل.. على أكتافهم قامت مذاهب شامخة، وازدهر الفقه الإسلامى بفضل الاجتهاد والإفتاء – ازدهارا كبيرا فى العصر المعروف بعصر التدوين والأئمة المجتهدين، والذى بدأ فى أوائل القرن الثانى للهجرة واستمر إلى نحو منتصف القرن الرابع.. وفيه بدأت حركة تدوين فتاوى المفتين من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وتصنيفها فى أبواب بحسب موضوعها.. ذلك التدوين الذى بدأ بمحاولة فردية فى عهد النبى ﷺ على يد عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كتب عدة صحائف ضمنها بعض أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وفتاواه، وسميت بالصحيفة الصادقة..

وقد رجع أئمة هذا العصر فى فتاواهم إلى مصادر التشريع الإسلامى المعروفة، وعلى رأسها الكتاب والسنة والإجماع وفتوى الصحابى.. يبحثون فيها على الترتيب على حكم الواقعة المستفتى فيها، ويجتهدون فى استنباط الأحكام الشرعية وتطبيقاتها، محاولين فى كثير من الأحيان تلمس الأسباب والعلل للأحكام.. وكان من الطبيعى أن اختلفت آراء هؤلاء الأئمة ـ وغيرهم ـ فى بعض فتاويهم بسبب التفرق فى الأقطار، واختلاف الظروف والأوضاع فى كل منها، فضلا عن التفاوت فى الاطلاع على الأحاديث وتنوع المعارف لدى كل منهم.. لذلك ظهرت مدرسة الرأى فى العراق، ومدرسة الحديث فى الحجاز.. وكان من نتاج ذلك المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة.

والمتتبع لتاريخ الفتوى فى الإسلام يلاحظ أنها سارت دائما مع حركة التشريع عموما – باعتبارها أحد مصادر نمائه – صعودا وهبوطا.. أصابها ما أصاب التشريع من جمود فى عهد التقليد الذى تلا عصر الأئمة المجتهدين، ولحق بها ما لحق به من نشاط ونهضة فى العصر الحديث نتيجة لدعوة ابن تيمية وغيره من المجتهدين الذين نادوا بدعوته من بعده، وشجعوا الفقهاء على الاجتهاد..

وقد كان للمفتى على اختلاف هذه العصور – لخطر وظيفته – شروط يلزم توافرها فيه للاضطلاع بمهمة الإفتاء.. منها الورع والتدين، والعلم باللغة العربية، والقرآن الكريم.. ناسخه ومنسوخه، والعلم بالسنة، ومواضع الإجماع ومواضع الخلاف، فضلا عن معرفة القياس وطرق الاستنباط ومقاصد الأحكام، مع صحة الفهم وحسن التقدير وصدق النية وسلامة الاعتقاد.. ويلزمه فوق ذلك أن يتعرف على واقعة الاستفتاء، ونفسية المستفتى والجماعة التى يعيش فيها، ليعرف أثر الفتوى سلبا وإيجابا..

روى عن الإمام أحمد بن حنبل قوله : «لا ينبغى للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال: أن تكون له نية، فإن لم تكن له نية لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور.. أن يكون على علم وحلم ووقار وسكينة.أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته.الكفاية، وإلا مضغه الناس.معرفة الناس»..

ويقول الإمام الصيرفى : «من قام للناس بأمر دينهم وعلم جمل عموم القرآن وخصوصه، وناسخه ومنسوخه، وكذلك السنن والاستنباط – فمن بلغ هذه المرتبة سموه بهذا الاسم، ومن استحقه أفتى فيما استفتى».

ويقول النواوى : «ينبغى أن يكون المفتى ظاهر الورع مشهورا بالديانة الظاهرة والصيانة الباهرة «.. ثقة.. مأمونا.. منزها.. فقيه النفس، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح النظر والاستنباط متيقظا.

والمفتى هاد ومرشد.. فتواه مدار لإصلاح الناس، ولذلك يقول الشاطبى : «المفتى البالغ ذروة الدرجة هو الذى يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال».

ويقول ابن السمعاني: «المفتى من استكمل فيه ثلاث شرائط: الاجتهاد، والعدالة، والكف عن الترخيص والتساهل».

وكما أن التساهل في الفتوى خطأ، فإن التعنت فيها غير مطلوب، فباب الرخص مفتوح بين يدى المفتى يعالج به أحوال الناس إذا رأى أن الأخذ بالعزائم فيه حرج وعنت، والله سبحانه وتعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.. فالإسلام دين رحمة ويسر.. ينأى بالمؤمنين عن العناء والمشقة، فيقول تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴿١٨٥﴾﴾ (البقرة ١٨٥)، ويقول نبى الرحمة: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا»..

والمفتى الذى بلغ مرتبة الاجتهاد يفتى بموجب الكتاب والسنة والرأى السليم، أما إذا كان لم يبلغ هذه الذروة فإنه يتخير من أقوال المذاهب أقواها دليلا وأصلحها للناس، على أن يكون فيما يصدر عنه حسن القصد.. لا يتبع أهواء الناس، أو يميل لإرضاء حاكم، فإذا كانت المسألة خلافية احتاط للشرع واحتاط للمستفتى من غير خروج ولا شذوذ.. وعليه فى جميع الأحوال أن يعمل بما يفتى به، وإلا يفقد العدالة، واختلت الثقة فى فتواه..

وعناية المفتى بتعليل أحكام فتاواه وبيان أسرارها أمر مطلوب ومرغوب فيه.. وفى ذلك يقول الإمام الغزالى فى المستصفى: «إن معرفة باعث الشرع ومصلحة الحكم استمالة للقلوب إلى الطمأنينة والقبول بالطبع والمسارعة إلى التصديق».

والفتوى كغيرها من أحكام الشرع الإسلامى، لها آداب وتقاليد تلزم مراعاتها: فينبغى للمفتى أن يتأنى فى فتواه ولا يتسرع، لأن التفكير والتدبر يقودان إلى الصواب.. إذا ما خلص إلى فتواه كان عليه أن يبين الجواب للمستفتى بيانا يزيل الإشكال، ويضمن تفهمه له..

ويتفق الفقهاء على أن رجوع المفتى عن فتواه يلزم المستفتى بالرجوع عنها إذا علم بعدول المفتى قبل العمل بفتواه الأولى، فإذا كان قد تلقى الفتوى من أكثر من مفتٍ واختلفت الآراء فيها فإن الاحتياط يوجب عليه الأخذ بأشدها وأصعبها عليه.

والإفتاء.. لأهميته وجلاله وخطره.. معتبر من الفروض الكفائية التى يلزم تعيين الأكفاء لها القادرين عليها، ولهذا فإن الجواب متعين على المستفتى إذا لم يكن فى الناحية غيره، وكان حائزا لشروط الإفتاء، أهلا له..

وفى ذلك يقول النواوى: «الإفتاء فرض كفاية، فإذا استفتى وليس فى الناحية غيره تعين عليه الجواب، فإن كان فيها غيره وحضر فالجواب فى حقهما فرض كفاية»..

ويقول ابن القيم: «من أفتى الناس وليس بأهل للفتوى فهو آثم عاص، ومن أقره من ولاة الأمور على ذلك فهو آثم عاص».

وكان من الطبيعى – وهذه منزلة الفتوى وأثرها فى نماء الفقه الإسلامى وازدهاره – أن تنال العناية اللائقة بها.. سدا لحاجات المسلمين، وإرشادا لهم إلى سبيل الصلاح والهداية.. فقامت هيئات عديدة لإفتاء المستفتين والسائلين، والرد على استفساراتهم فيما يعرض فى حياتهم من شئون دينهم ودنياهم.. وعلى رأسها دار الإفتاء المصرية ولجنة الفتوى بالأزهر الشريف.. كما اضطلعت بعض الهيئات الأخرى والأجهزة الإعلامية بجانب من هذا الواجب، تستعين فيه – ويجب أن تستعين – بالفقهاء المتخصصين المستوفين لشرائط الإفتاء.. هذا وأخذت حركة تدوين الفتاوى وتبويبها تنشط وتزدهر.. كمصدر نماء للثروة الفقهية المأثورة، ووصلا لما انقطع من سلسلة البحوث الإسلامية القيمة.

ооо

الفدية فى الإسلام

الفدية فى تاريخ الأديان والشرائع السماوية لها شأن عظيم لا يزال الموحدون يتذاكرونه ويستعبرون حكمته ومعانيه.. يتأملون كيف كافأ الحق تبارك وتعالى الأب الصادع لأمره : إبراهيم الخليل، وولده إسماعيل الذى لم يقل عنه صدوعا ولا إخباتا.. فما هى أن شرع الخليل عليه السلام فى تمرير السكين على رقبة فلذة كبده.. إلا وفوجئ بها قد انثلم حدها الذى شحذه، وبالغ فى شحذه، ليخفف الذبح على نجله هذا البار به، الصادع لأمر ربه.. ثم إذا بنداء الرحمن وفدائه يأتيه، ويكفكف عنه ويثيبه على إيمانه وطاعته.. ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾(الصافات ١٠٤- ١٠٧)..

وإذا كانت هذه الفدية قد شرفت بالنبى الكريم الذى فدته، فإنها قد سمت من ناحية مصدرها فوق مصادر التعويض الدنيوية، وانفردت بالاتصال بخالق الكون ورب العالمين..

والفدية فى الإسلام فوق أنها تعويض أو مقابل ـ باب من أبواب التوسعة والتيسير العديدة التى فتحها دين الرفق والإسماح لعباد الله المؤمنين.. فهو دين اليسر والرحمة، لا عنت فيه ولا إعنات.

يقول تبارك وتعالى فى كتابه العزيز: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (البقرة ١٨٥)

ويقول الهادى البشير عليه الصلاة والسلام : «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه، فسددوا وقاربوا» .. وفى رواية أخرى : «فإن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى».

والفدية أخذت طريقها – فى هذا النطاق الذى عرضناه – إلى مواضع أربعة تتصل بالصيام والحج والأسرى والطلاق.. وهى تنبع فى كل باب من هذه الأبواب عن فلسفة رشيدة، نطل الآن على ما كان عنها فى باب الصيام .

يقول تبارك وتعالى فى محكم التنزيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (البقرة ١٨٣– ١٨٤)

فرض المولى تبارك وتعالى الصيام على المسلمين أيام رمضان المبارك. يتلاقون فيها على موعد فى كل عام. فى مشارق الأرض ومغاربها.. تثوب ضمائرهم فيها إلى الخالد الباقى، ويتسامون إلى آفاق الروح ينشغلون بها عن مطالب الجسد وشهواته.

بيد أن الصيام فريضة قد تشق أو تتأبى على البعض لعلة مؤقتة، أو دائمة، أو مؤقتة لا يعلم لميقاتها ميعاد. والله تبارك وتعالى رحيم بعباده رءوف بهم، وهو جلت حكمته لا يريد إعناتهم ولا تكليفهم بما لا يطيقون.. وكفاهم ما تستشعره قلوبهم المؤمنة الخاشعة من أسى لما فوتته عليهم عللهم أو ظروفهم من مشاركة للجماعة فى هذا التعبد المتسامى إلى الخالق البارئ.. ومن ثم فقد تداركهم عز وجل بتيسيره ورحمته، ومد لهم من توسعته ما يعوضهم ويكفكف عنهم، ونهج سبحانه وتعالى فيما تداركهم به من رحمته نهجا رشيدا يفرق بين أصحاب العلل أو الظروف المؤقتة وبين أصحاب العلل أو الظروف الدائمة، أو التى يغلب عليها الدوام ولا يعرف لانحسارها ميقات.. فأباح سبحانه الإفطار للطائفة الأولى –كالمريض الذى يرجى برؤه والحامل والمرضع والمسافر – على أن يقضوا فيما بعد ما عليهم بصيام عدد الأيام التى تقابل تلك التى أفطروها، ورخص – جلوعلا – للطائفة الثانية فى الإفطار أيضًا، ولكنه أعفاهم برحمته من القضاء ما دامت العلل أو الظروف القائمة بهم دائمة أو يغلب عليها الدوام والاستمرار، وفرض عليهم الفدية لقاء هذه الرخصة.. يطعمون عن كل يوم من أيام إفطارهم مسكينا لا يجد قوت يومه.. ويدخل فى هذه الطائفة المرخص لها بالفدية والإفطار من ألم به مرض عضال لا يرجى شفاؤه، أو أدركته شيخوخة وعجز أوهنا قوته واحتماله، أو صاحب العمل الشاق مشقة يتأبى الصيام عليه معها ولا يجد له متسعا من الرزق فى عمل آخر يقيم أوده ومن يعول.

بيـد أنـه يبقى بعد هذه اللفتة الربانية التى شمل بها الرحمن عباده، أنه بعد ما يسره لهم وهونـه عليهم، قد تـرك الأمر لصادق نياتهم التى يحيط سـبحانه بمكنونها علما، ويدرى بكل خبيئة فيها، ثم أخبرهم بعد ذلك أن الصيام - لمن يستطيعه - خير وأجزى.. ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ صدق الله العظيم (البقرة١٨٤).

والفديـة على ما رأينا، هى نوع مـن التعويض أو المقابل لقاء رخصة رخص بها الحق تبارك وتعالى تيسـيرا على عباده ورفعا للحرج عنهم - وسـيلتها عبادة خالصة هى الصدقة ببر الفقراء والمساكين، أو الصيام فى موضع آخر» عند ارتكاب أحد محظورات الحج التى لا تفسده.. وهى بهـذا المعنى تختلف عن الكفارة وإن اتفقتا فى الوسـيلة فى بعض الأحيان كالصوم أو الإطعام.. ذلك أن الكفارة يختلط فيها معنى العقوبة بالعبادة، فهى فى حقيقتها عقوبة مقررة على معصية بقصـد التكفير عـن إتيانها ومقارفتها، فتجب على المسـلم على اختلاف فـى نوعها ومقدارها باختلاف المعصية، وذلك إذا ما اقترف إحدى الجرائم التى توجبها كإفسـاد الصوم أو الحنث فى اليمين أو الظهار أو القتل الخطأ - ولأن وسـيلة تنفيذ هذه العقوبة هى - كالفدية- عبادة، كالصـوم أو العتـق أو الإطعام، فإنها تعد عقوبة تعبدية.. تدور بين العقوبة والعبادة .. أما الفدية فـلا موضع فيها للعقوبة من أى وجـه كان، وجماع ما تقدم أنه وإن كانت الفدية نوعا من أنواع العبادات، إلاّ أن الفدية مقابل استعمال رخصة، بينما الكفارة عقوبة على معصية.

والمتتبع لمواضع الفدية فى القرآن الكريم يجدها عديدة لا تقتصر على التيسير على المؤمنين، وإنمـا هى قـد وردت على المعنى المقابل أو العكسـى للكافرين والمشـركين، فهذه الرحمة التى حبا بها الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين الخاشـعين المخبتين، قد حرم منها المعاندين المشـركين الكافرين، ويؤكد سبحانه أنه لا أمل لهم فى غفران ولا فدية .

يقـول تبـارك وتعـالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ (آل عمران ٩١).. ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ صدق الله العظيم.. (الحديد ١٥).

النقاب والحياة!

(١)

أكد أهل الفقه والإفتاء، أن «النقاب» ليس فريضة وليس واجبا فى الإسلام، وأن نسبته للإسلام لا أصل لها، ومع ذلك لا زلنا نرى النقاب فى الشوارع ووسائل المواصلات، وفى المساجد ودور التعليم، وفى الأجهزة والمرافق. فلماذا النقاب؟ وما سند ارتدائه إذا كان أهل العلم قد نفوا استناده للإسلام؟! نعم نفى فرضه لا يعنى فرض عدم ارتدائه. هو إذن حرية شخصية، لا فرض لها ولا منع، ولكن ماذا إذا كان ارتداء النقاب، وهو يخفى الهوية، فى أماكن لابد فيها من الإفصاح عن الهوية؟ وما الذى يحكم دخول الأماكن المخصصة لحواء فى الجامعات والمرافق ودورات المياه وحمامات السباحة التى تخصص أياما أو مواقيت للسيدات، وماذا عند استخدام جوازات سفر أو تراخيص مرور أو قيادة السيارات، أو ارتياد الأماكن التى لا يسمح بارتيادها إلا لأعضائها، أو عند أداء الامتحانات الدراسية أو الوظيفية، وغير ذلك من الصور العديدة التى يجب فيها الإفصاح عن الهوية والتأكد من أن حامل بطاقتها هو ذاته صاحبها؟ من وقت لآخر يضبط رجل يتخفى بالنقاب، وقد يكون التخفى هروبا من مطاردة أو ملاحقة أو جريمة، وقد يكون ادعاء أنوثة لارتياد أماكن الإناث واستراق النظر إلى بنات حواء فى الأماكن المخصصة لهن، المغلقة عليهن التى يتخففن فيها مما يتقيدن به فى الأماكن العامة أو أمام الرجال؟! هل يمكن فى مثل هذه الحالات اعتبار النقاب حرية شخصية بينما تكمن فى استعماله محاذير ومخاطر قد تصل إلى ارتكاب الجرائم أو الاعتداء على الحرمات؟!.. ماذا عن ارتداء النقاب إذا ما خرج ارتداؤه عن الحيز الشخصى كالبيوت وملحقاتها، والأماكن الشخصية، إلى المنتديات العامة التى تحكمها نظم وحقوق للغير فى الاستيثاق من «الهوية» : الشخصية ونوعها أو جنسها؟! ماذا يحدث لو أبيح النقاب فى المستشفيات، وما هو الضمان ألاّ يتنقب رجل فى شخص ممرضة يروح ويجىء ويسترق النظر إلى المريضات فى غرف الكشف والغيار

والعمليات أو عبر النوافذ الزجاجية المطلة عليها؟! هل يملك «نقاب» ـ ولم أقل منتقبة فمن يدرى؟! ـ الدخول إلى دورات مياه السـيدات أو غيرها من الأماكن الخاصة بحواء حيث تتخفـف فيها مما توجبه المبـادئ الدينية أو التقاليد والعـادات الاجتماعية، وإذا تراجع النظام العام أمام حقه بل واجبه فى الاسـتيثاق من جنس ونوع وهوية الشـخصية المنتقبة حين يكون ذلك ضروريا أو لازما، فكيف يطمئن الناس إلى أمانهم وحرماتهم إزاء المنتقبين، نســاءً فعلا أو رجالا متخفين؟! ظنى أن نظام وواقع الحياة فى زماننا، لا يسـمح بالتخفى وراء نقاب. تستطيع من تشاء أو يشاء شد النقاب بحيزه الخاص، أو فى البوادى والفيافى والقفار، فإذا جاوزه إلى مجالات الحياة والاحتكاك بعموم الناس صار محكوما بقواعد عامة لا يمكن لأى مجتمع له نظام أن يغضى عنها أو يترخص فيها!

ooo

النقاب والدين!

(٢)

يكاد يجمع علماء الدين على أن الحجاب غير النقاب الذى لا مبرر له من الدين، ولا حجة مقبولة له فى واقع الحياة المعاصرة التى تستوجب وضوح الهوية فى أماكن يستحيل فيها قبول عدم الإفصاح عنها!

الغريب اللافت أن العولمة وهى ترفع شعار الحرية، وحق كل إنسان فى أن يختار ما يريده، تعود فتناقض نفسها، فتهتاج وتشرع الحراب ضد ارتداء الحجاب، وتقيم المتاريس ضد من يرتدينه. أفهم أن تقام الحواجز والمتاريس أمام النقاب، لأنه يحجب الهوية، والإفصاح عنها فى بعض المجالات ضرورى. أما الحجاب فلا يحجب ولا يضير فى التعرف على هوية المحجبة!.

لذلك لم أفهم هوجة العلمانية والعلمانيين ضد الحجاب فى تركيا، ووصولها إلى حد رفع دعوى باتهام حزب العدالة والتنمية الحاكم بانتهاك الدستور التركى، والمطالبة بإبعاد زعماء الحزب بمن فيهم الرئيس التركى ورئيس الوزراء عن العمل السياسى!

ظنى أن القضية كان يمكن أن تكون مفهومة، لو كانت الهوجة مثارة ضد أمر إلزامى بارتداء الحجاب، ولكن الواقع يقول إن بعض زوجات أو بنات أعضاء حزب العدالة ومسئوليه، حاسرات غير محجبات، بل وتقول التغطيات الصحفية أن الحظر هناك فى تركيا، حاصل بالمعكوس.. وأن المحظور هناك هو ارتداء الحجاب، وأن الحظر بدأته تركيا العلمانية عام (١٩٨٠) لحماية السيدات غير المحجبات والعلمانيات. الحماية تتحقق بعدم الفرض أو الإلزام أو الإجبار بارتداء الحجاب، فيعود ارتداؤه إلى ما تراه هذه أو تلك من بنات حواء تبعا لدينها وعقيدتها. أما حظر ارتداء الحجاب، فهو فى أقل القليل مصادرة على الحرية الشخصية، والغريب المدهش أن تأتى من علمانية تعتنق الحرية وتدعو إلى إزالة جميع الحواجز من طريقها!

التشبه بحظر الحجاب فى المدارس الفرنسية أو فى بعض المؤسسات الحكومية الألمانية، قيـاس مـع الفارق، الحظر فى دولـة أوروبية تدين أغلبيتها بالمسـيحية، يمكن أن يكون مفهومـا بتعلة أن الحجـاب ربما خالف النظام العام هناك، والنظام العام فكرة حاضرة فى كافة النظم القانونية، تسـتمد معالمها من الموروث الدينى الاجتماعى والتاريخى والثقافى، ومن العرف الجارى، ليصب هذا كله فيما يسـمى بالنظام العام الذى يختلف بلا مراء فى دولة مسيحية أو تدين أغلبيتها بها، عن دولة إسلامية أو تدين أغلبيتها بالإسلام!

لذلـك فـإن «حظر الحجاب»، بإجبار حواء على خلعه، لا يسـتقيم فـى تركيا التى تدين غالبيتهـا بالإسلام، ولا يستقيم مع فكرة النظام العام المستمد فى تركيا من موروثاتها الدينيـة والثقافيـــة والاجتماعية والتاريخية. المفارقة الأكـبر أن الحزب المروم إبعاده عن العمل السياســى، أتى إلى الحكم بأغلبية شـعبية واضحة. هـذه الأغلبية تعنى أن مجمل الأتراك يؤيد توجهات الحزب! فهل يستطيع أحد أن يحل هذا اللغز، أو يفسر انقضاضات العلمانية فى كل اتجاه ونقيضه تبعا لأهواء وأغراض لا يجرى عليها حساب.

ooo

النقاب من تانى؟!

(٣)

من الخبل والبلاهة أن ينسب النقاب إلى الحرية الشخصية عند ارتدائه فى المجالات التى يتعين فيها لزوما الإفصاح عن الهوية. هو حرية شخصية ولا شك إذا التزم النقاب بالأماكن الخاصة وملحقاتها. قلت النقاب ولم أقل المنتقبة.. فقد يكون المستتر وراء النقاب رجلا يتخفى لسبب أو لمأرب أو لآخر وراء نقاب حاجبا به هويته عن السلطات أو الناس!

هذه الجزئية البالغة الأهمية. هى بيت القصيد فى مسألة النقاب ـ هذه المسألة مثارة الآن بإلحاح فى المستشفيات بمناسبة قرار الزى الموحد للممرضات .. وهو زى لم يغفل الحق فى الحجاب، ولكنه لا يساير النقاب الذى لا أصل ولا مرجعية له فى الإسلام ولا فى أى دين من الأديان !

الزى الموحد المختار بعناية ـ فيما قيل ـ أرضى المحجبات لاحتشامه وعدم مصادرته على الحجاب. الاعتراض والاحتجاج أتى من المنتقبات. لا أدرى علام يمكن أن يكون الاعتراض، وماهى حجة هواة النقاب فى استباحة الكشف أمامهم على حرمات الغير، للسيدات والآنسات، بل وللرجال، بينما تستتر هويته وراء ستار! قد يكون المستتر رجلا متخفيا وراء نقاب ليطلع على ما يجوز الإطلاع عليه من الحرمات، وقد يكون من الجانحين أو ذوى الإجرام، يتخفى عن السلطات، ويستبيح فى تخفيه ما لايباح!

حجة رفض النقاب لا تقتصر على المستشفيات ، وإنما هى حجة حاضرة أيضا فى جميع الأماكن المخصصة للإناث.. فى المرافق، وفى المعاهد والجامعات، وفى بعض وسائل المواصلات، وبعض المنتديات، وأماكن الرياضة.. بل إن التخفى وراء نقاب يصطدم بحق السلطات فى معرفة هوية المار عبر الحدود الدولية أو الأماكن الخاضعة لتنظيم المرور فيها، ويصطدم بحق بل بواجب حاضر فى كثير من المناسبات التى تستلزم التحقق من الهوية..

كتأدية الامتحانات أو الاختبارات وما شابهها. لا يمكن لمجتمع فى هذا الزمان بكل ما فيه من أنشـطة ومجالات أن يسمح لأحد، رجلا أو أنثى، بأن يتخفى فى الأماكن العامـة وراء نقاب!

حق ونظام المجتمع وأمنه وأمانه لا يصطدم فى مسـألة النقاب بالحريات الشـخصية. تستطيع من تشاء أو من يشاء، أن يتخفى وراء نقاب فى بيته وملحقاته الخاصة، أما حينما يخوض المجتمع ويتعامل مع أنشطة الحياة، فإن النظام العام لا يسمح ولا يمكن أن يسمح لأحد بالتخفى وراء ستار!!.

ooo

obeikandl.com

مسألة النقاب :
بين حكم الشرع والقانون، وضوابط الحوار وآدابه !
(٤)

لســت أخفى أننى لســت من المتعاطفين مع النقاب، بل وكتبت أكثر من مرة منوها إلى أنه وقد اســتقر جمهور الفقهاء على أنه عادة وليــس فرضا أو عبادة، فإنه يصطدم بالنظام العام للدولة ومقتضياتها فى زماننا، بل وينطوى ضمنا على مجافاة لكرامة المرأة بتصويرها عورة.. حتى وجهها!. بينما يتفق الجمهور فى تفسير القرآن والسنة، على استثناء الوجه والكفين من الحجاب، ويســوقون لذلك أدلة مســتقيمة سديدة جمع بعضها الكتيب الضافى الذى أخرجه الصديق الجليل الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف بعنوان: «النقاب عادة وليس عبادة».. مضمنا إياه الرأى الشرعى فى النقاب.. له ولفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد ســيد طنطاوى، ولمفتــى الديار المصرية الدكتور على جمعة، ولفضيلة الشيخ محمد الغزالى، والأستاذ الدكتور عبد الحليم أبو شقة – وما أوردوه من أدلة من الكتاب والسنة، وآراء الإمام النووى، وفضيلة الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية الأسبق، وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى فى «أسنى المطالب» من كتب الشافعية، والإمام ابن كثير فى تفســيره، وما رواه البخارى ومســلم فى صحيحيهما.. وغيرهم، ونحيل لمن يريد الاستزادة على ما تضمنه هذا الكتيب الضافى من أدلة شــرعية على أن وجه المرأة ليس عورة، وعلى أن النقاب عادة وليس عبادة أو فريضة!

ليســت الغاية إذن من هذا المقال ـ ولا هو بوســعى – أن أضيف شيئا إلى ما أبداه هؤلاء العلمــاء الأجــلاء.. ولكنى أردت أن أتناول الأمــر من زاوية النظام العــام وما يقتضيه من ناحية، وآداب الحوار والاختلاف من ناحية أخرى!

شىء مؤسف حتى النخاع، هذا التطاول المعيب على مقام ومكانة وشخص فضيلة الإمام الأكبر شــيخ الأزهر.. والأشد أســفا أن هناك من يتربصون عمدا لتلقف أى واقعة لاتخاذها

ذريعة لهذا التهجم الباطل المنافى لكل آداب الحوار والنقد حتى لآحاد الناس، ناهيك بالرئيس الأعلى للمرجعية الدينية فى البلاد؟!

يتذرع المتهجمون – بغير حق – بأن النقاب حرية شخصية. فليكن، ولكن هناك مواطن يجب فيها الإفصاح عن الوجه والهوية.. وهذا الإفصاح يوجبه النظام العام. والنظام العام مفهوم عام يستمد مادته وقوامه من الموروث الفكرى والثقافى والمجتمعى والدينى أيضا. فليس يجوز لنقاب – ولا أقول لمنقبة فقد يكون المتخفى وراء النقاب رجلا – أقول إنه ليس يجوز لنقاب، المرور والدخول إلى مكان مخصص للإناث دون الكشف عن هويته، ولا سبيل للتعرف عليها إلا بالوجه.. يسرى ذلك على أنواع وأعداد لا حصر لها، كدورات المياه العامة، والمدارس، والمدن الجامعية، وحجرات الطالبات، ومنتديات الإناث، بل إن ذلك شرط لجواز المرور بعامة، وفى المطارات، والموانى، وبعض الطرق أو المناطق أو المنشآت أو المصانع، وفى متابعة قيادة السيارات ومراجعة التراخيص الخاصة بسيرها أو بالقيادة، كما أن ذلك أوجب فى مستشفيات الولادة أو الإناث بعامة، وفى أقسام النساء بالمستشفيات عامة كانت أو خاصة.. فما تسمح الأنثى بكشفه أمام أنثى لا تسمح بكشفه أمام رجل.. بينما لا يكاد يمضى شهر إلاَّ وتكشف الأنباء عن ضبط مجرم هارب متخف بالنقاب، أو متسلل إلى مكان لارتكاب جريمة، أو شاب متخف بالنقاب للقاء صديقته، أو الدخول إلى حرملك لا يرتاده إلاَّ الإناث!

ما يسرى على كل هذه الأماكن يسرى بالضرورة على الامتحانات.. الدراسية والوظيفية.. فلا بد لضبط الامتحانات ومنع الغش بإحلال بدلاء لأدائها محل الأصلاء.. لابد من الكشف عن الوجه والهوية، وكم من وقائع غش ضبطت فى حالة تلبس متسترة بالنقاب لالتقاط ما يلقى بأجهزة المحمول من تلقين وإجابات من خارج لجنة الامتحان لإفراغها بهذا الإملاء فى ورقات الإجابة!

ثم إذا كانت علة النقاب الاحتشام أمام الرجال، فما هى علته أو غايته فى فصل دراسى كل طالباته من الإناث، والمحاضرة فيه أنثى، إلاَّ أن يكون انغلاق العقل إلى حد المرض.. ماذا يخيف صبية لتخفى وجهها عن زميلاتها ومدرستها بحصة الدرس؟! وكيف يمكن

لأى نظام أن يحفظ حرمة الإناث فى بيت الطالبات إذا سمح بدخول مستور من وراء نقاب، وقد يكون لرجل أو شاب جانح، أو متحرش صاحب غرض؟!

وإذا كان وضع النقاب حرية شخصية، أفليست الحريات قسائم متقابلة، بمعنى أنها مشروطة بألاّ تتصادم بحريات وحقوق الآخرين.. وعلى ذلك تقوم كل دساتير العالم الشرعية أو الوضعية.. فحق وحرية القول يقابله حق الآخرين فى صيانة شرفهم وعرضهم وكرامتهم واعتبارهم من جموح الكلمة.. وكما لا يوجد حق مطلق فلا توجد حرية مطلقة.. فالحرية المطلقة قد تعصف بحقوق وحريات الآخرين!.. وإلى ذلك التفتت كل دساتير العالم المتحضر!.. فتبنت منظومة متكاملة للحقوق تراعى إقرارها وحمايتها من ناحية، وتراعى محاذير التصادم أو التعارض مع ما يقابلها من ناحية أخرى، بحيث لا يجور حق على الحقوق الأخرى، مما ألزم ويلزم بالالتفات إلى أن كل حق يقابله واجب الالتزام باحترام حقوق الآخرين !.

والدستور المصرى يحمى العديد من الحقوق المتقابلة .. يحمى حق الدفاع بالأصالة وبالوكالة، وحق اللجوء إلى القضاء، ويحمى حرية الرأى والتعبير، وحرية الصحافة والطباعة والنشر والإعلام، ويحمى حرية البحث العلمى والإبداع الفنى والأدبى والثقافى، ويحمى استقلال ودور السلطة القضائية ويحصن أعضاءها من العزل.. إلخ، بيد أن الدستور فى المقابل قرر وشمل بالحماية الحريات التى يمكن أن تمسها ممارسة هذه الحقوق.. فحمى المقبوض عليه ووضع ضوابط معاملته، وقرر عدم جواز تجربة طبية أو علمية على إنسان بغير رضائه الحر، وحمى الحياة الخاصة للمواطنين ومراسلاتهم ومحادثاتهم.. إلخ، وحمى حرمة المساكن، وكفل حرية العقيدة وحرية ممارسة الشعائر الدينية.

التفات الفرد، والتفات المجتمع، إلى هذا التقابل بين الحقوق والحريات، هو علامة نضج وفهم، والإشاحة أو الإعراض عنه أو العجز عن رؤيته آية ضيق نظر وانكفاء وسطحية!.

معنى ذلك أن المجتمع كله بإناثه وذكوره، وبمجموعه وأفراده، صاحب حق أصيل فى تأمينه من سوء استغلال النقاب لانتهاك الحرمات، أو استراق النظر على ما لا يجوز، أو ارتكاب الجرائم، أو التحرش بالإناث، أو ارتكاب المعاصى أو المرور المحرّم أو المجرّم،

أو اجتياز المطارات والموانى والمداخل والمخارج فى غير الأحوال التى يجيزها القانون والنظام العام، أو قيادة المركبات بلا ترخيص، أو الغش واستخدام «البدلاء» لأداء الامتحانات غشا وتزويرا... إلخ!!

هـذه الحقـوق واجبة الرعاية.. علـى المجتمع كله حكاما ومحكومـين.. ولا يمكن أن تتحقق هذه الرعاية في مواضعها الواجبة إلاّ بالتعرف على الهوية وسـبيلها الوجه الذى لم يأمر الإسـلام بإخفائه وحجبه، فإذا كان ذلك، فما هو حق النقاب فى اجتياز كل هذه الخطوط والحدود والموانع دون الكشف عن شخصية وهوية واضع أو واضعة النقاب؟!

يقول الغلاة إنه على الدولة أن توفر إناثا فى كل هذه المواضع التى لا تقع تحت حصر، للتحقق من الشخصية والهوية! فهل بإمكان الدولة المصرية أن توفر هذه الخدمة فى آلاف الأماكن التى يتعين فيها التحقق من الشخصية والهوية؟!!

وهب أن هذا المستحيل قد صار ممكنا، فهل هو معقول؟!. سيما وقد اتفق جمهور أهل العلم والدين على أن النقاب عادة وليس فرضا ولا عبادة؟!

لا أحسـب أنـى أغالى إذا قلت إن إبداء الوجـه لازم وواجب لا محيص عنه فى بعض المواضع الأخرى.. من ذلك أداء الشـهادة.. فمن شـروطها أن تُبْدَى فى مجلسـها ليتمكن السـامع ـ قاضيا كان أو محققا ـ من التفرس فى الشـاهد أو الشـاهدة أثناء أداء الشهادة، لاستكشاف الصدق من الكذب من خلال الثبات أو الاهتزاز، والاطمئنان أو الخوف!

بـل إن الحالة التـى تناولها فضيلة الإمام الأكبر فى معهـد دينى للفتيات، هى أقوى الأمثلة على وجوب ولزوم وضرورة وحكمة إبداء الوجه.. فالعلاقة بين المدرسـة والتلميذة، وكذلك بين التلميذات، قوامها التواصل الإنسانى وتبادل المودة والاحترام والتعبير فى إطاره وحكمته وغايته.. ولا يتأتى للمدرسـة اسـتطلاع مدى فهم التلميذة المتلقية لما يقال إلاّ من خلال أسـاريرها، كما أن تحقيق الانضباط يسـتوجب هذا الكشف، وإلاّ ما أمكن التمييز بـين الجادة واللاّهية، وبين الملتفتة والغافلة، وبين الملتزمة أو السـاخرة والمسـتهزئة؟!. فكيف يمكن للمعلمة أن تنهض على أداء رسـالتها وضبط فصلها الدراسى ومتابعة نجاحها أو إخفاقها فى توصيل مادتها إذا انقطع التواصل الإنسانى بينها وبين تلميذاتها، وحجبن

عنها وجوههن وتخفين وراء نقاب ساتر لا يمكن للمدرسة أن تعرف ما يدور من ورائه من جد والتفات وفهم والتزام، أو لهو وغفلة وسخرية وقلة فهم!!

وماذا إذا أراد الإمام الأكبر، وقد رأيت مفتى الديار المصرية الحالى وغيره من كبار العلماء يحرصون برغم ممانعته على تقبيل يده عرفانا بأستاذيته وبما أعطاهم من علمه حين تتلمذوا عليه ، ماذا لو أراد الإمام الأكبر أن يطمئن التلميذة إلى أنه لا يأمرها بمعصية أو مكروه، فقال لها إنه يفهم فى الدين أكثر ممن أوحوا لها أو أمروها بالنقاب من ذويها؟! وماذا لو باسطها بمحبة وأبوة وحنو الأب بل والجد؟!.. ولماذا نلوى الأشياء، ونفترض الافتراضات، فنفترض أن اللهجة كانت غاضبة ناهرة أو متجبرة أو متغطرسة والعياذ بالله، ولماذا بتنا نستيسر التطاول والإهانة والتجريح حتى لم يعد بيننا مقام يُصان؟!!!

بقى أن أختم هذه الكلمات، ببعض ما تضمنه حكم المحكمة الدستورية العليا الصادر بجلسة ١٩٩٦/٥/١٨ برئاسة الأستاذ المستشار الجليل عوض المُر رئيس المحكمة، فى الدعوى رقم ٨ لسنة ١٧ قضائية دستورية المحالة إليها من محكمة القضاء الإدارى للفصل فى الطعن بعدم دستورية قرار وزير التعليم رقم ١٩٩٤/١١٣ المفسر بالقرار رقم ١٩٩٤/٢٠٨ فيما تضمناه من تحديد هيئة الزى المدرسى بما لا يخل بحرية العقيدة التى كفلها الدستور بالمادة ٢٤ ، وما نصت عليه المادة الثانية من أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع. وإذ قضت المحكمة الدستورية العليا برفض هذا الدفع ، فإننى رأيت أن أجتزئ للقارئ الكريم بعض ما أوردته فى حكمها من أسباب هذا القضاء، فقالت بعد مقدمة شافية فى الشريعة ومبناها ووجوب الالتزام فى التشريع بما لا يناقض الأحكام الشرعية القطعية فى ثبوتها ودلالتها، والتى لا يتغير مفهومها تبعا لتغير الزمان والمكان، مع وجوب إعمال حكم العقل والاجتهاد فيما لا نص فيه.. تطويرا لقواعد عملية تكون فى مضمونها أرفق بالعباد وأحفل بشئونهم وأكمل لمصالحهم الحقيقية التى تشرع الأحكام لتحقيقها وبما يلائمها، أخذا بذات الشريعة الإسلامية التى جوهرها الحق والعدل، ودون أن يتقيد الاجتهاد – فيما لا نص فيه – بغير ضوابطها الكلّية، وبما لا يعطل مقاصدها التى ينافيها أن يتقيد ولىّ الأمر فى شأن الأحكام الفرعية والعملية المستجيبة بطبيعتها للتطور بآراء بذاتها أو يقعد باجتهاده

عند لحظة معينة تكون المصالح المعتبرة شرعا قد جاوزتها.. وأوردت المحكمة الآيات التى نزلت فى الحجاب، وغاية ومقاصد الشريعة من ضبط ثياب المرأة ليكون سلوكها رفيعا محتشما لا ابتذال فيه ولا اختيال، وأن الغاية ومن نصوص القرآن الحكيم هى التزامها حد الاعتدال، بما يقتضى ألاّ تصفها ثيابها وألاّ تشى بما تحتها من ملامح أنوثتها، وألاّ يبدو من زينتها إلاّ مالا يعد عورة، وهما وجهها وكفّاها، وأنه بمقتضى هذا لا يكون تنقبها مطلوبا شرعا طلبا جازما ثم أضافت المحكمة فى أسباب حكمها : «وحيث إنه متى كان ما تقدم، وكان تحريم أمر أو شأن من الشئون، لا يتعلق بما هو محتمل، بل بما يكون معلوما بنص قطعى، وإلاّ ظل محمولا على أصل الحل، وكان لا دليل من النصوص القرآنية، ولا من سنتنا الحميدة على أن لباس المرأة يتعين شرعا أن يكون احتجابا كاملا، متخذا نقابا محيطا بها منسدلا عليها لا يُظْهِر منها إلاّ عينيها ومحجريهما، فإن إلزامها إخفاء وجهها وكفيها، وقدميها عند البعض، لا يكون تأويلا مقبولا، ولا معلوما من الدين بالضرورة، ذلك أن معنى العورة المتفق عليها لا يتصل بهذه الأجزاء من بدنها، بل إن كشفها لوجهها أعون على اتصالها بأخلاط من الناس يعرفونها، ويفرضون نوعا من الرقابة على سلوكها، وهو كذلك أكفل لحيائها وغضها من بصرها وأصْون لنفسيتها، وأدعى لرفع الحرج عنها».

«وما ارتآه البعض من أن كل شىء من المرأة عورة حتى ظفرها، مردود بأن مالكا وأبا حنيفة وأحمد بن حنبل فى رواية عنه، والمشهور عند الشافعية، لا يرون ذلك، والرسول عليه السلام يصرح بأن بلوغ المرأة المحيض، يقتضيها أن يكون ثوبها ساترا لبدنها عدا وجهها وكفيها. «وحيث إن استقراء الأحكام التى جرى بها القرار المطعون فيه، يدل على أن لكل طالبة أن تتخذ خمارا تختاره برغبتها، ولا يكون ساترا لوجهها، على أن يشهد ولى أمرها بأن اتخاذها الخمار غطاء لرأسها، ليس ناجما عن تدخل آخرين فى شئونها بل وليد إرادتها الحرة ، وهى شهادة يمكن أن يقدمها بعد انتظامها فى دراستها».

«كذلك دل هذا القرار، على أن زيها ينبغى أن يكون مناسبا مظهرا وطرازا لا بمقاييسها الشخصية ـ ولكن بما يرعى احتشامها، ويكون موافقا لتقاليد وأخلاق مجتمعها. ولا يجوز أن يكون أسلوبها – فى مجال ارتدائها لزيها – دالا على فحشها».

«وحيث إنه متى كان ذلك، وكان القرار المطعون فيه لا ينال من حرية العقيدة، ولا يقوض أسسها أو يعطل شعائر ممارستها ولا يناهض جوهر الدين فى الأصول الكلية التى يقوم عليها، بل يعتبر اجتهادا مقبولا شرعا لا يتوخى غير تنظيم رداء للفتاة - فى دائرة المعاهد التعليمية عبر المراحل الدراسية التى حددها - بما لا ينتقص من حيائها أو يمس عفافها، أو يشى بعوراتها، فإن هذا القرار يدخل فى دائرة تنظيم المباح - ولا يعد افتئاتا على حرية العقيدة - وعلى ذلك فإن القرار المطعون فيه يكون غير مناقض لنص المادة الثانية من الدستور».

ooo

هذا هو حكم المحكمة الدستورية العليا، والملزم للحكومة وللسلطة التشريعية على السواء، فهى الرقيبة على كل القوانين، فإذا كان هذا هو قضاؤها الملزم، وكان جمهور الفقهاء على أن النقاب عادة وليس فريضة ولا عبادة، وكان النظام العام يوجب فى كثير من الأحيان الكشف عن الشخصية والهوية، وكان ما اتخذه فضيلة الإمام الأكبر ووزيرا التربية والتعليم والتعليم العالى مقصورا على مجاله، ولا يصادر أو يمنع ارتداء النقاب فى غير هذه الأطر، أفلا يدعونا هذا للتوقف عن هذه القذائف المتطايرة، وتوجيه اهتمامنا إلى كثير من قضايانا الكبرى التى يتوجب أن ننظر إليها بعين الرعاية والاعتبار؟!

ooo

لغات البشر عبر العصور

لم يكف البشر قط عن أن يقولوا ويعيدوا القول، على أنفسهم وعلى غيرهم، ممن هم من جنسهم أنه ليس للآدمي لغات إلا لغات البشر، ولا معان ومفاهيم إلا معانيها ومفاهيمها.

وهم يقولون إن الكون العظيم الذى هم فيه، توجد عناصره وأجزاؤه وأفراده وتفنى، وأن له ولهذا كله خلقا أزليا أبديا.. خالق الكون كله وخلقنا فيه كما خلق كل من سبقونا من الآدميين، من لحظة الحمل فالميلاد إلى لحظة الوفاة.. لأنه هو سبحانه واهب الحياة وحافظها فى حدود الأجل الذى يبقيها خلاله.

وهذه الألفاظ حسب لغتها وتراكيبها ومعانيها ومقاصدها وعرفها وطريقة الاعتماد عليها.. هذه الألفاظ كلها بشرية صرف.. لا ندرى ولم يدر من سبقونا ما يقابلها لدى خالقنا عز وجل أو نتيجتها لديه، وإن كنا نؤمن ديانة بأن لها أثرا حتميا..إيجابا وسلبا.

والأديان على حق فى الإيمان بأن علاقتنا بالخالق جل شأنه لا تنفصل بإيجادنا.. فمن المحال أن تقع حياتنا الدنيا تماما تحت سيطرة إرادتنا واختيارنا.. وهو ما لا ينازع فيه أصحاب علوم الطب والحياة وعلوم الأحياء والطبيعة الحية.. فتسعة أعشار أجهزة الحياة فينا غير خاضعة للوعى والمشيئة. والعقل والوعى والإرادة تساعدنا على الحياة، لكنها بذاتها لا تكفل الاستمرار إلاَّ بأجهزتنا غير الإرادية المركبة فى كل منا، والتى زودنا بها الخالق عز وجل، وضمن بتدبيره لها، وحسب هذا التدبير، وبأدائها وصلاحيتها ضِمنَ توفير السبل والأسباب لبناء الحياة ونموها العمر المتاح لها فى حياتنا الدنيا!

اتصال الأحياء المخلوقين بالخالق عز وجل، اتصال ممدود ومستمر.. يتم بطريقين.. طريق الأجهزة اللا إرادية وتوابعها فينا.. من هواء ودماء وصفائح وإفرازات لغدد وأمعاء.. وطريق النشاط الحيوى العام الذى به يكون الحى حيا وبدونه يصير ميتا يفسد ويتعفن ثم يصير رميما ثم ترابا مع مرور الأيام!

أما الاتصال غير المباشر فمن جانبنا نحن فقط.. هو الاتصال بالوعى والفهم البشريين.. والاتصال بالوعى أسبق – فى الزمن – من الاتصال بالفهم.. وأقل منه وضوحا وأكثر

اختلاطا بالرهبة والخوف والأوهام وسطوة الأساطير والمعتقدات والشعائر والطقوس. لأنه وعي يداخله ويمتزج به اهتمام عملي بتوفير الضرورات المادية للحياة من أمن وطعام وشراب ومأوى.. هذه الضرورات التي لا غنى عنها لأي آدمي ليعيش.

أما اتصال فهم الآدمي بخالقه عز وجل، فقد جاء متأخرا بعد دهور وأحقاب، وبعد أن اطمأن خلال الأجيال والعصور على توافر تلك الضرورات، واعتاد توافرها، وبفهم أشد وضوحا وفي بعض الأحيان أكثر عمقا بل وشفافية، بلا نفعيات في حسابه واستدلاله، فيتجلى له استحالة أن يخلق العدم من خوائه التام وجودا لم يكن من قبل موجودا.. يبدأ فينا بذرة ثم يصير جنينا، ويولد صغيرا جاهلا جهلا مطبقا ثم يخطو إلى الوعي ليخطو به الوعي إلى الفهم. ولكن كيف؟!

لماذا سجدت الملائكة؟!

ما عندنا نحن الآدميين من المعرفة مما يمكن أن نسنده لأنفسنا هو حصاد الارتقاء من مرحلة الوعي الساذجة إلى مرحلة أو مراحل الفهم.. وهذه لا آخر لها ولا نهاية.. لأن حياة الآدمي منذ زمن، تخالطها تطورات فهمه لحياته ومحيطه والكون، وهي في طريقها إلى الامتزاج والملازمة لهذا التطور الذي لا يمكن أن ينتهي.

وهو فهم – مهما تعاظم وتعمق – لايُعقل أن يستوعب وعي ما يسميه الآدميون بالمطلق والأزلي والأبدي وغير المحدود في أي اتجاه. لأنه خلف كل اتجاه وداخل أي اتجاه دون أن يتجدد!

ولا جدوى في هذا الصدد للإحالة على كلمات من مثل : خلق وصنع وأنشأ وابتدع، ولا إلى نتائجها من آلات وأدوات ومعدات ووسائل وطرق ومنتجات.. من محاصيل وزراعات وأزهار وأشجار، أو من أفكار وآراء وأحكام ومذاهب وعقائد فاقدة الوعي بهذا الوجود، وعديمة الفهم.. لأنها لا وعي لها ولا إحساس بالذات! ومصدقات ومعارف وعلوم وفنون وآداب!.. فهذه كلها نواتج بشرية في ذاتها، جمادات أو في حكم الجمادات.

فنحن مهما تطاولنا، مخلوقات أنعم عليها الخالق – جل شأنه – بالوعي والفهم، دائمو النمو والتطور بلا نهاية، ما دام النوع الإنساني مصرا على احترام وعيه وفهمه

والانتفاع بهما. نحن مخلوقات وسط قد يكون لنا أمثال فى هذه الوسطية فى الكون العظيم - يمكننا بهذا أن نعى ونفهم على مقدار قابل للزيادة الهائلة وللنقص والتقلص الهائلين - يمكننا أن نعى ونفهم وجود الخالق عز وجل ووجود الكون العظيم الذى خلقه سبحانه وتعالى ونحن ضمنه.

ولكننا يستحيل علينا أن نعى أو نفهم الخالق جل شأنه.. حتى كما نعى ونفهم أنفسنا أو غيرنا من الآدميين أو غيرنا من الأحياء.. أو حتى كما نعى ونفهم الكون العظيم وما فيه. وهذه الاستحالة بديهية لدى المتأمل، لكنها تبدو غريبة لدى الإنسان العادى.. برغم أنها لازمة من لوازم الخلق طبقا للناضج من عقول الآدميين. إذ لا يعقل خلافها ويستحيل أن يكون الآدميون المخلوقون خالقين أبديين إلى جوار خالقهم تبارك وتعالى.

وإشارات القرآن المجيد إلى آدم تشير فى عمقها إلى هذا المقصود.. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (البقرة: ٣١) إشارة إلى آدم التام الذى زوده المولى عز وجل بالوعى والمعرفة والفهم، والذى زود من روح خالقه سبحانه، ما استحق به أن تسجد له الملائكة، وما استحق به أن يعيش هو وزوجه فى رضا ورغدٍ تامين.

لكن آدم منح مع تمام المعرفة والفهم حرية المشيئة والاختيار لما يستطيب، فهيأت له نفسه - أو خيلت إليه فى لحظةٍ نسى فيها خالقه - أن يطلب لنفسه أن يكون خالدا ذا ملك لا يبلى، فسقط بذلك الطلب وزن كل ما كان لديه من تمام الوعى والمعرفة والفهم، فأخرج من حيث كان، لتضيق عليه الأرض بما رحبت، وليمضى حياته فى هداية نفسه وأهله ومن حوله فى محيطه ونسله حتى لا يقع منهم مثل ما وقع فيه حين أعطى ظهره للوعى والفهم فخسر ما كان فيه من الإكرام والإنعام!

آدم وأولاده!

كان نجــاح آدم فى أولاده محدودا، وقد نبه القرآن المجيد إلى أن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (آل عمران ٣٣) .. وذلك كأنبياء هادين مهتدين أولهم آدم بعد تلك المحنة التى مَرّ بها .

ووجود الأنبياء – كل فى زمنه ومحيطه كهادين واعين عارفين فاهمين – قد اســتلزمه وجود الكثرة الكافرة من البشر، الجاهلة الغافلة اللاهية المنصرفة فى بدائيتها وتأخرها فى عاداتها وأخلاقها ومفاهيمها وغاياتها وأغراضها .

ومع تطور المجتمعات فى القرنين الأخيرين، والتفاتها واحتياجها اقتصاديا وسياســيا إلى نشــر التعليم فى جميع الطبقات، ومع ما واكب ذلك من اتســاع نطاق الإعلام والثقافة بين الجماهير، كثر دعاة الهداية والتبشــير، وكثرت مراكزهم ووسائلهم وأساليبهم، وقلت اســتجابة الجمهــور إلى الدعــاة الجدد، ولم يعــد ظهور بعض الزاعمــين يجتذب الأنظار والأسمــاع والأنصار إلاّ بقدر محدود جدا.. خاصة وقد اتســعت وتعــددت ألوان الدعوات لاجتذاب الجماهير دينية ولا دينية، وسياســية وغير سياسية، ووطنية وثورية، ومحافظة وراديكاليــة، وصوفية ويوجية وكريشــنامورية وثيوصوفية.. وظلــت عامة الناس فى البلاد المتطــورة وغــير المتطورة، منتمية – برغم ذلــك – إلى أنبيائها ودياناتهــا انتماء خاليا فى الأغلب الأعم من الحماس والعمق!

هــذا، وأكثر أفكار الآدمى خواطر داخلية بــلا واقع فعلى يحركها ويثيرها.. وهى فيما يبدو تستعجله إلى الحركة والتحرك.. وهو إذا اعتاد عليها دون أن يتحرك، فَقَدَ – أو كاد– معظم ميله الغريزى إلى الحركة والفعل، وأدمن ذلك النوع من التفكير العقيم، وصار أســير الخيالات والخواطر الفارغة لا يتركها ولا تتركه!

ويبدو أن هذا الفقدان المتواتر السائد يرجع إليه معظم ما لدينا من مخالفة أفعالنا لأقوالنا، وكثرة وســهولة وعودنا وعزومنا وعهودنا وقلة ما ننفذه ونلتزم به منها، وتقلص التمســك

بالإخلاص والأمانة والوفاء، وتعذر الصبر الطويل على احترام كلمتنا والتزام حدود عقيدتنا في الإصرار على الامتثال الفعلى لمبادئنا المعلنة، وهو المقصود الحقيقى من الاستقامة.

كما يبدو أن هذا الفقدان سبب من الأسباب الرئيسية لما نتصف به مما بلغناه من أنواع وصور القسوة وعدم المبالاة، وقلة الشفقة والرحمة حتى لمن يستحقونها من أهلنا أو جيراننا ومعارفنا.. ثم يرجع أيضا لهذا الفقدان، بعض أسباب ولع الآدمى بترديد العموميات أو التجريد والحكم والقواعد، لأنها خالية بالنسبة له من الإلزام فى التطبيق الفعلى.. وهذا يغرى الآدمى بحفظ أمثال تلك المقولات العامة، وقد يدفعه إلى تقصيها وينتهى به إلى التعالم دادعاء سعة المعرفة والتبحر فى العلم.. وإلى اعتباره عند نفسه وفى بيئته متعلما أو عالما أو عارفا دون أن يتحقق لديه وفى أعماقه رسوخ الأمانة والإخلاص والتراحم، ومن هنا كانت تنفصل الأخلاق والتدين عن المعارف والعلوم بانفصال القصد الفعلى فى كل ما لدى البشر. وذلك قبل أن تتداخل هذه فى تلك. نتيجة الاحتراف والارتزاق!

ooo

obeikandl.com

صيام رمضان، فريضة وغاية

ترى، ما سر هذا الشهر الكريم؟! ما هذا العبير الخاص، والمذاق المتميز والأنسام الفياضة، والأريج الذى يشيع فى الأرواح ويملأ النفوس؟!

ألأنه شهر القرآن؟

ألأنه شهر الصيام؟

ألأن فيه ليلة القدر.. خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها؟

ooo

ليس من شك أن رمضان يمتاز بين الشهور بهذه المزايا ولكن القرآن كما تنزل - بداية- فى رمضان، نزل فى غيره من الشهور..!!.

والمسلم كما يصوم صوم الفريضة فى رمضان، يصوم صوم النوافل والكفارات وصوم التطوع فى غير رمضان..

وصلاة المسلم وتعبده وتهجده ونسكه وإخباته، فرائض ونوافل موصولة.. ليست موقوفة على ليلة من الليالى، ولا على شهر من الشهور..!!

لماذا إذن كان لرمضان هذا السحر الخاص؟! ولماذا كانت أنسامه ونفحاته يحسها الصائم ويحسها أيضا من حرم نعمة الصيام. أو قام به عذر للإفطار.. بل ولا يخطئ الإحساس بها من يدينون بديانة غير الإسلام؟!

ثم!!

لماذا إذن كان الصيام فريضة.. ولماذا كانت الفريضة شهرا؟! وفى رمضان بالذات؟

إنها أسئلة تدور بدورها بذهن المسلم ويثيرها غير أبناء الإسلام؟!..

ولماذا يكون مجمعا فى فترة محدودة ولا يترك لاجتهاد أو ظروف المكلف بجمع أيامه على مدار العام؟!

تكتسب هذه الأسئلة أهميتها من واقع ملموس، هو أن الكثيرين يعرفون الدين بعبادته قبل أن يعرفوه بعقائده.. بل وربما اهتدوا إلى العقائد بالعبادات نفسها، ليس فقط لأن العبادة فرع من فروع العقيدة، بل ولأنها تدل في النهاية عليها وترشد إليها..

وقد يكون من السهل – اختصارا للطريق – أن نجيب بأن العبادات هى فى الغالب شعائر «توقيفية» تؤخذ كما هى بأوضاعها وهيئاتها وأشكالها.. وأنه من ثم لا ينبغى أن يقوم عليها اعتراض أو يدور حولها خلاف. فليس يمنع المعترض على أن تكون الصلاة خمسا، من أن يعترض على أن تكون ثلاثا أو سبعا.. وليس يمنع المجادل فى الصيام شهرا، من أن يجادل فى الصيام أسبوعا أو ستة أسابيع.. وهكذا.. ومادام المعترض لا يملك حجة تبرر اعتراضه وتزكى اقتراحه أو تمنعه من معاودة الاعتراض على ما دعا إليه، فإن التسليم بالأسباب «التوقيفية» يكون أقرب إلى العقل من المجادلة حولها أو اللجاج فيها.. وأنه لذلك قل الخلاف بين الأديان جميعا فى شعائر العبادات التى تؤخذ كما هى بأوضاعها وهيئاتها وأشكالها..

إلا أن ذلك لا ينفى أن العبادات لها غايات، وأنها فى غاياتها وأهدافها قد تخضع لمعايير المفاضلة فيما بينها..

فالصلاة.. مثلا، أم العبادات وأولى القرابات.. من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين.

ومع فضل الصلاة بين العبادات، فضلت صلاة الجماعة على صلاة الفرد..

ولا شك أن للفضلين، فضل الصلاة ككل، وفضل صلاة الجماعة، أسبابا.. عنها تحدث القرآن والسنة.. وفيها وفى بيانها اجتهد الفقهاء والعلماء..

كذلك الصيام.. وكل العبادات..

فمن المعلوم أن الفريضة الدينية فى مجملها «أدب» يتغيا صلاح الفرد أو صلاح الجماعة، وإذا كان هذا هو شأن العبادات الدينية عموما فإن العبادات الإسلامية تتميز بجمعها بين الغايتين.. فهى تجعل من صلاح الفرد وسيلة لصلاح المجموع ثم هى لا تغفل حساب المجموع فى أغراضها المباشرة وفى أوضاعها وهيئاتها وأشكالها..

فالصلاة عبادة فردية ولكنها أكرم بالجماعة فى مواقيتها الخمسة بالمساجد.. ولا تغفل أداء المجموع كأصل فى بعض مناسباتها كصلاة الجمعة والعيدين.. ثم هى فى أدائها «الفردى» آصرة معنوية تربط بين جميع المصلين فى شتى بقاع الأرض.. من مواقعهم يؤدون ركعات واحدة فى وقت واحد.. ويدعون بدعاء واحد، ويستقبلون قبلة واحدة..

كذلك الزكاة.. هى وإن كانت فى تكليفها فريضة فردية إلاَّ أنها فى خدمة الجماعة ومصالحها والحج عبادة جماعية، أو هى مؤتمر عالمى يأتلف فيه المسلمون من كل عام، ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله..

ooo

والصيام.. فريضة تعبدية يؤديها الفرد.. فيها رياضة بدنية ونفسية وروحية.. ولها من غير شك أهدافها المرعية فى تأديب الفرد وصلاحه.. فهى تعبير متعدد الجوانب عن الخضوع لربوبية الخالق البارئ والامتثال لأوامره.. وهى صلة روحية وجسر بين العبد وربه.. وهى رياضة للنفس على قوة الاحتمال وكبح الشهوات والرغبات.. وهى سياحة روحية تسكن خلالها أو تتوارى مطالب الحس والبدن وتنطلق سبحات الروح والوجدان.. وهى صلاح للجسد والأعضاء برعاية دورية تخفف عنه سرف وإفراط العام.. كل هذه وغيرها انعكاسات مباشرة للصيام على الفرد الصائم..

بيد أننا لا نلحظ فى الصوم هذا الجانب الفردى وكفى.. وإنما هو فريضة ملحوظة الرعاية للمجموع.. أو هى ذات مظهر اجتماعى واضح فى أهدافها، وفى أدائها.. فمن انعكاسات رياضة الصيام ومجاهداته على الفرد، إثراء إحساسه بما يكابده الفقراء والكادحون وتقوية آصرته بالجماعة..

ولكن أجلى المظاهر والانعكاسات الاجتماعية للصيام، هو أداؤه فى توقيت واحد من شهر واحد.. تبدو فيه الجماعة الإسلامية، على اتساع الأرض، أسرة واحدة من مئات الملايين.. تؤدى شعائر دينية واحدة، تتصل بأسس حياة الإنسان نفسه فى مطالبه الحياتية اليومية.. فى أكله وشرابه ومطالب جسده.. يصوم الجميع فى وقت واحد، وساعات واحدة، عن طعامهم وشرابهم.. ويأتلفون فى رحلة تعبدية لا رفث فيها ولا فسوق..

ولا صخب ولا تشاحن ولا قتال..وإنما هم جميعا منصرفون إلى تحنثهم.. يعبدون الله مخلصين له الدين.. فإذا أفطروا أفطروا فى ميقات واحد.. وعلى سنة واحدة.. أى مظهر لوحدة الجماعة، أجمل وأعظم وأعمق من هذا المظهر..!!

وأى فريضة تعبدية تروض الأفراد، وتأتلف الجموع، خيرا من هذه الفريضة فى هذا الشهر الكريم؟!!

إنه شهر تجتمع فيه، للفرد والجماعة، كل أركان الفرائض والعبادات فى شحنة مكثفة مركزة من الدعاء والصلاة.. من التشهد والصيام.. من استقبال البيت الحرام فى كل دعاء وصلاة بقلوب الداعين المصلين.. كل ذلك فى إطار يحس فيه الفرد أكثر ما يحس بآصرته بالمجموع الذى يصوم وإياهم فى وقت واحد، ويفطر معهم فى ميقات واحد..

تتلاقى أدعيتهم وصلواتهم فى معارج السماء صاعدة إلى رب العالمين، فى ترتيلات وضراعات وابتهالات كأنها معزوفة واحدة يطلقها عباد الرحمن على نسق واحد تتجاوب أصداؤها فى عنان السماء.

مرة ثانية..

أى تعبير عن الجماعة أعظم وأعمق من هذا التعبير؟!!

وأى شحنة روحية تعبدية أصفى وأطهر وأعرض من هذه الشحنة؟!!

ومتى؟!!

فى شهر هو على الله كريم.. فيه نزل القرآن وفيه كانت بينات من الهدى والفرقان..

ooo

ربما وجدنا هنا جواب سر هذا الشهر الكريم..

فهو شهر القرآن..

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (البقرة ١٨٥).

وهو شهر الصيام..

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (البقرة ١٨٥).

وهو شهر ليلة القدر..

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة القدر).

هو شـهر الجود والمواساة.. شـهر الابتهال والدعاء.. شهر التعبد والتهجد والإخبات.. هو هذا كله.. وهو شهر تلك الفريضة والرياضة البدنية والنفسية والروحية التى يتلاقى فيها صلاح الفرد مع وحدة صلاح الجماعة..

كل هذه المعانى التى تتجمع مركزة مكثفة فى رمضان، هى سر هذا الشهر المبارك الذى يغذى بعبقه وأنسامه وأريجه نفحات الروح ويصل ما بين الفرد والجماعة.. فى إيقاع من سبحات هذا الشهر الكريم..

إن العبادة المثلى ترنو إلى تنبيه الضمير الإنسانى إلى وجوده الروحى وإلى أن له مطالب غير مطالب الجسد وشهوات الحيوان، وإن العبادة المثلى لترنو أيضا إلى تنبيه الضمير الإنسانى إلى الوجود الخالد الباقى الذى يتوارى أمامه وجوده الفردى الزائل المحدد..

فبغير الوجود الروحى، والوجود الخالد الباقى، لا يمكن لآدمى أن يترقى من البهيمية إلى الإنسانية، ولا أن يرتفع بعقيدته وسلوكه إلى المراتب الجديرة ببنى الإنسان.. كيف يمكن لآدمى أن يحيا ساعة بساعة وتستغرقه ماديات الدنيا، ثم يرجو من الحياة معنى خالدا باقيا غير متعة اللحظة.. كيف يمكن له بغير هذا الوجود الروحى أن يحرص على معنى يحفزه أو يردعه.. يرغبه أو يرهبه؟!

كمال الصيام الإسلامى أنه ينبه الضمير الإنسانى إلى هاتين الحقيقتين..

حقيقة الوجود الروحى.. بصوم يقمع فى الجسد مطالب الحس والمادة ويروضها.. ويثرى كل جوانب الروح..

وحقيقــة الوجود الخالــد الباقى.. فى ائتلاف الفرد مع الجماعة ائتلافا يحس به بعمق انتمائه إلى المجموع الخالد الباقى مهما تغيرت على الزمان عناصر الأفراد فيه..

فى خضوعه لربوبية الوارث الباقى الذى إليه سبحانه ميراث السموات والأرض..حيث الكل فى زوال، ولا يبقى إلا وجهه ذو الجلال والإكرام..

فالمســلم فى صيامه يذكر حق الروح ويذكر أنه ذو إرادة ينبغى أن تأخذ بزمام جســدها لا العكس.. ويذكر وجودا – أبقى من وجود ذاته.. وجود الجماعة وجودا موصولا أبعد من وجوده ولو إلى حين.. ووجودا سرمديا للواحد الأحد رب العالمين..

ooo

ولعلنا بعد هذا ندرك لماذا كان للصيام شــهر معلوم.. ولماذا كان مجمعا فى فترة محددة موصولة.. بغير هذا التحديد، فى الشهر المعلوم، يفقد الصيام مظهره الاجتماعى ويفقد تلك الانعكاسات المتقابلة التى تتراوح بين المصلين المتعبدين وهم يؤدون الفريضة أداء الجماعة.. ويصومون جميعا على قلب واحد وسنة واحدة..

مع مقدمات رمضان فى كل عام كان صفى الرحمن عليه الصلاة والســلام يستقبله بهذه الكلمات «قد جاءكم شــهر مبارك.. افترض عليكــم صيامه.. تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم.. وتصفد الشــياطين.. ينادى فيه ملك: يا باغى الخير أقبل ويا باغى الشــر أقصر.. فيه ليلة خير من ألف شــهر.. جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعا.. مــن تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما ســواه ومن أدى فيه فريضة؛ كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه.. هو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة.. وهو شهر المواساة.. ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا، غفر الله له ما تقدم من ذنبه».

هو شهر مبارك تتلاقى فيه الفريضة الفردية، مع الآصرة الاجتماعية لأسرة بمئات الملايين.. تصدع للأمر الإلهى، فتؤدى فريضته فى ميقات معلوم على إيقاع واحد وقلب واحد..

بداهــة، لا ينصــرف (المظهر الاجتماعــى) لصوم رمضان، إلى صنــوف اللهو ووجبات المضحــكات والفوازيــر.. ولا إلى فنون الابتكار فى أصناف الطعام والإســراف فيه.. ولا إلى القطايف والكنافة وقمر الدين وغيرها من موروث عادات الدولة الفاطمية..

حقيقة أحلّ الإسلام الطيبات من الرزق وأساغ اللهو المحمود.. إلا أننا نبتعد بما جرت عليه العادات عن مقاصد الصيام ونفحات الشهر نفسه , ونجرى فيه على فهم مغلوط لحكمة الصوم وغايته..

إن أهم ما نلحظه من حكمة الصوم هو التنبيه إلى الجانب الروحى فى الفطرة البشرية وإخضاع مطالب الجسد والحسيات والماديات إلى زمام الروح وإرادة النفس.. فى رحلة شهرية موصولة تتألف فيها إيقاعات الجماعة كلها فى معزوفة روحانية تعبدية.. تبتغى صلاح الفرد.. وتستهدف أغراضا شتى منها صلاح الجسد نفسه بعد إفراط عام.. ومنها الانعطاف المتبادل بين الفرد والمجموع. بين الغنى والفقير.. وهى أغراض ينقضها الإسراف فى اللهو والطعام والشراب.. فهى ضد صلاح الروح وصلاح الجسد أيضا.. ثم هى تجسيد - لا علاج - للتفاوت بين الأغنياء والفقراء!!!

إن أهداف الصوم - ونفحات الشهر - لا تتحقق إلا بسنن الصوم كما حددها الشهر الكريم.. فهى رحلة تعبدية متكاملة لا ينبغى لنا أن نحيلها إلى مسخ شائه بتجاوزات تتنافى مع حكمة الصيام وغاية هذه الرحلة التعبدية الروحية المكثفة.

الصوم فى رمضان ليس فقط إمساكا عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.. وإنما هو صوم للسمع والبصر والجوارح وعن المحارم جميعها.. عن الرفث والفسوق.. عن الصخب والبغضاء والتشاحن.. عن فضول الكلام.. عن النم والاغتياب.. عن التجبر والعدوان.. عن الكبر والعجب.. عن الخيانة والكذب واللغو النفاق. إنه مجاهدة حقيقية وامتحان لقوة الإرادة فى إقامة النفس على الصراط.. ليس فقط بترك النواهى والمحارم، وإنما أيضا بالإقبال على الأوامر.. على الصدق والإخلاص ؛ على التواضع والعفو والإسماح.. على التراحم والتواصل والتكافل.. على القول الطيب والعمل الصالح.. على البر بالمساكين، والحدب على الفقراء والمحتاجين.. على الصلاة والتحنث والعبادة..

أينتهى هذا كله على لحظة إفطار، ينكب فيها الجسد وتنكب فيها النفس على كل ما عافته ساعة الصيام؟!!.

هنا الخطأ الفادح !!!

لقد قلنا إن الصوم رحلة تعبدية روحية مكثفة تمتد شـهرا.. هو أكرم الشهور.. فما بين الإفطار والإمسـاك، جزء لا يتجزأ من الرحلة.. وفترة لا تخلو من سـنن الشهر الكريم فى نفحاته وأنسـامه تلك الطيبة الثرية.. ألم يجعل سـبحانه قيام ليلة تطوعا؟ ألم يحث فيه على الخير وجعله خصلة من خصاله، فى نهاره أو ليله، كفريضة فيما سـواه؟ ألم يجعل من أداء فريضة فيه كأداة سـبعين فريضة فيما سـواه؟ أليس هو شـهر الصبر، لا فقط نهار الصبر، والصبر ثوابه الجنة؟؟ أليس هو شـهر المواسـاة، لا فقط نهار المواسـاة؟ ألم يفتح سـبحانه أبواب الجنة ويغلق فيـه أبواب الجحيم ويصفد الشياطين؟..أليسـت هذه كلها وغيرها أمارات على أن الرحلة التعبدية رحلة موصولة على مدار الشهر المبارك كله.. أيامه ولياليه .. ثم كيف يمكن أن تنقطع الرحلة التعبدية تقطعا يوميا تتأرجح فيه هذا التأرجح الصارخ بين غاية الالتزام وإفراطات التجاوز.. كيف يمكن أن ينصلح الجسد ونحن نتخمه فجأة بعد نهار صوم بكميات هائلة من الطعام الشـراب تكاد تعجز أعضاءه جميعا عن أداء وظائفهـا.. وكيف يمكن أن نحـس بالجماعة، وبحرمان فقرائها، ونحن نختص أنفسـنا بألوان من الطعام والشـراب ما أنزل الله بها من سـلطان، بينما على مقربة منا من يكاد لا يجد لقيمات يقمن صلبه!.. ثم كيف يمكن أن تكون رياضة الجسـد، وإثراء الروح، وكبح الشـهوات بزمـام الإرادة، بينما تنهار هذه الأخيرة فجأة فى لحظة.. تسـتبيح فيها بنهم وشراهة ما ريضت النفس على مكابدته ومجاهدته ليوم فات، ولأيام أخرى عليها أن تواصل المكابدة والمجاهدة فيها!

لقد كان المصطفى عليه الصلاة والسلام، فيما رواه أنس رضى الله عنه وأرضاه، يفطر على رطبات قبل أن يصلى.. فإن لم تكن فعلى تمرات، فإن لم تكن – حسـا حسـوات من ماء.. الإفطار عنده وفاء لضرورة، تحفظ للجسد ضرورات مطالبه، ولا ترتد وبالا عليه، ولا تقوض للروح ما اكتسبته فى رياضتها ومجاهدتها وإخباتها.

يقـول عمر رضـى الله عنه وأرضاه «إياكـم والبطنة، فإنها ثقل فـى الحياة ونتن فى الموت»

وقديما قال لقمان «يا بنى، إذا امتلأت المعدة ماتت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة».

كانت ليالى رمضان عند النبى ﷺ، فريضة متجددة للسياحة الروحية.. مع أنه ﷺدائما فى رحلة روحية موصولة لا تنقطع.. كان يكثر من الصيام والدعاء والتهجد فى رمضان.. ويعتكف العشر الأواخر فيه، اعتكافا كاملا..

يصلى، ويتعبد، ويتلو الذكر الحكيم.. تقول السيدة عائشة عليها الرضوان «كان الرسول ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر».

كان عليه الصلاة والسلام أجود الناس فى كل وقت، ولكنه كان أجود ما يكون فى رمضان.

فيما استنه عليه ﷺ تبدو كلمات الحسن البصرى آية الآيات وتعبيرا وافيا عن خصال هذا الشهر المبارك، «إن الله تعالى جعل رمضان مضمارا لخلقه.. يتسابقون فيه بطاعته إلى مرضاته»، ولأن الحق تبارك وتعالى قد جعل رمضان مضمارا لخلقه.. يتسابقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فإن المصطفى ﷺ كان يوصى فيه فيقول: «فاستكثروا فيه من أربع خصال؛ خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غناء بكم عنهما.. فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم، فشهادة أن لا إله إلاّ الله.. وتستغفرونه.. وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار».

فرحلة الصيام الروحية رحلة موصولة يتنافى وإياها أن تنقلب إلى نقيضها فى لحظة بعد مجاهدة وإخبات يوم.. فهى رحلة ممدودة طوال الشهر المبارك.. هى بطوله شهر صيام وقيام.. تعبد وتهجد وإخبات.. يأتلف فيه الفرد مع الجماعة، تكفكف فيه الجماعة عن أفرادها ..

ooo

ليست هذه دعوة لتكريم الأشهر بحساب الصكاك - كما قال العقاد - ولا بطريقة جعل أيام ومواقيت للسعود والنحوس، ولا هى تفضيل يركن إلى مدارات الأفلاك وأسرار النجوم..

وإنما هو – فقط – فهم لتقدير شهر ارتبط بنزول القرآن، وجعله الله تعالى رحلة تعبد وصيام.. نقدره لأنه شهر فرقان وحساب.. ولأنه شهر صوم وقيام وتهجد وإخبات.. نفيء فيه إلى رب العالمين.. نتأدب بأدبه، ونستبق إلى مرضاته بطاعته.. ونمضي على صراطه..

ما أحرانا في أيامه المباركة، أن نتذكر قول الحق سبحانه فيما رواه نبيه عليه السلام في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلاّ الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به».. والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم... والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك...

وللصائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه.

صدق الله ورسوله.

ooo

لماذا يصوم الفقير؟!

كنت مدعوا «على الهواء»، فى اليوم الأول من شهر رمضان، بإحدى الفضائيات، مع فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى، لنتحدث عن الشهر الكريم، وعن الصيام.. كان السؤال الأول الذى عنى مقدم الندوة أن يطرحه، منقولا عن تساؤلات الشباب : لماذا الصوم؟!.. أليحس الصائم - كما يقول البعض - بجوع الفقير فينعطف قلبه له، وتفيض مشاعره وعواطفه تجاهه، فتحرك الرحمات وتحض على البذل والعطاء.. فإذا كان ذلك - فيما تردد تساؤلات الشباب - فلماذا صوم الفقير وهو مكوى بالجوع يكابده ويقاسيه طوال أيام العام؟!!.

خطأ هذا المطروح، خطأ مركب، لأنه خطأ فيما يصدر عنه التساؤل البرىء من بعض الشباب، وخطأ أيضا فيما يبديه البعض من جواب أو تفسير أو تعليق عن سبب للصيام، يعزونه إلى الإحساس بفقر وجوع ومسغبة الفقير.. كان يمكن أن يستقيم التساؤل، والتفسير، لو كان الصوم محض صيام وكف عن الطعام والشراب لمدة معلومة، بيد أن القرآن المجيد، والسنة النبوية - يدلان على أن الصوم ليس محض انقطاع لأجل معلوم عن الطعام والشراب، ولكنه مجاهدة شاملة، ورحلة تعبدية كاملة، ليس حسب العابد المرتحل فيها أن يصوم عن الطعام والشراب، وإنما يتوجب عليه أن يصوم أيضا عن «الرفث والفسوق، وعن السباب والكذب وقول الزور»، وعن «الصخب والتقاتل والفحش»، وعن سائر النواهى التى لا يستقيم الإقبال عليها أو الوقوع فيها مع أنسام الشهر المبارك وغاية الصوم الذى جعله الله تعالى للإنسان «وجاءً» وسبيلا لكف نوازع وشهوات الجسد، والتضييق على وساوس الشيطان هذه الغاية المثلى لاتتحقق إلاّ بهذا الصيام الجامع المتعفف عن السقوط فى وهدة المعاصى والآثام التى تتجافى مع جلال الصوم .. فى الحديث القدسى: «كل عمل ابن آدم له إلاّ الصوم، فإنه لى، وأنا أجزى به. والصيام جنة (وقاء) فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث (لا يفحش فى القول)، ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم.. إنى صائم»..

لا معنـى لصوم لا يقـترن بالكف عن المعاصى والنواهى.. الصيـام امتناع وكف وانتهاء عن هذا كله ليسـتطيع الصائم بهذا الصوم الشامل، أن يتخلص من نداء وشهوات ورغائب الجسـد، وأن يفـىء إلى عالم الروح، تصفو فيه نفسـه مـن الأدران، ويحلق بقلبه وفؤاده ووجدانه وروحه فى أنوار اليقين قربة إلى الله تعالى .

الصوم فى رمضان ليس فقط إمسـاكا عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشـمس.. وإنما هو صوم للسـمع والبصر والجـوارح.. وعن المحارم جميعا.. عن الرفث والفسـوق.. عن الصخب والبغضاء والتشـاحن.. عن فضول الكلام.. عـن النم والاغتياب.. عن التجبر والعـدوان.. عن الكبر والعجـب.. عن الخيانة والكذب واللغو والنفاق.. إنه رياضة روحية ومجاهـدة حقيقية، وامتحان لقوة الإرادة فى إقامة النفـس على الصراط.. ليس فقط بترك النواهـى والمحـارم، وإنما أيضا بالإقبال علـى الأوامر.. على الصـدق والإخلاص.. على التواضـع والعفو والإسماح.. على التراحم والتواصـل والتكافل.. على القول الطيب والعمل الطيب.. على البر بالمساكين، والحدب على الفقراء والمحتاجين.. على الصلاة والتحنـث والعبادة..

هذا الصيام، أو هذه الرحلة التعبدية الروحانية، ليسـت إذن محض امتناع عن الطعام والشراب فقط، وليست محض جوع حتى يقال! فلماذا يصوم الفقير وهو يكاد يكابد الجوع أيـام عمـره ولياليه.. هذه واحدة، والثانية أن «الجوع» ذاتـه ليس واحدا فى الحالين.. الجوع المعتاد للفقير المحتاج، جـوع «إجبارى» و «ساخط».. لاخيار فيه للفقير الجوعان ، وإنما هو مجبر مقهور مغبون ملىء بالسخط والإحساس العميق بالظلم! ! !

هذا الجوع «السـاخط»! !.. أو هذا «الجوع الكافـر»! ! ـ يختلف اختلافا كبيرا وعميقا عن جوع الصائم! ! جوع الصائم جـوع «مختار».. يقبل عليه الصائم باختياره، وبمحبة القربـى والاتصال بالله تعالى رب العالمين، وسـياحة فى روحانيات المجاهدة التى تخبت فيها النفس وتصفو وهى تتخلص من «دونيات» الجسد، وتقمع الشهوات والغرائز، وتتجه إلى الله تعالى بضمير صاف وقلب منيب.. فأين هذا كله من الجوع الساخط المخلوط بالغضب والإحساس بظلم وتجاهل وتجنى الناس، وغياب الإنصاف!

غاية الصيام إذن توافق جبر ورعاية الفقراء كما تتغيا صلاح السراة أو الأغنياء.. الصيام فى رمضان، فريضة تعبدية يؤديها الفرد إلى خالقه، لا تستنفد حكمتها ولا غايتها التعبدية دون أن توافى الصائم بأمداد روحية تفيض عليه من رياضته ومجاهدته التى تتوارى بها مطالب الحس والبدن، وتنطلق سبحات الروح والوجدان..

صوم رمضان، هو صيام يؤديه المسلمون فى ميقات واحد من شهر واحد.. تبدو فيه الجماعة الإسلامية، على اتساع الأرض، أسرة واحدة من مئات الملايين.. تؤدى شعائر دينية واحدة، تتصل بأسس حياة الإنسان نفسه فى مطالبه الحياتية اليومية.. فى أكله وشرابه ومطالب جسده.. يصوم الجميع فى وقت واحد، وساعات واحدة، عن طعامهم وشرابهم.. ويأتلفون فى رحلة روحية تعبدية لا رفث فيها ولا فسوق.. ولا صخب ولا تشاحن ولا قتال.. وإنما هم جميعا منصرفون إلى تحنثهم.. يعبدون الله مخلصين له الدين.. فإذا أفطروا أفطروا فى ميقات واحد.. وعلى سنة واحدة.. فى مظهر عميق لإتلاف الوحدة الإنسانية للمسلمين فى هذا الشهر الكريم.

إن العبادة المثلى ترنو إلى تنبيه الضمير الإنسانى إلى وجوده الروحى وإلى أن له مطالب غير مطالب الجسد وشهوات الحيوان، وإن العبادة المثلى لترنو أيضا إلى تنبيه الضمير الإنسانى إلى الوجود الخالد الباقى الذى يتوارى أمامه وجوده الفردى الزائل المحدود..

فبغير الوجود الروحى، والوجود الخالد الباقى، لا يمكن لإنسان أن يترقى من البهيمية إلى الإنسانية، ولا أن يرتفع بعقيدته وسلوكه إلى المراتب الجديرة ببنى الإنسان.. لا يرتفع إلى هذا المرتقى السامق من يحيا حياته ساعة بساعة، ولا من يرجو من الحياة معنى خالدا باقيا غير متعة اللحظة ! !.. الوجود الروحى هو الذى يرتقى بالآدمى وينمى فيه ما يجعله حريصا على معنى يحفزه أو يردعه.. يرغبه أو يرهبه؟!

كمال الصيام الإسلامى، أنه ينبه الضمير الإنسانى إلى هاتين الحقيقتين : حقيقة الوجود الروحى.. بصوم يقمع فى الجسد مطالب الحس والمادة ويروضها.. ويثرى كل جوانب الروح..

obeikandi.com

وحقيقة الوجود الخالد الباقى.. فى ائتلاف الفرد مع الجماعة، ائتلافا يحس به بعمق انتمائه إلى المجموع الخالد الباقى مهما تغيرت على الزمان عناصر الأفراد فيه.

فى خضوعه لربوبية الوارث الباقى الذى إليه سبحانه ميراث السموات والأرض.. حيث الكل إلى زوال، ولا يبقى إلاّ وجهه ذو الجلال والإكرام ..

فالمسلم فى صيامه يذكر حق الروح، ويذكر أنه ذو إرادة ينبغى أن تأخذ بزمام جسدها لا العكس.. ويذكر وجودا أبقى من وجود ذاته.. وجود الجماعة وجودا موصولا أبعد من وجوده، ولو إلى حين، ووجودا سرمديا للواحد الأحد رب العالمين..

ooo

obeikandl.com

حمل المغتصبة

حول إجهاض حمل المغتصبة، حضرت وشاركت بمجمع البحوث الإسلامية فى حوار طويل وساخن حول هذه القضية متعددة الأبعاد. فثمرة الاغتصاب - إن جازت التسمية- سوف تكون عبئا جديدا على المغتصبة وذويها، بل وعلى الوليد نفسه إن تُرك الحمل.. أشر بلايا الاغتصاب مضاعفات الذكرى المرّة وأوجاعها النفسية الممضة. بقاء الحمل وميلاده يكرس الإحساس بالفاجعة، ويحول دون ستار النسيان الذى وإن لم يداو تماما، إلاّ أنه يخفت بما يطمره الزمن من وقع اجترار الحادث الأليم. سيبقى الوليد ما عاش، بل ومن ذريته، شاهدا على كارثة انتهكت عرض ونفسية وسيرة المغتصبة، ولن ينجو الوليد نفسه من الآثار المدمرة لواقعة الحمل فيه! .. لذلك لم يقع خلاف على الإطلاق فى أن الإجهاض هنا رحمة بالمغتصبة وبالنطفة أيضا، ولكن هل تكفى إباحة الإجهاض أم أنه واجب؟ رأت الأغلبية أن الإباحة تكفى وأن مناط الأمر إلى صاحبة المأساة، وتمسك الإمام الأكبر شيخ الأزهر د. محمد سيد طنطاوى بأنه هنا واجب تأثم المغتصبة بتركه، فضلا عن أنه يعطى دلالات لا يجوز أن ترتضيها الحرة التى اغتصبت. لم يستمر الجدل طويلا حول هذه الجزئية، فالوجوب تكريس لفداحة الإثم، ثم إن معقده لصاحبة الشأن لضميرها وما تستطيعه ما لم ير الطبيب الثقة المختص الإرجاء لخطر على حياتها أو ضرر شديد بصحتها، ولكن بقى السؤال : ماذا لو رأى الطبيب الثقة المختص أن الإجهاض بعامة خطر على حياة المغتصبة؟!. ربما كان هذا الفرض نادرا مع التبكير بتفريغ الحمل، ولكنه غير مستحيل التصور. المسألة الأخرى التى طال فيها الحوار ماهو الحد الأقصى - إن كان ـ الذى يجوز أو يجب فيه التخلص من الحمل، هل يتقيد أم لا يتقيد بمدة الـ ١٢٠ يوما المقدرة لبدء الحياة فيصير الحمل روحا لا حق فى قتلها، فهى لم تكن طرفا فى إثم الجانى المغتصب وخطيئته! رأى الإمام الأكبر فتح ميعاد الإجهاض بإطلاق، ورأينا أن يتقيد

بالمدى الذى يصبح بعده قتلا لنفس بغير حق. كانت حجتنا – ولا تزال – أن الأربعة أشهر مدة أكثر من كافية للتخلص من الحمل قبل أن يصير روحا، وأن التعرض بعدها يصير قتلا لنفس حرم الله قتلها إلاّ بالحق، وأنه مهما قيل عن جريمة وإثم الجانى، إلاّ أن الجنين برىء من الوزر، لم يقارف هو ذنبا أو خطيئة، وفى القرآن المجيد ألاّ تزر وازرة وزر أخرى، وأن كل إنسان طائره فى عنقه لا يتحمل ذنب غيره. تمسك فضيلة الإمام الأكبر وتمسكنا، والتجأنا للتصويت، فرجح وجوب الالتزام للإجهاض بمدى الأربعة أشهر لا يجوز بعدها، فهل حسمت القضية أم لم ترفع الأقلام بعد ولم تجف الصحف؟!

ooo

obeikandl.com

الدين والجنسية

بين الجنسية وبين الديانة والملة فوارق، أوضحها أن الجنسية على الأقل فى العصر الحاضر، لاتستلزم التبعية لديانة أو ملة معينة كأصل عام، وأنها بصفة عامة تتسع لأصحاب الديانات المعترف بها ولغيرهم من المواطنين، كما أنها لم تعد تستلزم الانتماء لعنصر معين أو لون معين أو لغة معينة.. لأن معنى الجنسية هو الانتماء لوطن معين لتوفر الولاء له عند جميع المواطنين فى السراء والضراء.

وتوافر الولاء شرط تستلزمه الجنسية كما تستلزمه الديانة أو الملة، لكن الشارع قد يفترضه افتراضا إذا وجدت شرائط خارجية يراها المشرع كافية لوجوده دون ما حاجة إلى التحقق من توافره فعلا لدى هذا الفرد أو ذاك.. وقد تتعدد الجنسية فى بعض الأنظمة فينتمى الشخص لأكثر من جنسية فيحمل فى نفس الوقت جنسية أو جنسيات لغير دولته الأم، على أن الدولة لا تلتزم فى معاملة من ينتمى إلى جنسيتها إلاّ بإعمال قوانينها هى، ومثل هذا الوضع قد يكون نادرا فى الانتماء للديانات والملل، ويفترض وجود الولاء اللازم للجنسية بمجرد الميلاد لأب يحملها، وفى بعض الأحيان بمجرد الميلاد من أم تحملها، كذلك فيمن تتزوج أو يتزوج من زوج أو من زوجة.. فيكتسب الجنسية بالزواج إما فورا أو بعد انقضاء فترة على قيام الزوجية يحددها القانون. كما تكتسب جنسية الدولة بالإقامة العادية فيها لمدة محددة بشروط عامة للجميع، كما قد تمنح الجنسية من الدولة لقاء خدمات استثنائية، ويفترض الانتساب للديانة أو الملة بميلاد من يولد لأب ينتسب لها أو لأم تنتسب إليها، كما يفترض ذلك الانتساب للقيط الذى يوجد أو يعثر عليه بين ظهرانى أهل الديانة أو الملة، وينتقل إلى الديانة أو الملّة ويدخل ضمن أتباعها من يقوم بالإقرار علانية باعتناقها بالصيغة المقررة وبالطقوس المرسومة إن كان لذلك صيغة أو طقوس.

فالولاء لكل من الوطن والديانة والملّة، معظمه مبنى على افتراضات وأمور ظاهرية خارجية عامة صرف، ترى السلطة القائمة على شئون المجتمع، أن وجودها يكفى لاعتبار الشخص كبيرا أو صغيرا صاحب حق فى حيازة الجنسية أو التبعية للديانة أو الملة المعنية

obeikandi.com

المقصــودة، بغير احتياج إلى بحــث أبعد من ذلك فى مجال التحقق من وجود وثبوت وقدر الولاء الفعلى لدى كل فرد من أفراد الأمة أو الديانة أو الملة.

هــذا الواقــع ليس جديدا، ويبدو أنه تخطيط سياســى محصن لم يكن منه بد.. تصب بموجبه مجاميع الأفراد فى مواصفات عامة تكون معروفة للحكومة مقدما، ويمكن لأنظمتها وقضاتها وعمالها ضبط تلك المجاميع من جهة سلوكها الذى ترى الحكومة أنه يهمها بنحو أو بآخر، بغض النظر عن العلاقة الباطنية الفعلية التى تربط الشخص أو لا تربطه كسلوك بالوطن أو الديانة أو المِلّة.

فالجماعــات الكبــيرة التى تحتاج إلى أنظمــة عامة وإدارة وسياســة لحكم الملايين من البشر، لا يتصور أن يستهلك حاكمها أو حكامها القوى والجهود والوقت والمال فى تفحص قلــوب وعقول الأفراد فردا فردا للتثبت من متانة الولاء داخلها، وتدل الشــواهد فى بلدان العالم على أن الحكومات تكتفى فى هذا السبيل بالاعتماد على أمارات وافتراضات وظواهر ومظاهــر عامــة خارجية، إن لم تصدق فى دلالتها على ثبوت صدق الولاء، فإنها تشــجع عمــوم المجتمع على ادعاء الولاء والانتماء بوجوده، وعلــى الرضا بالأنظمة والقوانين التى تمكنها من ذلك.

ويبــدو أن رجال الدين مــن قديم الزمان قد فطنــوا إلى أن ولاء المجتمع الكبير للديانة أو الملة لا يكون إلا ولاء افتراضيا جزئيا فى أحسن أحواله، وأنه يرتبط ارتباطا كليا بالولاء للدولة القائمة وسياستها أو الدولة التى تستعد لخلافتها فى الحكم.. لأن الولاء للدولة حتى فى أوجها لا يكون إلا افتراضيا وجزئيا هو الآخر، ولذلك لم يقطع رجال الدين قط صلتهم لا بالسياســة ولا برجــال الحكم ولا بمنافســيهم عليه. خاصة إذا كانــت المناصب الدينية الكبــيرة تملؤها الدولــة بمن تتخيره منهم.. كذلك لا يقطع الحكام صلتهم قط برجال الدين ولا يكفون عن محاولة اجتذابهم انتفاعا بتأثيرهم بين العامة، أو اتقاء لنقدهم ومقدرتهم على إثارة الخواطر والمشاكل فى محيطهم وفى الطبقات القريبة منهم.

وإذ كان الولاء للوطن وللديانة والمِلّة معظمه افتراضات، ولم يقم قط على واقع غالب فعلى فى المجتمعات الكبيرة، لذلك فإنه لم تنجح قط كل المساعى والمحاولات التى بذلت لتعميم

الإخلاص والصدق والنوايا الطيبة فى تلك المجتمعات ـ ولا يمكن أن تنجح.. لاستحالة أن يكون ولاء أغلبية الناس من دهور وقرون – للوطن والدين غير فعلى ـ وتكون أغلبيتهم مخلصة صادقة طيبة النوايا فيما عدا ذلك، فلا يمكن الاستغناء عن الأساس السياسى لضبط المجتمعات الكبيرة بأساس آخر مضاد يدور فقط على فعلية الإخلاص والنوايا الطيبة، لأن إدارة الملايين وحكمهم يلزمه حتما سعة الحيلة والاستعانة بالوعد والوعيد.. يصدقان تارة وقد لا يصدقان.

وما شوهد ويشاهد من إمارات تماسك فى بعض الجماعات الكبيرة لوقت يقصر أو يطول – حيال كوارث عامة أو أزمات خانقة أو حروب طاحنة.. هذا الذى شوهد ويشاهد لا يرجع فى الواقع إلى الولاء ولا إلى تذكر الوحدة فى الوطن أو الملّة وأمجاده وأمجادها وسوابق التغلب على المحن التى مرت به وبها، بقدر ما يرجع لقوة الشعور الحاد العامة بالخوف وإحداق خطر الهلاك أو الضياع بالجميع.. وهو شعور موقوت يفتر حتما ويزول بمرور الأيام والتقاط الأنفاس.. ولذا يحتاج إلى تنشيط ما بقيت المحنة قائمة والحاجة ماسة إلى التماسك، وهذه مسئولية السلطات وأجهزة الإعلام ووسائل الدعاية والرقابة على الأنباء، وأدواتها أدوات سياسية وأمنية لخدمة مصالح عامة دنيوية صرف همها الأول نجاح مساعيها أكثر من اهتمامها بالإخلاص والصدق.

ذلك الواقع لم يمنع ولا يمنع سواء المواطنين فى كل عصر، برغم تفوق المصالح الدنيوية والتهالك عليها.. ولم يمنع ولا يمنع من التماجد والافتخار بالولاء للوطن والملّة، ولا من الاحتفاء والاحتفال بذكريات ما ينتسب لهذا الولاء – العالى المكانة – من انتصارات وبطولات وتضحيات، ولا من مبالغة المبالغين نثرا وشعرا فى الإشادة بهذه الأمور وتلقينها للصغار والشباب فى المدارس والمعاهد وملء الكتب ونواتج الفنون بها.. دون أن يغنى عن الاستمرار فى هذا التمجيد والتفخيم كونه لا يتفق بحال مع الغالب الأغلب من واقع حياة المجتمع الفعلية ونوع المصالح الحقيقية التى يخدمها ويتغياها الحاكمون والمحكومون.. لأن الانتصار فى الحرب والتغلب على الأزمة والنجاة من الكارثة، نتائج سياسية باهرة تغطى فى نظر سواد الناس كل ما حدث وجرى احتماله فى سبيلها، وتبعده من ثم عن الملامة والنقد.

هذا ووجود الرياسـات فى كل من الدولة والديانة والملّة، شكّلَ فى ذاته عنصرا سياسيا خطـيرا، لأنه يفرض نظاما لتوزيع السـلطات وتدريجها وتسلسـل الالتـزام بالتعليمات والأوامر التى تصدر من الأعلى مرتبة إلى من تحته، وتسلسل الالتزام بالخضوع والطاعة من الأدنى مرتبة إلى من فوقه، وتفاوت القامات والاحترامات والمزايا والرواتب والاختصاصات والمهام.. وهو ما يلهب على نحو دائم الأطماع والتقربات والتوسلات والمنافسات والدسائس، وكل أولئـك ظواهر عامـة تلازم حتما وجود التنظيمات البشـرية القائمة على الافتراضات والأمـارات الخارجية، والتى يسـتحيل أن تقوم على معرفـة حقيقة ما يجرى داخل وفى باطن كل فرد، ومبلغ ما لديه من الصدق والنقاوة والإخلاص، أما القول بأن الرياسات الملّية والدينية - بخلاف الرياسات المدنية - مزودة بمَدَد ربانى يهديها فى المهم من الأمور، فإنه قول يحتاج إلى مزيد من التأمل، وربما يحتاج إلى مزيد من الضبط والتحديد!

ooo

من عطر السنة فى مولد الهدى

لا غناء للرسالة.. أى رسالة عن «رسول» مؤهل بكل ما يستلزمه حمل الرسالة إلى المكلفين. ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الحج ٧٥) وتلك سنة من سنن الله فى كونه، منذ أولى الرسالات والنبوات، حتى اختتامها بالإسلام.. يقول سبحانه.. ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء ١٥). ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر ٢٤). ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (يونس ٥٤)..

بيد أن رسالة الإسلام التى حملها محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام.. جاءت متميزة عما سبقها من رسالات بأنها للناس كافة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (سبأ ٢٨)، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء ١٠٧).. فلا هى لقوم بعينهم، كبنى إسرائيل فى اليهودية والمسيحية. أو عاد وثمود قومى هود وصالح، أو قوم نوح أو لوط، ولا إلى قرية بعينها، وإنما هى الدعوة الشاملة إلى الناس والأقوام والأمصار كافة: « وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴿٥٩﴾ ﴾ (أم القرى – هى مكة – القصص ٥٩).. ولم يكن هذا العموم هو نصيب الرسالة المحمدية من التميز وكفى، وإنما هى رسالة النور التى اختلفت وتمايزت وتفاضلت على كل من سبقها من رسالات ونبوات.. فلا هى التى تنطوى فى تكاليف الزعامة، ولا التى تقوم على منفعة أمة من الأمم بعينها، ولا التى ينتظرها قوم بذاتهم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه، ولكنها الرسالة الإلهية الشاملة التى لم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد، وإنما قوامها أن الله حق وهدى. وأن الإيمان به، جل وعلا، مطلوب لأنه حق وهدى..

هذه «الرسالة» خاتمة الرسالات، قد حملها رسول أمين، جد أمين.. تلاقت فيه أكرم وأفضل وأميز صفات الأنبياء والرسل أجمعين.. وكيف لا، وهو الذى أدبه ربه، فأحسن تأديبه، وأهله بأدبه هذا العظيم لأن يحمل إلى الناس كافة رسالة الإسلام، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويكون لهم، بتعاليمه، ومنهجه وعمله وحياته، وسيرته، نعم الأسوة التى بها يتأسون.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النحل: ٤٤)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴿٣٣﴾ ﴾ (التوبة: ٣٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأحزاب: ٤٥ – ٤٦)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الشورى: ٥٢ – ٥٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (المائدة: ٦٧)

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب ٢١)..

إن المتأمل فى سنة المصطفى عليه السلام وسيرته، سيفهم الإسلام حق فهمه.. سيرى محمدا.. نبى الرحمة، وأكثر الناس برا بأهله، وحدبا عليهم يقول لحبه أسامة بن زيد حين جاءه يتشفع للمرأة المخزومية لعدم إقامة حد السرقة عليها «وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».. وسيرى مع هذا الحرص على إقامة حدود الله، حين تكتمل أركان الجرم بغير شبهة، ولا عذر من إباحة أو ضرورة أنه عليه السلام هو الذى يرد من جاءه يعترف بالزنى فيشيح عنه بوجهه ثلاث مرات ويراجعه

فـــي مقالتـــه ثلاثا أخرى، ثم يحرص علـــى ألا يكون به - فى اعترافه - مس أو جنون أو هذيان ســكر.. وســوف يراه يرد أبا هريرة ردا عنيفا حين أخبره بأنه رد امرأة زنت فحملت فولدت فوأدت، ردا عنيفا حين ســألته: أيقبل الله توبتها.. ويقول له «هلكت وأهلكــت».. فيمضى أبو هريرة هائما يبحث فى طرقــات المدينة عن المرأة قبل أن تقتل نفســها يأســا مما نهرها به من عدم قبول الله تعالى لتوبتها.. سيرى محمدا، هذا الذى يــبر أهله، ويؤثر عمــه العباس بحبــه، يــرد العباس عن ولاية طلبهــا ويقول «من أمَّر أحدا محاباة فقد خان الله ورســوله وجماعة المؤمنين».. وســيراه على حبه وإيثاره لأبى ذر الغفــارى، حتــى قال فيه «ما أقلت الغبراء، ولا أظلــت الخضراء، أصدق لهجة من «أبى ذر» يرده رغم ذلك عن الولاية، لأن به -عليه الرضوان- ضعفا، ولأنها «أمانة ويوم القيامة خزى وندامة».. وســيراه على شــدته فى الحق، لا يغلق أمام مخطئ باب التوبة والمغفرة، ولا يحرم أحدا رحمته وعطفه، أو يصادر على سعة رحمة الله تعالى له.. وكيف لا، وهــو الذى فيــه قال تعالت حكمتــه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبــة ١٢٨).. ســيرى الخبرة بالنفس البشــرية، بقوتها وضعفها، مهما بلغ أوجها. وسيلمس تســامحه وحلمه، وتواضعه وصبره.. ســيرى كيف كان عليه السلام بذاته رحمة مهداة وكيف كان يعلم أصحابه فيقول لهم «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى الســماء».. ســيرى كيف لم يخرج عليه الســلام أيا من كائنات الكون - حتى الكلاب - من رحمته.. سيراه يروى لأصحابه كيف شكر الله تعالى وغفر لعبد ملأ خفه بماء وأمســكه لكلب ظامئ حتى ارتوى.. ســيرى كيــف أن اعتزازه بعروبته، وقريشــيته، واعتزازه بصحابته، لم يمنعاه من أن يقول للمســلمين «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى».. ســيرى كيف كان صلوات الله وســلامه عليه ينأى بأصحابه عن الجدل العقيم، ويحذرهم من عواقبه ويستن معهم سنة التعليم والتفقيه والإرشاد والتوعية بالحكمة والموعظة الحســنة.. بســيرته فيهم، وتواضعه لهم وللنــاس كافة.. حتى كان

يردف الفقراء معه على دابته.. يرقع ثوبه وخفه بيده.. ويحمل بنفسه حاجته.. كيف كان على نبوته، ووحى ربه له، لا يترك فرصة لاستشارة أصحابه إلاّ انتهزها، موصيا إياهم بقوله «استعينوا على أموركم بالمشاورة».. كيف كان يشاركهم فى حفر الخندق فى غزوة الأحزاب ولا يستنكف أن يغبر التراب وجهه الكريم.. سيرى كيف كان مع حمله للرسالة، وحرصه الحريص على أحكامها، هو الذى يقول للمسلمين «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه».. سيراه يخرج إلى صحابته فرحا مستبشرا حين نزل من سورة الشرح ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾ (الشرح ٥ – ٦) .. يقول لهم «أبشروا، فلن يغلب عسر يسرين».. سيرى الفهم الواعى لهدف الدين والعقيدة، والتيسير على الناس فى غير مشقة ولا إعنات.. يوصيهم بأن الدين متين، وأن أحدا لن يشاده إلاّ غلبه، وأن يوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهر أبقى.. سيرى كيف يسر عليه الصلاة والسلام التكليفات على أصحابه والمسلمين حتى فى العقيدة فاكتفى منهم للدلالة على الاعتقاد بالوحدانية – ولو بإشارة السبابة إلى السماء.. وكيف يسر لهم فى العبادة بالاكتفاء فى طهارة الصلاة بالتيمم إذا خافوا استعمال الماء. سيرى ويرى مالا يدركه حصر، ولا يتسع له هذا المقام، وسيعرف فى النهاية أن الدين الحنيف، فى سيرة المصطفى عليه السلام، إنما قصد إلى تزكية النفس وتطهير القلب، والامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح فى الأرض على أساس قوى متين من ربط الإنسان بخالقه سبحانه الذى يعلم سره ونجواه.

هذه الرسالة التى حملها هذا اليتيم فى غير ذله، العزيز فى غير قسوة. كيف به ومنذ مولده..، والدنيا بأسرها تزين له وللناس طريقا غير الطريق، فيغلب الدنيا على ما تريد، ويهديها هو بعزيمته إلى غير تلك الطرق التى تزينها.. وينهض وهو الرجل الواحد بما يأباه قومه، ويأباه معهم أقوام زمانه، – كيف به بمفرده يقوم بذلك كله، اللهم إلاّ أن تكون قدرة الخالق فيما خلق، يوليها من يشاء حيث شاء.

إن مع العسر يسرا!

كثيرا ما نردد لأنفسنا قول القرآن المجيد ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ (الشرح ٦) ويستوقفنا تكرار ذات العبارة في الآية الواحدة، منوهين إلى أن ذلك تأكيد رباني لا يفوت. فهل وعيناه ونعيه حقا؟! لو تأملنا لعرفنا أن بعد النصب والتعب راحة، وبعد الظمأ ارتواء، وبعد الجوع مهما طال شبع، وبعد الأرق مهما سهدنا نوم، وبعد المرض تأتي بفرج الله العافية، فكم اهتدى الإنسان بعد ضلال، وتغشته الهداية بعد معاناة، وجاءه النور بعد ظلام!

الحصيف لا يضيق ذرعا بما يحيط أو يمسك به، فدوام الحال من المحال! وأجمل الجلد والصبر والاحتمال - انتظار الفرج. أليس الحق سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المائدة ٥٢).. الذكي الحصيف من يلملم إرادته وعزمه من براثن الأشجان والأحزان.. أن يصنع من مرارة الليمون شرابا حلوا هنيئا. أن يحول الخسائر إلى أرباح، أن يتعلم حلاوة الرضا والتسليم. فعسى أن يكره الإنسان حاضرا يضنيه لأنه خير له من شر آخر لا يعلمه.. ثم هو بقلبه موصول بالسماء، هي مفتوحة على الدوام لضراعته.. ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴿٦٢﴾ ﴾ (النمل: ٦٢) .. إليه سبحانه يفزع المكروب، ويستغيث المنكوب.. إنه الله تعالى.. لا إله إلاّ هو، ولا ملجأ منه إلاّ إليه.

بشرى لكل من صبر على ما يكره، ولم يفقد إيمانه لحظة، ولا تزعزع منه اليقين..

بشرى له لما تجمل به، وبما وعده العزيز المهيمن إياه.. بشرى له بما قدم وبما سينال.. فهو سبحانه قد بشر الصابرين ووعد الصامدين بعظيم الأجر والثواب. وجزيل الرضوان..

طوبى له أن عرف أمر الولي الحميد فعمل به، واستحق الأجر عليه.

وطوبى له أن عرف الحياة وبلى حقيقتها وعلم أنها ضيق وفرج.. عسر ويسر.. كرب وسرور.. أن العاقبة فيها هي للمتجملين ثابتي العزم واليقين.. الذين مع صبرهم يعطون

ولا يملون بذلا ولا عطاء. ينتظرون الثمر مهما أظلم الليل أو طال المدى.. فهو إلى حين.. وأن نور الفرج لأبد سيعم بضيائه حياة المؤمنين وحنايا قلوب العارفين..

طوبى لهؤلاء وأولاء، وهنيئا لهم قول الحق تبارك وتعالى فى الحديث القدسى: «إذا ابتليت عبدا من عبادى مؤمنا فحمدنى وصبر على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا».

بشرى للعابدين الناسكين..

بشرى للداعين بدعاء المصطفى عليه الصلاة والسلام..

«اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك.. ناصيتى بيدك، ماض فىّ حكمك، عدل فىّ قضاؤك.. أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدا من خلقك.. أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى .. «يارب».

ooo

Obeikandl.com

المنقذ من الضلال !

بين الإمام، حجة الإسلام، أبى حامد الغزالى (١٠٥٩ / ١١١١ م) وكتابه «المنقذ من الضلال»، وبين الدكتور مصطفى محمود وكتابه «رحلتى من الشك إلى الإيمان» – قرابة ألف عام.. سوف تشعر حين تقرأ «المنقذ من الضلال» أن الدكتور مصطفى محمود قد استقى منه الفكرة، وسار قريبا من دربه حتى خرج بمحاولته من هواجس الشك إلى أمان اليقين..

كان الغزالى وتجربته فى المنقذ من الضلال، حاضرين فى ذهنى وأنا أتابع رحلة الدكتور مصطفى محمود وما عبر به عنها.. رويت لك فى مقال بتاريخ (٢٠٠٩/١١/١٨) بعضا منها، ثم رأيتنى مشدودا إلى الإمام الغزالى وتجربته فى كتابه الأسبق بنحو ألف عام «المنقذ من الضلال».

فى تصدير طبعة هذا الكتاب سنة ١٩٧٣، كلمات رشيقة للأستاذ أنيس منصور، يقول فيها عن الكتاب إننى أقرأ فيه أجمل وأروع ما كتبه الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى كتابه المشهور «مقال فى المنهج» .. فهو يبدأ بالشك ثم ينتهى إلى اليقين. ولكن الغزالى أبسط وأروع وأعمق.. تجرد من كل شىء ليؤمن بكل شىء.. نزل إلى كل بحر، وطاف كل محيط.. ليرسو على بر الأمان بالعلم والإيمان.. لقد هدانى الغزالى، وثبّت الأرض تحت قدمى، وثبّت الدنيا كلها أمامى.. هنا السماء وهنا الأرض. هنا العقل وهنا النقل. هذا الكتاب وهنا الحديث وهنا الاجتهاد».

أريد اليوم أن أحدثك عن الرحلة التى قطعها الإمام الغزالى من قرابة ألف عام.. غاص فى بحور ولجج، وطاف بين العلوم والأفكار، مدفوعا بأشواق قوية لمعرفة الحق والخروج من هواجس وتخبيلات الضلال إلى شاطئ وأمن اليقين!

يفصح الغزالى فى بدايات الرحلة، أن اختلاف الناس فى الأديان والملل، بحر عميق غرق فيه كثيرون، ولم ينج إلاّ قليلون، وأنه منذ عنفوان شبابه خاض فى لجج هذا البحر، وتوغل فى كل اتجاه، وتفحص فى عقيدة كل فرقة.. دافعه التعطش إلى إدراك الحقيقة..

بـدأ بالتخلص من قيود التقليـد والخضوع للموروث، فكل مولود يولد على الفطرة، ويتابع ما يتلقاه من والديه فينشأ على دينهما، إلاّ من يطلب الحقيقة ويسعى جاهدا لاكتشافها.

فتـش الغـزالى فى العلوم، فقال لنفسـه فى البداية إن الأمل فى المحسوسـات، فهى التى تقيه مغبة الغلط، ولكنه حين اسـتعرض ما صادف إبراهيم الخليل عليه السـلام حين اسـتبان أن الكواكب والقمر والشـمس جميعها تأفل بعد بزوغ، أدرك أن الثقة بالمحسوس قد تتعلق بفراغ أو أوهام، فتبطل الثقة إلاّ بالعقليات.. فالعقل هو الذى كذّب لديه ظنّه فى المحسوسات.. والضرورات العقلية أوثق للوصول إلى الأمن واليقين .

ولكنـه نظر فوجـد المتطلعين إلى نور العقـل، قد تفرقوا بين أربعة فـرق : المتكلمون، والباطنية، والفلاسفة، والصوفية.. فأى من هذه الفرق أهدى سبيلا فى الوصول إلى الغاية.. لاحظ أن علم الكلام الذى درج عليه المتكلمون علم وافٍ بمقصوده، ولكنه غير وافٍ بمقصود الغـزالى فى الاهتداء إلى المذهب الصحيح بلا تشـويش.. فأهل الـكلام قد صرفوا جهودهم لبيـان مناقضات الخصوم ومقارعتهم بلوازم مسـلّماتهم، وهذه المقارعات لن تكفيه للخروج كلية من ظلمات الحيرة.. فهل تفى الفلسفة والمتفلسفون فى تحقيق مراده؟!.. بذل الغزالى غايـة جهده لدراسـتها لنحو ثلاث سـنوات، فخلـص إلى أن معظم ما اطلـع عليه منها فيه خداع وتلبيس، افترقت سـبله بين الدهريين والطبيعيـين والإلهيين، فرأى الدهريين يزعمون أن العالم لم يزل موجودا بنفسـه بلا صانع، والطبيعيين برغم بحثهم فى عجائب صنع الله تعالى وبدائعه، أكثروا الخوض فى تشـريح أعضاء الحيوانات، فأخذهم ذلك إلى الظن بأن قوة الإنسـان العاقلة تابعة لمزاجه، وتبطل ببطلانه، وذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة والحشـر والنشـر والقيامة والحسـاب، ولم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب.. فلما ترك هؤلاء وأولاء إلـى الإلهيين، وراجع سقراط وأفلاطون وأرسـطاليس، ثم الإسلاميين كابن سـينا والفارابى وأمثالهما، وجد أن اللاحقين يتبرأون مما رآه السـابقون، ووجد علومهم قد جرت فى اتجاهات طفق الغزالى يراجعها ويعرضها، حتى خلص إلى مجمل رأيه فى الفلسفة التى حمل عليها حملة ترى تفاصيلها – إن أردت– فى كتابه الشـهير «تهافت الفلاسـفة»، والذى رد عليه ابن رشد فى «تهافت التهافت»..

ويبدو أن حملة الغزالى على الفلسفة والفلاسفة فى «المنقذ من الضلال» كانت مخافة التأثير على العقيدة التى أراد من رحلته الوصول إليها خالصة مصفّاة .

خرج الغزالى من الفلسفة إلى الصوفية ، وإلى عالم وكتب ومأثورات الحارث المحاسبى والجنيد والشبلى والبسطامى وغيرهم، ويعد هذا الفصل أجل ما فى كتاب «المنقذ من الضلال».. فيه أبان حقيقة التصوف الذى انتهى به إلى أعلى درجة فى هذا المضمار .

لن تشبع وأنت تتابع الغزالى فى رحلته الباحثة عن الإيمان اليقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر، وكيف استقر به المقام بعد بحث عميق وتأمل طويل إلى مرفأ الأمان، وكيف وجد سعادته فى التقوى وكف النفس عن الهوى ومجافاة الغرور، وكيف لم يعد يشغل نفسه إلاّ بالخلوة والرياضة والمجاهدة وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى .

وبعد، فليس فى وسعى أن أغنيك – فى هذه السطور – عن متابعة الغزالى فى رحلته الشيقة، المتأملة الممتعة، وهو يبحث عن الحقيقة، حتى اهتدى إلى شاطئ الأمن واليقين.

ooo

obeikandl.com

الجنة والنار عند المتصوفة

(١)

قال الجنيد، كنت نائما عند أبى الحسن سرى السقطى، فنبهنى وقال : يا جنيد رأيت كأنى قد وقفت بين يديه فقال لى يا سرى قد خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتى، فخلقت الدنيا فهرب منى تسعة أعشارهم وبقى معى العشر، وخلقت الجنة فهرب منى تسعة أعشار العشر وبقى معى عشر العشر، وخلقت النار فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر عشر عشر العشر، فقلت للباقين معى : لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم ولا من البلاء فررتم، فماذا تريدون؟ قالوا إنك سبحانك لتعلم ما نريد، فقلت لهم إنى أسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم به الجبال الرواسى - أتصبرون؟ قالوا : إذا كنت المبلى فافعل ما شئت.. قال: فهؤلاء عبادى..

(٢)

قيل لعبد الواحد بن زيد، هاهنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فَقَصَده فقال : حبيبى أخبرنى عنك فهل قنعت به؟ قال لا.. فقال : هل أنست به؟ قال لا.. فقال : هل رضيت عنه؟ قال لا.. قال فإنما أمرك منه الصلاة والصيام؟ قال نعم.. فقال : لولا أنى أستحى منك لأحدثك أن معاملتك له خمسين سنة مدخولة!

(٣)

وقال ابن عطاء الله السكندرى: «من عبده لشىء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة منه، فما قام بحق أوصافه»!

(٤)

عمل العاملين لأجل حصول الجزاء أو فرارا من عقوبة الولى مدخول معلول.. ليس من شأن الحاذقين المحققين، لأن قيام العبد بحق أوصاف مولاه يقتضى أن لا يعمل لأجل

خطه من جلب ثواب أو دفع عقاب.. لأن مولاه يستحق عليه كل شىء، ولا يستحق هو عليه شيئا.. وهذا من أعلى المحبة لله تعالى، لأن المحب مجتمع الهم بأمر محبوبه.. فعلى العبد أن يعمل لربه عز وجل لأجل جلاله وعظمته، فإن خالف هذا وعمل على طلب حظه، لم يقم بحق صفات مولاه. قال سهل بن عبدالله التسترى «ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض، إلاّ وهم جّهال بالله تعالى، إلاً من يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودنياه وآخرته».

(٥)

وقال أبو مدين : شتان بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور!

(٦)

وفيما نقل عن وهب بن منبه من الزبور : ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار. لو لم أخلق جنة ولا نارا – ألم أكن أهلا لأن أطاع؟!

(٧)

ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العبّاد احترقوا من العبادة، فقال : من أنتم؟ قالوا: نحن عباد الله. فقال : لأى شىء تعبدتم؟ قالوا : خوفنا الله من ناره فخفنا منها. قال: حق على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه. ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة منهم فقال لهم: لأى شىءٍ تعبدتم؟ قالوا : شوقنا الله إلى الجنان وما أعد فيها لأوليائه فنحن نرجوها. فقال : حق على الله أن يعطيكم مارجوتم. ثم جاوزهم ومر بآخرين يتعبدون فقال لهم : من أنتم؟ قالوا : المحبون لله.. لم نعبده خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته ولكن حُبًا له وتعظيما لجلاله. فقال : أنتم أولياء الله حقًا. معكم أُمرت أن أقيم. وفى لفظ آخر أنه قال للأولين : مخلوقا خفتم ومخلوقا أحببتم، وقال للآخرين أنتم المقربون.

(٨)

قال الشـيخ أبو طالب المكى وممن روى عنه هذا أقول وأقيم فى هذا المقام جماعة من التابعين بإحسـان منهم أبو حازم المدنى.. كان يقول: إنى لأسـتحى من ربى أن أعبده خوفا من العذاب فأكون مثل عبد السـوء، أنه إن لم يخف لم يعمل.. وأسـتحى أن أعبده لأجـل الثواب فأكون كالأجير السـوء، أنه إن لم يعط أجر عملـه لم يعمل.. ولكـن أعبده محبة له سبحانه..

(٩)

وقال بعض إخوان معروف الكرخى له : أخبرنا يا أبا محفوظ أى شـىء أهاجك علـى العبـادة والانقطاع عن الخلق.. فسـكت. قيل له : ذكرت الموت؟ فقال وأنى شـىء الموت. فقيل له : قد ذكرت القبر؟. قال : وأنى شـىء القبر. قيل له: خوف النار ورجاء الجنة؟ .

قال: وأنى شـىء هذا.. إن من ملك هذا كله إن أحببته أنسـاك جميع هذا، وإن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا.

(١٠)

قـال أبـو طالـب المكى : روينا عن رابعة العدويـة، وكانت إحدى المحبين وكان سفيان الثورى يجلس بين يديها ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة، وكانت تقول له : «نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا»، وكان يعترف لها ويسلم بقولها، وكان عالمـا زاهدا إلاَّ أنـه كان يؤثر الحديث والإقبال على الناس وهـى أبواب الدنيا. وقال لها الثورى : لكل عبد شريطة ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقالت : ما عبدت الله خوفا من النار فأكون كعبد السوء إن خاف عمل، ولا حبا فى الجنة فأكون كالأجير السوء إن أُعْطِىَ عمل، ولكن عبدته حباً له وشوقا إليه.

الباطن والظاهر عند المتصوفة

(١)

من حكم ابن عطاء الله السكندرى : ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول. وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا فى الوصول !

(٢)

وقيل : ينبغى للعبد ألاّ ينظر إلى صور الأشياء، ولينظر إلى حقائقها.. فصور الطاعات لا تقتضى وجود القبول، ووجود صورة الذنب لا تقتضى إلا الإبعاد والطرد!

وقيل : رُبّ ذنبٍ أدخل صاحبه الجنة.

ذلك أن من عمل بالطاعة يعجب بها ويعتمد عليها وقد يتكبر بفعلها ويستصغر من لم يفعلها، وهو عند وقوعه فى الذنب يصحبه اللجوء إلى الله تعالى والاعتذار إليه واستصغار نفسه وتعظيم من لم يقع فى مثل ذنبه .

(٣)

وقال أبوحازم : إن العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها وما خلق الله من سيئةٍ أضرّ له منها، وإن العبد ليعمل الحسنة تسوؤه وما خلق الله من حسنةٍ أنفع له منها.

وقال ابن عطاء الله السكندرى: «معصية أورثت ذلاًّ وافتقارا - خيرٌ من طاعة أورثت عزّا واستكبارًا»!

وقال أبو مدين: «انكسار العاصى - خيرٌ من صولة المطيع»!

وكان أبو العباس المرسى كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة، وكان تبرمه من الناس على قدر ريبتهم عند الله، حتى إنه ربما دخل عليه المطيع فلا يعبأ، وربما دخل عليه عاصٍ فأكرمه. لأن ذلك الطائع متكبر بعمله ناظر لفعله، وذلك العاصى دخل عليه بكثرة معاصيه وذل مخالفته!

(٤)

قال الحارث المحاسبى : إنما أراد الله من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعا لقلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف، وتواضع الجاهل أو العاصى وذَلَّ هيبةً، فهو أطوع لله من العابد أو العالم.

قـال أبوطالـب المكى : ومن أفضل ما غذانا به الله نعمة الإيمـان. فلو قلب قلوبنا عن التوحيـد كمـا يقلب جوارحنا فـى الذنوب، ولو قلب قلوبنا فى الشـك والضلال ما يقلب نياتنا فى الأعمال، فأى شىءٍ كنا نصنع، وعلى أى شىءٍ كنا نعول، وبأى شىءٍ كنا نطمئن ونرجـو؟! فالعبد مضطر إلى الله أبـدا، ولا يزايل العبد هذا الاضطرار لا فى الدنيا ولا فى الآخـرة، ولـو دخل الجنة فهو محتاج إلى الله فيها. وهذا هو حكم الحقائق، إذ لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.. فالعلم صفته الكشف، أى علم كان فى أى وقت كان، والإرادة صفتها التخصيص، أى إرادة كانت فى أى وقت كان، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره، ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم – سلط الحق الأسباب المثيرة للاضطرار ليُعْرف قهر ربوبيته وعظمة إلهيته.

(٥)

كتب يوسف بن الحسين الرازى إلى الجنيد : لا أذاقك الله طعم نفسك، فإنك إن ذقتها لاتذوق بعدها خيرا أبدا!.

(٦)

وقال الشيخ أبوعلى الدقاق «من سكتت عنه هواجس نفسه بصدق مجاهدته، نطق بيان قلبه بحكم مجاهدته». وقال: «من زين ظاهره بالمجاهدة، حَسَّن الله سرائره بالمشاهدة».

(٧)

قال الواسـطى: اسـتحلاء الطاعات سموم قاتلة، وقال ابن عطاء الله فى «لطائف المنن»: صدق الواسـطى، فأقل ما فى ذلك أنه إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائما فيها متطلبا

لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص فى سهو منك، وقد تحب دوامها لا قياما بالوفاء ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة، فتكون فى الظاهر قائما لله، وفى الباطن إنما قمت لحظ نفسك، ويُخْشى أن تكون حلاوة الطاعة جزاء التعجل فى الدنيا فتأتى يوم القيامة ولا جزاء لك .

المطلوب من العبد إقامة الأمر فى الظاهر والتعلق بالله فى الباطن، والاستغناء به عن غيره، فإذا رزق العبد هذين الأمرين فقد أسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة .

(٨)

قال أبويزيد البسطامى: اطلع الله على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة.

وقال أبوالعباس الدينورى: إن لله عبادا لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته، وله عباد لم يستصلحهم لخدمته فأهلهم لمعرفته.

وقال ابن عطاء الله السكندرى : قوم أقامهم الحق لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (الإسراء: ٢٠).

(٩)

قال ابن عطاء الله السكندرى: قطع السائرين له الواصلين إليه، عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم. أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله، وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها».

وقال: «السائلون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق والبراءة فى الدعوى، فهم أبدا متهمون لأنفسهم فى توفية أعمالهم وتصفية أحوالهم. والواصلون قطعهم شهودهم له فى حضرة قربه.. ومن شاهده لم يشهد معه غيره، إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه!

(١٠)

وقال ابن عطاء الله : «أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك».

وقال: «ما حجبك عن الله وجود موجود معه، ولكن حجبك عنه توهم موجودٍ معه»..

وقال : «لولا ظهوره في المكونات، ما وقع عليه وجـود أبصار، ولو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته»..

وقال: «أظهر كل شيءٍ لأنه الباطن، وطوى كل شيءٍ لأنه الظاهر».

فاسـم الظاهر يقتضي بطون كل شـيءٍ حتى لا ظاهر معه فينطوى حينئذ وجود كل شيء، واسـم الباطن يقتضي ظهور كل شـيء حتى لا باطن معه فيظهر إذ ذاك وجود كل شيء بالحق تعالى الموجود بكل اعتبار.

وقال «الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته».

ooo

obeikandl.com

الإرادة الحقيقية والمجازية عند المتصوفة

(١)

التحقيق أن من تمحضت إرادته لعبودية الله بمراعاة حقوقه لأجل ما وجب عليه من ذلك ليتوصل به إلى نيل حظها هو الذى يسمى مريدا.. فلم يتسم بذلك إلا لأنه يتصف بالإرادة الحقيقية المتعلقة بأشرف المطالب، وقد سُمى مريدا لأجل ما سلب عنه من الإرادة المجازية المتعلقة بحظوظه.

وبهذا يتبين لك صحة كلام أبى يزيد البسطامى حيث قيل له ما تريد؟ فقال أريد أن لا أريد.

قال فى التنوير : أراد أبو يزيد أن لا يريد.. لأن الله تعالى اختار له وللعباد أجمع عدم الإرادة معه.. فهو فى إرادته أن لا يريد موافق لإرادة الله جل وعلا.

فأنت مطالب أن تخرج عن تدبيرك لنفسك واختيارك لها.

والحديث القدسى: «فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها» فيه إشارة إلى أنه عند ذلك ليس للعبد إرادة ولا اختيار.. إلاّ ما اختاره له مولاه وأراده.

قال ابن عطاء الله السكندرى: «أنت إلى حلمه إذا أطعته، أحوج منك إلى حلمه إن عصيته».

(٢)

قال الحارث المحاسبى : «إنما أراد الله من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعا لقلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف، وتواضع الجاهل أو القاضى وذلّ هيبة لله، فإن من ذلّ هيبة لربه أطوع لله من العابد أو العالم الذى تكبّر وأنف».

قال أبو طالب المكى ومن أفضل ما أعطانا الله نعمة الإيمان.. فلو قلّب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب

نياتنا فى الأعمال.. فأى شىء كنا نصنع، وعلى أى شىء كنا نعوّل، وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو؟

فالعبد مضطر إلى الله أبدا.. ولا يزايل العبد هذا الاضطرار.. لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.. ولو دخل الجنة فهو محتاج إلى الله فيها.

وهذا هو حكم الحقائق.. إذ لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة.. لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.. فالعلم صفة الكشف، أى علم كان فى أى وقت كان.. والإرادة صفتها التخصيص، أى إرادة كانت فى أى وقت كان.. ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره.

ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم، سلط الحق الأسباب المثيرة للاضطرار ليعرف (العبد) قهر ربوبيته وعظمة إلهيته.

(٣)

المطلوب من العبد شيئان : إقامة الأمر فى الظاهر والتعلق بالله فى الباطن وهو الاستغناء عن غيره.. فإذا رزق الله العبد هذين الأمرين فقد أسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة.

(٤)

قال أبو عمرو إسماعيل بن نجيد: لا يصفو لأحد قدم فى العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء وأحواله كلها عنده دعاوى.

وقال أبو يزيد البسطامى: لو صفت لى تهليلة واحدة ما باليت بعدها بشىء.

وإلى هذين تشير الحكاية التى تروى عن الواسطى.. وذلك أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم، فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال : أمركم بالمجوسية المحضة. هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها. قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى إنما أراد الواسطى بهذا

صيانتهم عن محل الإعجاب لا تعريجا على أوطان التقصير أو تجويزا للإخلال بأدب من الآداب.

(٥)

الــوارد عبارة عمــا يرد على القلب من المعارف الربانيــة واللطائف الروحانية، ليطهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه والدخول إلى حضرته.. لأن الحضرة منزهة عن كل قلب متكدر بالآثار متلوث بأقذار الأغيار .

قال ابن عطاء الله الســكندرى : «أورد عليك الوارد ليتســلمك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار .. لأن الآثار والأغيار غاصبة ومسترقة لك، وذلك لوجود حبك لها وسكونك إليها واعتمادك عليها»!.

وقال أيضا: «أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك».

(٦)

قال ابن عطاء الله السكندرى: «الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته»

«الأكــوان من ذاتها العــدم المحض.. حصل لها وصف الثبوت بإثبات الله لها وجعلها أكوانا، فالثبوت لها أمر عرضى، والحق اللازم هو أحدية الله عزّ وجلّ، والأحدية مبالغة فــى الوحــدة لا تتحقق إلا إذا كانــت الوحدة بحيث لا يكون أكمل ولا أشــد منها.. فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان».

ooo

إصرار أم : إن ضمهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلىَّ جاعوا!

كنت مشغولا فى الأيام الخوالى، من نحو أكثر من أربعين عاما، بالتنقيب فيما أقرأه فى الإسلام، عن المواقف الإسلامية التى أقدمها على موجات صوت العرب، ضمن كوكبة تبارت فى ذلك الزمان فى تقديم الإسلام إلى الناس بقيمه النبيلة، كدين حى لأحياء ولإصلاح الحياة، حين وقعت على موقف للفاروق عمر بن الخطاب، وكم له من مواقف ثرية معطاءة.. تصورته، وأنا أسترجع الموقف، كيف كان يمشى بالمدينة وهو أمير المؤمنين فى تواضع ومهابة يتفقد أحوال الرعية، ويجعل نفسه فى خدمتها بضمير نادر وإحساس مرهف لم يحجبه عن الناس شدته المعروفة فى الحق.. تمثلته وكأننى أراه وهو فى نفر من الصحابة تستوقفه امرأة عجوز أفلت منها الشباب وما بعد الشباب، وشاخت وهرمت، لا يوحى منظرها بشئ يمكن أن يعطيها ما أعطاه لها أمير المؤمنين.. استوقفته فوقف، وأطالت فى استيقافها إياه فما تململ ولا تعجلها، وأخذت تعظه فلم يضق ولا استثقل عظتها.. تقول له وهو منصت بكل حواسه باهتمام بالغ : «يا عمر، لقد كنت تُدعى عُمَيرا، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين.. فاتق الله يا عمر.. فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن الحساب خاف العذاب»!.. يومها قال الفاروق لمن دهشوا وتعجبوا من طول وقوفه لها وصبره على عظتها: «والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لا زلت إلاَّ للصلاة المكتوبة!.. أتدرون من هذه السيدة؟! إنها خولة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سموات!.. أيسمع الله قولها ولا يسمعه عمر؟!»

يومها انتقيت هذا المشهد المبهر لأقدمه فيما كنت أقدمه من مواقف ومشاهد إسلامية، شغلنى أمر الفاروق وعظمة الفاروق عن أمر المرأة، مع أننى علمت مما قرأت أنها بطلة قصة أولى آيات سورة المجادلة، وتقرأ بفتح الدال نسبة إلى فعل المجادلة، وبكسر الدال –وهذا أظهر– نسبة إلى شخص المجادلة، لم أكن جديدا على قراءة سورة المجادلة وعلى

ما جاءت به فى شـأن الظهار وكفارته، فقد درسـنا الظهار وحكمه ضمن دراسـتنا بكلية الحقوق لأحكام الزواج والطلاق على أسـتاذنا الشـيخ الجليل محمد أبو زهرة، فشغلتنا عن المشـهد ومناسبة التنزيل - أحكام الظهار، والإلمام بقواعده وقواعد كفارته، وما يدور حول هذا وذاك من حكمةٍ مصفاه، ولكنى عدت بعد سـنوات طوال إلى مشـهـد مناسـبة نزول أول سـورة المجادلة ضمن المطول الذى أكتبه عن «السـيرة النبوية فى رحاب التنزيل» فوجدت المشهد يدلّ بمعانٍ عديدة شغلنى عنها الفاروق مرة، وشغلتنى عنها أحكام الظهار مرة، فعدت أضع الموقف أمامى، وأستقطره وأصفيه وأستخلص رحيقه وعبرته فإذ به يشع بمعانٍ أكبر كنت خليقا أن أتوقف عندها لأرى صورة مثلى لإصرار سـيدة بسـيطة لا علم ولا علام لها، على عرض مشكلتها والإلحاح والصبر فى عرضها، وتكرار العرض والإصرار على بث شـجونها دون أن تيأس أو ينفد لها صبر، ولأرى صورة نبى القرآن عليه السـلام ينصـت فلا يضيق، ويعاود الإنصات فلا يشـيح ولا يتكبر، ولا يجد غضاضة فى أن يقول للسـائلة الملحة إنه لا حل لديه لمشـكلتها.. فقد قال لها زوجها الشيخ، أبو أولادها، أنت على كظهر أمى، وكان الظهار فى تلك الأيام لا يزال معدودا من الطلاق منذ أيام الجاهلية، والسيدة تلح وتحاور وتجادل حفاظا على أولادها، ونبى القرآن لا يضيق بالحوار، وتناقش وتعود للنقاش والجدل، فلا يرى عليه السلام فى ذلك بأسا ولاتجاوزا، ولا يقابله بالصد، ولا بالعزوف، ولا بالإشاحة أوالإعراض، ولا يزيد عن أن يقول للسيدة المتلهفة على صيانة زواجها وحياة أولادها : ما عندى لك شىء!!

ooo

كانت خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت، وقد شـاخ وسـاء طبعه عما كان عليه من سـوء منذ أيام الشباب، وهى ابنة عمه، درجت على احتماله، ولكنه جاوز القصد فى يوم شـؤم فقال لها فـى اندفاعةٍ جامحة : أنت على كظهر أمـى.. امتنعت عليه بعدها، وصممـتْ على امتناعها مقاومة مطاردته والحاحه، فلما زاد ظلت على إبائها إلاّ أن يحكم رسـول الله ﷺ بينهمـا.. ذهبت إليه مسـتأذنة، لتجلس بين يديه، تروى مشـكلتها،

وتتلمس لدى نبى المرحمة حلاً يحفظ لها بيتها وفلذاتها.. جعلت فى البداية تشكو إلى الرسول سوء طبع زوجها، فراجعها عليه السلام ناصحا :

النبى : يا خولة، ابن عمك شيخ كبير، فاتق الله فيه!

خولة : يا رسول الله، أكل شبابى، ونثرت له بطنى، حتى إذا كبر سنى، وانقطع ولدى، ظاهر منى.. فهل « ظهار» الجاهلية لا يزال طلاقا فى الإسلام.. اللهم إنى أشكو إليك!!

النبى : (آسفا) لقد حَرُمْتِ عليه!!

خولة : يا رسول الله إن لى منه أولادا.. ووالله ما ذَكَرَ طَلاَقاً!!

النبى : لقد حَرُمْتِ عليه!!

خولة : (فى إصرار) أشكو إليك فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى وابن عمى، وقد نفضت له بطنى..

النبى : لقد حَرُمْتِ عليه!!

خولة : (مجادلة فى تصميم) يا رسول الله، قد نسخ الله سنن الجاهلية، وإن زوجى ظاهر منى..

النبى : ما أوحى إلىَّ شيء فى هذا..

خولة : يا رسول الله، أيوحى إليك فى كل شيء، ويطوى عنك هذا؟!!

النبى : (آسيا) هو ما قلت لك!!

خولة : وأولادنا يا رسول الله، إنْ ضمهم إليه ضاعوا، وإنْ ضممتهم إلىَّ جاعوا!!!

النبى : (آسيا) هو ما قلت لك.. ما أوحى إلىَّ شيء فى هذا..

خولة : إذن، إلى الله أشكو لا إلى رسوله..

ما برحت خولة بنت ثعلبة على جدالها وإلحاحها فى طلب حل تحتفظ به ببيتها وأولادها، حتى فوجئ النبى عليه السلام بأنه تغشاه ما كان يتغشاه حين يتنزل عليه الوحى، وتلقى عن جبريل عليه السلام قول الله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ (المجادلة ١).. تتابعت السورة التى نزل بها الوحى تسن أحكام الظهار، وتفرض له كفارة – من قبل أن يتماسا – تحرير رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينا، وإذ بادر النبى ﷺ فبشرها بما أنزل الله تعالى، جعلت تشكو إليه أن زوجها لا يملك رقبة يعتقها، ثم هو شيخ كبير لا يطيق الصيام، وليس عنده ما يطعم به ستين مسكينا، فقال لها نبى الرحمة: النبى : سأعينه بعرق من تمر

خولة: وأنا سأعينه بعرق آخر

النبى : أصبت وأحسنت، فاذهبى فتصدقى به عنه، ثم استوصى بابن عمك خيرا وأحسنى صحبته..

ooo

هذه الزوجة، الأم، حملت قضيتها وناضلت من أجلها، لم تفقد الأمل فى أن تجد حلاً يحفظ لها بيتها ويصون أولادها من الضياع إن ذهبوا مع أبيهم أو من الجوع إن بقوا معها، ويصون عمارة حياة الأسرة، ثم هى وهى تحمل قضيتها فى جلد وتصميم، لم يقابلها الإسلام ولا رسول الإسلام ﷺ بالصد، ولم يكتم حقها فى أن تقول وتقول، وفى أن تناقش وتحاور وتجادل، وهذا مَثَلُ حىّ نابض، مصدره السنة المحمدية.. قاطع فى أن باحة الإسلام تتسع للحوار، وتعطى من الحرية ما أتاح لهذه السيدة أن تلح على الرسول عليه السلام هذا الإلحاح، وأن تجادله هذا الجدل دون أن ينهرها أو يصدها أو يضيق بها!

ما يشع به هذا الموقف، صورة حقيقية ناطقة تدعو للتأمل فى الأسلوب الذى نتعاطى به الدين، مهتمين بالترديد الببغائى دون فهم كافٍ ولا غوص للمعانى واستخلاص للعبر.. الدين قريب قريب لمن يقبل عليه بفهم مستعملا عقله مستبعدا التعصب الضرير.. هنالك سوف يرى فى كل سطر كنوزا من التفتح والمعانى المعطاءة التى تضىء للإنسان حياته، وتجعل من الحياة معنى كليا شاملا جديرا بأن يُحيا على وئام لا تنافر فيه بين العقل والدين، ولا بين الفهم والشرع، فقد فتح الدين فى باحته مساحة هائلة للعقل حتى عد التفكير فريضة إسلامية!.

كتب وإصدارات المؤلف

(١) أوراق – المركـز المصرى للأبحاث والإعـلام – ط ١٩٩٧.
(٢) من هدى النبوة وفى مدرسة الرسول – المركز المصرى للأبحاث والإعلام – ط ١٩٩٧.
(٣) من هدى القرآن وذلك الكتاب لاريب فيه – المركز المصرى للأبحاث والإعلام – ط ١٩٩٨.
(٤) بشاير – المركـز المصرى للأبحاث والإعلام – ط ٢٠٠٠.
(٥) باسمك اللهم – المركز المصرى للأبحاث والإعلام – ط ٢٠٠٠.
(٦) بسم الله – المركز المصرى للأبحاث والإعلام – ط ٢٠٠٠.
(٧) نواب القروض – المركز المصرى للأبحاث والإعلام – ط ٢٠٠١.
(٨) يارب – المركز المصرى للأبحاث والإعلام – ط ٢٠٠١.
(٩) قضية النقابيين – المركز المصرى للأبحاث والإعلام – ط ٢٠٠١.
(١٠) أبو ذر الغفارى – ط١روز اليوسف ـ ٢٠٠٢، ط٢ مزيدة ومنقحة هيئة الكتاب ٢٠٠٥.
(١١) قضية الجمارك الكبرى – المركز المصرى للأبحاث والإعلام – ط ٢٠٠٢.
(١٢) مواقف ومشاهد إسلامية – دار الهلال – ط ٢٠٠٢.
(١٣) ماذا أقول لكم – دار الشروق – ط أولى ٢٠٠٣.
(١٤) عالمية الإسلام – مركز الأهرام للترجمة والنشر – ط ١، ط ٢ – ٢٠٠٣.
(١٥) إبحار فى هموم الوطن والحياة – دار الشروق – ط ٢٠٠٤.
(١٦) الإنسان العاقل وزاده الخيال – دار الشروق – ط ٢٠٠٤.
(١٧) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل – المجلد الأول – روز اليوسف – ط ٢٠٠٣.
(١٨) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل – المجلد الثانى – روز اليوسف – ط ٢٠٠٣.
(١٩) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل – المجلد الثالث – روز اليوسف – ط ٢٠٠٤.
(٢٠) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل – المجلد الرابع – روز اليوسف – ط ٢٠٠٥.
(٢١) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل – المجلد الخامس – المكتب المصرى الحديث – ط ٢٠٠٦.
(٢٢) الإنسان والكون والحياة – كتاب الهلال – أكتوبر ٢٠٠٥.

www.alkottob.com

(٢٣) تأملات غائرة – دار الشروق – ط ٢٠٠٦.
(٢٤) الأديان والزمن والناس – كتاب الهلال – سبتمبر ٢٠٠٦
(٢٥) شجون وطنية – المكتب المصرى الحديث – ٢٠٠٦ .
(٢٦) الهجرة إلى الوطن – كتاب الهلال – نوفمبر ٢٠٠٧.
(٢٧) رسالة المحاماة – دار الشروق – سبتمبر ٢٠٠٨.
(٢٨) فى الوحدة والجماعة الوطنية – المكتب المصرى الحديث – ط١سبتمبر ٢٠٠٨، ط٢ يناير ٢٠١٢
(٢٩) فى رياض الفكر – كتاب الهلال ٢٠٠٨.
(٣٠) بين شجون الوطن وعطر الأحباب – المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨.
(٣١) من تراب الطريق – الكتاب الأول – المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨.
(٣٢) من حصاد المحاماة – المجلد الأول – المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٣٣) من حصاد المحاماة – المجلد الثانى – المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٣٤) من حصاد المحاماة – المجلد الثالث – المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٣٥) من حصاد المحاماة – المجلد الرابع – المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٣٦) من حصاد المحاماة – المجلد الخامس – المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٣٧) من حصاد المحاماة – المجلد السادس – المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٣٨) من حصاد المحاماة – المجلد السابع – المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٣٩) من حصاد المحاماة – المجلد الثامن – المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٤٠) من حصاد المحاماة – المجلد التاسع – المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٤١) من حصاد المحاماة – المجلد العاشر – المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٤٢) من حصاد المحاماة – المجلد الحادى عشر– المكتب المصرى الحديث. ٢٠١٠
(٤٣) من حصاد المحاماة – المجلد الثانى عشر – المكتب المصرى الحديث. ٢٠١٠
(٤٤) من حصاد المحاماة – المجلد الثالث عشر – المكتب المصرى الحديث. ٢٠١١
(٤٥) من حصاد المحاماة – المجلد الرابع عشر – المكتب المصرى الحديث. ٢٠١١
(٤٦) من حصاد المحاماة – المجلد الخامس عشر – المكتب المصرى الحديث. تحت الطبع

(٤٧) دولة الأيام! – كتاب الهلال أول يونيو ٢٠٠٩

(٤٨) قد تكون الديانة تجسيدا للعقل . ترجمة وعرض عن كتاب حياة العقل للفيلسوف جورج سانتايانا – كتاب الهلال – نوفمبر ٢٠٠٩

(٤٩) الأمن والأمان : قراءة فى الأمن المجتمعى فى الإسلام – المكتب المصرى الحديث – ٢٠٠٩

(٥٠) من تراب الطريق – الكتاب الثانى – المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩

(٥١) من تراب الطريق – الكتاب الثالث – المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠

(٥٢) من تراب الطريق – الكتاب الرابع – المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠

(٥٣) من تراب الطريق – الكتاب الخامس – المكتب المصرى الحديث ٢٠١٢

(٥٤) فى دروب الفكر والحياة. مطبوعات الهلال – نوفمبر ٢٠١٠

(٥٥) من همس المناجاة وحديث الخاطر (١). المكتب المصرى الحديث ـ نوفمبر ٢٠١٠

(٥٦) من همس المناجاة وحديث الخاطر (٢). المكتب المصرى الحديث ـ مايو ٢٠١٢

(٥٧) الواقع أو الحقيقة – ترجمة عن كتاب طبيعة العالم المادى – للسير آرثر إدينجتون ومقالات أخرى للمترجم ـ كتاب الهلال – ديسمبر ٢٠١٠ .

(٥٨) من وحى الحج ـ سلسلة دراسات اسلامية ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – يناير ٢٠١١

(٥٩) فى صحبة محمد عبد الله محمد.المكتب المصرى الحديث ٢٠١١

(٦٠) كتابات غربية. كتاب الهلال – أغسطس ٢٠١١

(٦١) عبقرية إنكار الذات – أبو عبيدة بن الجراح – تحت الطبع

obeikandl.com

الفهـــــرس

الموضـوع	رقم الصفحة
القرآن الحكيم. حجة الإسلام	٥
معجزة القرآن	٢٠
قراءة القرآن	٢٢
تمهيد فى منشأ فكرة التوحيد والوحدانية	٢٤
العقيدة الإلهية فى الإسلام	٣٢
النبوة الإسلامية	٥٢
بين الإلهام والوحى	٦٨
معاضدة السنة للقرآن	٧٦
السنة النبوية والشريعة الإسلامية	٨٤
الإجماع المهجور	٩٦
دليل العقل إلى قيم الـتراث	١٠٣
دوحة الإسلام	١١٠
عمود الإسلام	١٢٠
شجرة المساواة وحقوق الإنسان فى الإسلام	١٢٥
السماحة وعالمية الإسلام	١٣٦
عاش الإسلام	١٤٤
طبائع الناس، وقيم العدل فى الإسلام	١٥٠
هل الإســلام كفيـل بسياســة العـدل	١٥٥
الإسلام دين حياة لايحتقر الحياة ولا يزدريها	١٥٨

هــل نتطامن إلى الخالق عز وجــل ونفهــم الحيــاة؟ ١٦٣
العاجلة والآجلــة؟! ١٦٨
إلام تقودنا الأطمــاع؟! ١٧١
التديــن بين الصلاة الخاشــعة والظاهــرة الاجتماعيــة ١٧٥
الإيمان بين الهدايــة والتصلــب ١٨١
الإســلام وشــعار مغلــوط! ١٨٦
قدســية الروح والأمــن المجتمعــى فــى الإســلام ١٨٨
الإسلام وشــخصية المســئولية ٢٠٣
ليس من الإسلام قتل النفس بغير حق! ٢١١
وكلهــم آتيــه يــوم القيامــة فــردا ٢١٦
الوســطيةوأثرها فى تكوين الشــخصية الإســلامية وكفالة الأمــن المجتمعــى ٢١٨
الإنسان فى القرآن الكريم ٢٢٢
نظرية داروين؟!! ٢٣١
الإيمان والواقع ٢٣٤
بــين التديــن والتصنــع! ٢٣٧
ولذكر الله أكبر ٢٣٩
ربــاط الإســلام ٢٤٥
عناية الإســلام بضبــط الســلوك الإنســانى ٢٤٧
بنــاء ورعايــة الفــرد فــى الإســلام ٢٥١
الإيثــار وإنــكار الــذات ٢٥٧
كيف حقق الإســلام هذه الصــورة الرائعــة للإيثــار! ٢٦٢
التكافــل وتماســك المجتمــع الإســلامى ٢٦٦

الديـن محبـة ٢٧١
الالتفات بالديـن لهـدم الديـن؟! ٢٧٤
الولايـة بـين أمانـة الأداء وأمانـة الاختيـار ٢٨٠
الشـهادة واجـب لا وظيفـة! ٢٨٢
الإسـلام وحمـلات الإسـاءة! ٢٨٧
نحـن والإسـلام وعيـون الآخريـن! ٢٩٩
مـن أيـن جـاء التعصـب؟! ٣٠٢
هل صار العـدو هـو الإسـلام؟! ٣٠٥
الإسـلام فـى كتابـات منصفـة ٣٠٧
اعتـذار بابـا الفاتيـكان! ٣١٦
الإسـلام ديـن الإنسـانية ٣١٨
التنويـر الآتـى مـن الشـرق! ٣٢٠
بـل نـور الهدايـة وسـلامة اليقـين ٣٢٢
الدقـة والإتقان مهجـة العمـل فـى الإسـلام ٣٢٨
الفتـوى فـى الإسـلام ٣٣٢
الفديـة فـى الإسـلام ٣٤٠
النقـاب والحيـاة! ٣٤٣
النقـاب والديـن! ٣٤٥
النقاب مـن تانـى؟! ٣٤٧
مسـألة النقاب بين حكم الشـرع والقانـون وضوابط الحـوار وآدابـه! ٣٤٩
لغـات البشـر عـبر العصـور ٣٥٦
آدم وأولاده! ٣٥٩
صيـام رمضـان فريضـة وغايـة ٣٦١

لماذا يصوم الفقير؟! ٣٧١
حمل المغتصبة ٣٧٥
الدين والجنسية ٣٧٧
من عطر السنة فى مولد الهدى ٣٨١
إن مع العسر يسرا! ٣٨٥
المنقذ من الضلال! ٣٨٧
الجنة والنار عند المتصوفة ٣٩٠
الباطن والظاهر عند المتصوفة ٣٩٣
الإرادة الحقيقية والمجازية عند المتصوفة ٣٩٧
إصرار أم "إن ضممهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلىَّ جاعوا!" ٤٠٠
كتب وإصدارات المؤلف ٤٠٥
الفهرس : ٤٠٩

رقم الإيداع	٢٠١٢ / ١٣٩٤٦
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7650-1

١ /٢٠١٢ /٢٢

طبع بمطابع دار المعارف

obeikandl.com